المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

إبداعات عالمية

أغسطس 2021

437

السر المكنون

رواية

تأليف: سبستيان باري

ترجمة: د. طيبة صادق

مراجعة: د.محمد غنوم

توضيح

نحيط عناية القراء الكرام علما بأن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب سيستأنف نشر وتوزيع إصداراته الدورية بداية من شهر يوليو 2021، بعد توقفها قسرا منذ شهر أبريل 2020، بسبب جائحة كورونا (كوفيد 19)، تلك الجائحة التي كانت سببا في توقف طباعة هذه الإصدارات وعدم وصولها إلى القراء الكرام، لأسباب كثيرة، منها صعوبة حركة النقل والسفر بين دول العالم... وتفضلوا بقبول كل التقدير.

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

إبداعات عالمية

تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:

كامل سليمان العبدالجليل

مستشار التحرير:

أ. وليد جاسم الرجيب

هيئة التحرير:

أ. د. سليمان علي الشطي

أ. د. عيسى محمد الأنصاري

د. زبيدة علي أشكناني

د. ليلى عثمان فضل

د. علي عجيل العنزي

د. عبير البالول

د. سعاد عبدالله العنزي

أ. مظفر عبدالله راشد

مدير التحرير: محمد هشام المغربي

التنضيد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

www.nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@nccal.gov.kw

ebdaat_alamiya@gmail.com

ISBN: 978-99906-0-677-5

السر المكنون

رواية

The Secret Scripture

By: Sebastian Barry

Copyright© Sebastian Barry- 2008

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2020م

إبداعات عالمية - العدد 437

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1923 - 1990)

الفصل الأول
شهادة روزان عن نفسها

(المستشفى الإقليمي للأمراض العقلية 1957)

كان والـدي يقـول إن العـالم يبـدأ مـن جديـد مـع كل ولادة، لكنـه نـسي أن يقـول إن الحيـاة تنتهـي مـع كل مـوت، ربمـا لا حاجـة بـه لقـول هـذا، لأنـه ظـل يقـضي حياتـه في المقـبرة حيـث يعمـل.

* * * *

المـكان الـذي ولـدت فيـه عبـارة عـن بلـدة بـاردة إلى درجـة أن الجبـال كانـت تقـف بمنـأى عنهـا، ولم تكـن تعـرف تلـك الجبـال عنهـا شـيئا أكـثر مـن أنهـا بقعـة داكنـة فحسـب.

ثمـة نهـر يجـري عـبر تلـك البلـدة، لم يكـن بـه رحمـة لأيٍ مـن الكائنـاتٍ سـوى طيـور البجـع التـي كانـت تلجـأ إليـه بـأسراب كثيرة، فيبـدو كأن فيضانـا قـد أصابـه.

كان هـذا النهـر يحمـل القمامـة ويلقيهـا في البحـر، إضافـة إلى بقايـا أجـزاءٍ أخـرى كانـت يومـا مـا لأنـاسٍ مـع بقايـا نفايـات قـد تركهـا النـاس عـلى الضفـاف، وفي أحيـانٍ نـادرة يجـرف أيضـا جثثـا، وأطفـالا مسـاكين كانـوا يسـببون إربـاكات في ذلـك الزمـن الغريـب. إن سرعـة

النهر وعمقه كان لهما أهمية قصوى لإخفاء الأسرار.

نعم، هذه بلدة سليغو.

لقد جعلتني سليغو ما أنا عليه الآن، مثلما سلبتني من نفسي كذلك. كان علي أن أتخلى عن تلك البلدة وأناسها سريعا وقبل أن أتشكل على ما أنا عليه الآن وأن آخذ زمام أموري بنفسي. إن الفزع والألم في قصتي هما نتيجة ظني بأن الآخرين هم الذين يخططون مصيري. لم أكن أعلم أن الإنسان يستطيع أن يتمسك بجدار من الطوب الوهمي لمحاربة الرعب ومكائد الزمن الخبيثة التي تهاجمنا، ثم يبدأ بعد ذلك في تشكيل ذاته.

أنا لست هناك الآن، إنني الآن في روسكومن. مكان قديم، كان يوما ما قصرا، لكنه الآن مطليٌّ باللون الأصفر الشاحب ويحتوي على عددٍ من الأسرّة الحديدية، وعلى أبوابه أقفال. أصبح هذا المكان مملكة لدكتور غرين. دكتور غرين رجلٌ لا أفهمه لكنني لا أهابه، ولا علم لي على أي ديانةٍ هو، لكنه يشبه القديس توماس بلحيته وصلعته.

أنا وحيدة هنا تماما، ولا أحد في العالم يعرفني خارج هذا المكان، كل أقاربي، والأشياء القليلة التي كانوا يمتلكونها، ووالدتي التي تشبه عصفورة صغيرة، كلهم رحلوا. ورحل كذلك كل الذين اضطهدوني، والسبب أنني أصبحت عجوزا تناهز المئة عام على ما أعتقد، لست أدري تماما، ولا أحد يدري عن عمري أيضا. أنا بقايا شيء مهمل، أطلال امرأة، أنا لا أبدو كإنسان، بل بقايا من الجلد والعظام في تنورة قاتمة اللون وبلوزة، وسترة من الكتان، أجلس في ركني مثل طائر حناءٍ لا يقوى على الغناء، لا بل كفأرٍ مات تحت الموقد حين كان الموقد دافئا يوما ما، ويستلقي الآن مثل مومياء في الأهرامات.

بيد أن كل ما يتعلق بالأمور الإنسانية ضيقٌ وضئيل.

الصمت يخيم حولي، لكن يدي مازالت جيدة، ولدي مداد ومحبرة ممتلئة بالحبر الأزرق، أعطاني إياها صديقي الطبيب حين قلت له إنني أحب هذا اللون، الحقيقة أنه لم يكن رجلا سيئا، ربما أيضا قد يكون فيلسوفا. لدي رزمة من الأوراق وجدتها في الخزانة الموجودة في المخزن بين أشياء أخرى لا حاجة لأصحابها بها، وكان لدي مخبأ أرضي أضع فيه مقتنياتي الثمينة هذه. أكتب قصة حياتي على تلك الأوراق الفائضة. أبتدئ بورقة نظيفة؛ استخدمت أوراقا نظيفة لأني أردتُ أن أترك سجلا عن تاريخي بكل أمانة ودقة، وإن منحني الله القوة فسأظل أسرد تلك القصة ثم أدفنها في الخزانة الأرضية، وبعد هذا أستريح بسعادة تحت سقف روسكومن، حيث مخبئي.

****

كان والدي أطهر رجل في العالم النصراني كله، في كل سليغو على أي حال. كان كثير الاهتمام بزيه، بعيدا عن العشوائية، بل منتظما كسجل الحسابات. كان يعمل مشرفا على المقبرة، ولهذا أعطوه زيا براقا، أو ربما بدا لي كذلك إذ كنت طفلة صغيرة آنذاك.

كان لديه برميل يجمع فيه مياه الأمطار ويغتسل منه يوميا طوال السنة. كان يدير وجه أمي ووجهي نحو حائط المطبخ لكي لا نراه وهو يتجرد من جميع ملابسه وهو لا يشك بأننا نراه من خلال النباتات والشجيرات في فناء المنزل، ويقوم بالاغتسال دون اكتراث لقسوة الطقس، لكنه يتأوه كثورٍ فحل.

كان لدى أبي صابون الكاربوليك القادر على تنظيف أرضية دهنية، كانت رغوة الصابون تلفه وكأنه قد ارتدى طبقة من الرغوة الكثيفة، ومن ثم يكشط جسمه بقطعة من حجرٍ رمادي

اللـون، وبعـد الانتهـاء مـن الاسـتحمام يعيد الحجـر إلى مكانـه المخصص في الحائـط، الـذي يصبـح بـارزا كالأنـف. رأيـت هـذا كلـه بنظـراتٍ خاطفـة حـين كنـت أسـتدير بـرأسي نحـوه سريعـا، لأنني كنـت ابنـة محتالـة لا أمتثـل لتعليماتـه.

لم تكـن الاسـتعراضات البهلوانيـة في السـيرك تمنحنـي المتعـة مثـل متعتـي بهـذا المنظـر.

كان أبي مغنيـا لا يسـتطيع أحـد أن يبقيـه صامتـا لحظـة واحـدة، يغنـي جميـع الأغـاني الأوبراليـة المشـهورة في ذلـك الزمـن. يحـب تـلاوة الخطـب الوعظيـة لخطبـاء رحلـوا منـذ زمـن بعيـد، لأنـه كان يقـول إنه يتصـور هـذه الخطـب تبـدو جديـدة في أيـام الآحـاد، وكلماتهـا طازجـة في أفـواه الوُعـاظ. فقـد كان والـده واعظـا. كان أبي حنونـا، ربمـا أسـتطيع القـول إنـه كان رجـلا مشـيخي التوجـه، ولم تكـن هـذه الصفـة شـائعة في بلـدة سـليغو. فهـو يجـل مواعـظ جـون دون[1] فـوق كل شيء، لكـن إنجيلـه الحقيقـي هـو، كتـاب ريليجيـو مديـسي لتومـاس بـراون، كتـابٌ مـازال في حيـازتي بالرغـم مـن حيـاتي المحطمـة والمضطربـة، مجلـدٌ صغـيرٌ مهـترئ.

إنـه موجـود هنـا أمامـي عـلى سريـري، مـع اسـمه بالحـبر الأسـود داخلـه: جـو كلـير، ومـؤرَّخٌ بتاريـخ 1888 في مدينـة سـاوثهامبتون، فقـد كان بحـارا في أوائـل شـبابه، يبحـر إلى كل مينـاء في العـالم النـصراني قبـل أن يبلـغ سـن السـابعة عـشرة.

في سـاوثهامبتون حـدث شيءٌ مهـم جـدا ويعتـبر مـن أهـم الأحـداث في حياتـه، حيـث قابـل أمـي سيـسي هنـاك فأعجـب بهـا، وكانـت عاملـة في السـكن الداخـلي للبحـارة المفضـل عنـده.

(1) جون دون: (1572 - 1631) شاعر إنجليزي ويعتبره الناقد صموئيل جنسون أعظم شاعر ميتافيزيقي. اعتمد شعره كثيرا على الصور البيانية، خصوصا الاستعارة المطولة. (المراجع)

كان يحكي لي حكاية غريبة عن ساوثهامبتون، وكطفلة أصغيت لها وكأنها حقيقة ساطعة. ربما كانت فعلا قصة حقيقية.

في أحد المواسم جاء إلى الميناء ولم يجد سريرا ليبيت في نزله المفضل، فاضطر أن يسير أبعد بجانب المباني المتجاورة واللافتات في الرياح، وجد منزلا وحيدا عليه إشارة تدل على أنه يوجد مكان شاغر للمبيت، يبدو أنه كان مصيدة للزبائن.

دخل المكان ورأى امرأة ذات وجه كالح في أواسط عمرها، ومنحته سريرا في قبو منزلها. وعند منتصف الليل ظن أنه يسمع صوت شخصٍ ما يتنفس في الغرفة. وفي دهشته ويقظته التامة التي تجلب الفزع، سمع تأوها، ووجد شخصا مستلقيا بجانبه في وسط الظلام.

أضاء الشمعة من صندوق البارود. لم يرَ هناك أحدا. لكنه وجد غطاء السرير والمرتبة بها أثر شخص ثقيل الوزن كان للتو هناك، قفز من السرير وصاح، لم يُصب أي إجابة. حينئذٍ شعر بجوعٍ شديد لم يصب به رجل أيرلندي في زمن المجاعة السوداء. هرع إلى الباب لكنه كان موصدا بالأقفال. فأصابته نوبة من الغضب وصار يصرخ: «دعوني أخرج من هنا، دعوني أخرج!». كان خائفا وساخطا في ذات الوقت. يقول في نفسه كيف تجرؤ هذه العجوز الشمطاء على أن تحبسني في الغرفة. فقام بقرع الباب مرة تلو الأخرى، وأخيرا أتت صاحبة المنزل وفتحت الباب بهدوء تام. قالت معتذرة إنها لابد أنها أقفلت الباب تجنبا لدخول أي لص إلى الغرفة. أخبرها عن الوضع المزعج أثناء نومه، لكنها ابتسمت له ولم تنبس ببنت شفة، وذهبت إلى مأواها. شم منها رائحة غريبة كأنها أوراق نباتات نبتت على الأرض، أو كما لو أنها زحفت على أرض الغابة. وعم الهدوء ثانية فأطفأ الشمعة وحاول أن يخلد للنوم.

بعد برهة، حدث الأمر ذاته مرة أخرى، نهض وأشعل الشمعة وذهب إلى الباب. كان موصدا هذه المرة أيضا، وأصبح محبوسا في الغرفة، وعاد ذلك الشعور بالجوع الشديد في بطنه. ولكن لسببٍ ما أو ربما بسبب غرابة وغموض شخصية مالكة النزل، لم يود أن ينادي عليها لتفتح الباب، قضى ليلته جلوسا على الكرسي منزعجا يعلوه العرق.

وعند الصباح ارتدى ملابسه، واتجه إلى الباب فوجده مفتوحا. أخذ حقيبته وصعد إلى الطابق العلوي. حينها لاحظ كم كان المكان باليا، حيث لم يظهر له ذلك جليا في ظلام الليل. لم يود أن يوقظ مالكة النزل، فعليه أن يلتحق بالسفينة للإبحار، وضع بضع شلينات على الشماعة وخرج.

أعاد النظر خلفه إلى المنزل وهو يسير في الشارع، فاضطرب جدا عندما رأى عددا من النوافذ قد تهشم زجاجها، وكذلك أزيلت ألواح من السقف.

دخل دكانا على ناصية الطريق ليتحدث إلى أي شخصٍ هناك عن ذلك المنزل، فوجد صاحب الدكان الذي أخبره بأن المنزل كان مهجورا ومغلقا منذ سنوات عدة. والمفروض أن يهدم لولا أنه جزء من رصيف مقهى، وقال بأنه لن يفكر أن يبقى ليلة واحدة في هذا المنزل. وأردف أنه لم يقطن أحدٌ هذا المنزل، ولن يجرؤ أحدٌ على شرائه، بسبب تلك المرأة التي قتلت زوجها، حبسته في القبو ومات جوعا، والمرأة نفسها حوكمت بالإعدام لقتل زوجها، وشنقت بعد ذلك.

حكى أبي القصة لي ولأمي بإثارة شديدة وكأنه يعيشها بلحظتها، المنزل الكئيب، والمرأة الكالحة، وتأوهات الشبح، كأنه يراه أمام عينه. وأردفت أمي بنبرةٍ غير مبالية: «كان من حسن الحظ أن

وجـدت غرفـة معنـا في النـزل عندمـا أتيـت أثنـاء زيارتـك القادمـة للمينـاء، يـا جـو». رد أبي: «يـا إلهـي، يـا إلهـي، نعـم».

كانـت قصـة إنسـانية قصـيرة، قصـة بحـار ارتبـط معهـا بصـورة مـا، جـمال أمـي الخـارق، والإغـراء الهائـل الـذي مثلـه لأبي في ذلـك الحـين وعـلى الـدوام. فجـمال أمـي يظهـر مـن شـعرها الداكـن وبشرتهـا السـمراء كجـمال النسـاء الإسـبانيات، ولهـا عيـونٌ خـضراء مثـل الزبرجد الأمريـكي، فـلا يسـتطيع أن يقـاوم جـمال عيونهـا أي رجـل مهـما كان.

تزوجهـا هنـاك ومـن ثـم أحضرهـا إلى سـليغو وعاشـا حياتهـما معـا منـذ ذلـك الوقـت. لم تكـن قـد ترعرعـت في تلـك المدينـة المظلمـة، لكنهـا أصبحـت مثـل قطعـة نقـود ضاعـت عـلى أرضٍ موحلـة تلتمـع دون جـدوى. لم تكـن مدينـة سـليغو قـد عرفـت قـط فتـاة أكـثر جـمالا منهـا، لهـا بـشرة بنعومـة الريـش، وكان صدرهـا مثـل خبـزٍ طـازج مفعـم بالخـير والبركـة.

مـن أكـثر لحظـات حيـاتي سـعادة في الطفولـة حينـما كنـت أخـرج مـع أمـي إلى شـوارع سـليغو سـاعة الغسـق، لأنهـا كانـت تريـد أن تلتقـي بـأبي في الطريـق حـين عودتـه مـن عملـه في المقـبرة؛ كان خروجهـا للقائـه يشـوبه القلـق كـما لـو أنهـا لم تثـق بالزمـن وأمـور الحيـاة العاديـة أن يعيـداه إلى البيـت. أعتقـد دون شـك أن أمـي قـد عانـت كثـيرا بسـبب حسـنها الطاغـي.

لقـد كان أبي يعمـل كمـشرف في المقـبرة كـما أسـلفت، يرتـدي بزتـه الزرقـاء وقبعـة يعلوهـا سـواد مثـل ريـش الطائـر الأسـود.

كان هـذا في زمـن الحـرب العالميـة العظمـى عندمـا غصـت المدينـة بالجنـود، كأن مدينـة سـليغو نفسـها أصبحـت سـاحة المعركـة، لكنهـا بطبيعـة الحـال لم تكـن كذلـك. لم نكـن نـرى سـوى رجـال وقـد سرحـوا مـن مهامهـم للراحـة مؤقتـا. كانـوا يبـدون في زيهـم العسـكري مثـل

هيئة أبي كأنه قد خرج فجأة في تلك الشوارع، وحين نمشي أنا وأمي كنت أبحث عنه بحرص كما كانت هي أيضا. ولا تكتمل فرحتي إلا عندما أجده بينهم وهو يعود إلى البيت من المقبرة كأنه ينسدل فوق ذلك المساء المظلم من الشتاء. وحينما تقع عيناه عليَّ يلعب معي وهو يلهو كالأطفال. وكان يلفت نظر الكثيرين بحركاته التي لا تناسب الوقار للمشرف على مقبرة سليغو. لكنه كان ماهرا في إمكانية التصرف بعفوية عندما يكون في حضرة طفل يغمره بالهجة والسرور.

على الرغم من أنه كان حارسا للمقبرة، لم يفقد ذاته يوما، يستطيع وهو في بزته الزرقاء وقبعته الرسمية أن يرشد أي شخصٍ إلى صديق أو قريب بكل وقار واحترام. لكنه عندما يكون وحده في سكن المقبرة الذي كان عبارة عن معبدٍ إسمنتي، كنت تسمعه يغني بشكل رائع: «حلمت بأني سكنت القاعات المرمرية» أغنيته المفضلة من أوبرا الفتاة البوهيمية[2].

وكان في أيام عطلته يخرج على دراجته النارية المسماة «ماتشليس» يتسابق على طرقات أيرلندا الوعرة. وإذا ما كان فوزه بأمي يشكل حدثا مميزا فإنه في إحدى السنين كان فعلا محظوظا جدا، قرابة وقت ميلادي. في سباق المسافات القصيرة على دراجته النارية الجميلة في جزيرة مان، حاز على المركز الأوسط بين المتسابقين دون أن يتسبب بقتل نفسه، كان هذا الحدث له ذكرى ومصدر بهجة لي، وبالتأكيد سلوى له في ذلك المعبد الإسمنتي في وحشة الشتاء الأيرلندي تحيط به تلك الأرواح النائمة.

(2) الفتاة البوهيمية (1843) هي أوبرا إنجليزية رومانسية من تأليف مايكل ويليام بالف. أشهر مقطوعاتها هي: «حلمت أنني سكنت القاعات المرمرية» التي تصف فيها الشخصية الرئيسة آرلين ذكريات طفولتها الغامضة. (المراجع).

وبعض أشهَر قصص أبي كانت تلك القصة التي يرويها لنا في منزلنا الصغير، والتي قد وقعت في أيامه وهو أعزب، عندما كان قادرا على حضور اجتماعات الدراجات النارية في ذلك الزمن. حدثت في تولامور وكانت هذه بحد ذاتها حكاية غريبة.

انطلق بسرعة فوق المعدل وكان أمامه تلة عريضة وشاسعة تؤدي إلى منعطف حاد حيث يلتقي الطريق بمنطقة تحتوي جدارا عاليا من الصخر الصلب جدا، لا بد أنه قد شيد أيام المجاعة الكبرى في أيرلندا كشيء ليس له أهمية سوى إشغال العمال ليبقوا أحياء. على أي حال، كان المتسابق أمامه يطلق العنان لينحدر نحو التلة بسرعة هائلة، وبدلا من كبح السرعة يبدو أنه زاد في السرعة نحو الجدار المواجه له، وأخيرا بوسط الدخان الكثيف والقطع المعدنية علا صوتٌ مدوٍّ كأنه قذيفة مدفع، اصطدم بالجدار بلا رحمة. كان أبي ينظر إليه بصعوبة من خلال النظارات الواقية والتي قد اتسخت، كاد أن يفقد سيطرته على مقود دراجته من فرط الفزع، لكنه سرعان ما رأى منظرا لم يجد له أي تفسير، شاهد المتسابق يعلو وكأنه يطير بأجنحة ويعبر الجدار الهائل في حركة سريعة وخفيفة مثل انسياب طير النورس عكس حركة الرياح. في لحظة ظن أنه بالفعل قد رأى ومضة من أجنحة، ومن يومها لم يكن يقرأ كتاب الصلوات ويأتي على ذكر الملائكة دون أن يستذكر هذه الحادثة الاستثنائية.

أرجو أن لا تظنوا أن أبي يدعي هذا الأمر، فشتان بينه وبين ما تظنون به. نعم إنه يحدث أن الناس في الأحياء والقرى يحبون رواية قصص تتحدث عن عجائب وقعت لهم، مثل قصة زوجي توم وظهور الكلب ذي الرأسين في طريقه إلى إنسكورون. وصحيحٌ أيضا أن تلك القصص لن تكون ذات تأثيرٍ إلا إذا اختلق القاص

الاعتقاد المطلق، أو أنه فعلا قد رأى تلك الأعجوبة، لكن أبي لم يكن مشعوذا ومختلقا للقصص.

استطاع أبي أن يخفف سرعة دراجته النارية ويقف، راح يعدو صوب الحائط الهائل، فرأى واحدة من البوابات المزخرفة الصغيرة، دفع البوابة الحديدية الصدئة، وسرعان ما جرى بين نباتات القراص والأحواض فوجد صديقه الخارق للعادة ملقى على جانبٍ من الجدار مغمى عليه، لكنه أيضا بلا أي إصابة، كما يحلف أبي إنه يقول الحقيقة. وفي نهاية المطاف، عاد الرجل إلى وعيه وكان هنديا محترما يبيع الأوشحة وأشياء أخرى من حقيبة يدور بها على الجانب الغربي من ساحل البحر، وابتسم لأبي. كلاهما تعجبا كيف نجا الرجل من الموت المحتوم، حيث كان هذا الحدث بلا غرابة هو حديث مدينة تولامور لسنوات بعد ذلك. إذا ما سمعت تلك القصة من القاص فربما يعطيه عنوانا مثل «الطائر الهندي».

مرة أخرى، كانت سعادة أبي الغريبة واضحة في كل مرة يعيد بها سرد هذه القصة. وكأن هذا الحدث صار مكافأة له، لكونه على قيد الحياة، هدية بسيطة على غرار حكاية تجعله سعيدا وتمنحه الكثير من الرضا في يقظته أو منامه، كان امتيازا له وحده، وكما لو أن تلك الحكايات والأحداث شكلت له إنجيلا غير مترابط الأجزاء، وكما لو كان لابد أن يكتب إنجيلا مقدسا عن حياة أبي، ولم لا، فحياة كل شخص مقدسة أصلا.

أظن تلك الأجنحة التي ظهرت فقط فوق ظهر صديقه الهندي ستكون أكثر أهمية، والأشياء التي أشار إليها أبي مجرد إشارة ستصبح على لسان قاصٍّ ثانٍ للحكاية ذات مصداقية، رغم عدم ثبوتها، وترقى إلى مرتبة المعجزة، بحيث إن الجميع على اختلافهم سيرتاحون لها.

كانت سعادة أبي بحد ذاتها هبة غالية، بينما كان هاجس أمي الأبدي عائقا لحياتها. لأن أمي لم تصنع قصصا أسطورية من حياتها، وكانت بلا حكايات بشكل استثنائي، مع أني على يقين أن لديها الكثير من الحكايات مثل أبي.

إنه لمن المضحك، ولكني أتعجب أن الناس الذين يعيشون حياتهم دون حكايات تبقى بعد رحيلهم سينساهم التاريخ، وينساهم أفراد عائلاتهم بعد ذلك. بالطبع هذا قدر الكثيرين ممن يقللون من شأن حياتهم، بغض النظر إن كانت حياتهم زاهية ورائعة، فستتدهور ذكراهم وسيكونون مجرد أسماء حزينة سوداء في شجرة العائلة الذاوية يتدلى منها تاريخ ميلادهم تتبعه علامة استفهام.

سعادة أبي لم تنقذه وحسب، بل دفعته لرواية الحكايات وأبقته حيا عندي، وكأنه روح ثانية أكثر صبرا وأكثر إسعادا في داخل روحه البائسة.

ربما لم يكن لسعادة أبي -ويا للغرابة- أي أساس من الصحة، ولكن ألا يمكن لرجلٍ أن يجعل نفسه سعيدا قدر الإمكان في هذه الحياة الطويلة؟ أعتقد أنه بإمكانه ذلك، بما أن العالم فعلا جميل، ولو كنا مخلوقاتٍ أخرى غير البشر، لكنا سعداء في حياتنا على الدوام.

****

في الغرفة الرئيسية بمنزلنا الصغير ذي الأبعاد الضيقة، كان يشاركنا شيئان كبيران، الدراجة النارية والبيانو الصغير، أما الدراجة النارية سالفة الذكر، والتي علينا أن نحافظ عليها بعيدا عن الأمطار، فكانت كائنا يعيش معنا بهدوء وسلام كما يقال. وفي مقدور أبي متى ما شاء ومن حيث هو جالس بمقعده بكل أريحية أن يمسح

هذه الآلة المصنوعة من معدن الكروم اللامع بجلدٍ من الشامواه. الشيء الآخر الذي يشاركنا في السكن أيضا هو ذلك البيانو الصغير على شكل كوخ قائم عموديا، والذي أهداه إياه رجلٌ أرمل كإشارة على امتنانه له بحفر قبرٍ لزوجته دون مقابل، فقد كانت عائلة المتوفاة تحت وطأة ضيق مالي. لذا ذات ليلة صيف بعد الدفن، أحضر الرجل البيانو محمولا فوق عربة يجرها حمار، وكان معه اثنان من أبنائه، حملوه وهم يبتسمون ويشعرون بسعادة يشوبها الحذر ووضعوه في الغرفة الصغيرة. ربما لم يكن البيانو ذا قيمة كبيرة، ولكن كان له أعذب النغمات، ويبدو أنه لم يعزف عليه أحد من قبل أن يصل إلى منزلنا، كان بالإمكان معرفة تاريخه من حالة مفاتيحه الأصلية التي لم يتلفها الاستخدام. على جوانبه نقشت مناظر لم تكن من مدينة سليغو، بل كانت مناظر خيالية يبدو أنها في إيطاليا، لا أستطيع الجزم حيث إن المناظر الطبيعية جميعها تشتمل على جبال وأنهار مع قطيع من الأغنام الوادعة وحولها رعاة من الجنسين. ولأن والدي نشأ في كنيسة والده فقد كان يتقن العزف على هذه الآلة الموسيقية الجميلة، ويجد متعة كما قلت آنفا في أوبرا القرن السابق. كان يعتبر «بالف» موسيقيا عبقريا. وبما أن لي مكانا بجانبه على المقعد، التقطت مهارة العزف بسبب شغفي به، وشيئا فشيئا تطورت مهارتي إلى حد الكمال دون بذل قصارى جهدي.

بعد ذلك استطعت أن أعزف له وهو يتوسط المكان وإحدى يديه على مقعد الدراجة - كما لو كان ذلك بالمصادفة - والأخرى في جيب سترته كأنه نابليون أيرلندي، ويغني أغنية «القاعة المرمرية» وغيرها من أرقى ما لديه، بتمام إتقان يصل إلى حد الكمال، أو ربما يبدو لي أنا كذلك. ولهذا، تلك الأغاني التي يطلق عليها النابوليات،

والتـي ليسـت هـي كـما اعتقـدت أغـانٍ لذكـرى نابليـون، بـل كانـت أغـاني ابتدعـت في شـوارع نابلـز، هـي أغـانٍ محظـورة الآن في سـليغو! كان رنـين صوتـه يبقـى قويـا في أذني وشـهيا كطعـم العسـل، ويـدور في رأسي بقـوة، يبعـد عنـي كل مخـاوف الطفولـة. وكلـما يعلـو صوتـه يرتفـع ذراعـه وشـاربه، وتتأرجـح قدمـه قليـلا فـوق السـجاد القديـم ذي الأشـكال المتكـررة لصـور الـكلاب، وتغمـر عينيـه غبطـة عجيبـة. ربمـا حتـى نابليـون نفسـه لا يسـتصغره لأنـه شـخصٌ لديـه صفـات نبيلـة. في تلـك اللحظـات كان يقـدم المقطوعـات الغنائيـة بأعـذب مـا لديـه مـن إيقاعـاتٍ هادئـة، والتـي لم أسـمع لهـا مثيـلا إلى يومنـا هـذا. كثـيرون مـن المغنـين المرموقـين كانـوا يتوافـدون على سـليغو أيام شـبابي، ويغنـون تحـت زخـات المطـر، وكنـت أصاحـب بعضهـم بالعـزف عـلى البيانـو أو بعـض المقاطـع مـن النوتـة الموسـيقية، ربمـا كنـت أعيقهـم أكـثر مـن أن أسـاعدهم. لكـن لا أحـد منهـم يضاهـي أداء صـوت أبي وانفـراده المميـز.

****

والرجـل الـذي يواجـه الكـوارث التـي تصيبـه بمـرحٍ، وهـي تصيـب الكثيريـن بـلا رحمـة أو محابـاة، هـو بطـلٌ حقيقـي.

الفصل الثاني
مذكرات الدكتور غرين

كبير الأطباء النفسانيين في مستشفى الطب النفسي الإقليمي في روسكومن

كان المبنى في حالة مزرية، وكم كنا في حالة يرثى لها إلى درجةٍ أننا أصبحنا لا ندرك مدى الخراب حولنا، إلى أن جاء تقرير الدراسة التي قام بها مسؤول الأراضي لتقصي حالة المكان. ثلاثة من المفتشين الشجعان تسلقوا إلى السقف وجاء تقريرهم أن الأخشاب التي تمسك بالسقف مهترئة والسقف آيلٌ للسقوط، كما لو أنه يعكس حالة الرئاسة الفاسدة في هذه المؤسسة للمرضى المساكين تحت هذا السقف الخرب. كان لابد أن أكتب المرضى بدل المسجونين. لكن في الحقيقة هذا المكان قد شيد في القرن الثامن عشر كمؤسسة خيرية ومصحة للإصلاح يخص الذين يعانون من التشوش الفكري، لكن كلمة مرضى دائما تأتي على بالي. فكيف باعتقادك يكون مصحا أو إصلاحية في الوقت الراهن. في الواقع كان في أواسط القرن التاسع عشر نوعا من التنوير داخل المصحات إبان فورة الفكر التجديدي بين العديد من الأطباء عندما كان النزلاء يرتدون السترات الضيقة لفتراتٍ قصيرة ويتبعون نظاما غذائيا جيدا حسب نصيحة الأطباء، ويمارسون الرياضة كثيرا

وتحفيز الفكر، حيث كان كل هذا يعتبر تطورا هائلا من ممارسات مستشفى المجانين مع الوحوش الهائجة المقيدة بالسلاسل وهم يزأرون. ولكن سرعان ما عادت الأمور إلى أسوأ من ذي قبل، ولم يود بعد ذلك أي شخص مرهف الشعور بأن يكون من المؤرخين للمصحات الأيرلندية في أوائل القرن المنصرم. كان القرن الماضي هو زمني أنا، حيث كنت في الخامسة والخمسين من عمري عندما انتهى القرن الذي مضى، وكان من الصعوبة بمكان أن يتعلق شخصٌ في هذا العمر بالقرن الجديد. أو ربما وجدت نفسي ما أنا عليه، هيهات، إنني الآن في الخامسة والستين.

بما أن المبنى قد بان عليه القدم، علينا أن نخرج منه إلى المبنى الجديد على الفور ويقال إن القسم المخصص لنا جاهزٌ تقريبا، ربما يكون كذلك أو ربما يكون نوعا من الرياء. ولكن كيف لنا أن نذهب إلى المبنى الجديد ونحن غير متأكدين من جهوزيته، وبمعنى آخر، كيف لأولئك المرضى أن يخرجوا من هذا المكان وقد اختلطت جيناتهم الوراثية مع إسمنت ذلك المبنى فأصبحوا جزءا لا يتجزأ منه؟ هناك خمسون امرأة مسنة جدا في المبنى المركزي، عجائز وكأنهن سيبقين على قيد الحياة إلى الأبد، طريحات الفراش تنتشر القروح فوق أجسادهن إلى حد أن نقلهن يعتبر نوعا من الانتهاك لهن.

أعتقد أنني صرتُ أقاوم فكرة الانتقال إلى المبنى الآخر في ذهني، مثل أي شخصٍ سوي تطرح عليه فكرة الانتقال إلى مكان مثير للجدل. بلا شك سوف نتكيف كالعادة مع الصدمة والفوضى.

كما أن الطاقم من العاملين والممرضات قد أصبحوا جزءا من المبنى أيضا، مثل الخفافيش في الأسقف، والفئران في الأقبية، وأنا أفهم هذا، أنا ممتن لأنني لم أر الفئران إلا مرة واحدة، عندما اشتعلت

النـار في الجنـاح الشرقـي، فرأيـت أشـكالا داكنـة وسـوداء تجـري مـن الأبـواب السـفلية إلى حقـل الـذرة وإلى مـا وراء السـياج مـن الشـجيرات. كانـت النـيران ترمـي بوهجهـا البرتقـالي اللـون عـلى ظهـور تلـك الفـئران في أثنـاء فرارهـا. أنـا عـلى يقـين أنهـا مـا إن سـمعت رجـال الإطفـاء يعلنـون انتهـاء المهمـة، حتـى تسـللت عائـدة إلى الظـلام مـن الجديـد.

إذن كان علينـا أن ننتقـل في وقـت مـا، ولذلـك فأنـا مضطـرٌ في ظـل القوانـين الجديـدة لأن أقـرر مَـنْ مِـنَ المـرضى يمكـن أن يعـود إلى المجتمـع (أيـا كان ذلـك.. فيـا إلهـي) وبالتحديـد أي فئـة مـن المـرضى سـيخرجون دون البقيـة. كثـيرون منهـم سـينصدمون بالتجديـد الـذي لم يعتـادوا عليـه، الديكـورات والجـدران المكسـوة بطبقـة مـن الجـص حديثـا، والمكسـوة بعـازل جيـد وكذلـك نظـام التدفئـة. بالـذات صـوت أنـين الريـاح في الممـرات، حتـى في الأيـام التـي تهـدأ فيهـا الريـاح؛ كيـف هـذا؟ ربمـا حدثـت خلخلـة الهـواء الـذي نجـم عـن الحـرارة والـبرودة في مناطـق مختلفـة مـن المستشـفى، سـيفتقدون في مكانهـم الجديـد هـذا الصـوت كموسـيقى خافتـة تصاحـب أحلامهـم وأشـكال جنونهـم، بالتأكيـد. هـؤلاء الأولاد المسـنون المسـاكين ببدلاتهـم السـوداء، والتـي قـد فصّلهـا لهـم خيـاط المستشـفى منـذ أمـدٍ طويـل، والذيـن ليسـوا مجانـين بقـدر مـا هـم مـشردون ومسـنون، سـكنوا هنـاك عـلى طـول الغـرف في الجنـاح الغـربي القديـم، لـن يعرفـوا عـن أنفسـهم شـيئا إذا مـا خرجـوا مـن مصـح روسـكومن، لقـد أصبحـوا مثـل الجنـود المنسـيين مـن حـرب هنديـة.

مـن الـضروري الآن أن أتـولى مهمـة طالمـا كنـت أتحاشـاها، ألا وهـي تحديـد الظـروف المأسـاوية التـي جلبـت بعـض هـؤلاء المـرضى المسـاكين إلى هــذا المـكان، بالرغـم مـن تشـخيص حالاتهـم المرضيـة لأسـباب اجتماعيـة أكـثر منهـا طبيـة. فأنـا لسـت غبيـا حتـى أصـدق

أن جميع من لديهم «لوثة عقلية» قد اعتراهم الجنون، أو كانوا كذلك فيما مضى، أو قبل أن يأتوا هنا ويتعلموا نوعا من الجنون الوبائي. يعتقد من يدعون معرفة كل شيء، أصحاب الرأي العام الذي تعكسه الصحف، بأن هؤلاء المرضى يستحقون «الحرية» ويستحقون إطلاق سراحهم. ربما هذا الرأي هو عين الصواب، ولكن تلك المخلوقات التي انحبست كالحيوانات في مأواها لفترة طويلة لن يتأقلموا مع اكتساب الحرية وإطلاق سراحهم، مثل دول شرق أوروبا بعد سقوط الشيوعية. وبصورة مشابهة أحسست بتردد غريب لديَّ لأن أرى أيا منهم يغادر. لم هذا؟ هل هو الارتباك الذي سيصيب حارس حديقة الحيوانات؟ هل الدببة القطبية ستحسن التصرف في القطب هناك؟ أعتقد أن هذه فكرة مختزلة. حسنا، سنرى ستثبت الأيام حقيقة هذا الشيء.

سأقترب بالأخص نحو السيدة ماكنلتي التي لا تعد أكبر سنا بين النزلاء في هذا المكان فحسب، بل في كل روسكومن، أو ربما في كل أيرلندا قاطبة. كانت عجوزا عندما أتيت هنا قبل ثلاثين عاما، بواسطة قوة قسرية، لا أعرف ما هي بالتحديد. كانت السيدة ماكنلتي إنسانة صعبة المراس، وبالرغم من أن فترات طويلة قد مضت منذ أن رأيتها آخر مرة وبشكل عرضي، إلا أنها لا تفارق فكري وأحاول أن أتحرى عنها، لأنها كانت بمثابة نموذج أساسي بالنسبة لي، كانت مقيمة دائمة لا تمثل هذه المؤسسة فقط، بل كانت وبشكل غريب تمثل تاريخي وحياتي، كما بينه شكسبير في قصيدته «مثل نجمة الشمال تقود السفن الضائعة». مشكلاتي الزوجية مع المسكينة بت، معنوياتي المتحطمة، وانهياري، وتقلباتي، وشعوري بعدم الانتماء لهذا العالم، وحماقاتي الأخرى وأشياء من هذا القبيل. بينما الأمور كانت تتغير بشكل لا يمكن تجنبه، بقيت

كما هي ولو أنها أصبحت أكثر ضعفا وشيخوخة. هل هي تناهز المئة عام من عمرها الآن؟ كانت تعزف البيانو في غرفة الترفيه والاستجمام؛ مقطوعات وموسيقى الجاز من حقبة العشرينيات والثلاثينيات بجدارة عالية. لا أعرف كيف لها أن تتقن كل هذا! اعتادت أن تجلس هناك بشعرها الفضي وقد أسدلته على ظهرها، مرتدية ذلك الثوب الرهيب الخاص بالمصح، لكنها تبدو كملكة، وبالرغم من أعوامها السبعين آنذاك، كان وجهها لافتا للنظر، مازال الجمال يعلوه، ويعلم الله وحده كيف كانت تبدو في شبابها. شيءٌ ما فوق العادة، نوعٌ من التجلي يظهر كأنها كائنٌ فضائي في هذه البقعة من العالم. عندما أصيبت بالروماتيزم في أصابعها، لم تكن تسمح لأي كلمة بأن تصف مرضها، فكانت تقول أصابعي «لا ترغب» ولم تعزف بالسنوات الأخيرة. ربما مازالت تعزف بصورة جيدة، ولكن حتى وصف جيدة لم يَطِب لها، لذا افتقدنا عزف السيدة ماكنلتي لموسيقى الجاز.

للعلم، كان ذلك البيانو قد أكلته دودة الخشب، وبعد ذلك رموه خارجا على القمامة الكبيرة للتخلص منه فصدر صوت رنين هائل.

لذا سأدخل وأناقش معها هذا وذاك. أنا قلق. لماذا؟ أعتقد لأنها أكبر مني بكثير، وهي أقدم في هذا المكان، وإذا ما كانت تمر بفترات صمت طويلة، وهو حضور مقبول جدا، فإنها تصبح مثل صحبة صديق أكبر سنا يجلُه المرء. نعم هذا هو السبب. ربما لدي شعور خفي بأنها تحبني بقدر ما أحبها أنا أيضا، بالرغم من أني لا أعلم لماذا هي تحبني. طالما أثارت فضولي، ولكني لم أتطرق أبدا لحياتها الشخصية. مع كوني طبيبا محترفا للأمراض النفسية، وهذا يعتبر تقصيرا مني. على أي حال، فهاهي تحبني،

ولـن أعكـر صفـو هـذه المحبـة مهـما يكـن، فلـن يكـون ذا نفـعٍ للعـالم. لـذا عـلي الولـوج في هـذا الموضـوع بحـذر.

****

شهادة روزان عن نفسها

كـم أود التعبـير عـن حبـي الشـديد لأبي لدرجـة أني لم أكـن أسـتطيع العيـش مـن دونـه، لكـن هـذا الاعـتراف سـيثبت أنـه زيـفٌ مـع مـرور الوقـت. أولئـك الذيـن نحبهـم، والذيـن هـم أسـاس وجودنـا قـد اختطفـوا عـن وجودنـا بـإرادة مـن العـلي القديـر أو انتزعهـم الأشرار منـا. كان هـذا الفقـد مثـل كتلـة ضخمـة مـن الرصـاص قـد جثمـت عـلى كيـاني الـذي كان قبـل هـذا مثـل ريشـة خفيفـة. الآن هـو تدمـيرٌ متخـفٌ يثقـل كاهلنـا.

****

عندمـا كنـت في العـاشرة مـن عمـري أو مـا يقـارب ذلـك، حينهـا قام أبي بغـرس العزيمـة داخـلي، فأخـذني إلى أعـلى الـبرج الطويـل والنحيـل في المقـبرة. كان الـبرج تحفـة مـن المبـاني الجميلـة التـي شيدهـا الرهبـان إبـان فـترة الخطـر والدمـار. يقـف في ركـن مـن المقـبرة يكسـوه نبـات القـراص لا يأبـه بـه أحـدٌ. عندمـا تكـون قـد ترعرعـت في مدينـة سـليغو سـيكون وجـود هـذا الـبرج جـزءا مـن كيانهـا. ولكـن دون شـك أنـه كان أيقونـة لا يضاهيهـا أي شيء آخـر. شـيد الـبرج مـع همهـمات قرقعـة الإسـمنت بـين الأحجـار، كل قطعـة تتذكـر انحنـاءة جـدار الـبرج، كل واحـدة منهـا وضعـت بالدقـة التامـة بواسـطة البنائـين القدامـى. لقـد كان الـبرج في سـاحة كاثولوكيـة. لم يكـن أبي قـد حظـي بالعمـل في المقـبرة بسـبب ديانتـه، ولكـن بسـبب محبـة النـاس لـه مـن جميـع الأطيـاف، ولم يمانـع الكاثوليـك أن تحفـر قبورهـم بيـد أبي البروتسـتانتي المحبـوب. لأن في تلـك الآونـة كان هنـاك تقـارب بـين الكنائـس وقـد

تلاشت الخلافات بينهم وسرعان ما حلت الصداقة بينهم بدل المشاحنات. وفيما بعد لم تعد تلك الفروقات ذات أهمية لديه. كنت على يقين أن محبتهم تزداد له، وهذا كاهن المدينة ذلك الرجل المرح والمندفع، يدعى الأب غانت والذي سيظهر كثيرا في قصتي فيما بعد، سيظهر جليا.

كانت تلك الأيام بعد الحرب الأولى مباشرة، ربما في زمنٍ كان في غياهب ثنايا التاريخ، حين بدأت العقول تلتفت إلى الأشياء الغريبة، والهوس في التعليم كالذي اتبعه أبي معي. وإلا فإنني لا أستطيع تفسير السبب الذي يدعو إنسانا عاقلا ليأخذ طفلته إلى قمة برج قديم وهو يحمل كيسا من المطارق والريش.

من سطح البرج، كانت مدينة سليغو تبدو مشعة بكنائسها وبيوتها والنهر الجاري عند أقدام البرج، أو هكذا بدت لي من إطلالة من شباك صغير في الأعلى. مر طائر ليرى وجهين عليهما أمارات السرور يحاولان استراق النظر إلى الخارج في نفس اللحظة، أضع كل ثقلي على أطراف أصابعي وأقفز لأعلى لكي أرى المنظر جيدا، فأصطدم بأسفل ذقن أبي.

«عزيزتي روزان، لقد حلقت ذقني هذا الصباح للتو، ولا أظنك تودين حلاقة ذقني مرة أخرى مع قمة رأسك بشعرك الذهبي».

حقا، كان لدي شعر ذهبي ناعم كالذهب الذي لدى الرهبان. أصفر مثل الوميض في الكتب القديمة.

قلت له: «أبتِ، أرجوك، ارمِ المطارق والريش من هنا لنرى ماذا سيكون».

قال: «آه، أنا متعبٌ من تسلق الدرجات، دعينا نملأ ناظرينا من سليغو قبل إجراء التجربة».

لقد انتظر طويلا لكي يختار اليوم الذي لا تهب فيه الرياح لإجراء تجربته فيه. كان يرغب بأن يبرهن لي الفرضية القديمة التي تقول إن جميع الأشياء تسقط بنفس المعدل، نظريا.

كان يقول: «كل الأشياء تسقط بنفس المعدل. كما تدعي هذه النظرية. سأثبت لك وسأثبت لنفسي أيضا».

عندما كنا مجتمعين حول المدفأة التي بها الفحم من نوع الأنثراسايت تقذف الشرر هنا وهناك، تقول له أمي من حيث اتخذت زاوية قرب المدفأة: «ربما كل الأشياء تسقط في نفس المعدل، كما تقول أنت. لكن الأشياء الاستثنائية هي التي تعلو».

لا أعتقد أنها كانت تريد مقاطعته، بل كانت تبدي مجرد ملحوظة. على كل حال نظر إليها بحياد، فقد كانت هي من دربته أن يكون حياديا.

كم هو غريبٌ أن أكتب عن هذا الشيء وأنا في غرفةٍ مظلمةٍ أخط هذه الذكريات بقلم حبر، أراهما أمام عيني، في ذاكرتي، أو حتى ما وراء عيني في قعر تجويف رأسي، مازالا هناك على قيد الحياة يتحدثان مع بعضهما، حقا، وكأن زمانهما هو الواقع وزمني هو الوهم بعينه. إن هذا يلامس شغاف قلبي لآلاف المرات، فكم كانت جميلة وأنيقة ومشرقة بلهجتها كما أهل مدينة ساوثهامبتون، مثل صوت وشوشة الحصى على ساحل البحر عندما ترتطم بالأمواج، صوتٌ ناعمٌ كالأصوات في أحلامي. صحيح أنه في بعض المرات كنت أعاندها وأقوم بأمرٍ يخالف ما تريده مني، حتى لو كان شيئا تافها، فكنت قد تعودت عليها تضربني وتعنفني. لكن في ذلك الزمن كان هذا شيئا مألوفا، أن تضرب الأم ابنتها لتؤدبها.

الآن يطل وجهان من إطار نافذة الرهبان، يحاولان أن يجدا الزاوية الأفضل لرؤية المدينة. إن الوجوه التي اختفت من هذه

النافذة كانت للرهبان الذين كانوا يتصببون عرقا في جلابيبهم وهم يحاولون النظر إلى وجهة خطى البحارة الاسكندنافيين الذين سيفتكون بهم ويقتلونهم ويستولون على كتبهم وأدواتهم وأيضا القطع النقدية التي كانت لديهم. لم تكن المباني تبنى بنوافذ كبيرة حتى لا يستطيع هؤلاء الطامعون رؤيتهم والظفر بهم. مازالت تلك النافذة الصغيرة تحكي المشاعر المحفوفة بالخوف والقلق والتوتر.

مع الارتفاع الشاهق للبرج، كان من غير المعقول أن نكون سويا هنا، كلٌّ منا سيفقد اللحظة الحاسمة لنتيجة التجربة حيث كلانا في الأعلى. لذا أرسلني أبي إلى الأسفل بمفردي، فنزلت من الدرج الحجري البارد والرطب، مازلت أشعر بالرطوبة تحت راحتي يدي، وذلك الشعور الغريب بالخوف الذي بدأ يتنامى بداخلي وأنا أعلم حينها أنني افترقت عنه. صدري الصغير يدق كما لو أن في داخله حمامة محاصرة تريد الخلاص من القفص.

خرجت من البرج ووقفت بعيدا عن قاعدته كما حذرني هو كي لا تسقط المطارق فوق رأسي وتقتلني. كان البرج يبدو هائلا من موقعي، وكأنه قد امتد إلى السحب الرمادية المتسخة في ذلك اليوم. نعم امتد حتى ارتفاع السماء. لم تهب أي نسمة من الهواء. كانت القبور المهجورة في تلك الساحة، قبورا لأناسٍ من الرجال والنساء دفنوا قبل قرنٍ من الزمان حينما كان الناس لا يملكون سوى قيمة الصخور الصلبة التي لم تكتب أسماؤهم عليها، تبدو لي هذه القبور مختلفة الآن؛ كما لو أن هؤلاء الأموات سينهضون من لحودهم ليشبعوا جوعهم الأبدي مني. وأنا أقف على الأرض مجرد طفلة صغيرة على مشارف الموت، كان هذا شعوري آنذاك، كنت أقف على حافة جرف في مسرحية الملك لير القديمة حيث يخال لصديق

الملك أنه سيسقط من الجرف البارز، والواقع لم يكن هناك أي جرف، ولكن عندما تقرأ عنه تشعر أنه كان هناك جرف وستقع من فوقه كما شعر صديق الملك. نظرت إلى الأعلى بأمانة، بأمانة ومودة ومحبة. ليست بجريمة أن تحب أباك، ولا بأس أن لا تجد فيه شيئا تنتقده، خاصة في المرحلة العمرية من بدايات أنوثتي، عندما يخيب ظن الطفلة في أبويها. وليست جريمة عندما يخفق قلب الطفلة لدى رؤية أبيها،أو رؤية قدر ما تستطيع منه كرؤية ذراعه وقد امتدت من النافذة الصغيرة وقد علق الكيس من يده في الهواء الأيرلندي. كان يناديني وأنا بالكاد أسمع كلماته، ولكن بعد عدة مرات من تكرار الكلمات سمعته يقول: «هل ابتعدت يا عزيزتي؟».

أجبته بأعلى صوتي إلى حد الصراخ، فالمكان بعيد والنافذة صغيرة جدا ليصل إلى أذنه صوتي: «أنا أقف بعيدة يا أبي».

فصرخ: «سأرمي الكيس. انتبهي، انتبهي! ».

«نعم يا أبتاه، أنا منتبهة! ».

فتح أعلى الكيس كما ينبغي له بأصابع يدٍ واحدة ونفض محتويات الكيس التي كنت قد رأيته يضعها فيه، قبضة من الريش نزعها من حشيّة المسند لسرير النوم مع صراخ أمي وامتعاضها، ومطرقتي بناء كان يستخدمهما لإصلاح الخلل في الجدار أو في تثبيت شواهد القبور.

حدقت مليا إلى الأعلى. وبدا لي صوت موسيقى غريبة كاصطكاك أصوات الغربان الخشنة تتحدث مع تلك التي بين أعواد خشب الزان، فاختلطت الأصوات مثل موسيقى في رأسي. تصلبت رقبتي وأنا أتحرق لمعرفة نتيجة هذه التجربة الاستثنائية، فحصيلة هذه التجربة ستكون بمثابة درس لي في الحياة، كما قال لي أبي، وستكون أساسا لفلسفةٍ راسخة.

بالرغم أن الهواء كان ساكنا، ابتعد الريش بعيدا على الفور وتناثر كأن انفجارا قد وقع للتو، وارتفعت نحو السماء بلونها الرمادي وسط السحب الداكنة، وأصبحت بالكاد ترى وانجرفت بعيدا شيئا فشيئا.

كان أبي يصرخ بأعلى صوته من أعلى البرج في هياجٍ شديد: «ماذا ترين؟ ماذا ترين؟».

ما الذي رأيت، ما الذي عرفت؟ في بعض الأحيان أشعر وكأن في أعماق الإنسان ميلا إلى السخرية، وربما هذه السخرية قد ولدت بسبب اليأس، مثل إينياس ماكنلتي، لا تعرفونه بعد، سيظهر بعد عدة سنوات، سيخترق أعماقكم فستحبون هذا الشخص. إنه الحب الذي لا تعرفه ولا تراه. إني أقف هناك إلى ما لا نهاية للزمان، أكابد نفسي لأرى ما يريدني أن أرى، ألمٌ حاد في رقبتي، أناظر وأحدق وأتحمل كل هذا لأجل حبي له، الريش يتطاير بعيدا وأبي مستمرٌّ في الصراخ، وقلبي يدق لأجله والمطارق تتساقط بلا حراك.

الفصل الثالث

عزيـزي القـارئ! إن كنـت لطيفـا وخـيِّرًا لي، فإنـني أتمـنى لـو أقـدر عـلى مصافحتـك. أتمـنى ذلـك مـع أن هذا مـن الأمـور المسـتحيلة. ورغم أنـك لسـت معـي، فـإن لـدي أشـياء أخـرى. ثمـة لحظـات يجتاحنـي فيهـا فـرح لا يمكـن تفسـيره، وكأنـني بامتـلاكي لا شيء أمتلـك الدنيـا. كأن الوصـول إلى هـذه الحجـرة هـو اكتشـاف الطريـق إلى الجنـة، قريبـا سـتشرع لي أبوابهـا فألـج داخلهـا كامـرأةٍ تثـاب عـلى تحمـل تلـك الآلام، أسـير نحـو الحقـول الخـضراء والمـزارع الملتفـة، بحيـث يبـدو العشـب مـن شـدة اخـضراره كأنـه يحـترق.

في الصبـاح، دخـل دكتـور غريـن، فقمـت بلملمـة أوراقي أخبئهـا عنه، لم أكـن أود أن يـرى أو يسـأل عـما أكتـب، فأوراقـي تحـوي الكثـير مـن الأسرار، أسراري هـي كنـزي وقـوتي الذهنيـة. لحسـن الحـظ أننـي سـمعته قادمـا في الممـر عـن بُعـد لأنـه كان يحتـذي حـذاء كعبـه مكسـوٌّ بحديـد. ومـن حسـن حظـي أيضـا أننـي لا أعـاني مـن الروماتيـزم أو أي مـرضٍ مرتبـطٍ مـع التقـدم في العمـر، عـلى الأقـل ليـس بسـاقي. يـداي! يـداي هيهـات أن تكونـا كـما كانتـا سـابقا، لكـن لـدي سـاقان قويتـان تحمـلاني بشـكلٍ جيـد. الفـئران التـي تتجـول في أطـراف الحجـرة هـي أسرع مني، بـلى هكـذا هـي دائمـا، فالفـئران حيوانـات تتصـف باللياقـة الرياضيـة ولا تخطـئ، ولكنـي تصرفـت بالسرعـة اللازمـة عنـد وصـول دكتـور غريـن.

طرق الباب وهذا كان شيئا أفضل مما كان يفعله ذلك البائس الذي ينظف غرفتي، اسمه جون كين، لست متأكدة من تهجئة اسمه، إنها المرة الأولى التي أكتب فيها اسمه، لم أكتب اسمه قط من قبل، وفي اللحظة التي فتح الباب كنت جالسة عند طاولة خاوية ليس عليها أي شيء.

بما أنني لا أعتبر دكتور غرين رجلا شريرا، ابتسمت له. كان صباحا باردا جدا وكان الصقيع يغطي كل شيء في الحجرة فأصبحت الأشياء تلتمع. أما أنا فقد ارتديت فساتيني الأربعة لأشعر بالدفء.

هَمهم وقال: «روزان، كيف حالك يا سيدة ماكنلتي؟».

أجبت: «أنا بخير، دكتور غرين، إنه شيءٌ طيب أن تزورني».

قال: «إنه واجبي أن أزورك، هل قاموا بتنظيف الغرفة اليوم؟».

قلت: «لا، ولكن جون سيكون هنا حتما».

أردف: «أعتقد ذلك».

ومن ثم تجاوزني متجها إلى النافذة ونظر خارجها.

قال: «إنه أبرد يوم في السنة حتى الآن».

قلت: «نعم، حتى الآن».

سأل: «وهل لديكِ كل ما تحتاجينه؟».

أجبت: «نعم، لدي معظم ما أحتاجه».

جلس على سريري بعد ذلك وكأنه أنظف سرير في العالم النصراني، والذي أجرؤ على القول إنه ليس كذلك، مدَّ ساقيه وحدق في حذائه. كانت لحيته التي ابيضت كفأسٍ حديدي حاد. تبدو مثل أشواك القنفذ، أو كلحية قديس. وعلى جانب السرير صحن فيه بقايا الفاصولياء منذ ليلة البارحة.

قال: «يعتقد فيثاغورث[3] بتناسخ الأرواح، وقد حذرنا أن ننتبه

(3) فيثاغورث الساموسي: (495 - 570 ق.م) فيلسوف وعالم رياضيات يوناني له نظرية شهيرة (نظرية فيثاغورث)، أنشا مدرسة فلسفية ناقشت مواضيع شتى منها: ما الذي يحدث للروح عندما يموت الإنسان. (المراجع)

حين نأكل الفاصولياء، فإننا ربما نأكل أرواح جداتنا».

قلت: «أوه».

قال: « لقد قرأنا هذا في هوراس».

سألته: «البقوليات؟».

«لا أظن ذلك».

أجاب دكتور غرين على سؤالي وفي وجهه أمارات الجد. جماله يكمن في أنه بعيد كل البعد عن الهزل، وهو ما يجعله يبدو مضحكا للغاية. صدقني، هذه الصفة يجب أن تقدر في هذا المكان.

تابع: «إذن، أنتِ في صحة جيدة؟».

أجبتُ: «نعم أنا بصحة جيدة».

عاد يسأل: «كم عمركِ الآن يا روزان؟».

قلت: «أعتقد أنني بلغت المئة من عمري».

سألني: «أليس من اللافت للنظر أن تكوني بحالة جيدة في هذا العمر؟»، وكأنه قد ساهم بنفسه في تحقيق هذا الشيء. كيف لا وقد كنت في كنف رعايته في الثلاثين سنة الماضية، أو ربما أكثر. وحتى هو قد تقدم بالعمر ولكن ليس بعدد السنين مثلي.

«أعتقد أنه فعلا شيءٌ لافت للنظر. لكن يا دكتور، أنا أجد أشياء أخرى لافتة للنظر، مثل الفئران، أو تسلل أشعة الشمس باللون الأخضر على تلك النافذة. كما أجد زيارتك لي اليوم لافتة للنظر».

«يؤسفني أن هناك فئرانا في حجرتك».

قلت: «ستبقى الفئران على الدوام».

«ولكن لم لا يضع جون مصائد للفئران؟».

«جون يضع المصائد لها، لكنه لا يثبتها بالطريقة الصحيحة، فتأكل الفئران الجبن دون أي عناء وتنطلق بعيدا مثل جيسي جيمس وأخيه فرانك».

أخذ دكتور غرين حاجبيه بين إصبعي يده اليمنى وطفق يدلكهما لبضع الوقت. حك أنفه ثم تأوه. في تأوهه هذا كانت كل السنين التي قضاها في هذه المؤسسة، كل صباحات حياته ها هنا، كل الأحاديث العقيمة عن الفئران والمعالجة والعمر الذي يمضي كان هنا.

قال: «أتعلمين يا روزان أنني ملزمٌ بأن أدقق في الوضع القانوني للنزلاء بسبب الخطاب العام عن هذا الموضوع، كنت أطلع على أوراق حجزك هنا، وأريد أن أعترف لك أنه.. ».

تحدث بكل هذا الكلام بسلاسة وأريحية.

قلت له وأنا أحثه: «تعترف؟». كنت على دراية بعادته عندما يفكر فينجرف إلى أفكاره الخاصة.

«أوه نعم.. معذرة. ممم، نعم، كنت أود أن أسألكِ، يا روزان، إن كنت تتذكرين تفاصيل دخولك هنا، سوف يكون هذا أكثر شيئا يساعدني إذا ما زودتني به. سأخبرك لماذا أطلب منك هذا الشيء بعد دقيقة، إذا إضطررت لذلك».

تبسم دكتور غرين، وساورني الشك في ما يعنيه من جملته الأخيرة، وتلاشت عني مزحته، وبخاصة وكما قلت سابقا أنه لم يكن رجلا يستخدم المزاح عادة. لذا خمنت شيئا يدور في خلده. ثم أصبحت مثله فنسيت أن أجيب عن سؤاله.

«هل تتذكرين شيئا عنه؟».

«أتقصد مجيئي إلى هنا، دكتور غرين؟».

«أجل، هذا ما كنت أعنيه».

أجبت بالنفي، لأن تلك الكذبة أفضل جواب لسؤاله.

قال: «حسنا، لكن لسوء الحظ أجزاء كبيرة من الأرشيف الموجود في القبو قد استخدمت لأجيال عدة من قِبل الفئران كفراش، وقد أتلف الأرشيف تماما، والآن لا يستطيع أحدٌ أن يقرأ

منه شيئا. ملفكِ الخاص تمت مهاجمته بطريقة مثيرة للعجب. لن تضاهي مدفن الفراعنة، يبدو أنه يتداعى بلمسة يد».

خيّم صمتٌ طويل بيننا بعد ذلك. ابتسمت مليا. حاولت أن أفكر كيف أبدو له. وجه عجوز مجعد، ضاع في غابر السنين.

«بالطبع أعرفكِ جيدا. لقد تحدثنا كثيرا عبر السنين. كم أتمنى لو كنت قد دونت أكثر من تلك الملحوظات، لن تحتوي صفحات كثيرة، ولن تتفاجئي لو عرفتِ. أنا أتردد في تدوين الملحوظات، ربما هذه صفة غير محمودة في عملي. يقال أحيانا إننا لا نقوم بعمل جيد ولا نفعل شيئا لصالح أحد. ولكنني أتمنى أن نكون قد عملنا ما بوسعنا لكِ، رغم النقص الجدير باللوم في تدويني للملحوظات. حقا، أنا سعيد حين أسمعكِ تقولين إنك بصحة جيدة. أود أن أسمع أنكِ سعيدة هنا».

ابتسمت له ابتسامتي المعهودة، ابتسامة امرأة عجوز، كأنني لم أفهم تماما ما يقول.

قال في كياسة وتألق ذهني: «يعلم الله أن لا أحد سيكون سعيدا».

قلت: «أنا سعيدة».

أردف: «أتعلمين أنني أصدقكِ، أعتقد أنك أسعد إنسانة أعرفها. ولكنني مضطر أن أعاود تقييم حالتك يا روزان، لأن هناك الكثير من الاحتجاج في الصحف ضد أولئك المحجوزين لأسباب اجتماعية أكثر منها طبية، وهم، وهم.. ».

«مقبوضٌ عليهم؟».

«نعم، نعم. مقبوضٌ عليهم. ويستمر احتجازهم إلى هذا اليوم وهم في هذا العمر. بالطبع، أنتِ هنا منذ سنين طويلة، ربما منذ خمسين سنة كما أظن؟».

«أنا لا أتذكر يا دكتور غرين. ربما يكون كذلك».

«حتى إنك تعتبرين هذا المكان هو منزلكِ».

«لا».

«حسنا. أنت كما غيركِ لكم كامل الحق بأن تكونوا أحرارا إذا ما كنتم مؤهلين لذلك. أعتقد حتى لو كنتِ تبلغين من العمر مئة عام، ربما تتمنين أن تسيري في الأماكن أو تكوني في قارب تجدفين في البحر وقت الصيف، وتشمي الورد».

«لا!».

لم أكن أنوي أن أصرخ بحرقة، ولكن أن ترى هذه الأفعال الضئيلة وقد ارتبطت بأذهان الكثير من البشر بسهولة العيش والسعادة في الحياة، كانت بالنسبة لي بمثابة سكاكين تنغرس في قلبي عندما أفكر فيها.

«عفوا؟».

«لا، لا، أرجوك استمر».

«على أي حال، إذا ما وجدت أن وجودك هنا لا يوجد داع حقيقي له، أي أنه من دون سبب طبي، فأنا مضطرٌ لأن أقوم باتخاذ إجراءاتٍ أخرى. لا أود أن أسبب لك الإزعاج. ولا أنوي يا عزيزتي روزان أن أرمي بك في الخارج بالبرد. لا، لا، ولكن هناك ترتيبات لنقلك ستؤخذ بكل عناية، وكما قلت سيخضع هذا الشيء لتقييم من جانبي. هناك أسئلةٌ، سأضطر أن أطرحها عليكِ إلى حدٍّ ما».

طاف بي شعور مخيف، لم أكن أعرف ما أساسه، كان شعورا يتسرب بداخلي مثل سم قد انفجر من قنبلة نووية وانتشر بين الملأ على أطراف مدينة هيروشيما، سمٌّ قد يقتلهم بالتأكيد مثل الانفجار. هلعٌ كالمرض، ذكرى مرض أشعر به لأول مرة بعد مرور عدة سنين.

«هل أنتِ بخير يا روزان؟ أرجوكِ لا تقلقي».

«بالطبع أريد الحرية، دكتور غرين. ولكنها تخيفني».

قال دكتور غرين بلطف: «الحصول على الحرية يصاحبها أجواء مبهمة. على الأقل في هذه البلاد أو ربما في كل البلدان».

قلت: «القتل».

قال بعطف: «نعم، أحيانا».

توقفنا عن الحديث، ثم حدّقْتُ في المستطيل الثابت على الأرض، تكوَّن من أشعة الشمس في الغرفة. كان غبار قديم قد ثبت بإصرار هناك.

قال: «الحرية، الحرية».

كان ثمة نبرة من التوق في صوته الأجش. لا أعرف شيئا عن حياته خارج هذا المكان، لا أعرف عائلته. هل لديه زوجة وأطفال؟ أيمكن أن تكون السيدة غرين في مكانٍ ما؟ أنا لا أعلم. يا ترى أحقا لا أعلم؟ إنه رجل ذكي. إنه يشبه النمس، لكن لا يهم، فأي رجل يمكنه الحديث عن قدماء الإغريق والرومان هو رجل كان سيحبه أبي. أحب غرين بالرغم من بعض الضبابية في قنوطه، يجلب لي دائما صدى نوعية حديث أبي، صوتٌ أصفى من صوت توماس براون وجون دن.

«لكننا لن نبتدئ اليوم. كلا، كلا، حتما لن يكون اليوم. لكن من واجبي أن أضع الحقائق أمامك».

اجتاز المكان نحو الباب مرة أخرى كأنه يتحمل صبرا لا حدود له اعتاد عليه من خلال مهنته في الطب.

«أنتِ تستحقين أكثر من هذا، سيدة ماكنلتي».

أومأتُ برأسي.

أتذكر دائما والدة توم عندما أسمع هذا الاسم. في يومٍ ما كنت السيدة ماكنلتي، ولكن لم أكن يوما بمقامها المرموق. أبدا

لم أكـن. فقـد وضحـت هـي هـذا الأمـر أكـثر مـن مئـة مـرة. عـلاوة عـلى ذلـك، لمـاذا قـد سـميتُ نفـسي بهـذا الاسـم حـين حـاول الجميـع جاهديـن أن يسـلبوه منـي؟ لا أدري.

وفجـأة قـال: «لقـد كنـت في حديقـة الحيوانـات الأسـبوع المـاضي مـع صديـق لي وابنـه. وكنـت في دبلـن أجلـب بعـض الكتـب لزوجتـي. كانـت الكتـب عـن الـورد. ابـن صديقـي يدعـى وليـام وكـما تعلمـين هـو اسـمي أنـا أيضـا».

لم أكن أعلم هذا!

«وصلنـا إلى مسـكن الزرافـات. كان وليـم كثـير السـرور بهـا، اثنتـان كبيرتـان وطويلتـان، بسـاقين ناعمتـين وطويلتـين، إنهـا حيوانـات جميلـة جـدا جـدا. ربمـا أجمـل حيـوان رأيتـه في حيـاتي».

ثـم في هـذه الغرفـة المشـعة تخيلـت أننـي رأيـت شـيئا غريبـا، دمعـة فاضـت مـن زاويـة عينـه، وسـالت عـلى خـده ثـم سـقطت سريعـا إلى الأسـفل، كأنـه بـكاء سري مبهـم.

استمر يقول: «جميلة جدا، جميلة جدا».

جعلنـي حديثـه لا أنبـس ببنـت شـفة، لا أعلـم السـبب. لم يكـن حديثـا صريحـا وسـهلا أو كلامـا مبهجـا مثـل كلام أبي. كنـت أود أن أسـتمع لـه، ولكنـي لم أود أن أجيبـه في الوقـت الراهـن. إنهـا تلـك المسـؤولية الغريبـة التـي تشـعر بهـا تجـاه الآخريـن عندمـا يتحدثـون؛ في أن نمنحهـم العـزاء مـن خـلال تقديـم أيـة إجابـة. كان عائمـا فقـط في أجـواء الغرفـة دون أهميـة، رجـلٌ يعيـش في خضـم هـذه الحيـاة ويمـوت واقفـا عـلى قدميـه دون أن يشـعر مثلنـا جميعـا.

الفصل الرابع

في وقتٍ لاحق دخل جون كين متثاقلا يتمتم ويدفع بمكنسته على الأرض، هو شخصٌ صرتُ أتقبله كما هو، مثل كل الأشياء هنا، حيث إن لم يكن بمقدورك تغييرها، فعليك إذن أن تتحملها.

لاحظت بشيءٍ من القلق أنه لم يكن قد أقفل فتحة بنطاله الذي قد تدلت أزراره بصورة بليدة. كان رجلا ضئيل البنية ولكنه قوي وثابت في نفس الوقت. شيءٌ ما قد أصاب لسانه، لأنه يضطر لأن يبتلع ريقه بصعوبة في كل لحظة. تغطي وجهه غلالة من العروق الزرقاء الداكنة مثل وجه جندي قد انفجر بقربه فوهة المدفع. ومن حيث القيل والقال عرفت أن لديه سمعة سيئة هنا.

«أنا لا أفهم لماذا تريدين كل تلك الكتب، سيدتي، وأنت ليس لديك نظارات لتقرئي».

ابتلع ريقه ثانية، وعاد يبتلع ريقه مرة أخرى.

إنني أستطيع القراءة جيدا دون نظارات، لكني لم أقل ذلك.

كان يقصد المجلدات الثلاثة التي بحوزتي، نسخ تعود إلى أبي، كتاب ريليجيو ماديسي، وكلاب جهنم، «وأوراق العشب» (للشاعر الأمريكي والت ويتمان)[4].

(4) والت ويتمان: (1819 - 1892) أحد أشهر شعراء أمريكا في القرن التاسع عشر كتب الشعر الحر، وتعدُّ مجموعته «أوراق العشب» أشهر أعماله. (المراجع)

تحـول لـون صفحـات الكتـب الثلاثـة إلى اللـون البنـي والأصفـر لكـثرة مـا تصفحتهـا الأصابـع.

لكـن الحديـث مـع جـون كـين يمكـن أن يقـود إلى أي موضـوع، مثـل أحاديـث الأولاد حـين كنـت فتـاة في الثانيـة عـشرة مـن عمـري تقريبـا، وقفـت مجموعـة منهـم عنـد منعطـف الطريـق، دون مبـالاة تحـت المطـر، يقولـون لي أشـياء بأصـواتٍ خافتـة؛ خافتـة في بدايـة الأمـر. هنـا، في ظـل تلـك الصيحـات الآتيـة مـن الزمـن البعيـد، تكـون أعظـم فضيلـة هـي الصمـت.

أولئـك الذيـن يطعمونهـم لا يحبونهـم، أولئـك الذيـن يكسـونهم لا يخافـون عليهـم.

هذا اقتباس من شيءٍ ما، ما هو أو أين يكون، فأنا لا أعرف.

حتى الكلام المبهم يكون خطيرا، الصمت أفضل شيء.

إننـي هنـا منـذ أمـدٍ طويـل، وفي تلـك المـدة تعلمـت حتـما فضيلـة الصمـت.

تـوم العجـوز وضعنـي هنـا. أعتقـد أنـه هـو الـذي جـاء بي إلى هنـا. فقـد قدمـوا لـه هـذا الـشيء كمعـروف، لأنـه كان يعمـل خياطـا في دار المجانـين في سـليغو. أعتقـد أنـه قـد دفـع لهـم مـالا حتـى أسـكن في هـذه الغرفـة. أو تـرى هـل كان تـوم زوجـي هـو الـذي يدفـع المـال لأجـلي؟ لكـن لا أعتقـد أنـه قـد يكـون عـلى قيـد الحيـاة الآن. هـذا ليـس مـكاني في المـرة الأولى، بـل كان مـكاني في البدايـة، لكننـي لسـت معنيـة بالاتهـام المضـاد الآن. هـذا مـكان لائـق، وإن لم يكـن بيتـي. لـو كان هـذا بيتـي لجننـت!

أوه، عـلي أن أذكـر نفـسي ببقـاء ذهنـي صافيـا، وأعـرف تمامـا مـا أريـد أن أقـول لكـم. لابـد الآن أن أكـون دقيقـة وعادلـة في سردي.

هذا مكان جيد. هذا مكان جيد.

قيل لي ثمة بلدةٌ ليست بعيدة، إنها بلدة روسكومن نفسها. لا أعرف كم تبعد من هنا، سوى أنها تستغرق نصف ساعة للوصول إليها بسيارة إطفاء.

عرفت هذه المعلومة منذ سنواتٍ مضت عندما أيقظني جون كين من النوم ذات ليلة واقتادني إلى الممر وأنزلني سريعا على مجموعتين أو ثلاث من درج السلالم، ربما اثنتين أو ثلاث. كان قد اندلع حريق في أحد الأجنحة وكان يقودني إلى مكانٍ آمن.

في حين إنه كان يتوجب عليه أن يوصلني إلى الطابق الأرضي، اختصر الطريق خلال الجناح الطويل المظلم، حيث الأطباء والعاملون قد اجتمعوا أيضا هناك. وكان الدخان يتصاعد من الأسفل، ولكن يعتبر هذا المكان آمنا أكثر من أي مكانٍ آخر. وشيئا فشيئا انقشعت الظلمة وبدا النور، أو ربما تكيفت عيناي مع الظلمة.

ربما كان هناك خمسون سريرا، في غرفة طويلة وضيقة، ذات ستائر مسدلة في كل المكان. ستائر خفيفة بالية. وجوه طاعنة في السن كما وجهي اليوم. كنتُ مندهشة لأنهم كانوا على مقربة مني ولكني لم أكن أعلم. وجوه أكل عليها الدهر وشرب لا تنبس ببنت شفة، هم في ذهولٍ تام، مثل خمسين من الأيقونات الروسية. من هم؟ يا للهول! إنهم أبناء شعبك، يخيم عليهم الصمت، نائمون ينتظرون الموت، يزحفون على ركبٍ دامية نحو المولى.

مجموعة عجائز كن يوما ما صبايا، تمتمت بالدعاء لهن بأن يتقبل الله أرواحهن، فإنهن يتسللن إلى الموت ببطءٍ شديد.

أعتقد أنهن الآن في عداد الموتى، أو معظمهن. لم أزرهن البتة مرة أخرى. وصلت سيارة الإطفاء في نصف ساعة. أتذكر هذا لأنني سمعت أحد الأطباء نوه بذلك.

تلك الأماكن تختلف عن العالم، لا شيء فيها يرتقي للمديح. حيث الأخوات والأمهات والجدات والنساء العانسات، جميعهن كذبة منسية.

المدينة المأهولة غير بعيدة من هنا، تنام وتصحو، وتنام ثم تصحو، غافلة عن نسائها الضائعات هنا، في صفوف طويلة. نصف ساعة فقط وقت قادني الحريق لرؤيتهن، ولم تقع عيناي عليهن مرة أخرى أبدا.

أولئك الذين يطعمونهم، لا يحبونهم.

سألني جون كين وهو يقترب من أذني: «أهذا الذي تريدينه؟».

«ما هذا؟»..

كان يحمل في راحة يده نصف قشرة بيضة طائر لونها أزرق كما العروق في وجهه.

قلت: «أوه، أجل، شكرا». كان شيئا قد التقطته من الحديقة منذ سنوات عديدة مضت. ظل في مكانه بالنافذة ولم يلتفت إليه أحدٌ قط قبل الآن، كان مركونا هناك بلونه الأزرق وشكله المتقن، لم يغيره تقادم الزمن. لكنه لا يزال شيئا من الماضي، مرت أجيال عديدة لهذه الطيور.

قال: «ربما هذه البيضة لطائر الحناء».

قلت: «ربما هو كذلك».

«أو لقُبّرة».

«نعم».

«سأعيدها مكانها على أي حال». قال وهو يبتلع ريقه مرة بعد أخرى. كما لو أن لسانه قد تخشب من جذوره وانتفخ حلقه للحظة من الزمن.

قال: «أنا لا أعلم من أين يأتي كل هذا الغبار، فأنا أمسحه كل يوم وما يزال الغبار في مكانه، قسما بالله إنه غبار قديم، ليس

غبارا حديثا، أبدا ليس حديثا».

قلت له: «لا، لا، أطلب الصفح منك».

انتصب للحظة ونظر إلي.

قال: «ما اسمك؟».

أجبته في هلعٍ غير متوقع: «لا أدري». لقد كنت أعرفه منذ عقود، لماذا يسألني هذا السؤال الآن؟

«لا تعرفين أسمكِ؟».

«أعرفه. بيد أني نسيته».

«ولم تبدين خائفة؟».

«لا أعرف».

قال: «لا داعي لذكره». وصار يمسح الغبار ويضعه بعناية في المكنسة، وشرع بالخروج من الغرفة وهو يقول: «على أي حال، أنا أعرف اسمكِ».

بدأت بالبكاء، ليس كطفل، بل كامرأة عجوز، عجوز مثلي أنا، بدموع بطيئة طفيفة لا يراها أحد ولا يكفكفها أحد.

****

بعد ذلك أدرك أبي أن الحرب الأهلية أصبحت فوق رؤوسنا. أنا أكتب هذا لكي أوقف دموعي. إنني أطرِّز الكلمات على الصفحات بقلمي، وكأني أعلق روحي فوق الصفحات.

كانت هناك حربٌ أخرى ضد البلاد قبل الحرب الأهلية عندما كانت البلاد تحت حكم إنجلترا، لكن المعركة لم تكن في سليغو.

إنني الآن أقتبس كلام جاك شقيق زوجي وأنا أكتب هذا، أو على الأقل أسمع صوته في مفردات الجمل، صوت جاك الذي تلاشى، صوتٌ محايد. جاك مثل أمي دائما محايدٌ. لقد ارتدى جاك زيا عسكريا باعتزاز وحارب فيه ضد هتلر في الحرب التالية؛

تقريبا أستطيع القول إنها كانت الحرب الحقيقية. كان جاك شقيق إينياس ماكنلتي. نعم، الإخوة الثلاثة، جاك، توم، وإينياس. يتكون اسم إينياس، بالمناسبة، في غرب أيرلندا، من ثلاثة مقاطع: أين-إي-آس. في مدينة كورك يتكون من مقطعين فقط، ويشير المعنى إلى مؤخرة الشخص أكثر من أي شيء آخر.

أما الحرب الأهلية فدارت رحاها بالتأكيد في مدينة سليغو وعلى طول الساحل الغربي وكانت حربا شعواء.

وافق حزب الأحرار على تطبيق الاتفاقية مع إنجلترا. وقد سقط في هذه المعركة الذين يسمون غير النظاميين مثل سقوط الجياد من الجسر في الظلام. ولأنه تم استبعاد شمال البلاد، فقد بدا لهم أن ما تم قبوله هو أيرلندا من دون رأس، جسدٌ مقطوع الرأس عند الكتفين. إن وجود حشد كارسون في الشمال هو ما أبقاهم على صلةٍ بإنجلترا.

وبالمناسبة، لقد كان مما يثير حيرتي هو افتخار جاك بأنه كان أحد أبناء عمومة كارسون.

وكانت الكراهية تنتشر حولنا في أيرلندا في ذلك الزمن. كنت فتاة في الرابعة عشرة من عمري أحاول أن أنفتح كالزهرة في العالم. أستشيط غضبا حول كل مكان.

أيها الأب العزيز غانت، أظن أنه يمكنني القول إنه لا يوجد أبدا رجلٌ بهذا الإخلاص وهذه الأمانة قد سبب كل هذا الألم والحزن لفتاة عذراء. إنني لا أظن ولو للحظة واحدة أنه قام بذلك بنيةِ سوء. لكنه شوش فكري، كما يقول القرويون، مثلما فعل في السابق لأبي.

ذكرت من قبل أنه رجلٌ ضئيل، والذي أقصده، أن محيط رأسه كان مساويا لقياس رأسي. وهو نشيط، ونحيل، وأنيق في ملابسه السوداء، وقد قص شعره بطريقة مثل رجلٍ مدانٍ بجرم.

ويقتحم أفكاري سؤال: ما الذي يعنيه دكتور غرين عندما يقول إنه سوف يقيّمني لكي يمكنني أن أخرج إلى العالم؟ أين ذلك العالم؟

قال إن عليه أن يستجوبني. ألم يقل هذا؟ أنا على يقين أنه قال ذلك، إلا أنني أسمعه الآن فقط كما ينبغي، قال لي هذا عندما همّ بالخروج من الغرفة منذ مدة طويلة.

لقد أصابني هلعٌ أشد سوادا من الشاي القديم.

أنا مثل أبي فوق دراجته النارية القديمة، أنطلق بسرعة بالتأكيد، لكن الإمساك بالمقابض بقوة تمنح المرء نوعا من الأمان.

لا ترفع أصابعي عن المقابض عنوة، دكتور غرين، إني أتوسل إليك.

ابتعد عن أفكاري أيها الطبيب الصالح.

يأتي الأب غانت من غياهب الموت، متسارعا فيأخذ مكانه.

كن موجودا، موجودا قبل أن أخربش على الصفحات وأكتب بعجالة.

ربما سيبدو الجزء التالي من القصة مثل قصص أبي، جزء من المواعظ الدينية، لكنه لم يكن قد تلاه بصورة صحيحة، كما لم يطور سرده ولو قليلا، حتى اكتملت القصة لتصبح على شكل قصيدة غنائية. سوف أقدم لكم إياها باختصار، كما هي لدي الآن.

في تلك الفترة من زمن الحرب، كان لا شك هناك العديد من الوفيات، والعديد من الوفيات لم تكن أفضل من القتلى. بالطبع كان على أبي أن يدفن بعضهم في مقبرته المتقنة.

ولكوني في الرابعة عشرة من عمري، فما زلت طفلة، وبعضٌ مني على أعتاب الأنوثة. حين التحقت بمدرسة الراهبات الصغيرات، لم أكن غير مبالية بالأولاد الذين كانوا يتمايلون عند بوابة المدرسة

وقـت انتهـاء الـدروس. فعـلا يبـدو لي أننـي أتذكـر صـوت الموسيقى المنبعثـة منهـم، نـوعٌ مـن ضجـة بشريـة لم أفهمهـا. ولا أعـرف بعد أن نـأى بي الزمـن كيـف سـمعت موسـيقى تنبعـث مـن مثـل هـذه الأشـكال القاسـية. لكـن ذلـك مـن سـحر الفتيـات حيـث يمكنهـن أن يحولـن كومـة مـن الطـين إلى أفـكار خلاقـة.

لـذا كنـت أخصـص نصـف اهتمامـي لأبي وعالمـه. إذ كنـت أكثر اهتمامـا بأمـوري الخاصـة الغامضـة، مثـل: كيـف أجعـل شـعري التالـف مموجـا؟ حيـث إني كنـت أقـضي سـاعات طـوالا في هـذا العمل، كنـت أسـتخدم مكـواة كانـت لـدى أمـي لـكيٍّ ياقـة القمصـان الخاصة بملابـس أبي التـي يرتديهـا يـوم الأحـد. كانـت المكـواة عبـارة عـن قطعـة صغـيرة ونحيفـة تكتسـب الحـرارة بسرعـة مـن حاجـز المشعل، أضـع خصـلات شـعري الذهبـي المسترسـل عـلى الطاولـة، وكلي رجـاء أن تصبـح خصـلات شـعري مموجـة بـأي طريقـة سـحرية. فقـد كنـت منشـغلة آنـذاك بمخـاوفي وطموحـاتي.

ومـع ذلـك، فغالبـا مـا كنـت أقـضي وقتـي في محـراب أبي، وأقـوم بواجبـاتي كـما ينبغـي، مسـتمتعة بالـدفء المنبعـث مـن قطـع الفحم المشـتعل بفضـل منحـة الوقـود التـي يحصـل عليهـا. تعلمـت دروسي واسـتمتعت بصـوت أبي وهـو يغنـي أغنيـة «القاعـات المرمريـة» أو مـا شـابه مـن الأغـاني. وفي نفـس الوقـت كان ينتابنـي القلـق عندمـا أفكر بشـعري.

أنـا مسـتعدة أن أقـدم أي شيء لقـاء حصـولي الآن عـلى خصـلٍ قليلة مـن ذلـك الشـعر الأصفـر المسترسـل.

ظـل أبي يدفـن المـوتى عنـد طلـب أي أحـد يريـد دفـن قريـب لـه. في زمـن السـلام كان يدفـن المـوتى مـن العجائـز والمـرضى، ولكـن في أيام الحـرب كثـيرا مـا كان يُرسـل لـه جثـث مـن هـم في ريعـان شـبابهم.

هـذا الأمـر أحزنـه كثـيرا، وإن لم يكـن يبـدو عليـه الحـزن في حالـة دفـن كبـار السـن. كان يـرى أن المـوت لهـؤلاء الطاعنـين بالسـن حـق، فيكـون ذلـك أقـل وطـأة عليـه، سـواء أجهـش هـؤلاء الأقربـاء المشـيعون بالبـكاء أم صمتـوا عنـد القـبر، كان أبي يستشـعر بحـس العدالـة أن الـذي وقـع للميـت أمـر لا بـد منـه. فـكان غالبـا مـا يعـرف ذلـك الميـت الـذي سـيدفنه، وكان يشـارك المعزيـن الذكريـات والمواقـف الطريفـة إذ كان هـذا يبـدو مـن الشـهامة. لقـد كان لديـه حـس اللياقـة والتـصرف في تلـك اللحظـات.

لكـن جثـث قتـلى الحـرب أحزنتـه كثـيرا وبصـورة مختلفـة. وبمـا أنـه كان أحـد المشـيخية، ربمـا يظـن النـاس أن لا دور لـه في أحـداث أيرلنـدا. لكنـه اسـتوعب التمـرد جيـدا. ففـي غرفـة نومـه وفي أحـد الأدراج احتفـظ بكتيـب دوّن فيـه مذكراتـه عـن ثـورة 1916، مـع صـور زعـماء كانـوا ضالعـين في الحركـة الثوريـة، ورزنامـة فيهـا تواريـخ المعارك والمفاجـع. الـشيء الوحيـد المزعـج حسـب رأيـه هـو هـذه الطبيعـة الكاثوليكيـة للانتفاضـة، والتـي أحـس أن لا صلـة لـه بهـا.

مـوت هـؤلاء الشـباب هـو الـذي يحزنـه، ولا سـيما أنهـا وقعـت بعـد مذبحـة الحـرب العالميـة الأولى. بالطبـع خـرج مـن سـليغو مئـات مـن الرجـال يحاربـون في فلانـدرز، المقاطعـة الشـمالية لبلجيـكا إبـان الثـورة، وبمـا أن عـشرات القتـلى لم يكـن بالإمـكان دفنهـم في أوطانهـم، فقـد دفنـوا في ذاكـرة أبي، في مقبرتـه السريـة. والآن في هـذه الحـرب الأهليـة، ازداد المـوت، ودائمـا مـوت الشـباب. لم يكـن بأيـة حـال مـن الأحـوال بينهـم رجـلٌ خمسـيني مـن سـليغو يحـارب في الحـرب الأهلية.

لم يكـن يديـن تلـك الحـروب، فهـو يعلـم أن الحـروب تنشـب في كل جيـل، لكنـه تعامـل مـع تلـك الأمـور بطريقـة احترافيـة غريبـة، بمـا أنـه صاحـب لقـب وصي الأمـوات، فأصبـح كأنـه عاهـل المفقوديـن.

كان الأب غانت نفسه شابا، لطالما يتوقع منه أن يشعر بصلة وشيجة مع الشباب الصرعى. لكنه قد تربى وصُقل على أن لا يدع مكانا للأحزان في نفسه. كان مثل المغني الذي يجيد كلمات الأغنية، لكنه لا يستطيع توصيل معنى الكلمات إلى القلب مثل ما أراد له المؤلف. في أغلب الأوقات كان جافا. يتكلم عن الصغير والكبير بنفس موسيقى الكلمات الجافة.

لكن دعني لا أتحدث الآن ضده.

لقد جال أرجاء سليغو بكهنوته، كان يذهب إلى الغرف المعتمة والكبائن القذرة على جانب النهر في البلدة حيث يقطنها العزاب الفقراء يأكلون الفول المعلب وكأنهم في وليمة مثل الذين أصابتهم مجاعة منذ زمن بعيد، وقد تعفن شعرهم، وعيونهم واجمة تشعرك بالكآبة. ذهب إلى تلك الأماكن بشهرته ونظافته ولم تقع عليه حشرة واحدة أو حتى قملة، وكان يخرج من المكان أبهى من ضوء القمر.

وهذا الرجل الضئيل النظيف يطوف بالمكان كما شفرة المنجل على الحشائش والعليق، فتحصد الطبيعة البشرية وترميها أرضا أمامه، هكذا اكتشفه أبي.

وهكذا حدث ذلك.

في إحدى الأمسيات كنت أنا وأبي نتسلى في المعبد قبل ذهابنا إلى المنزل لتناول العشاء، سمعنا صوت جر أقدام وتمتمة خلف الباب الحديدي القديم. نظر إلي أبي، متأهبا:

«حسنا، ماذا يحدث الآن؟» يسأل نفسه أكثر من أن يسألني.

دخل علينا ثلاثة رجال يحملون رابعا، وكأن قوة خفية تحملهم على هذا، ويبدو كأنهم أزاحوا وجودي بجانب الطاولة فتنحيت إلى الحائط قبل أن أعرف ما قد حدث، انصبغ زيي المدرسي من

الخلف باللون الأبيض من الحائط المبلل. كانوا يتحركون بهمة وكأن إعصارا قد وقع للتو. جميعهم من الشباب، والشخص المحمول لم يكن يتجاوز السابعة عشرة من عمره على ما أتصور. كان يبدو وسيما طويل القامة عليه ملابس بالكاد تغطي بدنه، يكسوه الوحل وبقع من حشائش المستنقع مختلطة بالدماء. وعلى قميصه كثير من الدم. من الواضح أنه ميت كالصخرة.

الشبان الثلاثة الآخرون كانوا في هذيان ونحيب بصورة هستيرية، انتقلت إليَّ عدواه. مع ذلك وقف أبي مهموما بمحاذاة المدفأة، كرجلٍ يحاول جاهدا أن يبدو غريبا لا شأن له بالأمر، فلا تبدو على وجهه أية تعابير، مع هذا أظنه كان جاهزا للقيام بأي شيء إذا تطلب الأمر. فالشبان الثلاثة كانوا مدججين ببنادق قديمة وجيوبهم امتلأت بأسلحة قد جمعت بطريقة عشوائية بعد مناوشات قاموا بها، وكنت أعلم أن السلاح كان عملة نادرة في أثناء الحرب.

سألهم أبي: «ما الذي تنوون عمله الآن، يا أولاد؟ لا بد أن يكون أسلوب آخر لتصرفكم هذا كما تعلمون، إن إحضار الجثث إلى هذا المكان وحمل هذا الولد إلى هنا من دون سابق إنذار، غير مقبول، فليكن لديكم شيء من الرحمة».

قال ذو الوجه الجاد والشعر المقصوص منعا لتكاثر القمل: «سيد كلير، يا سيد كلير، ليس لدينا مكان آخر له غير هذا المكان».

سأله أبي: «هل تعرفني؟».

«أعرفك بما فيه الكفاية. فأنا أعرف موقفك على أية حال من الذي تقوم به، وقيل لي إنك لست ضد حركتنا ولست كغيرك من المعتوهين هنا في بلدة سليغو».

أردف أبي: «ربما هو كذلك، ولكن من أنتم؟ هل أنتم من حزب الولايات الحرة، أم الحزب الآخر؟».

«وهل نبدو لك كأفراد في حزب الولايات الحرة، وشعرنا ممتلئ بكمية مهولة من القاذورات».

فقال أبي: «لا لستم كذلك. إذن، أيها الفتيان، ما الذي تريدونني أن أفعل؟ من هذا الشاب إذن؟».

أجاب المتحدث: «هذا المسكين اسمه ويلي لافيل، يبلغ من العمر سبعة عشرة عاما، وقد قُتل هناك فوق الجبل من قبل حشد من الأوغاد الحقيرين، يدعون أنفسهم جنودا، وهم ليسوا بجنود، بل هم أسوء من (السود والسمر) الذين شاركوا في الحرب التي انتهت. كانوا مجرد أشرار وخبيثين بمعنى الكلمة. لقد كنا في أعالي الجبل، وقد أخذ البرد والجوع منا مأخذا عظيما، فاستسلم هذا الفتى لهم، بينما اختبأنا نحن في الأحراش، ولكن لم يشف غليلهم سوى ضربه ولكمه وهم يستجوبونه. كانوا يضحكون بينما يغرز أحدهم بندقيته في وجه الفتى الذي كان أشجعنا جميعا». قال لي وهو يسترسل في السرد: «مع احترامي لوجودك أيتها الفتاة، من شدة فزعه تبول في بنطاله المهترئ. لأنه كان يعلم وأنتم تعلمون، وأنت يا سيدي تعلم عندما يصوب عليك أحدهم بندقيته ليقتلك، ولأنهم ظنوا أن لا أحد هناك يراهم ولا يرى فعلتهم الشنيعة، أطلقوا ثلاث رصاصات في بطنه. وهبطوا من الجبل بقمة النشوة. قسما، عندما ننتهي من دفن ويلي، لسوف نتعقبهم، ألسنا كذلك أيها الفتيان؟ فسوف ننهي شجارنا معهم، إن استطعنا أن نجدهم».

في ذات اللحظة، قام الرجل بشيء غير متوقع، فانفجر بالبكاء وذرف الدموع وارتمى فوق جثة زميله، وأطلق هديرا من الأسى لم

يكن قد سمع مثله من قبل ومن بعد، رغم أن المعبد كان معبدا صغيرا للأحزان.

هدهده أحد الأصحاب: «هدئ من روعك يا جون، نحن الآن في البلدة حتى لو أن المقبرة مظلمة وساكنة».

ولكن الرجل استمر في البكاء والعويل، وارتمى على صدر القتيل، كنت أود القول مثل فتاة، ولكن هيهات أن يكون كذلك.

على أي حال، لقد وصل الرعب أقصى حده لدي، بالطبع بات الأمر مروعا. فقد أبي هدوءه وصار يمشي ذهابا وإيابا بين المدفأة وكرسيه ذي الوسائد القديمة المسطحة والتي كانت يوما ما من القماش الأحمر.

قال الشاب الثالث، وهو طويل القامة ضعيف البنية، لم أر أحدا يبدو كسكان المناطق الجبلية مثله، وبنطاله بالكاد يصل إلى كاحليه: «يا سيدي.. عليك أن تدفنه الآن».

«ليس بإمكاني دفنه من دون وجود قسيس، ولا يوجد داع لأن أذكركم أنكم لم تشتروا أرضا هنا ليدفن فيها».

رد الرجل الأول وهو يقاوم دموعه: «كيف لنا أن نشتري أرضا ونحن نحارب لأجل جمهورية أيرلندا؟ كل بقعة من أيرلندا هي أرضنا. إنك تستطيع أن تضعنا في أي مكان منها، لأننا نحن رجال أيرلندا. ربما أنت لا تعرف هذا الأمر البتة».

قال أبي: «ليتني أيرلنديٌّ أيضا». كنت أدرك أن أبي شعر بالإهانة. ولم يكن أعضاء المشيخية محبوبين، حقيقة في سليغو، ولا أعرف سبب ذلك. إلا أنهم كانوا يبعثون فيما مضى الكثير من المبشرين نحو الغرب، ومع أن هذه الإرساليات لم تحقق النجاح الكاسح، إلا أنها جمعت حولهم عددا من الكاثوليك في فترة المجاعة والعوز، وهكذا ازداد عددهم بحيث ازداد الخوف وفقدان الثقة في أوساط الناس.

أردف الرجل الثالث: «لا بد أن تدفنه، أليس ذلك المسجى على الطاولة هو أخ جون الصغير؟».

سأله أبي: «أهذا أخوك؟».

فجأة صمت تماما وسكن.

أجاب: «نعم أخي».

قال أبي: «هذا شيء محزن. إنه محزن جدا».

«ليس لديه قسيس ليتلو عليه آيات الغفران. هل بالإمكان أن تحضر له قسيسا؟».

قال أبي: «يوجد الأب غانت، إنه رجل طيب، وبإمكاني أن أبعث له روزان لتحضره، إذا رغبت في ذلك».

«ولكن عليها أن لا تقول له أي شيء، فقط تطلب منه المجيء إلى هنا. وعليها أن لا تكلم أحدا في طريقها، ولا بأي شكلٍ من الأشكال، ولا أن تتكلم مع جندي من جنود الجيش الوطني النظامي، لأنها لو فعلت هذا، فسوف نقتل في مكاننا هنا. سوف يقتلوننا بدمٍ بارد كما قتلوا ويللي فوق الجبل، هذا من المؤكد. وها نحن نقول لك إذا تكلمت فسوف نقتلك أنت، ولست متيقنا أنها ستتكلم».

نظر أبي إليه باندهاش. وفي منتهى الأمانة والكياسة أقولها، فقد خضعت لما أرادوا مني أن أفعل وأن لا أحدث أحدا.

قال أخو المقتول: «على كل حال، نحن لا نملك طلقات، وهو ما حدا بنا لأن نختبئ في الأحراش مثل الأرانب لا نحرك ساكنا، لو كان لدينا طلقات لنهضنا وتحركنا ضدهم، لأنه من العار أن نقبل أن يموت ويللي ونحن أحياء».

وعاد الشاب إلى النحيب وبكاء يرثى له.

قال أبي: «انظروا، لا تحملوا هم هذا الأمر، سأجعل روزان

تحضر الأب غانت هنا. اذهبي يا روزان كما قلت، اركضي إلى منزل الأبرشية وائتي بالأب غانت، أيتها الفتاة الصالحة».

فجريت إلى الساحة مع الرياح الشتوية عبر أزقة الموتى، خارجة إلى قمة الطريق المنحدر، والذي يقود إلى مدينة سليغو، وهرعت أجري إلى الأسفل، وأخيرا وصلت منزل القسيس وعند بوابته الحديدية الصغيرة، وفوق الحصى رميت نفسي إلى باب المنزل السميك والمطلي باللون الأخضر كأنه ورقة نبات أسبيديسترا الضخمة.

وحينها كنت قد فككت الحصار الذي كان علي من أبي ولم أعد أفكر في المكواة الحديدية وشعري الملوي، كنت أفكر فقط في حياته لأنني أعلم جيدا أن الرجال الثلاثة الأحياء هناك قد رأوا الرعب، والذي يرى الرعب بإمكانه أن يمارس الرعب بدرجة ربما أعلى، فهذه سنة الحياة وكذلك في زمن الحرب.

سرعان ما ظهر وجه الأب غانت عند الباب ولله الحمد. ثرثرت في عجالة وتوسلت إليه أن يأتي معي فإن هناك من هو بحاجة ماسة لوجوده، ورددت على مسمعه مرارا أن عليه أن يأتي معي.

«سوف آتي» قالها الأب غانت، لأنه لم يكن من الأشخاص الذين يتنصلون منك عندما تكون بحاجة لهم، مثل غيره من الإخوة في مجموعته، يتباهون أنهم لم يذوقوا طعم المطر في أفواههم. وبالفعل حين صعودنا التلة كان المطر يهطل على وجوهنا وسرعان ما التمعت جبته بالرطوبة كما الجزء الأمامي منها، وأنا كذلك، بيد أني لم أكن قد ارتديت معطفا، ولكن ساقي قد ابتلت تماما.

سألني القسيس بشيء من الشك عندما كنت أقتاده إلى بوابة المقبرة: «من الشخص الذي يحتاجني؟».

قلت له: «الشخص الذي يحتاجك ميت».

تساءل مرة أخرى: «إذا كان الشخص ميتا، فهل هذه العجلة ضرورية، يا روزان؟».

أجبته: «الشخص الآخر الذي يحتاجك حيٌّ. إنه أخو الميت، أيها الأب».

«فهمت».

داخل المقبرة، كانت الأحجار تلتمع من جراء الرطوبة، والرياح تتراقص بين الطرقات، لذا لم تكن لتعرف من أي اتجاه سينهمر عليك المطر.

عندما وصلنا المعبد الصغير ومشينا فيه، كان المنظر بالكاد قد تغير، وكأن الشبان الأربعة الأحياء ومعهم بالتأكيد الميت، قد تجمدوا في مكانهم عندما خرجت. أدار الجنود غير النظاميين وجوههم تجاه الأب غانت لدى دخوله.

قال أبي: «معذرة أيها الأب غانت لاستدعائك في هذا الوقت، هؤلاء الشبان طلبوا مني ذلك».

أردف القسيس وقد باغتته رؤية البنادق: «وهل اتخذوك رهينة؟».

«كلا، كلا، ليس الأمر كذلك».

قال لهم الأب غانت: «أتمنى أن لا تطلقوا النار علي؟».

أجاب الذي قلت إنه الرجل الثالث: «لم يحدث أن أطلق النار على قسيس من قبل في هذه الحرب، ولسوء الحظ هناك هذا المسكين الذي أطلقت النار عليه، إنه ويللي شقيق جون، هو الآن في عداد الموتى».

سألهم الأب غانت: «هل قتل منذ أمدٍ طويل؟ وهل عاين أحدكم نفسه الأخير؟».

أجابه أخوه: «أنا عاينت نفسه».

قـال الأب غانـت: «إذن أعـد النفـس في فمـه، أنـا سـوف أباركـه. وسـأجعل روحـه تصعـد للسـماء».

لـذا لثـم الأخ فـم أخيـه المقتـول، أعتقـد أنـه أعـاد لـه نفسـه الأخـير الـذي قـد سُـلب منـه في لحظـة موتـه. وبـارك لـه الأب غانـت وانحنـى فوقـه ورسـم إشـارة الصليـب عـلى طـول جسـده.

«هـل بإمكانـك تبرئتـه، أيهـا الأب، حتـى تذهـب روحـه خالصـة إلى السماء؟».

«وهل قام بالقتل، هل قتل رجلا آخر في هذه الحرب؟».

«إزهاق الأرواح في الحروب لا يعتبر قتلا. هكذا طبيعة الحروب».

«يـا رفيقـي، أنـت تعلـم جيـدا أن الأسـاقفة قـد منعونـا مـن تبرئتكـم، لأنهـم قـرروا أن حربكـم ظالمـة. ولكننـي سـوف أعفـو عنـه لـو قلـت لي إنـه لم يقتـل أحـدا، حسـب علمـك. فسـأقوم بالعفـو عنـه».

ثـم نظـر الثلاثـة بعضهـم إلى بعـض. وبـدا هلـع غريـب عـلى وجوههـم. كانـوا ثلاثـة شـبان مـن المذهـب الكاثوليـكي، يرهبـون هـذا القسـيس، ويخافـون الكـذب بشـأن رفيقهـم، حتـى لا يتحملوا مسؤولية عـدم صعـود روح رفيقهـم، وأنـا عـلى يقـين أن كل فـردٍ منهـم يجتهـد أن يجـد الإجابـة المرضيـة.

قـال القـس: «الحقيقـة وحدهـا سـتنفعكم». جعلنـي قولـه أرتعـد في مـكاني، لأنـه كان عـين تفكـيري. كانـت أفـكارا بسـيطة تـدور في رأس فتـاة عاديـة، ولكـن ربمـا يكمـن السـبب في أن الديانـة الكاثوليكيـة بسـيطة في حـد ذاتهـا. تكلـم الأخ أخـيرا: «لم يـره أحـدٌ منـا قـط يقـوم بفعـل أي شيء مـن هـذا القبيـل، لـو كنـا نعلـم لأخبرنـاك».

أردف القـس: «حسـنا، أنـا أتعاطـف جـدا مـع أحزانـك. وأنـا آسـف كان لابـد أن أسـأل هـذا السـؤال. إننـي آسـف للغايـة».

مشى بالقرب من الشاب الميت ولمسه بكل لطف.

الفصل الخامس

مفكرة دكتور غرين

سيكون من المجدي جدا لو فكرت من وقتٍ لآخر بأنني على درايةٍ بما أقوم به.

لقد قللت من شأن إدارة الصحة تماما، الأمر الذي كنت أظن بصراحة أنه لن يحدث أبدا. قيل لي إن العمل في الموقع سيبتدئ قريبا، في الجانب الآخر لبلدة روسكومن، موقع مميز كما طمأنوني. وبمجرد أن تعرف أن المكان سيحوي عددا قليلا من الأسرة للنزلاء، بينما هنا لدينا العديد منها، سيجعل هذا الخبر غير سار. في الواقع هناك الكثير من الغرف في المصح بها أسرة شاغرة، ليس لعدم وجود من يحتاجون إليها ولكن لأن هذه الغرف أكل عليها الدهر وشرب، أسقفها آيلة إلى السقوط والجدران كستها مساحات هائلة من الرطوبة. فأي شيءٍ مصنوع من الحديد، مثل هياكل الأسرة، قد تآكل من الصدأ. ستكون جميع الأسرة الجديدة حديثة، لا يعلوها الصدأ، وبحالة ممتازة لم يفسدها أي شيء، لكن عددها سيكون أقل، أقل بكثير. لذا سوف نتعرض لغربلة بشكل جنوني.

لم أتمكن من التغلب على الشعور بطرد تلك المخلوقات التي كانت تحت رعايتي، والتي لا تنجح بعيدة عني. ربما يكون هذا الأمر له أسبابه، ولكنني صرت أشك في نفسي. لدي ذلك

الإحساس الأبوي ذو الطابع الساذج تجاه مرضاي، حتى الشعور بالأمومة نحوهم أيضا. بعد كل هذه السنين التي عرفت فيها حقا أن الأشخاص الآخرين الذين يعملون في هذا المجال تموت لديهم العزيمة والفطرة، أنا أغبط مرضاي على السلامة والسرور الذي هم فيه، حتى لو شعرت باليأس من إحراز أي تقدم معهم. ولكنني أشك في ذلك. إني أتساءل.

بعد فشلي مع زوجتي، سأميل إلى اعتبار هذا المكان كله كنوع من زواجٍ مختلف، حيث أكون معصوما عن الآثام، لا تهمة علي، مبرأ من ذنبي.

اعتاد الناس على تسمية الألبسة المستعملة بالبالية التي «لا يمكن استصلاحها»، وكانت جميع بزات الرجال وملابس السيدات تخاط في الأيام الماضية في هذا المكان بأقمشة تم التبرع بها. خياط لخياطة بزات الرجال، وخياطة لخياطة ملابس النساء. أنا متأكد أنه حتى الأقمشة التي كانت تسمى «البالية للغاية» كانت جيدة بما فيه الكفاية لكسوة أولئك المساكين القاطنين هنا. ولكن مع مرور الوقت، أصبحت أنا مثل البقية باليا شيئا فشيئا، ويظهر شقٌّ هنا وتمزّقٌ هناك في ثوبي أنا، فأحتاج هذا المكان أكثر فأكثر. إن التكليف بالعمل لأجل هؤلاء الذين بحاجة ماسة لي هو بمثابة الصفح عن العمل. ربما كان علي أن أكون أكثر إحباطا من طبيعة مهنة الطبيب النفسي الفوضوية، والانتقاص الفظيع من حالة الذين يتسكعون هنا، كل هذا شيءٌ لا يصدق. لكن الله وحده سيعينني، ولست محبطا. بعد بضع سنوات سأصل إلى سن التقاعد، وماذا بعد؟ سأكون مثل عصفورٍ من دون بستان.

على أي حال، أعلم أن هذه الأفكار تنتابني للضرورة الآنية. إنه للمرة الأولى التي ألاحظ الوقاحة، أعتقد أنها هي الكلمة، وقاحة

مهنتي. كالمراوغة والخداع والمكر المظلل، نعم، هي المراوغة. والآن في خطوة أخرى من الغباء، أقرر أن لا أكون مراوغا. لقد تحدثت طيلة الأسبوع مع مرضى كان بعضهم أشخاصا استثنائيين. أشعر أني أجري المقابلات معهم لشيءٍ ما، لطردهم، لتدميرهم. وإذا ظهر أنهم بحالة جيدة فسوف ينفونهم إلى ذلك المركز المبارك. إنني مدرك تماما أن هذا التفكير غير مصيب أبدا، لذا أنا أجد لنفسي منفسا هنا. على العكس، المفروض أن لا أبدي أي اهتمام بالأمر،أن أقاوم عاطفتي قدر المستطاع، لأن العاطفة هي نقطة ضعفي. بالأمس وجدتُ فلاحا من مدينة ليترم، يمتلك 400 فدان من الأراضي. إنسان معتوه بمعنى الكلمة. أخبرني أن عائلته ضاربة في القدم إلى حد أنه يستطيع تتبع سلالتهم إلى ألفي سنة. وقال لي إنه هو بنفسه آخر فردٍ في تسلسل عائلته. فهو ليس لديه أبناء وحتما لا ولد لكي يحمل اسم عائلته عندما يرحل من الدنيا. كان اسمه في الملفات مَيل، اسم غريب، يعني بالأيرلندية العسل، هو ترجم لي المعنى. إنه في العقد السابع من عمره، يبدو مبجلا ولكنه عليل ومعتوه. نعم، معتوه، ما أعنيه هو أنه كان مضطربا عقليا، وأرى من ملفه الصحي، للأسف أنهم وجدوه منذ سنوات مضت وقد اتخذ سكنا له تحت مقعدٍ في فناء مدرسة، وقد ربط ثلاثة كلابٍ ميتة بساقه، يجرهم معه أينما ذهب. ولكنني حين تحدثت معه، لم أجد منه إلا كل المودة. كان هذا الأمر سخيفا، وأنا أشك كثيرا في الأمر بِرُمَّتِه.

****

في كثير من الأحيان يبدو لي كأن مرضاي ينسلون من أعلى التلة إلى طرف الجرف مثل قطيع من النعاج. وأنا علي أن أكون كراعي الأغنام متمكنا من كل أنواع التصفير التي لا أعرف أيا منها، حقيقة. ولكن دعنا نرَ.

قال الجرذ وهو يهز ساقه الخشبي: «سوف نرى».

مقولة من الأقوال المأثورة منسوبة إلى بت. ما الذي يعنيه هذا القول؟ أنا لا أدري. ربما هي عبارة في قصة معروفة للأطفال، ربما عبارة تستخدم لدى الأطفال في أيرلندا، لا أعرف عنها أي شيء، حيث إنني قضيت طفولتي في إنجلترا. إنه من العجيب أن تكون أيرلنديا ولكنك لا تملك أية سمات أو ذكريات أو حتى لهجة لعينة واضحة تدل على انتمائك إلى أيرلندا. لم يخطئ أحد يوما قط في احتمال أنني من أيرلندا. مع ذلك فأنا أيرلندي حسب علمي.

كانت بت صامتة طوال الأسبوع في حجرتها التي هي فوق حجرتي، حتى لم تكن تتسلى بالاستماع لإذاعة بي بي سي العالمية، كما هي عادتها. زوجتي. إن هذا يخيفني للغاية.

حاولت ليلة البارحة أن أتقرب إليها؛ لا أدري إن تهجأت الكلمة تهجئة صحيحة أم لا. لا يوجد أدنى شك لدي بأنني فعلا أحبها، إذن ما حقيقة جفائها؟ لماذا هذا الذي يدعونه الحب لا يحلو لها؟ لماذا هذا الحب عرضة للخطر؟ أوه. بعد مراجعتي لقراءة ما دونت، أبدو فيما كتبت أنني أمتدح نفسي بمهارة في مسألة العواطف والحب؛ أشعر بالتقيؤ وأنا أقرأ، لقد كنت منزعجا جدا من نفسي لدرجة أنني ذهبت إلى المطبخ حين سمعتها تعد لنفسها ذلك الشراب الكريه الذي تشربه في الليل قبل أن تنام. كامبلان. أفظع شراب يمكن لأحدٍ أن يشربه، له طعم الموت. أقصد الحياة في الموت، والموت في الحياة، كوليردج على ما أتذكر إن لم أكن قد نسيت إذا كانت هذه قصيدته. «أغنية البَحَّار القديم»[5]. بأكمام من أتعلق حتى أحكي حكايتي؟ اعتادت بت أن تكون

(5) «أغنية البحار القديم» هي قصيدة طويلة للشاعر البريطاني كوليرج، وهو من الجيل الأول لشعراء المدرسة الرومنسية. (المراجع)

هـي التـي أتعلـق بأكمامهـا. الآن لم يبـق لي أكـمام. مـن دون أدنى شـك تعلقـت بأكمامهـا مـراتٍ عديـدة ومديـدة. هنـاك كلمـة مـن تعبـيري عـن هـذا، هـي «أقتـات» عـلى جـل طاقتهـا ولا أعطيهـا بالمقابـل أي شيء، ربمـا. كنـا نقـضي أفضـل الأوقـات معـا، كنـا مثـل ملـك وملكـة القهـوة الصباحيـة، في ظلمـة الصباحـات الشـتوية، وفي الصبـاح الباكـر عنـد بـزوغ شـمس الصيـف حـين تشـع مـن خـلال نافذتنـا، تنفـذ مبـاشرة لتوقظنـا مـن النـوم. آآآ، نعـم، أشـياء صغـيرة. أشـياء صغـيرة نسـميها الصحـة العقليـة، الأشـياء الصغـيرة هـي الفرشـة التـي تخلـق الصحـة العقليـة. كان التحـدث معهـا في تلـك الأيـام يجعلنـي.. لا، أدعـو اللـه أن يجنبنـي تلـك الأحاسـيس. تلـك الأيـام قـد ولـت. الآن نحـن كدولتـين أجنبيتـين لدينـا سـفارتان في نفـس البيـت. صـارت العلاقـات وديـة ولكـن بدبلوماسـية بحتـة. ثمـة إحسـاس خفـي بالإشـاعة، بإصـدار الأحـكام، بالذاكـرة، مثـل شـعبين اقترفـا ذات مـرة جرائـم قتـل ضـد بعضهـما، ولكـن في جيـلٍ آخـر. نحـن دويلـة مـن دول البلطيـق. مـا عـدا أنهـا لم تكـن قـد اقترفـت أي شيء ضـدي. إنـه عمـل شريـر تمامـا مـن طـرفٍ واحـد فقـط.

لم أكـن أنـوي أن أكتـب أي شيء عـن هـذا هنـا. كنـت أقصـد هـذه المذكـرة أن تكـون ملحوظـات مهنيـة أو شـبه ذلـك، إلى حـدٍ مـا، كتابتـي ربمـا كانـت عـن الأيـام الأخـيرة بالنسـبة لهـذا المـكان الأسـاسي ولكـن غـير المهـم والمفقـود الآن. المـكان الـذي طالمـا كان مرتـع حيـاتي المهنيـة. وصومعتـي التـي لا يشـبهها شيء وفيهـا كل تطلعـاتي. أنـا أعلـم أننـي متأسـف عـلى أننـي لم أقـم بعمـل شيءٍ حيـال النـزلاء هنـا، تعاطفـت معهـم وبالتـالي فشـلت بـأن أعمـل أي شيء لأجلهـم. وأنـا أخـشى مـا أخشـاه أننـي حطمـت حيـاة بـت. تلـك «الحيـاة» التـي لم تُكتـب لترويهـا هـي بنفسـها، هـذا مـا لا أعرفـه. أنـا لم أخطـط لـه. أنـا أزهـو

بنفسي لما أكنه لها من صدق وإخلاص، وتقديري وإجلالي لها إلى حد كبير. ربما تعاطفت معها أيضا. تعاطفا مميتا ومزمنا. اللعنة، زهوي بها كما زهوي بنفسي، وهذا أمر جيد. وعندما كانت تسدي لي رأيا سديدا، كنت أشعر في ذات الوقت بتقدير عالٍ لنفسي. فأعيش على هذا، وأسير مدعوما بخطواتٍ واثقة. كم هو مدهشٌ، كم هو مفعمٌ بالحياة، وكم هو مثير للضحك. لكنها حالةٌ أقدمها للعالم لاسترجاعها. أعلم أن هذا غير ممكن، ومع ذلك فلدى زوال هذا العالم هنا، فإن الكثير من الأحداث التاريخية الصغيرة ستختفي معه. في الواقع هذا أمرٌ مخيف، بل حتى مروع.

دخلت المطبخ، كيف كان شكل الاستقبال، لن أستطيع وصفه. ولا حتى اليسير منه، ربما حضوري المفاجئ الذي كان عليها أن تتحمله.

لم تكن تحضر لنفسها دواء الكابلان، كانت تذيب بعض أقراص الديسبرين أو ما شابه.

قلت لها: «هل أنت بخير؟ صداع؟».

قالت: «أنا بخير».

في الثاني عشر من يناير الماضي، علمت أنها أصيبت بوعكة، فقد أغمي عليها في الشارع عندما كانت تتسوق، ونقلت إلى مستشفى روسكومن. مكثت هناك طوال اليوم لإجراء الفحوصات، وفي المساء هاتفني أحد الأطباء بكل براءة لكي أحضر إلى المستشفى وأخرجها منه. ربما ظن ذلك الطبيب أنني كنت على علم بدخولها المشفى. أصبحت شديد القلق. حطمت السيارة تقريبا عند خروجي من بوابة منزلنا وبدت وكأنها تتدلى من عمود البوابة، كنت أقود سيارتي كرجلٍ يوصل زوجته الحامل إلى المستشفى في الليل، حين

ينتابها ذلك الألم المعروف، وكأنها لم تكن قد شعرت بذلك الألم البتة، في هنا ربما يكمن أساس المسألة.

كانت تحدق بالكأس.

سألتها: «كيف حال ساقيكِ؟».

أجابت: «متورمتان، إنه مجرد تجمع للماء فيهما. هذا ما قالوه لي. ليت هذا التجمع المائي يرحل».

قلت وقد استجمعت شجاعتي من كلمة (يرحل): «نعم، بالطبع. انظري، كنت أفكر أن الأمر سيكون رائعا، حين أرتب أمور العمل؛ أن نذهب بعيدا لبضعة أيام. أن نرحل في عطلة». نظرت إليّ وهي تذيب الأقراص في الكأس، تجهز نفسها لاجتراع الدواء المر. يؤسفني أن أقول إنها ضحكت، ضحكة قصيرة عابرة، وأظن أنها كانت تود أن لا تطلق العنان لضحكتها، ولكن ها قد صارت ضحكة بيننا.

قالت: «لا، لا أعتقد».

سألتها: «لم لا، دعيها تكن من أجل الأيام الخوالي. سيكون مجديا لكلينا».

«وهل هذا صحيح يا دكتور؟».

«نعم، سيكون مجديا لنا، حتما».

وفجأة كان من الصعوبة التحدث إليها. وكأن كل كلمة أصبحت كتلة من الصلصال في فمي.

قالت: «أنا آسفة، وليم»، وكان هذا يكفي لأن يكون علامة شؤم، تنطق اسمي الأول كاملا، ما عادت تقول ويل، فقط وليم، إنه التفكك. أكملت: «في الحقيقة أنا لا أرغب في ذلك. إنني أكره أن أرى الأطفال».

«تكرهين ماذا؟».

«أكره أن أرى الناس معهم أطفالهم».

«لماذا؟».

أوه، نعم. كم كان سؤالي في منتهى الغباء. أطفال. إنه الشيء الذي لا نملكه. لقد مررنا بصعوبات جمة وذقنا الآلام. منذ ذلك الحين فصاعدا.

«وليم، أنت لست رجلا غبيا».

«سنذهب إلى مكانٍ حيث لا يوجد به أطفال».

قالت: «أين؟ المريخ؟».

قلت وأنا أرفع وجهي إلى السقف وكأن المكان المحتمل كان هناك: «سنذهب إلى مكانٍ لا يوجد فيه أي طفل. لا أعرف أين يكون هذا المكان».

****

ومن ثم حدث الرعب الذي ما بعده رعب.

حتى يومنا هذا، أقسم بالله، أنا لا أعرف كيف حدث ذلك. ربما شخص آخر أو أناسٌ آخرون بلا شك يعرفون كيف حدث ذلك، أو عرفوا إبان حياتهم. وربما لم تكن التفاصيل بتلك الأهمية، لم تكن أبدا، ولكن في النهاية، إن ما اعتقده بعض الأشخاص، هو الذي قد حدث.

ليس هذا هو المهم الآن، ربما لأن كل أولئك الناس قد جرفهم الزمان مثل السيل. ولكن ربما هناك مكان آخر حيث يصبح كل شيء ذات أهمية إلى ما لا نهاية، قد يكون ذلك المكان عند المحكمة الإلهية كما ينبغي أن يكون. ستكون محكمة تنفع الأحياء من البشر ولكن هيهات أن يراها الأحياء.

أشخاص مجهولون يقرعون الباب في تلك اللحظة، ويصرخون بأصوات جهورية فيها من القسوة الشيء الكثير. صرنا مثل براغيث

الغابة متخفين داخل الجذوع، ومن ثم تشتتنا في اتجاهات مختلفة، وأنا أتراجع مثل ممثل في دورٍ مأساوي بمسرحية متنقلة، مثل ما يمكن أن تراه في قاعة رطبة في المدينة، وثلاثة من الجنود غير النظاميين يزحفون هربا إلى أسفل الطاولة، كان والدي يجر الأب غانت نحوي، كما لو كان يريد أن يخفيني وراء الكاهن، فكنت محبوبته. لأنه كان من الواضح لأي شخص أن رشقا من الطلقات ستبتدئ الآن، وكما ظننت على وجه الدقة، فُتح الباب الحديدي عن مفاصله الكبيرة.

نعم، لقد كانوا رجال الجيش الأيرلندي (الجديد) في هيئتهم المريبة. من الأرجح أنهم حين وصلوا إلينا كان معهم كمية كبيرة من الطلقات، وأقل ما فعلوا هو توجيه بنادقهم نحونا يصوبونها علينا بكل شراسة. عيناي الصغيرتان تنظران إليهم بحذر من خلال ساقي أبي، الوجوه الستة أو السبعة التي دخلت، كان يعلوها الهلع حين ينعكس ضوء المدفأة عليها. قفز من وراء الطاولة ذلك الشاب الطويل النحيف من المناطق الجبلية، وبنطاله الذي لا يكاد يصل إلى كاحليه، ولأسباب جنونية هو أدرى بها، تأهب ضد القادمين الجدد كما لو كان في ساحة معركة حقيقية.

ظهر شقيق الرجل الميت وراءه مباشرة، ربما كان من فرط حزنه يطلب الموت لنفسه. من الصعب وصف الضوضاء التي تحدثها البنادق في مساحة مغلقة صغيرة، ولكنها حتما ستجعل العظام تنسلخ عن اللحم. أنا وأبي، والأب غانت تراجعنا إلى الحائط معا، وطلقات الرصاص التي صوبت نحو الرجلين، اخترقتهما بمسارٍ غريب، لأنني رأيت فجوات تنفجر فجأة في جص الجدار القديم بجانبي. أولا الرصاصات، ثم قطرات خفيفة من الدماء تتساقط فوق زيي المدرسي وعلى يدي، كما على والدي، وبالتالي على

حياتي أيضا. لم يقتل هذان الجنديان غير النظاميين، بل سقطا على الأرض يتضوران ألما.

صاح الأب غانت: «من أجل محبة الله، كُفوا، توجد فتاة صغيرة هنا، وأشخاص عاديون». أيا كان يقصد بأشخاص عاديين لا يهم.

وصرخ أحد الجنود الجدد: «ألقوا بنادقكم، ألقوها أرضا». وكانوا يصرخون تقريبا. بالتأكيد ألقى الرجل الأخير من ناحيتنا صوب الطاولة مسدسه، الذي كان في الحزام المربوط حول خاصرته، ووقف على الفور رافعا يديه. عاود النظر في وجهي، كأني أرى عينيه باكيتين، كانت تبدو عيناه وكأنه على وشك القيام بشيء ما، بالطبع كان ينظر إلي بنظراتٍ حادة، ثاقبة، كعينَي شخصٍ مقبل على جريمة قتل، كانت نظراته أكثر شراسة من الطلقات التي لم تكن لديهم.

قال الأب غانت: «انظر، أعتقد أن هؤلاء الرجال ليس لديهم أي من الطلقات في الوقت الراهن. أرجو من كل واحدٍ منكم أن يكف عن القيام بأي شيء!»

قال قائد الرجال: «لا طلقات؟ بالفعل لأنهم قد أفرغوها في رجالنا هناك فوق الجبل. ألستم أولئك الأوغاد الذين كانوا فوق الجبل؟».

يا إلهي، يا إلهي، كنا نعلم أنهم هم من كانوا في الجبل، ولسببٍ لم ينبس أي أحدٍ منا ببنت شفة.

قال الرجل الذي يدعى جون وهو على الأرض: «لقد قتلت أخي». كان يمسك بالجزء العلوي من فخذه، وكانت هناك بقعة كبيرة غريبة من الدم الداكن اللون تحته مباشرة كبركة دم قاتم اللون مثل لون الطيور السوداء. «لقد قتلته بدمٍ بارد. أنت قد

أوقعته في الأسر، ووجدته مسالما، فأطلقت النار عليه، أطلقت النار على بطنه ثلاث مرات، اللعنة! ».

قال قائدهم: «إذن لن تعود لتتسلل إلينا وتقتلنا أينما كنا! ألقِ القبض على هؤلاء الرجال». وصرخ في الرجل طريح الأرض والذي قد استسلم: «وأنت احسب نفسك ضمن المعتقلين».

«خذوهم جميعا يا شباب إلى الشاحنة، وسنقوم بترتيب الأمور لاحقا. في ظلام الليل، قبضنا عليك، في هذا المكان النتن، تجمعتم مثل الجرذان». قال لأبي: «أنت يا رجل، ما اسمك؟». أجاب أبي: «جو كلير، أنا حارس المقبرة هنا. وهذا الأب غانت، أحد قساوسة الأبرشية. استدعيته ليساعدني في دفن الصبي الميت هناك».

قال القائد في بأسٍ شديد: «أتدفن أمثال هؤلاء في سليغو». وهرع إلى الطاولة يحوم حولها ووجّه بندقيته إلى صدغ الأب غانت: «أي صنف من القساوسة أنت حتى تعصي الأساقفة الذين تنتمي لهم؟ هل أنت أحد أولئك البذيئين المرتدين؟».

سأله أبي: «هل ستطلق النار على قسيس؟».

سرعان ما ركع الأب غانت كأنه في الكنيسة. كما لو كان في حالة الصلاة بصمتٍ دون أن ينبس ببنت شفة.

نبهه أحد الجنود غير النظاميين: «جيم، لم نطلق النار على أي قسيس في أيرلندا إلى الآن. توقف، لا تطلق النار».

تراجع القائد ورفع بندقيته بعيدا عن الأب غانت.

«هيا يا شباب، اجمعوهم، سنخرج من هنا».

استنهض الجنود اثنين من الجرحى برفق نوعا ما وقادوهم خلال الباب إلى الخارج. بيد أن الرجل الثالث الذي وقع في الأسر، أدار وجهه نحوي وقال: «لعل الله يغفر لك ما فعلتِ ولكنني لن أغفر لك هذا».

أردفت: «لكنني لم أفعل شيئا».

«لقد أخبرتِهم أننا موجودون هنا».

«لا أنا لم أخبرهم، أقسم بالله».

قال: «انظري لنفسك، أنتِ متلبسة بالجرم».

أنكرت: «لا لست مذنبة».

ضحك الرجل ضحكة قوية مثل زخة مطر تصفع وجهك، ثم أخذه الجنود خارجا. كنا نسمعهم يجرون الأسرى على حصى الطريق. أما أنا فقد كنت أرتعش من رأسي إلى أخمص قدمي. وعندما خلا المكان منهم، مد القائد يده للأب غانت وأخذ بيده بقوة، وجعله يقف على قدميه.

قال له: «أنا آسف، أيها الأب، لقد كانت ليلة فظيعة. قتلٌ وصخب. اعذرني».

لقد تكلم بكلمات مفعمة بالصدق، مما صدم أبي وأنا معه أيضا.

قال الأب غانت بصوتٍ خافت يشوبه شيءٌ من الحدة: «إنه من المعيب أن يحصل هذا. حقارة. لقد دعمت الوطن الجديد بكل ما في وسعي. نحن جميعا فعلنا ما بوسعنا، ما عدا هؤلاء الأولاد المعتوهين المضللين».

قال القائد: «عليكم أن تنتبهوا إلى ما يقول الأساقفة لديكم وأن لا تقدموا العون لهؤلاء الملعونين».

رد الأب غانت بأسلوب ناظر المدرسة المتغطرس: «دعني أفكر فيما يتوجب علي عمله بنفسي. ما الذي ستفعله بالجثة؟ ألا تريد أن تأخذها معك؟».

«ماذا تريد أن تفعل بها؟» قال الجندي في حين بدا عليه الإعياء واستنزاف الطاقة من بعد القيام بمجهودٍ جبار. لقد تكلفوا

الذهاب إلى منطقة مجهولة لا يعلم بخطورتها إلا الله. ويبدو الآن أن فكرة حمل ويلي أخي جون بازدراء فكرة تتعدى الحدود.

«سأجلب الطبيب ليفحصه ومن ثم يعلن موته، وبعد ذلك سنرى لمن ينتمي، وسيكون الدفن ربما في مكانٍ ما في ساحة المقبرة إذا لم يكن لديك اعتراض».

«سوف تدفن شيطانا فيها إن فعلت هذا. من الأفضل إلقاؤه في حفرة خارج الجدران، مثل مجرم أو طفل لقيط». ولم يقل الأب غانت شيئا عن ذلك. خرج الجندي. لم ينظر إليّ أبدا ولو لمرة واحدة. عندما توقف صوت حذائه على الطريق ذي الحصى بالخارج، عمت برودة وصمتٌ غريب في المعبد. وقف أبي صامتا، جلسنا أنا والقسيس على الأرض الرطبة بصمت، وأكثرنا صمتا على الإطلاق كان ويلي.

قال الأب غانت، وفي أحسن نبرة صوت له كما لو أنه في قداس يوم الأحد: «أنا غاضب للغاية. غاضبٌ لجرّي إلى هذا الأمر. أنا غاضب للغاية يا سيد كلير». بدا أبي غير مرتاح. ماذا كان عليه أن يفعل؟ وجه أبي الذي لم يظهر عليه أنه قد وصل إلى برِّ الأمان، أخافني أكثر من جثة ويلي المتشنجة.

قال له أبي: «أنا آسف. أنا آسف إذا تصرفت بشكل خاطئ في حثي روزان على جلبك إلى هنا».

«لقد ارتكبت خطأ للقيام بذلك، لقد اقترفت خطأ، نعم. أنا غاضب للغاية. عليك أن تتذكر أنه أنا الذي منحك هذا المنصب. كنت أنا، وكانت هناك حاجة إلى تدخل قوي لإقناعهم، دعني أخبرك كم أشعر بنكرانك الجميل الذي أسديته لك، وبسوء تقديرك لي».

ومع هذه الكلمات، خرج القسيس في الظلام الدامس وتحت المطر، تاركا أبي وأنا والصبي المقتول حتى يحضر الطبيب.

«أعتقد أنني عرضت حياته للخطر. أعتقد أنه كان خائفا. لكنني لم أكن أقصد هذا الذي حصل. كنت أظن أن القساوسة يودون أن يكونوا في قلب الحدث. وفعلا هذا ما أردته له».

بدا أبي المسكين خائفا أيضا، لكن الآن خوفه لسبب آخر مختلف.

****

كيف لهذا القدر أن يأخذه على حين غِرة؟ هناك أشياء تتحرك بسرعة أمام أعيننا بالمقاييس البشرية، بينما هناك أحداث متسلسلة تنطلق بسرعة هائلة لا تدركها الأبصار. يرى الطفل الرضيع نجمة تتلألأ في النافذة بالليل المظلم، ويمد يده ليمسكها. هكذا جاهد والدي ليتمسك بالأشياء التي كانت في الحقيقة بعيدة عن متناول يده، وبالفعل عندما لاحت له أنوارها، بدت قديمة ومنتهية.

أعتقد أن التاريخ كان خجولا حيال أبي. لم يكن أبي يريد دفن ذلك الشاب المدعو ويلي وكان مترددا، فما كان إلا أن دعا قسا لمساعدته في اتخاذ قراره. كما لو كان هو بكهنوتيته نفسه قد تدخل في ذلك القتل المقدس أو القتل الذي يكون بعيدا تماما عن الرحمة والمحبة، حتى قربه من تلك الأحداث، كان مدمرا لروحه وكأنه هو الذي ارتكب هذه الجريمة.

ربما فيما بعد في السنوات اللاحقة كنت قد سمعت روايات عن تلك الليلة لم تكن تتلاءم مع ذكرياتي عنها، لكن مع ذلك، كانت هناك دائما رواية متكررة، وهي عندما توقفت في طريقي لجلب الأب غانت، وشيت بالحكاية للجنود الأحرار، إما بتحريضٍ من والدي أو من محض حسي الذاتي. في الحقيقة إنني لم أر الجنود

مطلقا، ولم أتحدث معهم مطلقا، لم أفكر أبدا في القيام بذلك؛ ألن يضع هذا أبي في خطر علاوة على ما هو فيه؟ مثل هذه الروايات موجودة في التاريخ غير الرسمي لمدينة سليغو. والتاريخ، في رأيي، ليس رواية ما جرى بالترتيب على وجه الحقيقة، بل هو ترتيب خرافي للتخمينات والادعاءات يتم رفعه في وجه الانقضاض على الحقيقة.

ينبغي للتاريخ أن يكون خلّاقا عظيما بالنسبة لحياة الإنسان، لأن الحياة وحدها مجرد تهمة ضد هيمنة الإنسان على كوكب الأرض.

إن قصتي، أو قصة أي شخص، تُروى دائما ضدي، حتى ما أكتبه أنا هنا، لأنني لا أملك تاريخا بطوليا لأسرده. لا توجد لدي صعوبة ليست من كسب يدي. القلب والروح، القريبان جدا من الطهارة، كلاهما قد تلوث بالإقامة ها هنا، كيف يمكننا تجنب ذلك؟ إن هذه أفكاري، ولكن ربما استعرتها من القراءات القديمة للسير توماس براون. بيد أنها تبدو كما لو كانت أفكاري أنا. كأنها تدق في رأسي أجراسا من نفس أفكاري. هذا غريب. لذا أعتقد أن الله هو الخبير بالقلوب والأرواح الملوثة، ويستطيع أن يرى النموذج الأول القديم فيها ويرعاها على ما هي عليه.

من الأفضل أن يرعى حالتي، وإلا فإنني سألتحق بالشيطان قريبا.

****

كان منزلنا نظيفا، لكنه لم يكن نظيفا بما فيه الكفاية في اليوم الذي جاء الأب غانت لزيارتنا. كان صباح يوم الأحد حوالي الساعة العاشرة، على الأرجح أن الأب غانت كان قد انتهى من القداس فأسرع من كنيسته بمحاذاة النهر ليطرق بابنا. بما أن أمي كانت

تمتلك مرآة قديمة وضعتها على طابوقة صفراء في نافذة غرفة الجلوس، فكان بإمكاننا دائما أن نرى من كان على الباب دون أن نظهر أنفسنا، وقد انعكست صورة الكاهن على المرآة فتناثرنا من مكاننا. دائما ما يكون المظهر هو هاجس الفتاة الأهم ذات الأربعة عشر ربيعا، أو هي تعتقد أن مظهرها هو الأهم، لكن عند الحديث عن المرايا، فقد كنت أسيرة تلك المرآة التي في غرفة نوم أمي، لا لأنني كنت أرى نفسي فيها جميلة، لكن لأنني لم أكن أعرف كيف أبدو، فكنت أنشغل لعدة دقائقٍ كي أصلح من هيئتي بثقة تامة، أو أن يبعث الرضا في نفسي، وكان ذلك بعيد المنال. اللون الذهبي لشعري كان يبدو مثل العشب المبلل الذي بدا هائجا، وطيلة حياتي لم أعرف من هو الشخص الذي يطل علي في مرآة أمي الصغيرة المتآكلة الأطراف، ولأن حواف المرآة قد أتلفت، فقامت بالفعل بصبغ الأطراف بطلاءٍ غريب اشترته ربما من الصيدلاني، وزينت حواف المرآة بسيقان وأوراق سوداء صغيرة، وهذا ما أعطى كل ما كان يظهر في المرآة البعيدة عن الشاعرية مظهرا جنائزيا حزينا كان يناسب مهنة أبي، على الأقل حتى الوقت الراهن. لذلك كان أول إجراء لي هو أن أسرع في صعود الدرج الصغير لأصل إلى المرآة وأتغلب على هلع ابنة الأربعة عشر عاما.

عندما عدت إلى غرفة المعيشة كان والدي واقفا في منتصفها، ينظر إليه وكأنه نهر قد جفل، وعيناه تبرقان تارة ينظر إلى الدراجة النارية، وتارة أخرى على البيانو، ومن ثم على الفراغات بينهما، تندفع يده الآن إلى وسادة كانت على أحسن كرسي. عندما نظرت إلى القاعة الصغيرة، كانت أمي واقفة هناك، تسمرت في مكانها، لا تحرك ساكنا، مثل ذلك الممثل الذي ينتظر الخروج على المسرح لأداء دوره، وتستعيد شجاعتها ثم ترفع المزلاج.

مـع وصـول الأب غانــت إلى غرفتنـا، كان أول شيء لاحظتـه هـو مـدى بريقـه، فقـد حلـق وجهـه تمامـا بحيـث بـدا جلـده وكأنـك يمكنـك الكتابـة عليـه بقلـم. لقـد بـدا مطمئنـا للغايـة، أكـثر الأشـياء اطمئنانـا في أيرلنـدا، في وقـت لا أمـان فيـه ولا اطمئنـان. كان كل شـهر مـن تلـك السـنة أسـوأ مـن الـذي قـد سبقه، كـما يقـول أبي، حيـث كل شـخص يقتـل يكـون صـداه في نفـس أبي. لكـن الكاهـن بـدت عليـه القدسـية، والعفـاف، والتميـز. كان بمنـأى عـن تاريـخ أيرلنـدا نفسـها. ليـس هـذا مـا فكـرت بـه في ذلـك الوقـت، فاللـه يعلـم مـا كان يـدور في خلـدي، لا أدري، بيـد أن هـذه الطهـارة جعلتنـي أخـاف.

لم أرَ أبي أبـدا منزعجـا إلى هـذا الحـد. كان بإمكانـه التحـدث في فـورة واجتيـاح.

قـال لـه أبي: «آه، ولكـن، أجـل، اجلـس هنـاك، أيهـا الآب، فلتجلـس الآن». قـال وهـو ينـدفـع نحـو الكاهـن الـذي لا يبتسـم، كـما لـو كان يدفعـه إلى الكـرسي. لكـن الأب غانـت جلـس ثابتـا كالراقـص.

كنـت أعـرف أن والـدتي كانـت في الـرواق، في تلـك الفجـوة الصغـيرة صامتـة مقـدرة للخصوصيـة في ذلـك اللقـاء. أمـا أنـا فوقفـت عـلى الجانـب الأيمـن مـن أبي كالحـارس، مثـل خفـيرٍ أعصمـه ضـد هجـوم العاصفـة. كان رأسي تزدحـم فيـه بعـض الأفـكار الشريـرة والمجهولـة، لم أسـتطع التفكـير، لم أسـتطع الاسـتمرار في تلـك المحادثـة الطويلـة التـي بتنـا نجريهـا في رؤوسـنا، كـما لـو كان هنـاك مـن يكتـب دون علمنـا.

قال أبي: «إذن، سنجهز الشاي، سنفعل ذلك، ما رأيك؟».

نـادى أبي عـلى أمـي: «سـيسي، سـيسي، سـخني إبريـق الشـاي يـا عزيـزتي، هيـا».

قـال الكاهـن: «أنـا أشرب الكثـير مـن الشـاي، عجبـا كيـف لبشرتي لم تتحـول إلى اللـون البنـي».

ضحك أبي.

«أنا على يقين أنك تفعل ذلك. وبدافع الإحساس بالواجب. ولكن لا حاجة له في منزلي. لا حاجة له. أنا مدين لك بكل شيء في العالم، كل شيء في العالم. ليس هذا فقط، ليس هذا.. ».

وعند هذه الجملة تعثر والدي بالكلمات، وأحمرَّ خجلا، وأنا أيضا كنت مثله وأستطيع القول إنني شعرت بالخجل، بيد أنه كان لأسباب لم أتمكن من إدراكها.

تنحنح الكاهن وابتسم: «سوف آخذ كوبا من الشاي، بالطبع سأفعل».

«حسنا، هذا جيد، هذا جيد جدا».

وقد كان بإمكاننا سماع والدتي تتحرك في حجرة المؤونة عند نهاية الممر.

قال الكاهن، وهو يفرك يديه فجأة: «لقد أصبح الجو باردا جدا اليوم، فأنا أشعر بارتياحٍ جم لقربي من المدفأة الآن. إن البرودة شديدة والصقيع انتشر على طول النهر». استأذن من أبي وهو يستخرج علبة فضية: «هل تمانع» لقد قال، وهو يستخرج علبة فضية «إذا ما دخنت؟».

قال أبي: «خذ راحتك».

أخرج الكاهن علبة الكبريت من صنف العلامة التجارية «البجعة» من ردائه الكهنوتي وسيجارة مستطيلة غريبة الشكل من العلبة، وأوقد عود الكبريت بمهارة ودقة، وقرب الشعلة إلى السيجارة وهو يأخذ نفسا عميقا منها. وبعدها أطلق زفيرا مع سعال خفيف.

قال الكاهن: « ال.. ال.. المنصب في المقبرة كما تعتقد ليس بالإمكان المحافظة عليه، أليس كذلك؟».

أخذ نفسا آخر من سيجارته بصورة راقية مضيفا: «يؤسفني أن أقول هذا، جو. أنا لا أحب هذه الحقيقة ومتأكد أنك لا تحبها كذلك. لكنني على يقين أنك ستقدر موقفي؛ هناك مشاكل جمة قد انحدرت على رأسي، من قبل الأسقف، الذي يعتقد أن جميع المنشقين يجب إقصاؤهم، كما تقرر من المجلس الأعلى الحالي، والمحافظ الذي أنت على دراية بأنه يعارض المعاهدة كما هي عليه الآن، وأنت تعلم أنه الرجل الأكثر تأثيرا في سليغو حاليا. كما يمكنك أن تتخيل يا جو..». قال أبي: « أوه».

قال الأب: «نعم».

الآن وللمرة الثالثة أخذ نفسا من سيجارته ووجد أن شيئا من الرماد تكون على طرف السيجارة، وقام بحركة المدخنين الذين يبحثون عن مطفأة السجائر، والذي كان شيئا لم يوجد في منزلنا، السجائر لم تكن بحوزتنا، حتى للزائرين. أدهشني أبي وهو يمد كف يده إلى الكاهن، اليد التي بالطبع كانت مخشوشنة من حفر القبور، وأذهلني أكثر الأب غانت وهو يضع الرماد على الفور في اليد الممدودة إليه، والتي ربما كانت تتلظى لبرهة عندما تسري الحرارة فيها. خرج أبي مع الرماد في يده يبحث بحماقة، كما لو كان هناك من وضع مطفأة سجائر في الغرفة دون علمه، وبعد ذلك وبكل وقار رهيب وضع الرماد في جيبه.

قال أبي: «نعم، أستطيع أن أتخيل أن هناك صعوبة في التوفيق بين هذين القطبين».

لقد تفوه بتلك الكلمات في منتهى الوداعة.

قال الكاهن: «لقد بحثت لك بالطبع، عن وظيفة بديلة، بالخصوص في مجلس المدينة، وإن كان هذا الأمر في البداية يبدو مستحيلا.. نعم، احتمال وجود وظيفة، كان هناك بصيص من الأمل،

ولكن عندما كنت على وشك الاستسلام بأنه لا يوجد أي وظيفة، أخبرني سكرتير المحافظ، الأستاذ دولان أن هناك وظيفة شاغرة، في الواقع إنهم كانوا يحاولون ملأها منذ وقت قريب، وبصفة مستعجلة، بسبب انتشار مرض الطاعون، في الواقع المسبب لهذا الوباء هو الفئران التي أفسدت المستودعات على ضفاف النهر، أنت تعلم مقاطعة فينسغلين مفعمة بالحيوية للغاية، فالطبيب نفسه يعيش هناك، وللأسف المستودعات متاخمة للأرصفة، فأنت بالطبع تعلم، والجميع يعلمون».

الآن يمكنني تأليف كتيب عن طبيعة الصمت البشري، واستخداماته والمناسبات التي تتطلب الصمت، لكن الصمت الذي استخدمه أبي في صدد هذا الخطاب كان مروعا جدا. لقد كان صمتا مثل فجوة تشفط الهواء. احمر خجلا أكثر، مما جعل وجهه قرمزي اللون، وأصبح كالفريسة التي وقع عليها الهجوم.

في هذه اللحظة دخلت والدتي مع الشاي، وهي تبدو كأنها خادمة في حضرة الملوك، كما بالإمكان أن تتصورها وهي تتعمد أن لا تنظر إلى أبي، ربما تخشى أن تنظر إليه، لذلك تسمرت عيناها على الصينية الصغيرة برسوماتها لمنظر الخشخاش في الحقول الفرنسية. غالبا ما حدقتُ في هذه الصينية حيث كان مكانها في أعلى مكان بالخزانة في غرفة المؤونة، كنت أتخيل حينها أنني أستطيع رؤية ريح تهب خلال الزهور، وتساءلت كيف كان الحال عليه في ذلك العالم من السخونة واللغة غير المفهومة.

قال الكاهن: «لذا، أنا سعيد أن أقدم لك، باسم المحافظ الاستاذ سالمون، نعم، ال.. الوظيفة التالية».

قال أبي: «ما الوظيفة؟».

أجاب الكاهن: «الوظيفة».

استفسرت أمي، كأنها تقاوم المرارة في نبرة صوتها: «ماذا؟» انفجرت الكلمة في أرجاء الحجرة.

قال الكاهن: «صائد الفئران».

لقد وقع علي الاختيار لأقتاد الكاهن إلى الباب، ولا أعلم لماذا. على الرصيف الضيق، مع تجمع الصقيع عليه، صار يزحف وهو متدثر بردائه الكهونتي يغطي رجليه العاريتين، قال الكاهن الشاب: «من فضلك، أخبري والدك، يا روزان، أن جميع مستلزمات العمل موجودة في مجلس المدينة، على ما أظن، الفخاخ وما إلى ذلك، سيكونون هناك».

قلت له: «شكرا».

ثم همّ بالسير في الشارع، توقف لحظة. لا أعرف لماذا مكثت هناك أراقبه. لقد خلع فردة من حذائه الأسود، ساندا يده على جدار منزل جارنا المبني من الطوب، ثم وازن جسمه على قدمٍ واحدة، وتحسس أسفل جوربه بحثا عن شيء ما يعيق مساره، حصاة أو قطعة من الحجر. ثم قام بإزالة الجورب في حركة سلسة، فكشف عن قدم بيضاء طويلة مع أظافر قدمه الصفراء مثل لون الأسنان القديمة، كانت أظافره معكوفة على أصابع رجله، كما لو لم يكن قد قصها من قبل. ثم رصدني ومازالت عيني تراقبه، فضحك، وبعد أن أخرج الحجر المزعج من طيات جوربه، عاد ولبس جوربه من جديد ووقف على الرصيف بثبات وقال بشيءٍ من الرضا: «يا لها من راحة. يومٌ سعيد». وأردف: «تذكرت الآن، هناك كلبٌ أيضا، كلب له علاقة بتلك الوظيفة. اصطياد الفئران».

عندما صعدت إلى غرفة الجلوس، لم يكن أبي قد تحرك من مكانه. وكذلك الدراجة النارية لم تتحرك. ولم يتحرك البيانو. بدا أبي وكأنه لن يتحرك من مكانه مرة أخرى. سمعت صوت تحرك أمي

في المخـزن. سـألته: «هـل تعـرف أي شيء عـن هـذه الوظيفـة يـا أبي؟».

«هل أعرف الوظيفة؟ أوه، أظن ذلك».

«لن يكون الأمر صعبا إلى هذا الحد».

«لا، لا، لـن يكـون صعبـا لأنني غالبـا مـا أتعامـل مـع مثـل هـذه الأمـور في المقـبرة. تحـب الفـئران تربـة المقـبرة الطريـة كالقبـور، وتكـون شـواهد القبـور بمثابـة أسـطحٍ جيـدة لهـا. نعـم، لقـد تعاملـت معهـا بالسـابق. سـأضطر إلى دراسـة هـذا الموضـوع. ربمـا سـيكون هنـاك دليـل في المكتبـة».

سألت: «دليل صائد الفئران؟».

قال: «نعم، ألا تعتقدين ذلك، يا روزان؟».

أنا متأكدة، يا بابا. «نعم، نعم».

الفصل السادس

نعم، أتذكر جيدا ذلك اليوم الذي ترك فيه والدي المقبرة، رجل مفعم بالحياة حين نُفيَ من بين الأموات. كان ذلك يعتبر أيضا جريمة قتل إلى حدٍ ما.

أحَبّ أبي ذلك العالم وأقرانه من البشر فيه، دون أي تحفُّظ من جانبه، باعتبار أنه من المشيخية الموقرة حيث يمكن إزعاج كل الأرواح أو مضايقتها بالتساوي، والاستماع لضحك متسكعي الشوارع الفظ نوعٌ من التفسير الأساسي للحياة وافتداء لها، وفي الواقع الاعتقاد أنه بما أن الله قد خلق كل شيء، لذا يجب استحسان كل شيء من لدنه، وكما أن مأساة الشيطان نفسه أنه هو مؤلف اللاشيء ومصمم الفراغ. لأجل كل ذلك، استند أبي إلى حسن ظنه في عمله، على أنه وبصفته شخصا ذا دين غير اعتيادي، فقد مُنح وظيفة دفن الكاثوليكيين في سليغو كلما حان أوانهم واحدا تلو الآخر.

كان يقول: «يا له من فخر، يا لهذا الفخر»، عندما كنا معا نقوم بإغلاق البوابات الحديدية في المساء، استعدادا للعودة إلى المنزل، وحين تقع عيناه من خلال القضبان على صفوف القبور المظلمة، وشواهد القبور التي كان يعتني بها تختفي في الظلام.. أعتقد أنه كان يحدث نفسه، أو ربما يحدِّث القبور، وربما لم يكن

يتحدث إلي، وربما لم يكن يفكر للحظة واحدة بأنني قد فهمت ما يقول. ربما لم أفهم حينها، لكنني أعتقد أنني أفهمه الآن.

الحقيقة أن والدي كان يحب بلده، وكان يحب كل ما يجول في ذهنه من أن يكون أيرلنديا، ربما لو كان قد ولد جامايكيا، لكان قد أحب جامايكا كذلك بنفس القدر. لكنه لم يكن كذلك. كان أسلافه قد عملوا في الوظائف البسيطة المتاحة لهم في مدنهم الأيرلندية، كانوا يعملون مفتشين للمباني أو ما شابه ذلك، وكان والده قد اكتسب سمعة طيبة كواعظ. لقد ولد في منزل خادم الكنيسة الصغير في منطقة كولوني، أحب قلبه الطفولي كولوني، وصار قلبه يتنامى في حب الجزيرة بأكملها. لأن والده كان أحد هؤلاء المفكرين المتطرفين، الذين كتبوا المنشورات أو على الأقل ألقوا المواعظ، ومع أنه لم تبق أية منشورات، لكنني أتذكر أن أبي ذكر واحدة أو اثنتين منها، يدور حول تاريخ البروتستانتية في أيرلندا، كان والدي لديه آراء يفضل أن يبقيها لنفسه. بمعنى أنه كان يرى الديانة البروتستانتية كأداة ناعمة مثل الريشة، والتي تحولت إلى مطرقة مع إحلال القانون القديم، لتهوي على رؤوس أولئك العمال الذين اعتادوا على كسب رزقهم في أيرلندا، ومعظمهم كاثوليكيون بفطرتهم. كان والده يحب المشيخية، كما كان هو أيضا، لكنه كان آسفا بشدة، لا، بل كان مستاء للغاية من الاستفادة التي كانوا يجنونها من وراء الدين، إلى جانب أديان الأنجليكانيين، والمعمدانيين وإلخ، في أيرلندا.

كيف لي أن أعرف؟ لأن في كل ليلة من مرحلة طفولتي، كل ليلة على التوالي، كان آخر شيء يقوم به في البيت هو أن يأتي إلى سريري الضيق، يدفعني بوركه الكبير حتى أستلقي بنصف جسدي فوقه، ورأسي على وجهه المشعر، وكان يتكلم ويتكلم ويتكلم، بينما تكون

قد ذهبت أمي للنوم في الغرفة الأخرى. وعندما يسمع شخيرها الخفيف، كان يتركني وينضم إليها، لكن في نصف الساعة تلك في الظلام حيث تركها تستغرق بالنوم بمحض إرادتها، كان القمر يظهر فوق الحائط الخلفي، ثم يطفو بغموضٍ وإشراق كما هو دأب القمر في سماء ملؤها النجوم التي لا يمكن الوصول إليها عندما تمد يدك (فقد عرفت هذا الشيء جيدا)، وراح يتلو علي كل الإيحاءات والشكوك والسوابق التي كانت في أعماق قلبه، لم يكن يأبه لفكرة أنني حتى لا أستوعب ما يقوله، ولكنه راح يلقي حديثه كقطعة موسيقية مفضلة لديه، وكذلك لدي أيضا، مثل أعمال الموسيقار بالف وسوليفان، اثنان من أعظم الأيرلنديين الذين عاشوا في ذلك الزمن على الإطلاق، حسب رأيه.

وعمله في المقبرة، تحت رعاية الأب غانت، بمثابة الكمال في حياته، مما جعل حياته هانئة. وبصورة أو بأخرى أصبح كدعاءٍ على روح والده. لقد كان النهج الذي تعلم أن يعيش عليه في أيرلندا المكان الذي أحبه واختاره دون قصد.

وفقدانه لعمله، يعني فقدانه لذاته بصورة غير عادية.

****

الآن أصبح الأمر أكثر صعوبة للعيش معه. كان من الصعب عليه أن يأخذني لصيد الفئران، لكونه عملا قذرا فيه الخديعة وهو محفوف بالمخاطر.

ولكونه رجلا بمعنى الكلمة، سرعان ما وجد ذلك الكتيب الذي من شأنه أن يساعده في عمله، بعنوان إرشادات مثالية لصيد الفئران، من قبل كاتب باسمٍ مستعار: راتوس راتوس. هذا الكتيب عبارة عن مغامرات صياد الفئران في مصانع مانشستر، مدينة امتلأت بمصانع مع أماكن غير متناهية للفئران لتعيش

وتختبئ فيها. يشرح الكتيب لأبي كيفية مباشرة عمله، وتصنيف كل شيء، حتى نوعية الانتباه اللازمة لأرجل ابن مقرض، التي كانت قابلة للعطب بشدة بسبب الأقفاص الرطبة. ولكن أبي لم يكسب قط منزلة امتلاك حيوان ابن مقرض. كانت مؤسسة سليغو ذات طموحٍ متواضع، فقد تم إعطاؤه كلبا من نوع جاك رسل يسمى بوب.

وهكذا بدأت أغرب فترة عشت فيها طفولتي. أعتقد أنني شيئا فشيئا أصبحت فتاة أكثر من كوني طفلة، ومن ثم امرأة أكثر من فتاة. طوال السنوات التي كان أبي صائد الفئران، اعترى طبعي اتزانٌ ووقار ذاتي. ما عادت الأمور التي تبهجني وتسعدني في السابق وأنا طفلة هي نفسها اليوم. كان الأمر كما لو أن شيئا تم التقاطه من الصور والأصوات من عالم آخر، أو كما لو أن الاستحواذ الأكبر للطفل هو السعادة العابرة. لذا شعرت بأنني كنت في حالة انتظار، انتظار شيء مبهم ليحل محل بهاء شبابي. بالطبع كنت شابة، كنت في أوائل شبابي، ولكن لا يوجد أحد حسب ما أتذكر في مثل سن فتاة في الخامسة عشرة من عمرها.

****

يستمر الناس مع ما نسميه الحياة العادية، لأنه لا يوجد أي نوع آخر من الحياة. واصل أبي الغناء «روزز أوف بيكاردي» وهو يحلق وجهه في الصباح، فتتبعثر بعض الكلمات والجمل، وتهمل بين الحين والآخر، حيث كان يحرك النصل على وجهه الخشن، لذلك إذا أغمضت عيني واستمعت إليه وأنا في مكاني بالأسفل، يمكنني أن أتخيله في نوع من أنواع الأفلام الغامضة في عقلي. واصل بكل شهامة في مهمته، وخرج مع كلبه وفخاخه، وتعلم أن يجعل هذا «مهمته المعتادة»، وعاد من عمله، ليس دائما بالأوقات المنظمة

كـما في السـابق، ولكـن مـازال يحـاول أن يتأبـط لقـب بطـل سـليغو، ويعمـل جاهـدا لأن يجعـل حياتـه الجديـدة في سـياق المألـوف.

لكـن هـذه الأيـام ربمـا يقـرأ بنـودا في الصحيفـة مرتبطـة بنفسـه بشـكل مثير للفضـول، أو عـلى الأقـل مـرة مـن المـرات، لأنني سـمعت شـهقته الخفيفـة، ونظـرت إلى الأعـلى وهـو منغمسٌ بقـراءة الصحيفـة. وعندمـا نظـرت إليـه كان الأسـتاذ ردي صاحـب البطولـة والأحـرى هـو رجـل حكومـي جديـد، كـما يقـال. لذلـك تـم الإبـلاغ عـن التحـركات للحـرب الأهليـة في عبـارات صريحـة وواضحـة، عبـارات حاولـت جاهـدة أن توحـي بحيـاة طبيعيـة ثابتـة.

قـال أبي: «بحـق اللـه، لقـد أطلقـوا النـار عـلى أولئـك الشـباب الذيـن كانـوا في المقـبرة في ذلـك الوقـت».

سألته: «أي شباب؟».

«أولئك الشباب الجامحون الذين أحضروا صديقهم المقتول».

قلت: «لقد كان أخا لأحدهم».

«نعـم، روزان، كان أخـا لأحدهـم. أسـماؤهم موجـودة هنـا. لافيـل كان اسـمه، أليـس هـذا بالغريـب؟ وليـام. وكان الأخ هـو جـون. لكنـه هـرب، مكتـوب هنـا أنـه قـد هـرب».

قلـت: «نعـم»، كنـت أشـعر ببعـض الارتبـاك، لكننـي أيضـا في نفـس الوقـت وبشـكل غـير متوقـع سـعيدة. كان مثـل السـماع عـن جيـسي جيمـس أو مـا شـابه. قـد لا ترغـب في الالتقـاء بأحـد الخارجـين عـلى القانـون، ولكنـك مـن جهـة أخـرى تـود لـو يفلـت مـن العقـاب في نفـس الوقـت. بالطبـع أقصـد جـون لافيـل الـذي قـد التقينـا بـه سـابقا.

«إنـه مـن إنيشـكيا. إحـدى الجـزر. المـوليت. بقعـة بعيـدة بالعـالم. أعمـق مـن مايـو. ربمـا يكـون في مأمـن بـين أهلـه هنـاك».

«أتمنى ذلك».

«إطلاق النار على مثل أولئك الرجال كان بالتأكيد أمرا صعبا جدا بالنسبة لهم».

لقد تكلم والدي بجدية عن هذا الموضوع. وبكل مصداقية. حقا، لقد كان أمرا في منتهى الصعوبة. وأن يضعوا هؤلاء الشباب جنبا إلى جنب ربما، أو كل واحدٍ منهم على حدة، من يعلم كيفية جريان هذه الأشياء وإطلاق النار عليهم حتى الموت كما يقال. من يدري ما الذي حدث هناك فوق ذلك الجبل؟ لقد كان الظلام يخيم على كل شيء. والآن هم في عداد الموتى مع ويلي لافيل، من مدينة إنيشكيا.

لم ينبس والدي ببنت شفة بعد ذلك. حتى إننا لم نكن ننظر إلى بعضنا، بيد أن عيوننا ظلت شاخصة على نفس البقعة في الموقد حيث كومة الفحم تصارع في الاشتعال.

****

لكن الصمت الذي يلف أمي كان الأعمق على الإطلاق. ربما كانت مخلوقا من تلك المخلوقات التي تحيا تحت الماء، أو بالأحرى، عندما كنت في جوفها، يمكن أن يكون الأمر كذلك بالنسبة لكلينا، لأنها كانت تؤثر السكوت دوما، ولكنها تتجول ببطء وتفكر بعمق كمخلوق دأب على السباحة.

بذل أبي جهده بكل ما أوتي من بأس ليجعلها تتفاعل مع ما يدور حولها، وقد أظهر لها كل ما في وسعه من الاهتمام. كان أجره من عمله الجديد قليلا للغاية، ولكن لكونه قليلا، كان يأمل أن يفي بالغرض، خاصة في تلك السنوات الصعبة الكئيبة عند انتهاء الحرب الأهلية، وكانت البلاد تناضل من أجل الوقوف على قدمٍ وساق. لكنني أعتقد أنه في تلك الأيام كان العالم بأسره يعاني من الويلات، كانت عجلة التاريخ الجبارة تدور ليس حسب رغبة

الإنسان على الإطلاق، ولكن بيد قوة أخرى لا يعرف كنهها أحد. كان أبي يعطي ما يكسب لأمي، راجيا أنها سوف تقسم بضعة الجنيهات وتضعها في رزم ونعيش منها. ولكن شيئا يتعذر تفسيره مثل القوى الجبارة للتاريخ، كان أمرا بسيطا بما أنه قد أثر في حياتنا نحن فقط، يبدو أنه قد هيمن علينا، وبالتالي لم يكن بالكاد هناك أي شيء نقتات عليه في البيت. قد تكرر أمي الكلام في المخزن وقت العشاء، كما لو كانت على وشك إعداد وجبة لنا، ثم تعود إلى غرفة الجلوس الصغيرة وتجلس هناك، بينما كان والدي، يلبس ملابس العمل جاهزا للذهاب إلى عمله، فقد كان الليل بطوله في انتظاره -لأن أفضل وقت للاعتداء على الفئران هو الظلام- وأنا نفسي نظرت إليها، مع إدراكي شيئا فشيئا أنه لم يكن هناك أي شيء قادم في الطريق إلينا. ثم هزّ أبي رأسه ببطء، وربما في ذهنه شد الحزام على بطنه، لكنه بالكاد يتجرأ على سؤالها ما هو الخطب. في مواجهة متاعبها، بدأنا نتضور جوعا!

ولكن لا شيء يمكنه أن يخترق صمتها. لقد جاء عيد الميلاد، وخطط والدي وأنا معه لنختلق شيئا يبهجها. لقد لمح أبي وشاحا للبيع بالقرب من مقهى القاهرة، في متجرٍ صغير لبضائع عدة، وكان يوفر نصف شلن أو نحو ذلك كل أسبوع، حتى يتمكن من جمع المبلغ اللازم مثل الفأر الذي يجمع حبوب حنطة المؤونة. أرجوك تذكر أن والدتي كانت جميلة جدا، مع أنها لم تعد جميلة الآن، لأن صمتها وجد صدى فأسدل وشاحا رقيقا على بشرة وجهها فبدا قاتما. كانت تشبه لوحة قد كساها الورنيش الداكن، يحجب جمال العمل. لأن عيونها الخضراء الجميلة كانت تنطفئ أنوارها، كان ثمة شيء في جوهر كينونتها يختفي أيضا. ولكن لا يزال في مظهرها العام ثمة لمحة جمال ينال رضا أي فنان على ما أظن،

هـذا لـو كان لـدى سـليغو فنانـين، وهـو مـا أشـك فيـه، غـير رجـال يرسـمون وجـوه آل جاكسـون وآل ميدلتـون وآل بوليكسـفن، وهـؤلاء الرسـامون كانـوا أفضـل الرسـامين في المدينـة.

لم يكـن والـدي مضطـرا للعمـل عشـية عيـد الميـلاد، وكان مـن دواعـي سرورنـا الذهـاب إلى قـداس الكنيسـة، والتـي يقدمهـا القسـيس إليـس في كنيسـته القديمـة المنظمـة. جـاءت والـدتي معنـا بصمـت، نحيلـة مثـل الناسـك في معطفهـا الخارجـي الـرث. أتذكـر المشـهد جيـدا، حيـث أضـاءت الكنيسـة الصغـيرة بالشـموع، وجمـوع البروتسـتانتيين مـن الأبرشـية، الفقـراء وغـير الفقـراء والأثريـاء بالفعـل، كلهـم تجمعـوا هنـاك، الرجـال في ملابسـهم الداكنـة مـن نـوع قـماش الغبرديـن، والنسـاء بملابـس فـرو تحيـط منطقـة الرقبـة إن كان يتوفـر لهـن ذلـك، ولكـن في الغالـب، مـن درجـة لـون الأخـضر غـير الزاهـي المألـوف في ذلـك الزمـن. اخـترق ضـوء الشـموع كل أرجـاء المـكان، عكـس عـلى الخطـوط في وجـه أبي الـذي كان جالسـا بجانبـي، وعكـس عـلى أحجـار الكنيسـة، كـما عكـس في صـوت القسـيس وهـو يتفـوه بالكلـمات الغامضـة والإنجليزيـة المثـيرة مـن الكتـاب المقـدس، والـذي يتـسرب إلى قفـصي الصـدري ومـن ثـم إلى قلبـي الصغـير، يخترقنـي بشـدة إلى درجـة أننـي كنـت أود أن أجهـش بالبـكاء، ولكنـي أبـكي لأجـل مـا لا أسـتطيع قوله.أبـكي لأجـل مصـير أبي أم لأجـل صمـت أمـي، لكـن أيضـا أبـكي لتمجيـد شيءٍ مـا، لجـمال أمـي الـذي كان يتـلاشى مـع أنـه مـازال باقيـا. وشـعرت أن أبي وأمـي هـما في رعايتـي، وكان ذلـك حـين تصرفـت بمحـض إرادتي أن أجنبهـما الخطـر. لسـبب مـا جعلنـي هـذا الـشيء أشـعر بغبطـة غـير متوقعـة، بشـعور نـادرا مـا أشـعر بـه في تلـك الأيـام، لـذا عندمـا علـت أصـوات المرتاديـن المحليـين تنشـد بعـض التراتيـم المنسـية، بـدأت أشـعر بسـعادة غريبـة تغمـرني، وبعدهـا أبـكي

في الظلام المتلألئ، بكاء كاملا بدموعٍ ساخنة وأشعر بارتياح كاذب.

وبكيت هناك، وأعتقد أن هذا البكاء قد يكون قليل الفائدة لأي شخص. رائحة الملابس الرطبة حولي، والسعال من رواد الكنيسة. ما الذي بالإمكان أن أعطيه في مقابل أن يعودوا مرة أخرى إلى تلك الكنيسة، والعودة إلى زمن عيد الميلاد، يسترجع كل شيء أخذه ذلك الزمن، كما قد أخذ الوقت منا، أن ترجع الشلنات إلى جيوب الناس، وتعود الأجساد من أكفانها الطويلة، كل شيء، كل شيء يعود، ربما نكون حينئذٍ متعادلين هناك، نركع معا ونجلس على ألواح الماهوجني، وإن لم يكن إلى الأبد فليكن حتى هذه اللحظات، حتى تلك المسافة الصغيرة من مادة الزمن، وخطوط وجه أبي التي تستقبل بريق الضوء عليه، وجهه الذي يديره ببطء، ببطء نحو وجه أمي ومن ثم وجهي وهو يبتسم، يبتسم بكل أريحيته وطيبته المألوفة.

في صباح اليوم التالي قدم لي أبي قطعة رائعة عرفت فيما بعد أنها حلية صممت لي. كل الفتيات اللاتي كُن يخرجن في سليغو أحببن لمعان ما يسمى «غراب العقعق» الذي صنعه أبي. ومثل بقية الفتيات كنت أحلم في «عش الغراب» الخيالي، حيث دبابيس مزخرفة وأساور وأقراط يمكن العثور عليها، عشٌّ من الغنيمة المحببة. أخذت هدية أبي وفتحت مشابكها الفضية الملونة وشبكتها في سترتي، ورحت أستعرض فيها بفخر أمام البيانو والدراجة النارية.

وبعد ذلك ناول أبي أمي شيئا ضخما مغطى بورق فاخر من المتجر، من النوع الذي كانت في الأيام الخوالي تحتفظ به، فتقوم بطيه وتضعه في الدرج. فتحت العلبة بكل هدوء، وحدقت في الوشاح المرقط وهو مطويٌّ داخل العلبة، ورفعت وجهها نحو أبي وسألته: «لماذا، يا جو؟».

لم يكن لدى أبي أدنى فكرة عما كانت تقصده. هل كان في رسوماته خللٌ ما؟ أم فشل في مهمة شراء وشاح بأسلوبٍ لم يكن يعرفه، من كان سيخبره، وهو صائد الفئران، عن أزياء النساء؟

قال أبي بكل نبل: «لماذا ؟! لا أعرف، سيسي. لا أعرف»، قال بعد ذلك، فجأة، كما لو قد نزل عليه إلهام: «إنه وشاح».

قالت وكأنها قد ضاعت في خضم صمم أصابها بغموض: «ماذا قلت، جو؟»».

قال أبي: «إنه لرأسك، لعنقك، كما تشائين».

بدأ يهتاج، لقد بدا واضحا بالنسبة لي، ذلك الشعور اليائس الذي يتفاقم في أحشاء المانح للعطية الخطأ. كان عليه أن يشرح ما هو واضح، وهذه دائما مهمة بغيضة.

قالت وهي تحدق بالهدية في حضنها الآن: «أوه».

قال لها: «أتمنى أن يعجبك ذلك»، وأظن أنه قد سلم عنقه للفأس بنفسه.

قالت: «أوه، أوه»، لكن لن تعرف أي درجة من التأوه كانت، أو علامَ يدل هذا التأوه، لم يكن أي منا يعرف.

الفصل السابع

مذكرات الدكتور غرين

مهموم للغاية لاكتشافه بمحض المصادفة أنّ بِت قررت عدم الذهاب للاختصاصي الذي أحيلت إليه العام الماضي، (هل كان قبل عام بالفعل، أم هل أنا أحلم؟ أم هل كان هذا العام؟). عند علبة كومبلان في الليلة الماضية، وجدت دفتر مذكراتها الذي نسيته هناك مؤقتا. والآن، بالطبع كان خطأ مني، وغير أخلاقي أيضا، خطأ، خطأ، لكنني فتحته، فقط من دواعي بعض الشغف لدى الزوج الذي لم يعجبها. لأرى ما قد كتبت فيه. لا، لا، فقط لرؤية كتابتها التي تمثل أمرا حميميا وخاصا. ربما ليس حتى لأجل قراءة الكلمات. فقط لإلقاء نظرة سريعة على الحبر الأسود لقلمها الموشى بالنحاس الأصفر، وها هو ذا، منذ بضعة أسابيع فقط، بداية جريئة بقلمها الموشى بالنحاس الأصفر، لكن بالطبع، بداية كانت هي المعنية بها ولا أحد سواها.

«الاتصال على العيادة، ألغيت المواعيد».

لماذا؟

كان هذا الموعد لمتابعة حالة الدوار التي تنتابها، كنت على دراية بذلك إلى حدٍ ما، في الواقع عندما أخبرتني أنها حصلت على التحويل لمتابعة حالتها، شعرت بالارتياح لدرجة أنني أخرجت الأمر

من تفكيري برمته. كنت أفكر وكأن لدي اثنان من العقول. عقلٌ أول، شعرت فيه بالجزع لأنها فعلت ذلك، وعقلٌ ثانٍ، أدرك فيه تماما أنني انتهكت خصوصيتها؛ وهو انتهاك بشكل آخر لشخصها، كما أنني أعرف أنها ستعرف ذلك يوما ما. وسيكون الحق معها.

ماذا عساني أن أفعل؟

لذلك كنت مشتتا طوال الليل. حلي الوحيد للمشكلة هو التشتت الذي بالإمكان أن يكون هو الحل. ربما يخيل إليّ ذلك لسبب وجيه.

في ساعات قليلة مضت، كنت غاضبا منها بشكل غريب، وغاضبا منها جدا من دون أدنى شك، لدرجة أني أردت اقتحام السلالم بالتو والوصول لها وإنهاء الموضوع معها. ماذا تظن أنها فاعلة؟ إن ما فعلته هو محض حماقة سافلة.

أحمد الله أنني لم أفعل ذلك. إن هذا من شأنه أن لا يحل شيئا. ولكن المخاوف الحقيقية تفترسني. يمكن أن يكون التورم في ساقيها ناتجا عن تخثر الدم فيها، ماذا لو صعد التخثر إلى الرئتين أو القلب، فسوف تموت بالحال. هل هذا هو ما تريده؟ اكتشفت مرة أخرى أنه ليست لدي اللغة أو الأسلوب للتحدث إليها حول هذا الموضوع أو أي شيء آخر. لقد أهملنا جُمل الحياة الصغيرة، فأضحت جملها الكبيرة بعيدة المنال.

كنت قد نويت أن أقضي المساء في تصميم طريقة سهلة لاستجواب روزان ماكنلتي، طريقة أستطيع الوصول إلى نتيجة معها. اكتشفت فجأة، بما أنني أصلا غير قادر على التحدث مع زوجتي عن مرضها وعن صحتها بصورة فعالة، فسوف تكون فرصتي ضئيلة مع روزان. لكن ربما يكون الأمر أسهل بكثير لو كان الشخص غريبا، يمكن للمرء حينها أن يكون هو «الخبير» في هذه الحالة،

وليس ذلك الشخص العظيم الذي يقوم بأخذ زمام أمور الحياة. وتصبح من جهة أخرى، أنا واثق إلى حد ما من تقييمي لمعظم المرضى الآخرين. فهم كالكتاب المفتوح، ومحنتهم ظاهرة وجلية. على الرغم من أنني لا أستطيع التخلص من الشعور بأنني منتهكٌ لحرمتهم على الدوام. لكن روزان تظل مثار حيرتي.

كنت أرغب في مراجعة كتابي الغامض عن علاجات الأمراض المجهولة، وهو بالطبع كتاب رائع، ليتني أجد فسحة من الوقت لكي أقرأه من جديد. أعتقد أنه من المفروض أن أعاود البحث في دراستي وأتوسع فيها، ولكني كنت رجلا مهزوزا. كنت أشبه بمصابٍ بخللٍ في عقله إن كان هذا لا يزال حقيقة في عالمنا الحديث. بالنهاية لم أقم بقراءة كتابي، ولم أحل مشكلة زوجتي بِت. إني منهك.

****

شهادة روزان عن نفسها

حدث هذا بعد بضعة أسابيع، حين كنت مع أبي وهو يؤدي الوظيفة المعنية. وفي ذلك الوقت تتكاثر الفئران في بدايات الربيع وكأنها تثأر من صيادها، لذا فإن أواخر الشتاء كان هو الوقت المناسب لصيدها، عندما تتوقف عن التكاثر لفترة من الزمن، فالطقس لم يكن يعتبر عائقا بالنسبة لصائد الفئران. عندما أرجع النظر في الماضي، أرى أنه لأمرٌ غريب أن تكون فتاة صغيرة بمعية صائد الفئران، ولكني كنت في الواقع أستمتع معه أيما استمتاع، وبخاصة بعدما قرأ لي دليل صيد الفئران الذي عرض مهمة الصيد على أنها تتطلب مهارة عالية تصل إلى درجة الاحتراف السحري.

كان يعمل أبي لعدة ليال في دار الأيتام البروتستانتية، وهو مكان غريب في حد ذاته، مع وجود الفئران أو من دون وجودها. كان

عمر المبنى حوالي مئتي عام، وكان أبي يعرف قصصا قديمة عن هذا المكان، ولا أعتقد أنه أمرٌ يُحسد عليه أن تكون يتيما إبان تلك القرون التي مضت، وفقا لما يحكي لي أبي من الحكايات عن هذا المكان. ربما في تلك الأيام كان المكان لائقا نوعا ما. كان ينوي العمل ابتداء من السقف ومنه إلى الأسفل، والتي كانت الطريقة المثلى للقيام بذلك العمل، لتخليص المكان من الجرذان دورا بعد الآخر. تمت إزالة الفئران من الأدوار العلوية، وقد تبقى ثلاثة أدوار أمامه لينهي المهمة، وأما الأدوار المتبقية فقد كانت سكنا للفتيات اليتامى، حوالي مئتي فتاة تسكن هناك حيث كن يرتدين مئزرا جميلا من القماش الكنفى الخشن والذي يلبسنه عند النوم.

قال أبي: «لقد كن ينمن على الأسرة آنذاك، يا روزان، نعم». ولكن في زمن جدك، أو ربما جد جدك، كانت الأمور مختلفة تماما. كانوا يروون قصصا رهيبة عن هذا المكان. لقد أتى جدك هنا كمفتش للمباني، حيث كانت هذه وظيفته، وكانت بتكليف من الحكومة في دبلن آنذاك، لأنه أصبحت هناك احتجاجات ضد الممارسات الخاطئة في هذه الأماكن، نعم كان هناك اعتراضات على تلك الممارسات. أتى أبي إلى هذا المكان الآن، كنا نقف في الفناء القديم في ذلك الوقت، حولنا نور باهت، يحمل معه قفصين اكتظا بالفئران، كما ينبغي له أن يكون، والكلب بوب تبدو عليه أمارات السرور، إنه راضٍ عن نفسه، فهو الذي راح يطارد الفئران من خلال جدرانٍ بسماكة حوالي ثماني أقدام في بعض الأماكن، فيها فجوات عدة، «ربما هناك في إحدى تلك الغرف» وأشار إلى الحائط ذي الأحجار الكئيبة في الطابق الثاني، هناك ما يبدو له كقطعة حقلٍ واسعة من الأسرة، أسرة للأطفال، ربما عشرون طفلا حديثو الولادة استلقوا

جنبا إلى جنب، دخل أبي مع الممرضة العجوز القميئة، كما لك أن تتخيل، وهو يتفحص الأطفال الذين لا يحصون، ولاحظ أنه لا وجود للزجاج على النوافذ، ليس كما هو الحال الآن، وقليل من النار للتدفئة عند البوابة لا تكفي لتدفئة أي شيء في الحجرة، وبالتأكيد ثقوب في السقف وصرير رياح الشتاء العاتية يدوي فيه، اندهش أبي وصاح: «يا إلهي، أيتها المرأة» أو أي شخصٍ آخر يمكن أن يسمعه في تلك اللحظات، «يا إلهي، إن هؤلاء الأطفال لم يقم أحدٌ بالعناية بهم، وهم كانوا حتى عراة، يا روزان، وإذا ما وجد ثوب عليهم، فهو بالكاد قطعة مهترئة بين أجسادهم فقط». وتقول المرأة العجوز بكل سهولة معللة: «أوليس قد أتوا بهم إلى هنا، يا سيد، لكي يموتوا». وأدرك حينها أن هذه الترتيبات قد اتخذت والقصد منها التخلص من الأطفال المرضى والمتكدسين بفائض لديهم. وصارت تلك فضيحة مدوية في تلك الأيام لفترة من الزمن كما أتصور.

لوقتٍ ما عمل أبي بأفخاخ الفئران وأنا أقف بالقرب منه، في صرير الرياح ليلا عندما تزحف بين المباني. القمر بازغٌ ببرودٍ وملل، يجثو فوق سطح مبنى الأيتام. وأبي يغمر الفئران بالبارفين استعدادا لرميها في النيران واحدا تلو الآخر، فقد أوقد نارا في وسط الساحة، مستخدما الحطب المعطب من أحد المخازن، كانت هذه طريقته للتخلص من الفئران حسب ما ينصح به كتيب الدليل، وكان يتبع التعليمات فيه ويعمل به بكل فخر وهمة. عندما أعود بالذاكرة لتلك الأحداث، للأسف فإن بعض الفئران كانت ترمى في النار وهي حية، ولكني لا أظن أني أصنف أبي قاسيا، ربما كان يجد هذا الشيء كتهديد لباقي الفئران التي كانت تشاهد ظلال الفئران المحترقة، ربما كان أبي يفكر بهذه الفكرة.

على أي حال، كان أبي يفتح الأفخاخ، يقبض على كل فأرٍ على حدةٍ، كما ذكرت من قبل، ولكن للتو، برزت صورة في ذهني، قبل إلقاء الفأر في النار كان يضرب رأسه بطرقة قبل رميه إلى اللهب، لقد ظهرت هذه الصورة الآن في رأسي، يشكر الله ويكمل دردشته معي، وربما لأنه لم يكن يركز تماما بسبب وجودي معه، هرب أحد الفئران بين فتح الفخ والضربة على الرأس، فانتزع نفسه من بين أصابعه فجأة متجنبا الكلب بوب المندهش من سرعته، فلم يكن لديه فرصة للانقضاض عليه، ففر وعاد إلى مبنى الأيتام في عتمة النيران ولكن بحركة الوثب المعروفة لديهم.. لعنه أبي قليلا، ولم يعد يفكر فيه، لأنه سيصيده في اليوم التالي لا محالة.

أكمل على باقي الفئران، يحصي كل أنين يحدثه الفأر قبل إرساله إلى حتفه، يغرقهم بالبرافين ويرميهم بالمشعل، صوت الأنين هذا سيسمعه في أحلامه، كان يخيل إلي هذا الشيء. وبعد ساعة زمان يلملم أدواته، ويعلق الفخ على جسده، ثم يضع الحبل المعتاد حول رقبة بوب ونمضي. مررنا عائدين على مبنى الأيتام المظلم إلى جانب الشارع، حيث توجد منحوتة توضيحية أمام اتجاه المدينة، لا مجال للشك أنها كانت نتيجة للوفرة المالية من المساعدات الخيرية في القرن المنصرم التي تظهر على المباني في ذلك الوقت. وحين كنا على وشك عبور الشارع، سمعنا صوتا يرعد من فوق المبنى، التفتنا ونظرنا إلى الأعلى. هذه الأصوات الغريبة، والحافلة بالغموض كانت آتية من المبنى، في الأعلى حيث تقطن الفتيات، وكان وقت سبات الفتيات، ولكن هيهات أن يكن نياما وقد صار الدخان الأسود الكثيف ينفث بشكلٍ مخيف من بين ألواح سطح المبنى، دخان رمادي وأبيض اللون لا يشع منه شيء سوى القمر والنور الضئيل لمدينة سليغو. والآن نسمع الزجاج

يتكسر من مكان ما، وفجأة اندفع ذراع من اللهب الأصفر المشع بلمح البصر، يبدو أنه قد ظل عالقا هناك في هواء الليل لفترة من الزمن، يسلط الضوء على وجه أبي وهو ينظر إلى الأعلى، وبلا شك وجهي أنا أيضا. وانطفأ بصورة غريبة محدثا زئيرا هائلا أسوأ من أي رياحٍ عاتية. يبدو لي في أوج خوفي أنني قد سمعت صوتا يقول: «الموت، الموت». أعتقد أنه كان صوت النيران.

نادى أبي وكأنه رجلٌ عاجز قد وقفت الدماء عن التدفق إلى مخه، وبينما هو يتوسل تشرعت الأبواب لمبنى الأيتام يصحبها هبوب رياحٍ قوية مع ظهور فتيات مصعوقاتٍ، يغطي ملابسهن الرماد والأوساخ، يترنحن ووجوههن تبدو مثل وجوه الجنيات الصغيرات، لم أشعر بمثل هذا الفزع من قبل. اثنان أو ثلاثة من الذين يرعون النزيلات، امرأة ورجلان يترنحون خارجين بملابسهم السوداء، يركضون فوق البلاط لمعرفة ما قد حدث.

ما يمكن رؤيته الآن: سيارات الإطفاء تطلق صفارات الإنذار من مسافة بعيدة، وتقرع الأجراس. وكان الدور الذي تقطنه الفتيات مضيئا كما لو بلج الصباح وألسنة النيران تتدفق من وراء النوافذ الضخمة، وبالرغم من أننا كنا ننظر من زاوية ضيقة، ظهرت الوجوه والأذرع عند النوافذ مثل حشرات العثة في وضح النهار، أو مثل الفراشات النائمة في غرفة بالشتاء وفجأة ينبعث الدفء فيها، ويكون الربيع قد أتى على نحوٍ مهلك. وبعض النوافذ تنفجر فترسل شظايا زجاجية قاتلة نحونا، مما يجعل الجميع يهرعون إلى الجانب الآخر من الشارع. خرج الناس من منازلهم، والنساء يغطين وجوههن بأيديهن، يبكين بعويل غير عادي، والرجال ينادونهن من أسرة نومهم وهم يرتدون الملابس الداخلية الطويلة. وإن لم يشعروا من قبل بالتعاطف قط مع تلك الفتيات اليتامى، فهم

الآن ينادونهن كأنهم آباء أو أمهات لهن. النار تتلظى بضراوة أكبر خلفهم على هيئة وردة صفراء وحمراء مصدرة ضجيجا لم يسمع به أحدٌ ممن هم على قيد الحياة واقف أمام النار، حتى النار التي نراها في الكوابيس. وراحت الفتيات اللواتي كن في سني يخرجن من الغرف الغريبة متسلقات حواف النوافذ العريضة بمآزرهن المحترقة، تتساقط كل واحدة منهن مع صراخ تلو صراخ. وعندما يفقدن الأمل في تحقيق النجاة، يقذفن بأنفسهن مع ملابسهن التي احترقت وانسحبت فوق أجسادهن كأجنحةٍ حقيقيةٍ ويسقطن من ذروة المبنى الضخم، ويلتصقن بالبلاط أسفل المبنى. يستمر فوج بعد فوج منهن يسقطن من النوافذ محترقات، يسقطن صرعى أمام أعيننا.

****

عندما حضر أبي التحقيق، قدمت فتاة نجت من الحريق تفسيرا استثنائيا لما حدث. قالت إنها كانت مستلقية على الفراش وهي تحاول أن تنام، تواجه الموقد الذي كانت فيه كومة من الجمر مشتعلة، آنذاك سمعت شجارا وبعده بفترة وجيزة صخبا. صعدت إلى الأعلى مستخدمة كوعيها لترى ما يحدث، وكان هناك حيوانٌ -كما هي تروي القصة الآن- نحيف يقفز كالفأر فوق النار وفروه يحترق من جراء سمٍّ غير عادي، يجري في أنحاء الغرفة وقد اشتعل وهو يهرول نحو النسيج الخفيف لغطاء السرير الخاص بالفتيات، وقد تدلى جزء منه على الأرض. وقبل أن ينتبه أي أحدٍ إلى ما حدث، كانت النيران قد اشتعلت في مئات الأطراف، فوثبت الفتاة ونادت أخواتها اليتامى وهربن جميعا من الجحيم المتنامي.

عندما عاد أبي إلى البيت من التحقيق قص عليّ رواية الفتاة الناجية، ولكن هذه المرة ليس بالسرير وهو مستلقٍ بجانبي

كعادتـه، إنمـا وهـو جالـسٌ عـلى مقعـدٍ بجانـب السريـر محـدودب الظهـر. لم يسـتطع أي إنسـان إبـان التحقيـق أن يعطـي تفسـيرا عـن ذلـك الفـأر المشـتعل، ولم يقـل أبي شـيئا. صـار قـدره أن يبقـى تعيسـا، فسـكت ولم يجـد أي جسـارة في الإفصـاح عـن الأمـر. لقـد ماتـت مئـة وثـلاث وعـشرون فتـاة مـن الحـرق أو السـقوط مـن الأعـلى. كان يعرف حسـب خبرتـه، وأنـا أعـرف عـن طريـق كتيـب الدليـل أن الفـئران تميـل إلى اسـتخدام المنافـذ السريعـة العموديـة للمداخـن القديمـة. لمسـة مـن النـار عـلى جسـمها ليـس بالأمـر الجسـيم، ولكـن إذا كان هـذا الفـأر قـد انغمـس بالبرافـين واقـترب مـن النـار فـإن أبي كان يعلـم تمامـا عواقـب هـذا.

الفصل الثامن

ربما كان عليه أن يتحدث. لو كنت مكانه ربما لفعلت ذلك أنا وأفشيت سره مثل أطفال الألمان عندما كان هتلر يستدرجهم عن مدى ولاء والديهم إبان الحرب الأخيرة. ولكنني لم أكن لأفشي ذلك أبدا.

****

حسنا، كل الكلام برمته صعب، سواء كان يعرض الشخص للخطورة أم لا. في بعض الأحيان تهدد هذه الخطورة الجانب الجسدي فقط، وأحيانا يكون تأثيره أكبر وطئا على النفس من حيث لا تدري. عندما تتكلم يكون هذا الحديث بمثابة خيانة شيء ما، شيء لا يمكن تحديده، يختبئ داخل تجويف الجسم مثل اللائذ الخائف من ساحة الحرب.

بمعنى، عاد الدكتور غرين اليوم للتحدث، ومعه أسئلته وهو على أهبة الاستعداد لذلك.

زوجي توم كان يصيد الأسماك مثل صبيٍ صغير لمدة عشر سنوات في لوف جيل، كان يصيد سمك السالمون. معظم ذلك الوقت كان يقف بمحاذاة البحيرة يراقب المياه الداكنة. فإذا رأى إحدى أسماك السالمون تقفز، يذهب إلى البيت، ولا يصطادها في نفس اليوم. وهنا تكمن المهارة الفنية عندما لا ترى أية سمكة في

المنطقة المظلمة من المياه، عليك التحديق جليا بذلك المكان المحدد وتطيل النظر إلى مكان وجود السالمون وتتخيل الأسماك تحت الماء، تحس بوجودها هناك من خلال الحاسة السادسة لديك. كان زوجي توم يصيد أسماك السالمون بهذا الأسلوب. وللعلم لم يصطد أية سمكة أبدا. فكيف لك أن تصطاد السمك وأنت لم تر واحدة قط. فكيف إذن ستصطادها؟ بالإمكان ذلك لو كان لديك حركة خفية وشيء من حسن الطالع، وهذا بالأخص ما كان ينقص زوجي توم.

بنفس الأسلوب صدمني دكتور غرين اليوم وهو جالسٌ بصمت في ركني الصغير، امتد بقوامه الأنيق على الكرسي، لا ينبس ببنت شفة، ولا يراقبني بعينيه حرفيا، لكنه يراقبني إثر دافعٍ بدهي، مثل صياد السمك بجانب المياه الداكنة.

آه، أجل، مثل سمك السالمون، شعرت به تماما، ومكثت ساكنة في المياه العميقة، واعية جدا لوجوده، ووجود سنارة صيده وطُعمه.

وأخيرا قال: «حسنا، يا روزان». وأكمل: «أظن أنك في الواقع أتيت إلى هنا، ولكن منذ كم سنة؟».

«إنه منذ فترة طويلة».

«نعم. وقد أتيتِ إلى هنا أعتقد من مستشفى سليغو للأمراض العقلية».

«من ملجأ المجانين».

«نعم، نعم. عبارة قديمة مثيرة للاهتمام. كلمة ملجأ معقولة مع أنها قديمة جدا، ولكن كلمة مجانين كلمة مريبة ولم تعد من الكلمات المستساغة. ولو عن نفسي، عندما يكون القمر قد اكتمل وأصبح بدرا، أتساءل في كثير من الأحيان: هل ما أشعر به غريبٌ بعض الشيء؟».

نظرت إلى الدكتور غرين وحاولت أن أتخيله وهو يتغير من تأثير اكتمال القمر، فيكسو وجهه الشعر، احتمال أنه سيصبح الرجل الذئب.

قال: «تلك القوى الخارقة، التي تسحب الماء من شاطئٍ إلى شاطئ في عملية الجزر والمد، نعم إنها قوى القمر، ذلك الشيء الجدير بالإجلال». نهض الآن وذهب إلى نافذتي. كان باكرا جدا ذلك اليوم الشتوي، ولا شك أن القمر كان أمير الموجودات لحظتها. انعكس ضوؤه في ضياءٍ مهيب على زجاج النوافذ. هز برأسه في وقار وهو ينظر إلى الفناء في الأسفل حيث كان جون كين والآخرون يقرعون صناديق المهملات ويحدثون صخبا على مدار الساعة في المستشفى - الملجأ. ملجأ المجانين. كان المكان فعلا يخضع لقوى القمر.

دكتور غرين مثله مثل الآخرين من الرجال الذين عادة يمسدون أجزاء من ثيابهم وربطة العنق الوهمية، بلا شك يمكنه أن يتلمس لحيته أيضا، ولكنه لم يفعل ذلك. هل حاز على منديل حريري فاخر أو شيء من هذا القبيل كربطة عنق في السنوات السابقة عندما كان شابا؟ أعتقد أنه كان يمتلك ربطة عنق. على أي حال فهو مازال يمسد ذلك الشيء الوهمي وكأنه موجود الآن، يمرر أصابع يده اليمنى ببوصةٍ أو أكثر أعلى ربطة عنقه البنفسجية ذات العقدة السميكة التي تبدو كزهرة يانعة.

هتف بطريقة غريبة: «أوه». كان صوتا يضج بالإرهاق إلى أقصى حد، ولكنني لا أظنه كان مرهقا، كان صوتا يحدثه في الصباح الباكر، صوتا يحدثه وهو في غرفته، ولكنه الآن يطلقه في غرفتي كما لو أن الغرفة غرفته. فربما كل نواياه وأهدافه بالفعل كذلك.

«هل تريدين الخروج من هنا؟ هل تودين أن آخذ هذا الأمر بالاعتبار؟».

لكنني لم أستطع الإجابة. هل فعلا أريد حرية من هذا النوع؟ وهل أكترث إن عرفت؟ فهذه الغرفة الغامضة هي بيتي الآن. على أي حال، لقد عاد ذلك الشعور بالخوف يتسلل إلى كياني، مثل الصقيع على نباتات الصيف والسواد يكسو أوراقها بشكلٍ يرثى له.

«ترى، منذ متى كنت هنا في سليغو؟ هل تتذكرين السنة التي أتيت فيها إلى هنا؟».

أجبت بما أعرفه: «لا. في وقتٍ ما خلال الحرب».

قال: «تقصدين الحرب العالمية الثانية؟».

«نعم».

قال: «كنت أنا حينها طفلا رضيعا».

سادت موجةٌ من الصمت بعد ذلك.

اعتدنا أنا وأبي وأمي النزول إلى الكورنيش الصغير لأحد الخلجان؛ هذه أوائل ذكرياتي، وليس لها أي أهمية أخرى. أتذكر البرودة الشديدة للمياه، وهل تعلم أن حفاضاتي أصبحت ثقيلة وقد تشربت من المياه. يا لها من ذاكرةٍ حية.

كانت الحكومة بالكاد تزود أحدا بالبنزين، لذا ألصق أبي دراجتين ناريتين ببعضهما ملتحمتين ولكلٍ منهما ماكينة غير الأخرى. وأخذ الموقع الخلفي حيث القوة المطلوبة للصعود إلى تلك الهضبات التابعة لهضبة الكورنيش، وكان الأمر مهلكا لعضلات الساقين. أيامٌ صيفية حلوة. كان أبي على سجيته. كنا نجهز الشاي في الصفيح فوق النار المضرمة على الشاطئ مثل صيادي السمك.

ضحك دكتور غرين، تشارك ضحكته الأنوار التي تتنامى بالخارج تؤذن لقدوم الصباح.

ربما كان هذا بعد الحرب.

أردت أن أسأله عن مهنة والده، لا أعرف لماذا، ولكن بدا لي أنه

سؤالٌ عابر. ربما هذا الذي جعلني أسأله. أتخيله الآن. إذن أصبحنا نتكلم عن الآباء؟ ربما كان يلقي طعمه في المياه الداكنة.

«لم أسمع بما فيه الكفاية عن المستشفى القديم في سليغو، في ذلك الوقت. لا بد أنه كان فظيعا، أنا على يقين من هذا».

ولكني سمحت لتلك الكذبة بأن تمر.

«واحدة من الأمور الغامضة في ميدان علم النفس أن مستشفياتنا في ذلك الزمن منذ أوائل القرن كانت بذلك السوء، من الصعب الدفاع عنها وتبرير الأمر، بينما في أوائل القرن التاسع عشر كان هناك الكثير من التنوير تجاه ما أطلقوا عليه اللوثة العقلية. كان هناك إدراك مفاجئ بأن حجز وربط الناس بالسلاسل وغيره أمرٌ غير مقبول، ولذلك بذلوا قصارى جهدهم لرفع المعاناة عن المرضى من جراء هذه الأمور. وللأسف عادت. شيءٌ مريب، في نهاية المطاف. هل تعلمين لماذا أحالوكِ من سليغو إلى هنا؟».

سأل هذا السؤال بصورة فجائية حتى إنني قبل أن أفكر أجبت، ونطقت.

«زوج أمي هو الذي رتب كل شيء».

«زوج أمك؟ من كان هذا؟».

«توم العجوز، الذي تولى الأمر برمته، كان أيضا خياطا في سليغو».

«تقصدين في البلدة؟».

«لا. في المصح نفسه».

«كنتِ في المصح نفسه الذي كان يعمل به زوج أمك؟».

«أجل».

«فهمت».

«أعتقد أن أمي كانت هناك أيضا، لكني لا أتذكر».

«هل كانت تعمل هناك؟».

«لا».

«هل كانت مريضة؟».

«لا أستطيع أن أتذكر. بصراحة لا أستطيع».

كنت على يقين بأنه يود أن يسأل المزيد من الاستفسارات، ولكن كان يكفيه ذلك، فلم يسأل أكثر. يا له من صياد ماهر. عندما تشاهد سمكة السالمون تقفز، لن تصطادها. ربما حتى تعود أدراجك إلى البيت.

قال من حيث لا يعلم أحد: «بالتأكيد أنا لا أريد أن أخيفكِ. لا، لا. ليس هذا مرادي. وعليّ أن أفصح لك يا روزان، نحن قد أودعناك هنا لأجل بعض الأمور. وها نحن نقوم بعملنا».

قلت: «لا أعتقد الأمر يستحق هذا الشيء». فجأة اعتراني الخجل فاحمر وجهي. شعرت بخجل شديد. كما لو أن بعض الأوراق وقطع الخشب قد انزاحت من جدول ماء، وبانت المياه وازدهرت. مؤلمٌ، مؤلمٌ ذلك العار.

قال وهو لا يدرك مدى ضيقي: «أوه، نعم». ربما كان يمهد الطريق ويهيئ مسار مرور ما يود أن يقوله. كان يريد أن يشغلني بموضوعٍ ما. بابٌ يريد أن يفتحه ليستنتج منه شيئا. جزءٌ مني يتوق للأخذ بيده. برحابة صدر. لكن. يتفجر بداخلي كجدارٍ تخرج من فجواتها فئران الخزي والعار، فقد بُني ذلك الجدار بعناية غير متناهية على مر السنين، أطحن في رحى نفسي تلك المشاعر. وإن علي الآن أن أخفيها عن الأعين، أخفي في جداري تلك الفئران البائسة.

لماذا أشعر بهذا العار المبهم بعد كل هذه السنين؟ لماذا مازال في أعماقي هذا العار الأسود الكئيب؟

****

حسنا، حسنا.

يوجد في جعبتنا بعض الأمور الغامضة، ولكن أكثرها وطئا وإلحاحا هي فقرنا، الذي لم يتمكن أبي من سبر أغواره.

في إحدى أمسيات الشتاء عندما كنت عائدة إلى المنزل من المدرسة، التقيت أبي عند النهر.

لم يكن اللقاء فيه بهجة الطفولة التي مضت، ولكني أستطيع القول بكل اعتزاز إلى هذه اللحظة إنه برؤيته لي أشرق وجهه. أشرق وجهه في ذلك المساء المظلم، المظلم جدا في مدينة سليغو. أرجو أن لا يكون هذا بمثابة الافتخار بالنفس.

قال: «الآن يا عزيزتي نستطيع العودة إلى المنزل يدا بيد، إلا إن كنت تخشين أن يراكِ أحدٌ بمعية أبيكِ».

قلت متعجبة: «لا، أنا لا أخشى أحدا».

قال أبي: «حسنا، أنا أدركُ معنى أن تكوني في الخامسة عشرة من عمرك، إنه مثل شاب على الجرف، في مهب الريح العاتية».

لكنني لم أفهم حقا قصده. كان الطقس شديد البرودة إلى حدٍّ يخيل إليّ فيه أن تلك المادة التي وضعها على شعره لكي يصبح شعره أملس قد تجمدت من البرد.

كنا قادمين متسكعين على هوننا إلى شارعنا. وبينما نحن نسير نحو البيوت على طول الطريق، وإذا بأحد الأبواب ينفتح أمامنا، ويخرج رجلٌ إلى الرصيف يرفع قبعته البنية الناعمة ذات الحواف المزخرفة، ليغطي ذلك الوجه الظاهر عند الباب. كان الوجه وجه أمي وكان الباب باب بيتنا.

قال أبي: «حسنا، يا إلهي، هذا فاين خارجا من منزلنا. ترى عما كان يبحث. ترى هل لديه فئران؟».

أقبل فايـن نحونـا. كان رجـلا طويـل القامـة ذا أخـلاقٍ نبيلة، معروفـا في البلـدة، لـه وجـهٌ مثـل رجـلٍ قـد لفحتـه ريـاح مشمسة، مثـل الرجـل عـلى الجـرف ربمـا.

قال له أبي: «يومٌ سعيد يا سيد فاين. كيف تسير أمورك؟».

أجاب: «رائع، بالفعل رائع. وكيف حالكما أنتما؟ كنا في صدمة شـديدة وقلـق مـن جـراء مـا حـدث للفتيـات المسـكينات الـلاتي احترقـن. إنهـا حادثـة مؤلمـة، يـا سـيد كلـير».

قال أبي: «نعم».

احتك بنا فاين وهو يمر بجانبنا.

كنـا صامتـين حـين وصلنـا بـاب بيتنـا، فأخـرج أبي مفتاحـه القديـم وأداره في القفـل ودخلنـا البهـو الصغـير. كان لـدي الإحسـاس بـأن شـيئا مـا يشـغله الآن بعـد هـذا الحديـث.

كنـت قـد كـبرت بمـا فيـه الكفايـة لأدرك أن النـاس يتكلمـون أحيانـا بأشـياء ليسـت مـن أمهـات أفكارهـم، ولكـن شيءٌ مـن نفـس خطـاب تلـك الأفـكار.

كان الوقـت متأخـرا ذلـك المسـاء وقبـل أن يحـين موعـد النـوم، وأخـيرا أتى أبي عـلى ذكـر فايـن.

سـأل أبي: «بالتـالي، صحيـح قابلنـا فايـن هـذا المسـاء ونحـن في طريـق عودتنـا إلى المنـزل. ظننـا لبرهـة أنـه قـد أتى هنـا لزيارتنـا؟».

كانـت أمـي تزيـح الرمـاد مـن بقايـا الحشـائش، لـكي تحـترق عـلى مهـلٍ أثنـاء الليـل، لتظهـر بويضـاتٍ مـن الجمـر الأحمـر في الصبـاح عندمـا تبعـد الرمـاد منهـا مـرة أخـرى.

انتصبـت أمـي واقفـة مـع مجرفـة النـار بيدهـا. ظلـت جامـدة في مكانهـا مـن دون أن تنبـس ببنـت شـفة وكأنهـا في وضعيـة فنيـة لـكي يرسـم فنـان مـا بورتريـه لهـا.

قالت: «لم يكن هنا لزيارتنا».

«لقد ظننا أننا رأينا وجهك من فتحة الباب، وكأنه يرفع قبعته تجاه وجهك».

رمقت أمي النار، وكانت قد قامت بنصف مهمتها من إزاحة الرماد، ولم تكن تبدو أنها ستنهي مهمتها. انفجرت في بكاءٍ غريب ومرير، والدموع تنهمر من عينيها وكأنها تتدفق من كل جسدها، تسربت الدموع منها في بللٍ فظيع. صعقت لمنظرها وأصبحت أشعر بوخزٍ في جسمي بشكل مزعج.

قال أبي بكل بؤس: «لا أدري، ربما كنا ننظر إلى بابٍ غير باب منزلنا بالخطأ».

قالت له بنبرة مغايرة هذه المرة: «أنت تعلم جيدا أنك لم تخطئ، أنت تعلم جيدا. أوه. أوه، لو أني لم أقبل أبدا أن تأخذني من بيتي إلى هذا البلد البارد القاسي، إلى المطر القذر، إلى الناس البذيئين».

كان رد فعل أبي لا لون له ولا طعم، مثل البطاطس المغلية.

لقد صرحت أمي في هذه اللحظة بما يزيد عما قالته لسنة كاملة. كان هذا رسالة عن أفكارها، بل صحيفة كاملة. بالنسبة لأبي كان بمثابة الأعمال الشريرة الأخرى.

بل كان كلامها أسوأ من تمرد أولئك الشباب، وأسوأ من حرق الفتيات تلك الليلة.

بلطفٍ وبصوتٍ غير مسموع، ولكنني سمعته يقول لها: «سيسي».

قالت: «وشاحٌ رخيص من شأنه أن يجعل البائع الهندي يخجل من أن يبيعه».

«ماذا؟».

قالت وهي أقرب للصراخ: «أنت لا تستطيع أن تلومني. لا تستطيع أن تلومني! أنا لا أملك شيئا!».

قفز أبي من مكانه، لأن أمي ضربت ساقها بالمجرفة من دون وعي منها.

صاح أبي: «سيسي!».

لقد أحدثت شقا في ساقها بمقدار بوصة وطفر الدم الداكن منه، يلتمع كقطع الجواهر هناك.

* * * *

في المساء التالي ذهب أبي لرؤية فاين في بقالته. عندما عاد، كان وجهه مصفرا وبدا منهكا. كنت متضايقة حينها لأن أمي خرجت في الظلام، ربما كان يساورها الشك في أمرٍ ما، لكنني لم أعرف إلى أين ذهبت. كانت منذ برهة من الزمن في ركن غسيل الأطباق وكان هناك صوت قعقعة، وبعدها اختفت.

سأل أبي: «هل خرجت؟ يا إلهي، يا إلهي. هل ارتدت معطفها في هذا البرد القارس؟».

قلت: «نعم ارتدت، ألا نخرج للبحث عنها؟».

قال: «أجل، يجب علينا، يجب علينا أن نذهب». ولكنه ظل جالسا في مكانه. وسرج دراجته النارية مازال بجانبه، لم يضع يده عليه. تركه كما هو.

سألته: «ماذا أخبرك فاين؟ ولم ذهبت للقائه؟».

«حسنا، فاين رجلٌ صالح، حقا هو كذلك. كان كثير الاهتمام للأمر الذي ذهبت إليه من أجله، وأبدى اعتذاره لي. فهي قد أخبرته عن كل شيء بحذافيره. وتم الاتفاق بينهما. ترى كيف لها أن تقول ذلك. كيف لتلك الكلمات أن تخرج من فمها؟».

«أنا لا أفهم أي شيءٍ يا أبي».

قـال: «إن الأمـر يتعلـق بكوننـا لا نملـك إلا القليـل مـن الطعـام. إنهـا أصبحـت تأخـذ قرضـا مـن فايـن. وفي طبيعـة الحـال يـأتي كل أسـبوع ليتسـلم نقـوده. وأعتقـد أنهـا تعطيـه كل أسـبوع معظـم النقـود التـي أعطيهـا إياهـا. كل تلـك الفـئران، والجحـور المظلمـة، كل تلـك السـاعات التـي كان بـوب المسـكين يحفـر بأظافـره في غضـون البـؤس وأيـام الفاقة والمشـقة التـي تحملناهـا، كل ذلـك لأجـل سـاعة».

«ساعة؟».

«ساعة».

قلـت لـه: «ولكـن لا توجـد سـاعة جديـدة في بيتنـا، هـل توجـد هنـاك واحـدة يـا أبي؟».

«لا علـم لي بهـا. ولكـن فايـن يقـول ذلـك. ليـس أنـه قـد باعهـا سـاعة، إنـه يبيـع فقـط الجـزر والقرنبيـط. لكنهـا عرضـت عليـه السـاعة هنـا يومـا مـا، عندمـا كنـا أنـا وأنـت بالخـارج. سـاعة جميلـة، قـال لي. مصنوعـة في نيويـورك. تـدق برنـين تورنتـو».

سـألت أبي: «ومـاذا يكـون هـذا؟». وبينـما كنـت أتحـدث مـع أبي كانـت أمـي عنـد البـاب خلـف أبي. كانـت تحمـل بـين يديهـا شـيئا مربـع الشـكل مصنوعـا مـن البورسـلان. لـه قـرصٌ أنيـق المظهـر ومـن حولـه صورة شـخصٍ مـا، بـلا شـك صنعـت في نيويـورك وقـد رسـمت أزهـار صغـيرة عليهـا.

قالـت بصـوت خافـت مثـل طفـلٍ لا يخـاف: «أنـا لم أشـغلها. بسـبب خوفي».

وقف أبي.

«من أين اشتريتِها، يا سيسي؟ من أين اشتريت هذا الشيء؟».

«من محل غريس أوف وير».

قـال أبي دون أن يصـدق مـا يسـمعه: «غريـس أوف ويـر؟ لم تطـأ قدمي هـذا المتجـر قـط. أخـشى أن أدخلـه فيطلبوا منـي رسـوم الدخول».

وقفت هناك وقد انكمشت على نفسها من شدة التعاسة.

قالت: «إنها صممت بواسطة أنسونيا في نيويورك».

قال لها أبي: «هل بالإمكان أن نعيدها لهم يا سيسي؟ لنعيدها إلى محل غريس ونرى كيف يكون وضعنا بعد ذلك. ليس بإمكاننا أن ندفع النقود لفاين. لن يعطوك أبدا ما دفعتِ لهم، لكنهم ربما يعطونك جزءا من الذي دفعتِه، وربما تسددين به دينك من فاين. إني متأكدٌ أن بإمكانه أن يجبرني على دفع ما أقرضك».

قالت: «لم أسمع لها دقة واحدة أو رنة».

«حسنا، أديري المفتاح فيها وسيدق وعندما تدق الساعة ستسمعين الرنين».

قالت: «لا أستطيع، لأنهم سيجدونها. سيتتبعون الصوت ويجدونها».

«من سيجدها يا سيسي؟ نحن، من سنجدها؟ إننا كشفنا كل الموجود الآن».

قالت أمي: «لا، لا، الفئران. الفئران سيجدونها».

نظرت إليه أمي وعلى وجهها لمعانٌ غير مألوف، وكأنها تتشارك في مؤامرة.

قالت: «من الأفضل أن نهشمها».

قال أبي وقد اعتراه اليأس بكل معنى الكلمة: «لا».

«لا، سيكون أحسن. لتتحطم. لنحطم ساوثامبتون وكل شيء. وسليغو. وأنت. سأرفعها للأعلى الآن يا جو، وأنزلها إلى الأرض هكذا». وبالفعل قذفتها على قطعة الإسمنت الرطب من الأرض. «هكذا، فجميع الوعود قد تحققت، وكل الآلام قد تداوت، وكل الخسائر قد استرجعت! ».

طرحت الساعة أرضا بقطعها الخزفية المتناثرة هناك، والتروس

الصغيرة تفككت، ولأول وآخر مرة في بيتنا، تطلق ساعة أنسونيا رنينا، رنينها التورنتي الخاص.

****

بعد هذا الحادث بفترة وجيزة، عليّ أن أبلغ عن ممات أبي، لقد وجدوا أبي ميتا.

إلى يومنا هذا، لا أدري ما الذي أماته بالضبط. وظل موته مثار حيرتي أكثر من ثمانين سنة. لقد أعطيتك بداية الخيط، وأين قادني ذلك؟ لقد وضعت كل الحقائق أمامك.

بلا شك، فإن أمر الساعة هو أمر طفيف ليبعث على قتل رجل!

وبالتأكيد، فإن موت الشباب هو شيءٌ فظيع، يزيد قتامة على قتامة موت أبي إلى الأبد.

والفتيات أيضا، أجل، كان أمرا شديد القتامة بالرغم من بريق النيران ساعة سقوطهن.

لقد كان قدر أبي أن تنزل عليه تلك المصائب.

كان أبي حاله حال أي شخصٍ آخر، أو أي شيءٍ آخر، ساعة أو قلب، لا بد له أن يصل إلى نقطة الانهيار.

كان الشارع التالي في بيتٍ ريفيٍ مهجور حيث كان يقوم كالعادة بالتخلص من الفئران هناك، وبناء على طلب الجيران عن يمين ويسار البيت غير المسكون. هناك في ذلك البيت الريفي شنق نفسه.

أوه، أوه، أوه، أوه، أوه، أوه، أوه، أوه، أوه.

أتعلم كان الأمر محزنا؟ ليتك لا تعلم. إنه الحزن الذي لا يشيخ، ولا يتلاشى مع مرور الزمن، مثل أغلب الأحزان والأمور الأخرى التي تواجه البشر. إنه الحزن القابع داخلي، يتأرجح في ذلك البيت المهجور، أبي، يا أبي.

إني أبكي لأجله.

الفصل التاسع

أعتقد أنه عليّ أن أضيف بعض الأمور غير السارة التي حلت على أبي بعد موته. عندما لم يكن نبأ موته سوى وجبة انتهوا من تناولها أو واقعة مضى عليها الزمن. من المحتمل أن تحب شخصا أكثر من نفسك، ولكن كطفلة، أو شبه امرأة، يكون لديها مثل هذا التفكير، إنه لأمرٌ محزن، فحين أتوا بجثمان أبي إلى منزلنا، كنت بانتظار مأتمه الحتمي.. ولم نكن نأمل بأن يكون هناك العديد ممن سيحضر مأتمه.

تم وضع دراجته النارية في الفناء الصغير بواسطة جارنا باين، ذلك الرجل ذو العينين الخاليتين من العواطف، هو جارنا النجار، لم يتوانَ لحظة في مساعدتنا. لا داعي للقول إنها كانت المرة الأخيرة التي أخرجت فيها الدراجة النارية خارج البيت وتركت هناك إلى الأبد.

وضع كفن رخيص لأبي وأنفه الضخم أكثر شيءٍ يبرز منه. وبسبب شنقه لنفسه غطوا وجهه بطبقة سميكة من الطلاء الأبيض وبدا وجهه كوجه ساعة الحائط. نفذ هذا العمل مسؤولو سلفستر لتجهيز الجنائز. ومن ثم احتشد الناس في الشارع، مع أنه كان لدينا القليل من أباريق الشاي لنقدمها إلى المعزين، غير أن الذي أدهشني هو أن الناس كانوا على سجيتهم، كان منهم من

هـو في سرور، ومـن جانـب آخـر تظهـر عليهـم أمـارات النـدم جليـا لفقـد أبي. أتى رئيـس المشـيخية إليـس، وحـضر الكاهـن غانـت، المفـترض أنهـم عـدوان أو المنافسـان لبعضهـما في أيرلنـدا، تبـادلا بعـض الطـرف لبعـض الوقـت في ركـنٍ مـن المـكان. وفي الصبـاح الباكـر خـلا البيـت مـن المعزيـن وتركنـا وحيديـن، أنـا وأمـي، نمنـا، أو أنـا مـن نامـت. بكيـت وبكيـت طويـلا ثـم وقعـت في سـباتٍ عميـق. ولكـن حزنـا مـن هـذا القبيـل هـو حـزنٌ لا بـأس فيـه بالنسـبة للأحـزان الأخـرى.

عندمـا نزلـت في الصبـاح مـن الطابـق العلـوي حيـث مـكان سريـري الضيـق، عانيـتُ حزنـا مـن نـوعٍ مختلـف. ذهبـت حيـث جسـد أبي، ولبرهـةٍ مـن الزمـن لم أسـتطع أن أسـتنبط مـا كنـت أرى. هنـاك شيءٌ غير مألـوف أصـاب عينَـي أبي لم يكـن بالحسـبان. عندمـا اقتربـت رأيـت بالفعـل مـا قـد أصـاب عينَـي أبي. شـخصٌ مـا ثقـب كلتـا مقلتيـه بسـهمٍ معـدني رفيـع، أسـود اللـون. السـهم يشـير إلى الأعـلى. بالحـال عرفـت مـا يكـون ذلـك السـهمان الأسـودان. لقـد كان السـهمان هـما عقـارب سـاعة أمـي، سـاعة أسـونيا.

نزعـت السـهمين مـن عينـي أبي كـما تُنـزَع شـوكة مـن لدغـة النحلـة. شـوكة تـرى وراءهـا سـاحرة، لدغـة تحصـد منهـا المحبـة، مقولـة ريفيـة قديمـة مـن الأقـوال المأثـورة. فقـد كان هـذا آخـر همـوم أبي. في سـاحة المشـيخية الصغـيرة، دفـن في موكـبٍ متكـونٍ مـن أصدقائـه؛ أصدقـاء بالـكاد أتذكـر أن يكـون لديـه أحـدٌ منهـم. كانـوا أناسـا يصيـد لهـم أبي الفـئران، أو كانـت لـه اليـد الطـولى في دفـن أحـد أقربائهـم، أو كانـوا أناسـا يقـدرون روحـه المعنويـة العاليـة التـي لمسـوها لديـه. ومنهـم من أحـب أسـلوبه في الحيـاة. كان هنـاك الكثـيرون لا تحـضرني أسـماؤهم.

وقـف الأب غانـت بجانبـي كصديـق أثنـاء قيـام رئيـس المشـيخية بالمراسـم، ذكـر لي بعـض الأسـماء وكأن هـذا الـذي كنـت أحتاجـه

حينها. اسم هذا الشخص وذاك والذي نسيتهم حال ذكرهم لي. لكن كان هناك رجلٌ يدعى جو برادي، وهو الذي أخذ وظيفة أبي في المقبرة، كان مدعوا من قبل الأب غانت، رجلٌ غريب بدين نوعا ما ذو عينين محترقتين. لا أدري لماذا كان حاضرا، وفي خضم أحزاني لم أكن أود وجوده في مراسم دفن أبي، ولكن ليس بيدي حيلة في أن أمنع أحدا من الحضور. كان المشيعون مثل بحر كانيوت. كنت أقنع نفسي بأنه موجودٌ بينهم ليقدم آيات الاحترام لتوديع أبي.

يشتعل في رأسي عميق آلام الحزن والخيبة، يضرب تجويف رأسي مثل فأرٍ اشتعلت فيه النيران.

****

مذكرات الدكتور غرين

أنا مشغول إلى حدٍّ كبير بالاهتمام بكل الترتيبات في المستشفى، ولا يوجد لدي وقتٌ لأكتب هنا. كما أنني شخصيا لا أكاد أشعر بنفسي، بمعنى آخر، هناك شعور ظل بداخلي كأنني إنسان لديه روح ولكنه مغلوبٌ على أمره، الاحتفاظ بهذه المذكرات ساعدني بعض الشيء. كيف لها أن تساعدني، هذا ما لا أعرفه. إن لتلك المذكرات إمكانية أن تكون نوعا من العلاج. على الأقل تعتبر إشارة على استمرار الحياة في أعماقك. أو ذلك ما أتمناه وأدعو ربي به.

ربما مع بعض المبررات.. عند عودتي الليلة الماضية إلى البيت منهكا كما العادة، ألعن كل شيء، الحفريات في طرق روسكومن، ومعاونات السيارة الرديئة، ومصباح الإنارة المكسور الذي ضربت بذراعي في العمود الإسمنتي بسببه، ودخلت الردهة بمزاج رديء، لعلي كنت حتى على استعدادٍ أن ألعن كل شيءٍ في طريقي لو أعطيت نصف فرصة لذلك.

بيد أن بِت كانت واقفة على العتبة العليا، لست أدري إن كانت هناك قبل مجيئي، ربما هي كذلك، لأنها كانت عند النافذة الصغيرة تنظر إلى الخارج عبر تشابك حدائق المدينة والأضواء العشوائية للمنطقة الحديثة. كان ضوء القمر يسقط عليها، وكانت مبتسمة. أظنها كانت كذلك. أزاح هذا المنظر الثقل الجاثم على كياني. مثل أول مرةٍ أغرمت بها، عندما كانت شابة صغيرة وهزيلة مثل لوحة بألوانٍ مائية خفيفة. مجرد ملامح من هيكلها العظمي، تبدو جميلة وكاملة في عيني. عندما تعهدت لها أن أجعلها سعيدة، وأن تكون معشوقتي، وأن أحملها بين ذراعَي. الغريب في هذا الأمر أنه ربما هي معاهدة غبية بين كل العشاق. التفتت عن ضوء القمر ونظرت إليّ، ولدهشتي أنها شرعت بالنزول من الدرجات. كانت قد ارتدت فستانا صيفيا مشجرا، وبينما هي تنزل من الدرجات جاءت بضوء القمر معها وأضواء أخرى. وعندما وصلت إلى باب الردهة انحنت وقبلتني، أجل، أجل، وأنا كالأحمق أبكي بهدوء ووقار قدر استطاعتي، كنت أريد أن أطابق هذه الفضيلة بالتي لديها، حتى لو كان الأمر ليس باستطاعتي. وبالتالي كانت لعبة العشق التي كنا نمارسها لآلاف المرات في السنوات الأولى، بعدئذٍ استلقينا فوق سجاد الأكسمنستر مثل حيوانين مذبوحين.

****

شهادة روزان عن نفسها

لقد امتلأ رأسي بما جرى لأبي ولم أتكلم بكلمة واحدة مع الراهبات في المدرسة.

والآن عليّ أن أخبرهن أنني سأتركهن إلى غياهب التاريخ، من دون تصنيفهن، على رغم أنهن كن نساء مثيرات للانتباه، لكن في منتهى الوحشية معنا نحن الفتيات الفقيرات، لكننا نحن من

سمحنا لهن بأن يعاملننا بذلك السوء. بكينا وصرخنا عندما تعرضنا للضرب على أيديهن، وكنا نشاهد الطيبة البالغة نحو الفتيات الغنيات ونصاب بالغبن. هناك لحظات لا تنسى في قرارة نفس كل طفلٍ مهزوم، عندما يتخلى عقله عن تفسير تلك الأمور ليعقد الآمال حول كرامته؛ يبحر في قاربٍ دون مجاديف، فيتركه يسير كيفما شاء مع التيار، ويستسلم لألم العصا الطويلة.

إنها الحقيقة المُرّة، لأن الطفل لا حول له ولا قوة.

ليس الطفل هو من يصنع تاريخه. أعتقد أن هذا أمرٌ مفروغٌ منه.

كنّ يتصرفن بهمجية، يستخدمن العصي بكل ما أوتين من قوة في أجسادهن لطرد شر الشهوة والجهالة التي تتملكنا كما يدعين، ورغم ذلك كنّ نساء مثيرات للانتباه إلى حدٍّ كبير، لكنه عليّ أن أصرف ذهني عنهن الآن. إن قصتي تستعجلني.

****

أظن أن كل ما نستطيع أن نعطي لنُمنَح النعيم هو الصدق بين البشر. أعني عند أبواب القديس بطرس. أتمنى أن يكون مثل إعطاء الملح لمملكة ليس فيها من الملح شيء، مثل ندرة البهارات في البلدان الشمالية. حفنة منها تبقى في جعبة الروح، نقدمها عند ولوجنا في الداخل. ما هي هذه الحقيقة الربانية، هذا ما لا أستطيع قوله. ولكني أقول هذا لأسرق نفسي من نفسي وأتفرغ لمهمتي.

كنت يوما ما أعتقد أن ذلك الجمال هو أحسن ما أملك. ربما حتى بالجنة أكون جميلة كذلك. ولكن على الصعيد الدنيوي لم أكن كذلك.

أن تكون وحيدا، ولكن ينسرب بداخلك شعور عظيم بين الفينة والفينة كما هو حالي الآن، هو شعور عظيم. أنا أجلس إلى المنضدة

التي مرت عليها لمسات متميزة تركت فيها علاماتٍ ربما تعود إلى اثني عشر من الأجيال لنزلاء ومرضى، أيا كنا نحن منهم، عليّ أن أذكر لكم هذا الشعور الذي يجري في أعماقي كنقاء الذهب في عروقي. ليس ذاك الاطمئنان، ولكن كان تضرعا جامحا محفوفا بالخطر مثل زئير الأسد.

أقول هذا لك أنت أيها القارئ.

عزيزي القارئ. فليحفظك الله.. فليحفظك الله.

****

أم هل عليّ أن ألتف حول تلك الراهبات؟ ربما بمقدوري التسكع قليلا مع بعض الخلط بين الهمجية وحسن السلوك. كلا، كلا، سألف وأدور معهن. مع أني حلمت مراتٍ عديدة في السنوات اللاحقة أنهن يأتين لإنقاذي، مثل سربٍ من أزهار اللوتس ذات الرؤوس البيضاء تنسكب فوق الشارع الرئيسي في مدينة سليغو، لم يحدث أي شيء من هذا القبيل بالطبع. ولا أعرف على أي أساسٍ كان ذلك الحلم، حيث إنني لم أعهد ولو لحظة أنني كنت أستحسنهن وأنا في حضورهن. وبالتأكيد حسب تاريخي معهن، تخليت عنهن وأنا في سن السادسة عشرة من عمري.

كانت ذكرياتي حول الأب غانت دوما محددة وكاملة بصورة غريبة. كان وجهه الوضاء واضحا وحاد القسمات. بينما أجلس هنا وأكتب، فأنا بالفعل أراه خلف عيني في هذه اللحظة عندما أقبل عليّ لإنقاذي في أسلوبه الخاص به.

كنت أعلم أنه تتحتم عليّ مغادرة المدرسة فورا بعد ممات أبي، لأن عقل أمي الآن في مكانٍ ما في رأسها، حيث لا سلّم له لأصل إليها ولا باب كي ألج منه لها، لم يكن بيدي شيء أفعله لأجلها. عليّ فقط أن أجد أي عملٍ لنقتات من ريعه.

جاء الأب غانت ذات يوم في لبسه الكهنوتي الأنيق -أنا لا أقصد أن أنتقده- وبما أن أمطار مدينة سليغو المعهودة كانت تهطل، حيث تشكل آلاف من المستنقعات في الحقول القديمة، فقد أتى بمعطفه الرمادي الداكن الذي أصبح يتلامع مثل قماشٍ متلألئ. بشرة وجهه أيضا كانت كذلك، ربما منذ كان في رحم أمه. استظل بمظلة خاصة للكهنة في الكنيسة، مظلة حقيقية بسيطة جدا، والتي كانت هي أيضا تؤدي صلواتها حتى وهي معلقة على المشجب في الليل.

أدخلته المنزل وأجلسته في الصالة حيث مازال بيانو أبي هناك مفعما بالحيوية كما مظلة الأب غانت، يقف عند الحائط، يستحضر أبي في كل مكان من ذاكرته، بين الأوتار ومفاتيح البيانو.

ناولته فنجانا من الشاي فقال: «شكرا يا روزان». فقد أعددته له ببطولة لا مثيل لها من بقايا أوراق الشاي التي استخدمت للمرة الثالثة. لكني كنت على أملٍ أن تكون العصارة مازلت تحمل بعض النكهة، إنها آتية من الصين، من محل جانسون للشاي. كنا نبتاع الشاي من محلٍّ بناصية الشارع وليس المحل المعروف منذ الإمبراطورية العظمى، محل بلاك وود حيث يرتاده الأثرياء، لذا لم يكن أحسن شاي يشربه كترحيبٍ لزيارته، لكن الأب غانت أخذ يحتسيه بأدبٍ جم.

وقال بلطفٍ شديد: «ألديك بعض جرعاتٍ من الحليب؟».

«لا أيها الأب».

قال بندمٍ شديد: «لا بأس، لا بأس. اسمعي يا روزان، أنا وأنت لدينا أمور لا بد أن نتحدث عنها، أشياء نتحدث فيها».

«أوه، أيها الأب».

«ما الذي سوف تصنعينه يا روزان وقد رحل عنك والدك المسكين؟».

«سأترك المدرسة، أيها الأب، وألتحق بعملٍ في المدينة».

«هل أسدي لك نصيحة؟».

«نعم».

احتسى الشاي للحظات ثم ابتسم ابتسامته الكهنوتية، بالتأكيد حركة مسرحية صغيرة. كنت على يقين بأنه يحاول أن يقوم بواجبه، أن يكون طيبا معي، وأن يكون ذا عون لي، فأنا أدرك هذا.

«أنت يا روزان، لديك العديد من المزايا، عطايا إن جاز لي التعبير، في..».

صمت برهة من الزمن ولم يقل ما المزايا. أصبح لدي شعور بأن ما سيقوله ليس فيه من الكياسة الشيء الكثير. كان يبحث في مخزون عقله الذي يحتوي الجمل العديدة عن الجملة الصحيحة. بالتأكيد، ولا مجال للشك بأنه لم يكن يود أن يبدو بغيضا، أو حتى يسعى له. بالواقع، كان يفضل أن يموت على أن يكون بغيضا معي.

قال: «الجمال».

نظرت إليه.

«إنها هبة الجمال يا روزان. أستطيع القول ببساطة؛ بالطبع ضعي في اعتبارك رأي أمك، وحتى رأيك أيضا، بالرغم من أنني مازلت أحسبك طفلة، إن صح التعبير، وفي الأعماق، إلى أبعد حد، أنت تحتاجين النصيحة، إن صح التعبير ولكن ما الذي كنت أقوله؟ آه، نعم، إنني هنا في المدينة أستطيع وبسهولة أن أجد لك وظيفة دون انتظار، بكل براعة ويسر، وفي أحسن الطرق، وهو أن يكون لك شريك حياة. وبالطبع هناك أمور معينة يجب أن تتخذ أولا».

كما يقال، كان الأب غانت يمهد الطريق لموضوعه. كلما تكلم أكثر، أصبحت الكلمات تخرج من فمه بسهولة أكبر، كلماتٍ صافية كالحليب وحلوة مثل العسل. مثل العديد من الرجال ذوي

السلطة، كان في سعادة غير مسبوقة وهو يعرض علي فكرته، طالما تمنى أن فكرته ستستحوذ على الموافقة.

قلت وأنا أحاول أن أرمي الكرة في ملعبه مع نفس الحس الطيب الذي رماها على رأسي؛ وقد شعرت بثقله. قلت: «لا أظن ذلك..».

«قبل أن تتفوهي بأي شيء عن هذا الموضوع، فأنا أعلم أنك في السادسة عشرة من عمرك، وربما لن يكون أمرا مألوفا أن تتزوجي وأنت صغيرة في هذه السن، ولكن في ذهني رجلٌ مناسبٌ للغاية ويكنُّ لك تقديرا كبيرا، ربما بالفعل يكون عند حسن ظنك كذلك، وهو له وظيفة ثابتة حيث سيضمن لك حياة هانئة ولأمك أيضا».

قلت له: «يمكنني أن أتحمل بنفسي نفقة معيشتنا أنا وأمي. أنا على يقين أنه باستطاعتي ذلك». ولم أكن قط أقل ثقة بشيء في حياتي مما قلته.

«ربما تعرفين الرجل بالفعل، فهو جو برادي الذي يشغل الوظيفة السابقة لوالدك في المقبرة، فهو رجلٌ مستقيم، دمث الأخلاق للغاية، وطيب القلب، وهو قد فقد زوجته قبل عامين، ولا يمانع بالزواج مرةٍ أخرى. في هذه الحياة علينا أن ننظر بتناسق معين للأمور، كما كان يفعل والدك.. همم. وليس لديه أطفال، أنا متأكد..».

في الواقع كنت أعلم أن جو برادي هو ذلك الرجل الذي استحوذ على وظيفة أبي، وحضر جنازته. جو برادي حسب علمي يبلغ من العمر خمسين سنة تقريبا.

قلت في براءة: «أتريد أن تزوجني لرجلٍ عجوز؟».

مادام يعرض هذا العمل الخيري الشهم، لا أتوقع أن يجد رجلا عمره أقل من ثلاثين سنة. هذا إن كنت أرغب في مثل ذلك الرجل.

«يا روزان، أنت شابة جميلة للغاية، لذا فأنا أخشى عليك في هذه المدينة من فتنة مفجعة، ليس من قبل الشبان الصغار، بل من الرجال أيضا، وعلى هذا النحو، عليك أن تتزوجي ليكون نعمة لك وفضيلة تامة تجلب الخير».

باءت بلاغته بالفشل ربما مؤقتا وهو ينظر في وجهي. لا أدري ما الذي كان يظهره له وجهي، لكن لم يرَ فيه الموافقة على ما طلب.

«وبطبيعة الحال، سأكون مسرورا جدا، ومرتاحا وفي منتهى السعادة أن أكون وكيلا عنك، ومؤلفا بين القلوب، كما يقولون، سأضمك إلى جماعتي، وسترين أنها جماعة عاقلة وحكيمة. وبالفعل سيكون هذا أملا رائعا وسحريا».

«جماعة؟» قلت.

«أنت تعرفين يا روزان أن أيا من الاضطرابات الحالية في أيرلندا لم تكن في صالح المذاهب البروتستانتية. بالطبع سوف يكون لي وجهة نظر فيما لو تركتك في الخطر المحتوم، ونفسك البشرية تضيع وأنت تستمرين على هذا المنوال كما تشائين. ومع ذلك، أستطيع القول بأنني أشفق عليك، وأتمنى أن أمد يد المساعدة لك. أستطيع أن أجد لك الزوج الكاثوليكي كما وعدتك، وهو لا يكترث لأصولك في نهاية المطاف، كما، كما قلت أيضا، أنك تتمتعين بنعمة الجمال البالغ إن جاز لي القول مرة أخرى. يا روزان، أنت أجمل فتاة رأيناها في سليغو على الإطلاق».

هذا ما قاله في منتهى البساطة والشفافية. أستطيع أن أضيف بمنتهى البراءة أيضا، لكنه شيء قريب من البراءة. تكلم بلطفٍ شديد مما جعلني أبتسم رغما عني. كأنه إطراء لسيدة عجوز ذات شأن في شارع سليغو، من عائلة بولكسفن أو ميدلتون أو

ما شابه ذلك، مرتدية المعطف القصير فوق ملابسها الأنيقة من قماش التويد الصوفي.

قال: «إنه من السخافة أن أمطرك بالإطراء هكذا، إن كل ما أرمي إليه هو أن تسمحي لي بأن تكوني في كنفي، فأنا أستطيع أن أساعدك، وأود حقا أن أساعدك، وعليّ أن أقول لك بأنني أقدر والدك أجل التقدير، على الرغم من أنه أحرجني ذات مرة، فأنا بالفعل أكن له المحبة، لأنه كان صاحب روحٍ بسيطة».

قلت له: «لكن روح مشيخية».

قال: «أجل».

«أمي من جماعة بليموث بريذرن».

قال بشيءٍ من الحقد: «حسنا، لا ضير في ذلك».

«ولكن گوني ابنتها، من واجبي أن أمانع».

«والدتك يا روزان، امرأة عليلة للغاية».

حسنا، لم أسمع قط هذا التعبير فقد أصابني بالصدمة. لكن، نعم، أعرف أنها الحقيقة.

قال: «من المحتمل جدا أنه عليك أن تدخليها مستشفى الأمراض العقلية، أتمنى أن لا أكون قد صدمتك بهذا الأمر».

أوه، لكنه بالفعل قد صدمني عندما تفوه بتلك الكلمات المخيفة، تقلصت عضلات بطني، وأحدثت ألما في أربطة عضلاتي التي تكسو عظامي. من دون التحكم في نفسي أردت أن أقوم بشيء دون إرادتي، وفجأة تقيأت ما بجوفي على السجاد أمامي. سحب الأب غانت ساقيه للخلف بسرعة غير معهودة حتى لا يتسخ. وهناك على الأرض كانت بقايا الخبز المحمص اللذيذ الذي أعددته وجبة إفطار لي ولأمي.

وقف الأب غانت.

«أوه. أتوقع أنه عليك أن تنظفي هذا؟».

قلت له وأنا أعض على لساني كإشارة إلى استحيائي: «سأقوم بذلك».

وأدركت حينها وبطريقة ما أنه ليس عليّ أن أعتذر للأب غانت، من الآن فصاعدا سيكون مثل القوة الخفية، مثل كارثة جوية متوقعة غير معلنة تشوش منظرا طبيعيا، أو متى ستجتاز عن البساتين.

«أيها الأب، ليس بإمكاني أن أفعل ما قلته لي. لن أفعله».

«ستفكرين بالموضوع؟ في أوج أحزانك، قراراتك ربما تكون في غير صالحك. أنا أتفهم ذلك تماما. والدي توفاه الله قبل خمس سنوات بسبب مرضٍ عضال، كان موتا مفجعا، وما زلت أبكيه إلى الآن. تذكري يا روزان، الحزن على الميت سيطول لسنتين. فلن يكون بمقدورك أن تتخذي القرارات الصائبة وأنت حزينة طوال تلك الفترة. اسمعي نصيحتي، ودعيني أنصحك نصيحة أبوية، في مكان سيسمح لي والدك أن أكون، وكما على القسيس أن يكون. لقد كان بيننا عدة مواثيق، أنا وهو وأنت الآن، وأنت الآن تقريبا في الجماعة معنا، سينقذ هذا روحك الأبدية، وسيجنبك الوقوع في وادي الأحزان والدموع. سيحميك من كل مخاطر وحوادث الدنيا».

هززت رأسي. إنني أرى نفسي خلف عيني وأنا أهزُّ رأسي.

هز الأب غانت رأسه أيضا، ولكن بطريقة أخرى: «أنت ستدرسين الموضوع؟ فكري يا روزان، وسنتحدث عنه مرة أخرى. إنها لحظة في حياتك عندما يلف حولك خطر جسيم. نهارك سعيد يا روزان. شكرا لك على الشاي الطيب. واشكري أمك».

خرج من الردهة الضيقة إلى الشارع. عندما توارى عن الأبصار والأسماع، وبقيت رائحة ملابسه تتريث في الغرفة، قلت: «وداعا، أيها الأب».

الفصل العاشر

حلق الدكتور غرين لحيته اليوم.

لا أتذكر إن كنت أتيت على ذكر لحيته من قبل. لحية الرجل ليست سوى تمويه لإخفاء شيءٍ ما، إخفاء وجهه بلا شك، ولكن هناك أيضا أمور أخرى في الباطن يريد إخفاءها، كما سياج النباتات الشوكية التي تحيط بحديقة غامضة، أو ذلك الغطاء فوق قفص الطير.

أريد أن أقول إنني لم أتعرف عليه عندما دخل، ولن يكون لك أن تعرفه، ستحسبه شخصا آخر، لكنني عرفته.

كنت جالسة هنا أكتب عندما سمعت وقع خطواته في الممر، وفي التو استطعت أن أخفي كل شيء في الأرضية قبل أن ينقر على الباب ويدخل، فلم تكن مهمة سهلة تلك التي قمت بها، لم أعد كما كنت من قبل، أنا الآن مثل العجوز، العجوز الحيزبونة في القصص التراثية، المرأة الحصيفة وأحيانا تكون صنفا من الساحرات. كان زوجي توم ماكنلتي خبيرا في مثل هذه القصص، التي كان يحكيها بمهارة فائقة وعزيمة، لأنه كان يصدق كل كلمة في تلك القصص. سأقص عليك أيها القارئ يوما ما عن الكلب ذي الرأسين والذي رآه في طريقه إلى إينسكرون، إن رغبت ذلك. كيف لي أن أعرف إن رغبت؟ أصبحت أفكر بأنك موجود هنا، فاعتدت أن

أراك في مكانٍ ما قريب مني. هذه المرأة الأسطورية عقلها مضلل! القابلة العجوز. أنا فقط القابلة الوحيدة التي تساعد قصتها على الولادة. أنا هي القابلة وكفى.

كان الدكتور غرين مكبوتا للغاية، هادئا للغاية، لامعا وجهه للغاية. ربما وضع بعض المرهم على وجهه بعد الحلاقة ليحمي بشرته من لفحة الهواء البارد. كان مشغولا هائما بين الأشياء الموجودة على الطاولة. كنت جالسة على طرف السرير أطوف بين المناظر الصغيرة المرسومة على المفرش الذي يغطي السرير، أظنها مناظر من الريف الفرنسي، منظر رجلٍ يحمل جحشا فوق ظهره وأشياء أخرى. رفع دكتور غرين بغير مبالاة كتاب أبي النسخة القديمة من ريليغو مديسي من الطاولة. عندما رأيت الكتاب بعد وفاة أبي اعترتني الدهشة بأنه قد طُبع في سنة 1869، بالرغم من أنني كنت على علمٍ أنه قد اقتناه منذ أعوامٍ عديدة. اسمه والمكان ساوثامبتون وسنة الطبع 1888 قد رسمت على الصفحة الأولى للكتاب، بيد أني تمنيت أن يكون هذا الكتاب ربما أعطي له وتسلمه بيده الغضة عندما كان شابا، عن طريق والده الذي هو جدي الذي لم أره قط. ربما رأيته حين أمسكت الكتاب بيدي. كانت هناك سلسلة تاريخية من الأيادي قد حملت هذا الكتاب من يدٍ إلى يد، أيادي أقربائي. كأن الشخص المعزول في وحدته يجد ضالته بين هؤلاء الناس في ساعات الليل ويكون في ذكراهم.

لأنني حفظت الكتاب الصغير جيدا، كان بإمكاني أن أخمن ما كان ينظر إليه الدكتور غرين حينها. كانت صورة لتوماس براون ذي اللحية. ربما كان ينظر إلى لحيته التي كانت بارزة بقوة في نقشٍ دائري، ربما الآن هو نادمٌ على إزالة لحيته. كانت أسماء الطباعين هي: سامبسون لو، سن، ومارستون. اسم سن كان جميلا. يقصد

باسم سن هو ابن سامبسون لو. من هذا الشخص؟ من يكون؟ هل كان يعمل تحت وطأة سياط أبيه، أم هل كان يعامل بلطف واحترام؟ جي. دبليو. ويليس بند، هو من زود الكتاب بالملحوظات. أسماء وأسماء، كلها رحلت عن الدنيا، نسيها الناس، سوى تغريدات الطيور ظلت باقية في الشجيرات وبين الأشياء الأخرى. لو أن شخصا مثل جي. دبليو. ويليس بند قد قضى نحبه ولم يتذكره أحد، فكيف لشخصٍ مثلي؟ أنا وهو نتشارك في هذا الشيء على الأقل.

سن، قليلٌ هو ما أعرفه عن ابني أنا. ابن روزان كلير.

قال: «كتابٌ قديم».

قلت: «نعم».

«اسم من هذا، سيد ماكنلتي، جو كلير؟».

بدت الآن الحيرة على وجه الدكتور غرين، ينظر بتفكير عميق، مثل ولدٍ صغير يحاول أن يحل مسألة حسابية. ولو كان معه قلم رصاص لقام بلعق الرصاص.

لقد كان حليق الوجه ما عاد يخفي شيئا وراء لحيته، فجأة شعرت بأني مدينة له بشيء.

أجبته: «هذا أبي».

«إنه رجلٌ متعلم إذن؟».

«بالفعل هو كذلك. كان نجل مسؤول الكنيسة. من بلدة كولوني».

قال: «كولوني، كولوني عانت الويلات في العشرينيات. أنا سعيد بعض الشيء لأنه في ذلك الوقت كان يوجد شخص قد قرأ ببطء شديد ريغلو ميديسي».

لقد لفظ الكلمتين الأخيرتين من جملته ببطء شديد، فعرفت حينها أنه لم يسبق له رؤية الكتاب من قبل.

فتح الكتاب مرة أخرى، وألقى نظرة على المقدمة، يحاول أن يقتنص بعض الشيء من بداية الكتاب، كما يفعل الناس.

«إلى القارئ. إن الإنسان الذي يرغب بالحياة بينما العالم كله قد شارف على النهاية هو بالتأكيد إنسان جشع في حب الحياة..».

ضحك الدكتور غرين ضحكة عابرة، لم تكن حتى ضحكة حقيقية، كانت نوعا من النحيب الخافت. ثم أعاد الكتاب حيث وجده.

قال: «فهمت»، بالرغم من أني لم أقل شيئا. ربما كان كلامه موجها للرجل ذي الوجه الملتحي في الكتاب، أو ربما للكتاب نفسه. ستة وسبعون، كان عمر توماس براون عندما توفي، شباب بالنسبة لي الآن. مات في نفس يوم ميلاده، يحدث هذا الشيء، ولو نادرا. أعتقد أن الدكتور غرين في الستين من عمره تقريبا. لم أره قط جادا كما هو اليوم. فهو ليس بذلك الرجل الذي يمازح ويتفكه، لكن حضوره يبعث خفة تثير الفضول. بالمقارنة مع جون كين المسكين، بكل خطاياه من الاغتصاب والأعمال الفاسدة، يبدو الدكتور غرين ملكا بالنسبة له. ربما مقارنة مع الكثيرين، ليس بمقدوري أن أقول من هم. لو يحسب الدكتور غرين أن الحياة جرفته إلى شاطئ المآسي في هذا المصح، لو يحسب نفسه أنه صار رجل الأمس الذي مضى، فإنه بالنسبة لي هو الغد، الغد كما يقول المثل. هكذا كانت الأفكار تدور في رأسي وأنا أنظر إليه، أحاول فك العقدة من مزاجه الجديد.

اجتاز الدكتور غرين الكرسي الصغير بجانب النافذة حيث كنت أجلس عندما يكون الطقس دافئا. أما عكس أوقات الدفء، فقشعريرة البرد تبدو أنها تخترق زجاج النافذة إلى الداخل. يوجد أسفل النافذة الفناء والحائط العالي وحقول غير متناهية. كان

يقال لي إن بلدة روسكومن على مسافة بعيدة تصل عند الأفق، ربما هي كذلك. هناك نهرٌ يجري بين الحقول، وفي الصيف يعكس أنواره على زجاج نافذتي وكأنه يرسل إشارات، إشارات عن أي شيء أو إشارات لمن أو إلى أين، هذا ما لا علم لي به. كانت الأضواء تتلاعب على الزجاج بصورة تلقائية فأحببت الجلوس هناك. على أي حال، وضع الدكتور غرين ثقله على الكرسي الصغير، وكنت على وشك أن أنذره بأنه مجرد كرسي للزينة، كرسي كانت النساء في المدينة تتفاخر بامتلاكه ووضعه في غرفة النوم للجلوس عليه ساعة التزين، بصرف النظر عن أنه كان أجمل قطعة من الأثاث في البيت. كيف وصل إلى هذه الغرفة؟ الله أعلم بذلك.

«يا سيدة ماكنلتي، هل بإمكانك أن تتذكري كيف كان الحال؟ أقصد، الأحداث التي آلت لوجودك في مصح سليغو؟ أنت تتذكرين عندما قلت لك إنني لم أستطع العثور على أي سجل موثق عنك بالنسبة لهذا الأمر؟ لقد عاودت البحث منذ ذلك الحين، بيد أني لم أجد أي شيء آخر. للأسف تاريخ وجودك هنا وفي سليغو لم يعد واضحا. ولكنني سأستمر بالبحث، ولقد أرسلت إلى دائرة سليغو لعلهم يملكون شيئا بالمصادفة. هل بإمكانك أن تتذكري أي شيء عن هذا الأمر؟».

«لا أظن أنني أتذكر. ولكن حتما أتذكر أنهم كانوا يطلقون اسم فندق لايتريم على الملجأ».

«ماذا؟».

«كانوا يسمون المصح في سليغو فندق لايتريم».

قال: «هل فعلا أطلقوا عليه هذا الاسم؟ لم أكن أعرف ذلك أبدا. لماذا سموه فندقا؟ أوه»، قال وهو على وشك أن يضحك: «لأنه.. نعم».

«لأن نصف إقليم لايتريم يقال إنهم كانوا يقطنونه».

«مساكين».

«نعم».

«يا لها من كلمة غريبة، لايتريم، ترى ماذا تعني هذه الكلمة؟ أتصور أنها كلمة أيرلندية. بالطبع هي أيرلندية».

ابتسمت له. كان كالطفل الذي خبط ركبته بشيء والآن قد خف عنه الألم. ظهر مرح الصبي بعد الألم والدموع.

ومن ثم غاص مرة أخرى في غياهب أعماق نفسه، مثل دودة تحفر في الأرض. أجبته على اعتبار أن أنتشله من الغرق في التفكير.

«بالتأكيد أتذكر الأشياء الكئيبة والرهيبة، والضياع، والضجة، كلها مثل الصور المغبشة المعلقة على جدران الكنائس، الله وحده يعلم لماذا علقت هناك، لأنك لا يمكنك رؤية أي شيءٍ فيها».

«أيتها السيدة ماكنلتي، هذا وصف جميل لذاكرة أصابتها صدمة».

«أهي كذلك؟».

«أجل، إنها كذلك».

ثم جلس في صمته المعهود لفترة من الزمن. جلس فترة طويلة وكأنه كان نزيل هذه الغرفة! كأنه قد عاش فيها هو بنفسه، كما لو أن لا مكان له إلا هنا، ولا عمل لديه، أو لا يوجد مريض ينتظر معاينته له.

جلس في استرخاء. والنهر صار يغرق نفسه في مياهه كرّة، ويغرق في مياه أمطار شهر شباط كرّة أخرى، لم يكن يرسل أنواره الآن. كانت النافذة الزجاجية فيها قسوة هي هي نفسها. ما عدا بقايا حشائش الشتاء التي اكتسحته بلونها الأخضر الخفيف. عيناه الآن تظهران بوضوح بعد إزالة اللحية، كانتا تنظران إلى شيءٍ كأنه

على بعد يـاردةٍ واحـدة منـه، تلـك النظـرة التـي عـلى وجوه الأشخاص في الرسـومات الفنيـة. جلسـت عـلى السريـر ومـن دون أدنى حـرج، أطلت النظـر إليـه بمـا أنـه لم يكـن الآن ينظـر إليّ. لقـد كان ينظـر إلى ذلـك المكان الغريـب، في منتصـف المسـافة، إنـه الأكثر غموضـا، يبـدو كإنسـانٍ، لديـه مخـزون مـن الهمـوم إلى أبعـد الحـدود. ونزلـت مـن عينـه الدمـوع رويـدا رويـدا، دمـوع بشريـة طاهـرة، لم يمسسـها العـالم بسـوء بعـد. النهـر، النافـذة، والدمـوع.

قلت له: «ما خطبك يا دكتور غرين؟».

رد: «أوه».

نهضـت مـن مـكاني واتجهـت نحـوه. كنـت سـتفعل نفـس الـشيء لـو كنـت في مـكاني. إنـه أمـر مـن المـاضي. شيء مـا يدفعـك نحـو حـزنٍ مفاجـئ، أو ربمـا تشـمئز منـه أحيانـا وتبتعـد عنـه. اقتربـت منـه، لم أسـتطع أن أتمالـك نفـسي.

قلـت لـه: «أرجـو أن لا تمانـع إن وقفـت قريبـة منـك، لقـد اسـتحممت بالأمـس. رائحتـي ليسـت نتنـة».

قال بدهشة وبكل ما تعنيه الدهشة من معنى: «ماذا؟».

«ماذا؟».

وقفـت بجانبـه ومـددت يـدي اليمنـى ووضعتهـا عـلى كتفـه، بالضبـط خلـف كتفـه عـلى ظهـره. كانـت تلـك الذاكـرة التلقائيـة تـأتي إليّ عندمـا كان أبي يجلـس عـلى سريـره وهـو يحضـن أمـي ويربـت عـلى ظهرهـا مثـل طفلـة. لم أجـرؤ أن أربـت عـلى ظهـر الدكتـور غريـن، ولكـن تركـت يـدي العجـوز عـلى ظهـره برهـة مـن الزمـن.

سألته: «ما خطبك؟».

قال: «أوه، أوه، لقد ماتت زوجتي».

«زوجتك؟».

قال: «أجل. أجل. توقف تنفسها. اختنقت، اختنقت. كبتت أنفاسها».

قلت: «أوه. أيها الرجل المسكين».

قال: «نعم. نعم».

حينها عرفت أمرا عن الدكتور غرين. فتحت فمي لأخبره شيئا عن نفسي، ولكن بفضل لحيته التي اختفت، فقد نطق هذا الخبر وتلك المعلومة الهائلة.

وأضاف ببالغ الحزن وبهدوء جَم: «اليوم يوم مولدي كذلك».

****

الآن إليك قصة الغباء الشامل لدي. ربما لن تستسيغ درجة الغباء فيها.

كنت أرغب بالتحدث إلى أبي، وأبي الآن ميت. قمت بزيارة قبره مرتين في ساحة المشيخية، ولكني كنت لا أراه هناك. ربما حتى رفاته غير موجودة، ربما حركاته ووجوده كان في مكان آخر.

كانت تلك العتمة من مساء شهر كانون الأول قد انتشرت، حينها يحل الظلام سريعا في الرابعة من المساء. كنت أعلم جيدا أن الأبواب القديمة للمقبرة ستكون مفتوحة، يا له من أمرٍ سهل أن تنسل من خلال البوابات في الظلام وتكون بين القبور حيث لا يوجد أحد، ولن يلاحظك أحدٌ في تلك العتمة. أنا واثقة من هذا الأمر، كنت أتمنى أن أرى أبي في أي ركن من المقبرة، ربما ظلت بقاياه هناك، بين التواء الشجيرات القديمة والطرقات وأشياء مدفونة تحتوي على نوع من جهاز إرسال قديم يبث إشارات له.

تسللت إلى هناك بفستاني الأزرق القديم ومعطفي الخفيف والبسيط مثل طائر مالك الحزين، تماما مثل المالك الحزين في ذلك الثوب ووجهي الأبله وعنقي الطويل يبرز منه عرضة للبرد.

يـا لهـذه السـكينة التـي جلبتهـا لي الطرقـات المنتـشرة والأحجـار الهادئـة، والأرقـام المألوفـة فـوق البطاقـات الحديديـة التـي قـد ثبتـت في الأرض عنـد كل قـبر بالأسـماء المطابقـة للسـجل المحفـوظ بأمـان في المعبـد الإسـمنتي. ضـوءٌ خافـتٌ أصفـر اللـون عالـقٌ في الغابـة الهزيلـة ذات الأشـجار التـي تغطـي الطرقـات العامـة، تلـك الغابـة أصبحـت ضيقـة وسـيئة مـع كل انفجـار للمـوت. الآن تلحفـت بمعطفـي إلى الباقـة، ومـن دون تفكـير فيـما كنـت أفعلـه في الواقـع، مـن دون أن أكـون عـلى وعـي بالزمـن الحـاضر، تخللـت بـين المقابـر أتمسـح بهـا بحركـة دائريـة أمـام المعبـد الإسـمنتي.

كانـت هنـاك الأعمـدة، والأقـواس القديمـة الحـادة تحمل آثـارا باهتة لأبطالٍ يونانيـين ومـا شـابه ذلـك، مـن زمـن الحـروب مجهولـة التاريـخ، والبـاب الحديـدي يتأرجـح بعـض الـشيء عـن مفاصلـه الثقيلـة، وذلـك التـوق للضـوء في الموقـد والمصبـاح، كل شيء هنـاك يتحـدث عـن مجلـد سـجل أبي. مـن دون أدنى تفكـير في الوقـت الراهـن، بعبـارة أخـرى، في غبـاءٍ جـارف، زحفـت نحـو الضـوء، كأن قلبـي يتوسـل إلي أن أمـضي قدمـا نحـوه، أطالـب بحقـي في قبسٍ مـن النـور والـدفء والحديـث الـذي كان هنـا ذات مـرة. كان البـاب مفتوحـا بمـا يكفـي للولـوج إلى الداخـل دون عائـق.

لم يتغـير أي شيء. كل مـا كان بالداخـل يتحـدث عـن أبي. إبريقـه مـازال عـلى الصفيحـة الكسـيحة بجانـب شـبك الموقـد عنـد الفحـم المرتعـش، وكوبـه المطـلي بالمينـا، وحتـى كـوبي أنـا، مـازالا عـلى الطاولـة، بعـض مـن الكتـب والدفاتـر كانـت متراصـة بعنايـة هنـاك، ونفـس آثـار الأقـدام كانـت لاتـزال عـلى صفحـة الأرضيـة الباهتـة. تفتحـت عينـاي، وتفتحـت، وكذلـك وجهـي، وشـعرت بأننـي سرعـان مـا سـأكون في حضرتـه، وسـأرتاح، ويسـدي لي النصيحـة، ويرمـم مـا انكسر بداخـلي.

شعرت بدفعة مفاجئة من الخلف صدمتني. لم أتوقع مثل هذا الشيء وأنا في حماية أبي هنا. ترنحت نحو الأمام ببضع خطوات، واختل توازني تقريبا، يصاحبني ذلك الألم المتموج الكريه في بطني عند تصحيح وضعي سريعا. التفتُّ خلفي وإذا بذلك الرجل الغريب عند الباب. له بطن ظاهرٌ تحت سترته التي تبدو ضيقة عليه، كان يشبه قطعة من الخبز المنفوخ الذي يباع في البقالات. كان وجهه صارما بخدين أجوفين، وحاجبين كثيفين مثل العجائز، إلا أنه لم يكن قد تجاوز الخمسين من عمره. لا، لا، أنا أعرف هذا الرجل، بالطبع أعرفه. لقد كان جو برادلي الذي حل مكان أبي.

ألم يخبرني الأب غانت عنه؟ إذن كيف تبدد عن عقلي؟ ما الذي كنت أفعله هناك يا ربي؟ ستقول إنه الجنون، لوثة عقلية.

لم يكن في مظهره ما يدل على أنه طالب يد امرأة للزواج، أو أي شيءٍ من هذا القبيل. بدا غاضبا وأدار عينيه مع تلك النظرة التعيسة المحترقة نفس التي لاحظتها في المقبرة. وفي خضم اشتياقي لأبي لم أفكر فيه مرة أخرى منذ قدّم لي الأب غانت طلبه.

حتى الجحيم لا ضراوة لها مثل ازدراء امرأة، ربما يكون هذا طبيعيا، ولكن حسب خبرتي فالرجال ليسوا بأفضل من النساء في هذا الأمر. تصاعد الرعب بداخلي من برودة الألواح الأرضية، رعبٌ عنيف اجتاحني، عليّ أن أعترف بهذا.. وأرجو أن تغفر لامرأة عجوز تتذكر فزعها بكل صدق، كان رعبا لا يوصف لدرجة أنني تبولت في ملابسي الداخلية. حتى من خلال النور الضئيل للمعبد، أنا على يقين أنه رأى ذلك، سواء كان بسببه أو بسبب شيءٍ آخر، فقد أطلق ضحكة. ضحكة كما صوت الكلب الذي يخاف أن تدوسه الأقدام، كانت ضحكة تحذيرية إن كان في الوجود من قبيل هذه الضحكة. أليس ما يقولونه في الكتب عن أصل ضحكة أي

إنسان في البدء هو لوي قسمات الوجه وإطلاق دمدمة؟ هكذا ظهر لي ذلك اليوم بالبرهان القاطع.

قال: «أنت رفضتني». إنها المرة الأولى في حياته التي يتكلم فيها معي، الأمر الذي أثار دهشتي. «وأن تفضلي أن تبقي فتاة ملحدة».

أقبل نحوي وأنا لا علم لي بما ينويه. ولكن حينما تحرك فكرت أن شيئا ما كان بالفعل مدفونا بداخله ولا يستطيع مقاومته حين تولد لديه. صمت المعبد وصمت الفناء، عتمة هذا الشهر، وأي شيء لدي كان يريده مني. بدا كأنه وهو يتقدم نحوي قد تغيرت نواياه، غابت المسحة الإنسانية عن وجهه، شيء ما له خصوصية وأكثر قتامة لا تشبه الطبيعة الإنسانية، شيء ما قبل أن تسكن أرواحنا المعذبة أجسادنا، كان موجودا في عينيه ذلك الشيء. ظننت أنه على بعد هذه المسافة يريد قتلي. لأجل ماذا؟ أنا لا أدري. كانت هناك قصة عن هذا المدعو جو برادلي وهذا ما قد تعثرت فيه للتو، يا لها من حبكة هائلة قد أعدها مع الأب غانت، لا أدري. عند سعيي للبحث عن أبي، يبدو أنني وجدت قاتلي. صرخت فجأة بكل ما أوتيت من قوة في صوتي. أصدرت زئيرا!

الآن يظهر خلفه رجلٌ آخر. يا لحظي صار هناك رجل آخر في سكون هذا المكان. في هذه اللحظة كان جو برادلي قد أتى على خطوته الأخيرة حيالي، وكما لو أنه لم يكن يرغب في شيءٍ باستماتة بين كل الأشياء في العالم مثل هذا الشيء، حوط رقبتي الهزيلة بيديه وسحبني نحوه، قام بحك بنطاله، فليكن الله في عوني، كنت في السادسة عشرة من عمري ومع أني عرفت عن الطيور والنحل، بالكاد كنت أعرف الأمور الأخرى، سوى أن بعض الأولاد ربما يحتكون بجسمك عندما تمر بمحاذاتهم، وأنت لا تعرف السبب. حتى هذه

المرحلة من حياتي ربما أكون الفتاة الأكثر براءة في سليغو، أتذكر جيدا أنني للمرة الأولى حسبته يخرج بندقية أو سكينا من بنطاله، لأنه بالطبع هذا المكان كان مرتعا لرؤية البنادق وسماع انفجار صوتها.

بينما أنا في سياق هذا التفكير، كان الرجل بالفعل خلف جو برادلي يخرج بندقيته، نوع من السلاح الثقيل وضعه خلف رأس جو برادلي بحركة كما لو أنه يقوم بقطع شجرة بفأسٍ معكوف. كنت مدركة لما يحدث حولي بالرغم من أن الرعب قد أخذ مني مأخذا شديدا. لم يفقد جو برادلي وعيه في الضربة الأولى، لكنه خر على ركبتيه، وفي قمة الاشمئزاز والبؤس سوءته بين ساقيه فغطيت عيني بكلتا يدي. أتى الرجل الجديد بضربة أخرى على رأسه ببندقيته، فكرت إن كان الجميع هنا بحوزتهم أسلحة، وهل كان قدري أن أرى البنادق دائما هنا؟

جو برادلي الآن ملقى على الأرض بلا حراك. أبعدت يدي من وجهي، ومن ثم نظرت إليه وبعده إلى الرجل خلفه. كان شابا هزيلا ذا شعرٍ أسود اللون.

سألني الرجل: «هل أنت بخير؟ هل هذا والدك؟».

أجبته بنبرة هستيرية: «لا، هو ليس أبي. أبي قد مات».

قال الرجل: «فهمت، وهل تتذكرينني؟».

قلت: «لا، لا أتذكرك».

قال: «حسنا. كنت تعرفينني يوما ما. أنا راحل إلى أمريكا وقد أتيت إلى هنا لأنني أود أن أودع أخي ويلي».

قلت ببلاهة: «ومن هذا؟ ولم عليه أن يكون هنا؟».

«لأنه مدفونٌ هنا. ألا تتذكرين؟ ألم تكوني الصبية التي أحضرت ذلك الكاهن اللعين له، ومن الأرجح أحضرت الجنود معه، أولئك

الجنود الذين أسرونا وذبحوا بعضنا، وبعد هذا فررت إلى موطني بمعجزة».

قلت: «أعرفك حق المعرفة». واسمه يطفو على ذاكرتي، ربما فقط لأن أبي تلفظ باسمه عندما كان يجلس في الغرفة الصغيرة ويقرأ الصحيفة، أو ربما كان جالسا في المعبد هناك؟ «أنت جون لافيل. من الجزر».

«جون لافيل من إنيشكياز. إنني راحل إلى ذلك المكان الآخر، أنا راحل بعيدا عن هذا البلد الذي يزكم الفساد فيه الأنف، قسمهم بالولاء اللعين وخيانتهم للقتلى».

حدقت فيه. هنا يوجد حقا ثأرٌ مثير للدهشة.

قال بشجاعة الخصم: «بما أني قد أكرمتك بالإنقاذ، كرمٌ لم تسديه لي قط، هل بإمكانك أن ترشديني إلى قبر أخي، لأنني تجولت بين القبور وفي الأزقة بينها شمالا وجنوبا ولكني لم أعثر عليه».

قلت: «لا علم لي فيه، لا أعلم. ولكن، لكن سيكون مدونا في السجل هناك، على تلك الطاولة. هل هذا الرجل هنا على الأرض ميتٌ؟».

«لا أدري إن كان ميتا. من المضحك أنه ليس والدك، ولكني كنت سأقضي عليه بكل الأحوال حتى لو كان والدك. أنت تعلمين أن والدك عليه ذنب بما قد فعله. أو ليس بما هو فعله، بل بما فعلته أنتِ. لقد أحضرتِ الجنود ليقضوا علينا. ولكن لم يكن من المروءة أن نطلق الرصاص على الفتيات».

«أظنك كنت ستقوم بإطلاق النار على الفتيات لو حاولت. ما الذي تقصده، أيوجد قصاص على أبي؟».

«عندما اندلعت الحرب، كنا مضطرين لأن نبعث له رسالة فيها حكم القصاص عليه، ولكنه كان محظوظا حين وضعت الحرب أوزارها، فتركناه وشأنه».

«كان محظوظا؟» قلت له والكلمات تتدفق من حنجرتي بحنقٍ شديد. «ما هو إلا الرجل الأيرلندي الأقل حظا بين الخلق. إن المسكين يرقد الآن في الساحة الأخرى من المقبرة! بعثت له رسالة؟ ألا تعلم كم قاسى في حياته بسببها؟ مصيره الكئيب؟ أوه، كنت أشعر أن هناك أمرا آخر لا علم لي فيه. أنت، أنت، أنت الذي قتلته. أنت قتلته، جون لافيل!».

الآن هذا المدعو جون لافيل صامتٌ، تغير لونه، ومظهر الحماس تلاشى عن وجهه. تكلم فجأة وبكل أريحية، وحتى بشيءٍ من اللين. لسببٍ ما مازلت لا أستطيع سبر الأغوار، كنت أعرف أن كلماتي ليست صحيحة حيال قتله أبي. وأنا فخورة أنني أتفهم هذا. ومهما قد اقترف من الذنب هذا الشاب، فهو لم يقتل أبي.

قال: «حسنا، أنا آسفٌ على موت والدك، بالتأكيد أنا آسف. ألا تعلمين أنهم أطلقوا النار على رفاقي؟ لقد أخرجوهم بلا رحمة ثم أطلقوا النار عليهم، الأيرلنديون يقتل بعضهم بعضا».

كان التغيير الذي حل به كما يكون قد أصابته نزلة برد، وأصابتني أنا كذلك.

قلت: «أنا آسفة على ما بدر مني». لماذا أصبحت أشعر فجأة بأنني غريبة وسخيفة؟ «أنا آسفة على كل شيء. لم أحضر الجنود معي بتاتا. أبدا لم أفعل هذا. ولكن لا أبالي حتى إن أنت ظننت أنني قد فعلت. ولا أبالي إن كنت قد أطلقت علي النار وقتلتني. لقد أحببت أبي. والآن رفاقك قد ماتوا وأبي قد مات. لم أسر بكلمة واحدة لأي أحد سوى الكاهن، وهو لم يكن لديه فسحة من الوقت ليخبر أحدا في الطريق. ألا تفهم أن الجنود كانوا يتتبعونكم؟ هل تظن أن أحدا لم يشاهدكم؟ إن لهذه المدينة عيونا. تستطيع هذه المدينة أن تنبش في الأسرار، فلا تهتم».

كان يحدق بي وقتها بعيونه التي اصطبغت بلون غريب كالطحالب البحرية. الطحالب من جزيرته التي صبغت عينيه. ربما كانت هناك طحالب بحرية تكونت شيئا فشيئا في أرحام النسوة هناك، نصف البشر عادوا إلى البحر، مثل المخلوقات الصغيرة التي تدبُّ في بداية الخلق، هذا إذا صدقت ما قد قرأته. أوه، أزاح كل شيء أمام عينيه، وحدق بي، وللمرة الأولى رأيت ما كان مختبئا بداخل جون لافيل، إنه شيءٌ من الطيبة. كم غطت الحرب من هذه الطيبة بجثث الموتى واللعنات، أنا لا أعلم.

«هل لك أن تجدي لي قبر أخي؟» قال جملته هذه بنغمة مثل شخص يقول أنا أحبك.

«سأبحث عنه، إن وجدته».

رحت أراجع السجل المعني بأسماء الموتى اسما اسما. كانت الأسماء قد دونت بخط أبي الجميل باللون الأزرق النحاسي الفاتح. بيد خطاطٍ متمكن، لكنه لم يكن خطاطا قط. ومن بين الأسماء، وجدت اسمه، ويلي، ويلي لافيل. وتتبعت الرقم المدرج فيه، وكأنني تقمصت عمل أبي نفسه، وليست تلك الفتاة ذات الستة عشر ربيعا التي كانت على وشك أن تقع في براثن الاغتصاب، وعبرت مصباح جو برادلي الذي مازال مضيئا، وتجاوزت جون لافيل، وهناك في الخارج بين أزقة المقبرة، أوصلت جون لافيل إلى أخيه، حتى يتسنى له وداعه.

وبعد ذلك ربما رحل جون لافيل إلى أمريكا لأنه مر وقت طويل ولم يسمع عنه أحدٌ أي شيء.

رحل جون لافيل إلى أمريكا وأنا انصرفت إلى كافيه كايرو، الذي لم يكن بعيدا.

الفصل الحادي عشر

خرج جون كين علينا اليوم ببيانٍ استثنائي؛ قال إن الثلوج تتساقط قبل أوانها هذا العام. لم يكن لك أن تتوقع شخصا مثله يلاحظ وقت تساقط الثلوج. وقال إنه في الحديقة العلوية حيث لا يسمح إلا للعمال في المصح بأن يدخلوها، رأى شجيرة الزعفران مورقة. قال هذا في غاية اللطافة وهو يقف وسط الغرفة ممسكا بالممسحة. في واقع الأمر كان يأتي ليمسح الغرفة وكان يحكي لي عن تلك الأمور الخارقة للعادة ومن ثم ينسى مسح الغرفة ويخرج. بصرف النظر عن مباغتته لي بالشعر أيضا. هذا يثبت مرة أخرى أن قليلا من الناس يلتزمون بطراز معين لشخصيتهم، ومنهم من يتنصل عنها. وفي الوقت نفسه، كان هو ذاته الجاهل بالعمل في المغاسل تاركا فتحة بنطاله مفتوحة في أغلب الأوقات. يوما ما سيشاهد حيوانٌ صغير فتحة بنطاله المفتوحة، فيدخل ويعشش هناك، مثل قنفذٍ يجد ملاذه في الجوف الرطب لشجرة الدردار.

أكتب هذا بهدوء، على الرغم من أني أبعد ما أكون من الهدوء.

كان الدكتور غرين هنا في فترة المساء لمدة ساعة. لقد صدمت من وجهه الباهت، وزادتني دهشة حلّتُه السوداء الخاصة بالمعزين، لأنه قد حضر للتو مراسم عزاء ودفن زوجته، والتي

يشير إلى اسمها بِت، وهو تصغير لاسم بيتي، وهذا أيضا تصغير لأي اسم؟ لا أتذكره. ربما إليزابث. قال: كان عنده أربعة وأربعون من المعزين، لقد قام بعدِّهم. كنت أتخيل أن يكون المعزون الحاضرون في مراسم دفني أقل من هذا، أقل، أقل القليل، أو لا أحد، إلا إذا حضر الدكتور غرين مراسم دفني. ولكن ما أهمية هذا؟ فأنا أرى الحزن بين خطوط وجهه في مكان لحيته حيث ظهر الاحمرار الشديد، والذي كان يلمسه بحذر ورقّة. قلت له: من الأفضل لو لم يكلف نفسه المجيء ليراني في هذا اليوم، لكنه لم يجبني.

قال: «لقد وجدت بعض الأشياء الإضافية بشكلٍ غير متوقع يخص موضوعك، لا أدري إلى أي حد ستساعدنا على المدى الطويل، كما يقولون».

حسب قول من؟ الناس الذين اعتاد أن يخالطهم؟ كبار السن أيام شبابه؟ متى كان الدكتور غرين شابا؟ أظن في الخمسينيات أو الستينيات من القرن الماضي. حين كانت الملكة إليزابيث صغيرة السن وإنجلترا عجوزا.

«كان تصريحا أدلى به شخص ما منذ سنوات مضت. لا أدري ما إذا كان ينتمي إلى المؤسسة هذه أم في الواقع يعود إلى الزمن الذي كنت فيه وقتها بمستشفى سليغو للأمراض العقلية، وقد تم نقله معك إلى هنا. على الأقل بعث في نفسي الأمل أن الملف الأصلي موجودٌ لدينا. كانت الطبعة المنسوخة منه في وضعٍ سيئ للغاية، قاموا بطباعته ولكن كان باهتا جدا كما يتوقع المرء. وجزء كبير منه قد فُقِد. تستطيعين القول إنه أشبه بشيء قد خرج من قبور قدماء المصريين بالفعل. إنه يشير إلى أن والدك كان في الشرطة الملكية الأيرلندية، حيث إن هذه عبارة لم تمر عليّ منذ سنوات

طـوال، وظـروف موتـه؛ مقتلـه إن جـاز التعبـير. صرت مفجوعـا جـدا وأنـا أقـرأ عنـه، لا أدري، ولكنـي شـعرت بالرغـم عنـي بأنـه عـليّ أن أقابلـك اليـوم؛ تحديـات في الوقـت الراهـن. بـدا التقريـر جليـا وجديـدا، ربمـا لأننـي في الوقـت الحـالي مهيـأ لاسـتقبال الأحـزان. ربمـا هـذا مـا دعـاني لأن أكـون بتلـك الحالـة، كنـت مسـتاء جـدا يـا روزان. وبخاصـة أننـي لم أكـن أعـرف لمـاذا».

ظلـت كلماتـه معلقـة في الغرفـة مثلـما تتـدلى الكلـمات عـلى تلـك الشـاكلة.

قلت له: «ربما كانت أوراق وثائق تخص شخصا غيره».

قال متسائلا: «أوه؟».

قلت: «نعم، قد تكون أزعجت نفسك من دون داعٍ. بسببي».

«ألم يكن هذا مصير والدك؟».

«كلا».

«لم يكن أبوك في الشرطة؟».

«كلا».

«أوه، حسـنا، لقـد ارتحـت لسـماع هـذا. ولكـن كان اسـمك مرفقـا مـع الوثيقـة، روزان ماكنلتـي».

«أنـت تدعـوني السـيدة ماكنلتـي، لكـن ثمـة قصـة أخـرى تتعلـق بهـذا، الحقيقـة أنـه ينبغـي أن تدعـوني باسـمي قبـل الـزواج».

«لكنك كنت متزوجة، أليس كذلك؟».

«نعم كنت متزوجة من توم ماكنلتي».

«هل توفيَّ؟».

«لا، لا».

لكن لم يكن باستطاعتي أن أضيف أي شيء.

«تشـير الوثيقـة إلى أن والـدك كان أحـد أفـراد الشرطـة الملكيـة

الأيرلندية في مدينة سليغو إبان ذروة الاضطرابات في فترة العشرينيات، وقد قتل بوحشية على يد الجنود الجمهوريين الأيرلنديين. عليّ أن أعترف أن معلوماتي مازالت بالية بعض الشيء بالنسبة لتلك الفترة. توالت علينا أثناء وجودنا بالمدرسة الأخطاء الفادحة ويا له من تاريخٍ زاخر بالمعارك. حتى الحرب العالمية الثانية بدت لنا، لا أدري كيف بدت لنا. تاريخا قديما غابرا؟ مع أنني أتيت إلى الدنيا خلال الحرب. ألم يكن اسم والدك جوزيف، جوزيف كلير؟

لكن تمالكتني بعض المشاعر المزعجة، لست أدري إن كنت قد مررتَ بها من قبل، كأن شخصا ما قد صب على جسدك مادة فتصلبت كالتمثال. عندما أغلقت فكي على تلك المشاعر، أقسم لك إنني بالفعل كنت أعض على المادة الصمغية التي تصلب منها جسدي. فحدقت في الدكتور غرين مذعورة.

«ما خطبك يا روزان؟ هل ضايقتك؟ أنا آسف جدا».

وأخيرا نطقت كلماتي من خلال المادة الصمغية: «قد تكون هذه وظيفتك، يا دكتور غرين؟».

«وظيفتي أن أضايقك؟ كلا، كلا. وظيفتي هي أن أساعدك. في مثل هذه الحالة، هو بالأحرى تقييم وضعك. وقد وضعت هذا على عاتقي كواجب. في الوقت الراهن ظهر الكثير من التشريعات. سأكون راضيا أن أتركك وشأنك؛ لا أقصد أتركك وحدك، ولكن لأن تكوني موجودة هنا، أتركك تكوني هنا ونتحدث عن أمورٍ أخرى، أو لا نتحدث عن أي شيء البتة، أعتقد أن هذه أحسن فكرة على الإطلاق».

قلت على حين غرة: «اسمي قبل الزواج كان كلير».

قال: «هذا ما فكرت فيه. لقد قرأته في الكتاب الصغير، أليس كذلك؟ من المؤكد أنه اسمٌ نادر. جو كلير. لم يكن هناك الكثير ممن يتسمى بهذا الاسم. ليس من الممكن أن يكون هناك الكثير

من قد أسموهم كلير في أيرلندا. ترى هل أتى بتهجئة أخرى، أو أن له صلة بكيب كلير، أم ماذا يكون بالضبط؟».

كان يتحدث بنبراتٍ حزينة تبعث الغرابة، مع تلك النظرة الحائرة كنظرة تلميذٍ في المدرسة غلبه الذهول.

«أعتقد أنه اسمٌ بروتستانتي ربما في الأصل أتى من إنجلترا منذ زمن بعيد».

«أتعتقدين ذلك؟ بالطبع اسم ماكنلتي اسمٌ شائع. وقد تجدينه في كل مكان».

«إنه اسم متداول في مدينة سليغو القديمة. قد أخبرني زوجي أنهم كانوا آخر قبيلة من آكلي لحوم بشرية في سجلات السكان في أيرلندا. إنهم قد دونوا عنهم بأنهم كانوا يأكلون لحم أعدائهم».

«يا إلهي».

«نعم. أنا شخصيا لم آكل اللحم في ذلك الوقت. إن رائحة اللحم تجعلني أفقد وعيي، بالرغم أني كنت أطبخه لزوجي كل يوم. لذا كان يحلو لزوجي أن يخبر الناس بأنني أقتات على النباتات وأنني آخر شخصٍ من آكلي اللحوم البشرية في أيرلندا».

«كان زوجك هذا مهرجا».

أوه، أوه، أوه، بانت الصخور في المياه الضحلة، أغلقت شفتيّ بأسرع ما يمكن. لم أكن أود أن أفشي الأسرار كلها الآن.

قال وهو يحاول المضي قدما: «حسنا، حسنا، ربما أمكنني أن أحضر معي تلك الوثيقة غدا أو بعد غد، ربما ترغبين في الاطلاع عليها».

«ليس بمقدوري القراءة كما كنت في سابق عهدي. قرأت كتاب توماس براون، ومع الوقت حفظت ما كتب فيه عن ظهر القلب».

«ربما علينا أن نجلب لك نظارات للقراءة يا سيدة ماكنلتي؛ أم عليّ أن أقول السيدة كلير؟».

«يسعدني أن أكون لا هذا ولا ذاك».

«حسنا جدا».

ولسببٍ ما ضحك ضحكة قصيرة ترن مثل الذي يضحك على أمرٍ شخصي مر بخياله ولا يستطيع أن يتحكم به.

وعلى الرغم من أني لم أتفوه بشيء البتة قال: «أوه لا، معذرة، لا شيء، لا شيء».

وراح يطأطئ برأسه. رفع يده اليمنى عند الباب ولوح بها أمامي كأنني مسافرة على متن سفينة.

هل كان ذلك قبل أو بعد دخول جون كين ليثرثر عن سقوط الثلوج؟ لا تسعفني الذاكرة.

كلا، بل أتذكر. لقد عاد جون كين ليكنس الأرض. الظاهر أنه اكتشف بطريقة أو أخرى أنه لم يقم بمسح الأرض. على العموم، لقد أصبح مسنا أيضا، المسنون يبحثون عن المسنين مثلهم. لم يكن يبحث في الواقع. وبينما هو يمسح الأرضية تحت سريري أخرج مع شعيرات ممسحته ملعقة تلطخت ببقايا الحساء، لا بد أنها وقعت من الصينية. ألقى عليّ نظرة عابسة صفعت وجهي قليلا ثم خرج.

****

كيف للتاريخ أن يتحول من تاريخٍ مشرف إلى تاريخٍ فاسد مع مرور الزمن؟

****

مذكرات الدكتور غرين

«من المؤكد أن الإنسان الجشع في الحياة هو من يتمنى أن تستمر له الحياة بينما العالم بأسره يقضي نحبه..».

كان قد مر أسبوعان على دفن بِت. كم هو صعبٌ حتى كتابة اسمها. أحيانا أكون هنا في المنزل وحيدا في الليل فأسمع صوت ضجيج آتيا من مكان ما، ربما صوتٌ سمعته ملايين المرات، صوت الباب وهو يغلق على إطاره في محيط المنزل، لا أدري، أنظر بفزعٍ إلى الممر المظلم وأتساءل: هل هي بِت قد أتت؟ إنه لأمر جلل وغريب أن تكون مسكونا بزوجتك الراحلة.

بالطبع، أنا لست كذلك. إنه نموذج غريب من معطيات الحزن الشديد.

كم هو صعبٌ أن تعيش هكذا. أستطيع القول إن عالمي قد وصل إلى حده الأخير. كم من المرات كان عليّ أن أستمع وأتقبل عذابات أرواح أولئك المرضى المساكين من جراء الاكتئاب، وفي وجود تلك المسافة المهنية بيني وبينهم، يبدو أن أمراضهم قد تأصلت في أعماقي والآن أصابتني الكآبة.

أشعر بأني محروم، بل أميل إلى القول إني أفتقر إلى أبسط قواي العقلية، أو حتى عافية عقلية. لقد شاهدت صور صدام حسين، رئيس العراق، الذي ظل يسمي نفسه رئيسا إلى الرمق الأخير، شاهدت صوره وهو يُشنق، كانت تعلو وجهه علامات الألم والمعاناة، كان مضطربا ولكنه محافظ على رباطة جأشه، هادئ، يزدري الذين أسروه حتى وهم يحقرونه. ربما لم يكن وقتها مصدقا أنهم سينهون حياته. ومن ثم يضعون النهاية لتاريخه. أو كان يعتقد أنه سيجد القوة في داخله لينهي حياته بصورة مشرّفة. عندما أخرجوه من الحفرة البشعة التي كان قد اختبأ فيها قبل أشهر، بدا مستسلما لا يدرك ما هو عليه. أثناء محاكمته في المحكمة كان يرتدي قميصا وسترة نظيفين. من قام بغسلهما وتنظيفهما وكيهما؟ أية خادمة هذه؟ فكيف تبدو قصته في عين

صديق لـه أو ثمـة معجب بـه أو أي أحـد مـن بلدتـه؟ لقـد حسـدته عـلى راحـة بالـه وهـو يسـير إلى مصـيره المحتـوم. لم يظهـروا أيـة رحمـة معـه، كـما هـو كذلـك لم يظهـر رحمـة مـع مخالفيـه. فبـدا هادئـا.

صحيـحٌ أنـه خـلال السـنوات العـشر الماضية، عقـدٌ كامل مـن الزمن، انتقلـت بِـت إلى الطابـق العلـوي لغرفـة الخادمـة القديمـة. وأنـا أجلـس هنـا في غرفـة نومنـا القديمـة، قديمـة بمعنـى أننـا شـاركنا النـوم فيهـا لعشريـن سـنة، لم يتـم التعديـل عليهـا لسـنواتٍ طويلـة، كانـت حيـث نمنـا فيهـا سـويا سـابقا وإلـخ، إلـخ - وكـما جلسـت فيهـا آلاف المـرات - كـم ليلـةٍ في عـشر سـنين، 3.560 ليلـة - لم تعـد هـي معـي الآن فقـط، بـل تسـير عـلى الممـشى المخصـص للسـير عليـه، يصـدر سريرهـا الضيّـق صريـرا وهـي تسـتلقي فوقـه. كل شيء كان هادئـا وسـاكنا، عـدا تلـك القعقعـة في مـكانٍ مـا، وكأنهـا لم تمـت أبـدا، ولكنهـا حجـزت نفسـها في دولابٍ تريـد الخـروج منـه. هنـاك في الغرفـة الصغـيرة مـازال سريرهـا مرتبـا كـما تركتـه ذاك الصبـاح. لم أسـتطع حتـى تحمـل لمسـه. تحتـل مجموعتهـا مـن الكتـب عـن الـورد عـلى رف النافـذة كـما كان دائمـا (عندمـا نسـتلقي عـلى السريـر سـويا، كان كتـاب الـورد بجانبهـا، وعـلى جانبـي كتـاب تاريـخ أيرلنـدا)، كانـت مجموعـة كتبهـا بـين دفتـين مـن منحوتـات جزيـرة هـاواي المبالـغ في نحتهـا لفتاتـين ماجنتـين. بمحـاذاة السريـر، وضعـت هاتفهـا عـلى الطاولـة الصغـيرة المزخرفـة بالزخـارف الصينيـة والتـي حصلـت عليهـا مـن عمتهـا الكـبرى. ماتـت عمتهـا الكـبرى مـن مـرض الزهايمـر، لكنهـا قبـل سـنوات مضـت حـازت عـلى هـذه الطاولـة في لعبـة الـورق عندمـا كانـت في صحـة جيـدة، وشـعرت بِـت بسـعادة غامـرة وعواطـف جياشـة إثـر حصولهـا عـلى الطاولـة. في الأدراج ملابسـها، وفي الـدولاب فسـاتينها الصيفيـة والشـتوية، وهنـاك أحذيتهـا، ومـن بـين أزواج الأحذيـة مجموعـة ذات الكعـب العـالي التـي

اعتادت أن تلبسها عندما نخرج للسهرة، وكنت أفكر أنه لا يناسبها ذلك، ولكني لم أكن وقحا أن أقول لها هذا، لم يكن ذلك من خطاياي، وإن كنا نقوم بتلك الأمور منذ سنوات مضت. لكنها لم تكن هي نفسها المرأة التي وجدتها في الممر تصارع من أجل نفسٍ يدخل الهواء إلى رئتها التي أخفقت وتدهورت، كانت تلك الصرخة الأخيرة التي جعلتني أتحرك بسرعة فوق السلم الصغير محدثا صوت احتكاك عاليا، هذا المنظر يداهمني بشدة مثل منظر تلك الشابة الصغيرة التي وقعت في غرامها لأول مرة، وهي تسكنني الآن. هي ذات الجمال الأخاذ، هي التي عارضت رغبة أبيها وأصرت على الزواج من طالب لا يملك شيئا، يدرس علم النفس الذي هو تخصصٌ غير معروف ولا ينبئ بالخير في جامعة في إنجلترا، قابَلَتْه يوما ما في عطلة كانت تقضيها في سكاربورو. بمحض المصادفة والتي هي من طبيعة الأشياء.

لم يكن لدي ما يمكن أن يحبه والدها. وهو أحد المقاولين الكبار في مشروع شانون الكهرومائي، كما أنه كان ذا تاريخ مشرف وبطولي، يمد المشروع بالحصى من محاجر كوناخت. لكنها غلبته، وتم زفافنا، كان الله في عونها، فعائلتها الكبيرة العدد اتخذت جانبا من الكنيسة، أما في الجانب الآخر لم يكن أحد سوى أبي بالتبني، متحملا نظراتهم العدائية في الجانب المعاكس. والداي كانا كاثوليكيين، وهذا كان في صالحهم، إلا أن والديّ كانا من كاثوليك الإنجليز، ففي عين أصهاري هم بروتستانتيون أكثر من البروتستانت أنفسهم، أقل ما يمكن أن يقال هو أن الموقف كان غامضا بشدة، كنا مثل مخلوقات آتية من زمنٍ آخر، مثلما حين أراد هنري الثامن أن يتزوج. لابد لهم أن يتخيلوا أن بِت قد تزوجت زوجا وهميا.

كانت أقصى أمنياتها أن أظل لها كما أنا بالضبط، وكم أنا نادمٌ على أن هذا لم يكن كما أرادته أن يكون. كان التغيير الوحيد الذي تحبه هو في حالة الورد الذي تزرعه، هو التغيير الذي يفرحها، لحظة غريبة تلك اللحظة التي تبتهج فيها حين يزهر وردها، عندما يلتف الغصن وينحرف ثم يظهر جزء جديد من الوردة. انتقال مفاجئ للجمال.

«سأذهب إلى الحديقة لأرى إن كان هناك أي خبر عن الورد». تقول هذا في كل وقت، لأن لديها شجيرات الورد التي تتفقدها على مدار السنة.

كانت بانتظار ما سيمنحه الله، أو أي سرٍّ سحري يقرره هو للورد وأن يفعل هو ما يشاء. للأسف لم أظهر سوى اهتمام ضئيل في هذا الأمر. إنها غلطتي. لقد حاولت ولكني لم أستطع أن أجد في نفسي شغفا بهذا الشيء. كان عليّ أن أكون معها في الحديقة، بقفازات ومقص الزرع، مثل شخصٍ يستعد لمعركة مصغرة.

الخطايا القليلة من الإهمال تتفاقم أمامي الآن. يمكن أن تصيبني بالجنون.

على أي حال، أنا أكتب هنا لأتفادى الجنون. أنا في الخامسة والستين من عمري. مررت في حقبة أغاني بيتلز. إلى حدٍّ ما يعتبر هذا سن الشباب. ولكن عندما يحين موعد يوم ميلاد أحدهم وصل الأربعين عاما، يمكنه ببساطة أن يقول إنه لم يعد هناك شباب قادم في الأيام الآتية. أعتقد أن هذا الأمر في منتهى التفاهة والسخرية. إن الشخص المفعم بالصحة الجيدة يمكنه أن يكون راضيا من نوعية حياته، وأن ينظر إلى السنوات التي مضت واكتساب عمر أكبر فأكبر بمتعة وسرور. بيد أني أشعر بالبؤس قبل بدء هذه المهمة. عندما توفيت بِت، نظرت إلى نفسي في المرآة

للمرة الأولى منذ عدة سنوات. أقصد، أنني ألقي نظرة عابرة في المرآة، كنت أشذب لحيتي وأشياء من هذا القبيل، ولكن لم أكن أنظر إلى نفسي بتمعن. لقد أدهشني ما رأيت. لم أعد أتعرف على نفسي. فقد أصبح الشعر خفيفا في قمة رأسي وصار رمادي اللون مثل فروة حيوان الغرير، بينما كنت أظن أنه مازال محتفظا بلونه. والثنيات في وجهي كانت مثل قطعة من الجلد تركت في العراء تحت المطر لفترة طويلة. لقد شعرت بالرعب الشديد وصدمت للغاية. لم أدرك هذا عندما كانت بِت على قيد الحياة، ببساطة، أنا الآن كبير السن. لم أعرف ما أصنع بنفسي. بحثت عن آلة الحلاقة القديمة وحلقت لحيتي بالكامل.

خمسةٌ وستون. في غضون أعوامٍ قليلة سوف أتقاعد. ليس هذا المبنى وحده آيلا إلى الزوال. أتقاعد. لأشتغل بماذا؟ أربّت على بلدة روسكومن؟ لا تزال هناك روزان التي عمرت مئة عام. لو كانت إنجليزية لأرسلت لها الملكة رسالة تهنئة. هل ماري ماكليس تبعث ببطاقات تهنئة لمن بلغوا عامهم المئة؟ ولكني على يقين أن ماري ماكليس، مثلها مثل غيرها في العالم، لا تعلم حتى إن كانت روزان موجودة.

في الواقع لم أكن أنوي كتابة أي شيء عن نفسي هنا. كنت أنوي الكتابة عن روزان.

لأن هناك غموضا في تاريخها. أشك أن في الماضي البعيد، في مؤسسة مثل هذه، قد وقعت تحت وطأة القسوة والمعاناة على يد الممرضات. لن يكون هذا مستبعدا إبان ذلك التاريخ القديم أبدا. لم تكن معاناتها في الدنيا وفي عالمها الواقعي، كما يسمى عالمها خارج هذا المكان، أقل قسوة. لقد حاولت أن أسألها على التوالي أسئلة وأنا أتوخى الحذر من أن أثير المخاوف فيها لكي لا تلجأ

إلى السكوت وعدم الإجابة. كانت على الدوام قادرة على التحدث بشكل هزلي وخيالي. اعتدت أنا وبِت أن نتحدث هكذا منذ سنين خلت. كنا على سجيتنا. لكن لا، فلأترك هذا الأمر جانبا. ترى هل بِت وحيدة الآن حيث هي ترقد هناك؟ يا له من شيء غريب أن نهاتف مدير الجنائز الذي لم نتمنَّ أبدا أن نفعل، كم من المرات مررت بسيارتي على المبنى ذي المدخل الفاخر، وساحة خلفية لسيارات نقل الموتى، وفيه تسمع العبارات الهادئة المقتضبة، الأرقام، الشاي، والشطائر، والوثائق التي تخص القبر، والخدمة، ونقل الجثة، والأشياء الأخرى التي تخص الموت. ومن ثم هذا الصباح وصلت الفاتورة بتحفظ شديد للأشياء التي تم تفصيلها، نوع الكفن الذي قد اخترته في عجالة وخسة، وتأسفت كثيرا على هذا أثناء التشييع. ما هذا الذي اشتريته لدفن زوجتي؟

كل الأمور الصغيرة تذكرني بها، كل التفاتة من رأسها، كل لحظة من الحنان بيننا، كل هدية، كل مفاجأة، كل طرفة، كل نزهة، العطلات التي كن نقضيها في بوندوران ولاحقا في بينيدروم، كل كلمة طيبة، أو جملة تشد الأزر، كل هذا اجتمع بعضه مع بعض كالبحر، بحر بِت، وارتفعت من أعماق تاريخنا، مجرى بحرٍ من كينونتنا، وفي خضم موجةٍ عاتية، تهشم كل هذا على ساحلي الرمادي، اجتاحت كياني، ليتها جرفتني أنا إلى الأبد.

يا إلهي. لقد ضعت في بحر الأفكار. ولكن هذا هو ما أنا عليه في الأسابيع الأخيرة.

روزان. تلك السيدة العجوز. المرأة الخرافية في القصص التراثية. عجوزٌ جدا، ولكن لها وجهٌ دقيق الملامح يكسوه شيء من بقايا شبابها وما كانت عليه سابقا. أوه، إنها انكمشت كما متوقعٌ أن تكون، عندما تقوم امرأة أخرى بغسلها، لن تجد سوى الجلد

والعظم، وكل شيء جميل وخصب فيها أصبح خاويا وذابلا. أيمكنني أن أقول إن بِت قد جنبت نفسها هذا الشيء بموتها المبكر. إن الموت يضحك من هذا المصير، أنا على يقين. فالموت يعرف قيمة الحياة بالنسبة لجميع الخلق.

من منطلق الفضول، أتمنى لو أحصل على صورة قديمة لروزان عندما كانت صغيرة. لابد أنها كانت جميلة أيامها. ولكن لم تكن هناك صور فوتوغرافية في ذلك الوقت.

في البداية لم أعثر على أي شيء عنها. في الحقيقة أستطيع القول إنني كنت أتوقع أن يكون هناك بعض الأثر عنها في السجلات بالنسبة لسنها الكبيرة. ما الذي عرفت عنها؟ وأخيرا تكلمت معها من وقتٍ إلى آخر لعدة مرات كأنني تكلمت معها بمقدار عشرين سنة! جمعت حقائق قليلة عنها بأنها كانت تدعى ذات مرة السيدة ماكنلتي، فلم يكن لديها أقرباء معروفون ليتواصلوا معها بأي وسيلة، لم يزرها أحدٌ قط في المستشفى، ولدي شعور مبهم أنها قد نقلت إلى هنا من مستشفى سليغو، لكن ربما منذ أربعين سنة خلت أو أكثر. كيف توصلت إلى هذا، لا علم لي به، إلا أنني رأيت ذات مرة بعض الوثائق التي تشير إلى هذا، وذلك عندما كنت في شبابي وقد قدمت من إنجلترا. بطبيعة الحال كانت بِت تريد أن تكون بالقرب من عائلتها، وعلمت من أبي أن لي بعض الروابط الأيرلندية، لذا كنت راضيا بأن آتي إلى هنا.

مصادفة، محض المصادفة، كل شيء مصادفة. كم كنت منبهرا وسعيدا بالإطراء وأنا أتسلم رسالة من حيث لا أعلم، مصدرها مكتب التسجيل هنا، السيد أموردات سينغ، يعرض عليّ وظيفة مبتدئ، كيف حصل على اسمي لا علم لي، وكنت قد تخرجت في الكلية قبل أشهرٍ قليلة، كنت عاطلا عن العمل وأريد الاقتران

بِـت باسـتماتة. وظيفـة في أيرلنـدا، هـذا مـا كانـت تصبـو إليـه بِـت. كانـت كأنهـا معجـزة. كـما يقـول العـرب إن كل شيء قـد كتـب لـك في كتـاب الحيـاة، ومـا علينـا سـوى الاستسـلام لمـا كتبـه اللـه لنا في الغيـب. ظننـت أن السـيد سـينغ ربمـا درس في نفـس الكليـة التـي درسـت فيهـا، لكـن الأمـر لم يكـن كذلـك، هـو قـد تـدرب في أيرلنـدا تحـت إشراف إحـدى الدوائـر الملكيـة القديمـة، والتـي مازالـت مستمرة بعـد الاسـتقلال الأيرلنـدي والهنـدي كليهـما. لا أعلـم إن كان أحدهـم قـد أعطـاه اسـمي، ولكـن لمـاذا يفعلـون هـذا الـشيء، علـيّ أن أعـترف، فشـهادتي لم يكـن لهـا البريـق الـكافي. ومـع ذلـك، الرسـالة المعجـزة قـد وصلـت، وقمـت بالـرد عليهـم بـسرور، سرورٍ شـبابي. أعتقـد أنـك سـتقول لم تكـن قـد رأيـت روسـكومن. لكـن الميـاه كانـت راكـدة، والأمـور جيـدة، وهـذا مـا أثـار حـب بِـت لهـذا المـكان. كان كل شيء فيـه يجـري بمـا تشـتهيه أنفسـنا.

أمـوردات سـينغ كان كالقديـس. ربمـا لأنـه لم يتوفـق في أيرلنـدا كـما كان يجـب. كان يسـتحق أن يقلـد مركـز كبـير الأطبـاء النفسـيين في أيرلنـدا. كانـت المستشـفى التـي يعمـل بهـا جنـة حقيقيـة، وكانـت لديـه آراء راديكاليـة مثـيرة. (يونـغ) و(ر.د. لينـغ) كانا معظمين بالنسبة لـه، كوَّنـوا مزيجـا فعـالا. بـكل الحـزن، لقـد مـات شـابا تقريبـا، مـن المحتمـل أنـه هـو مـن أجهـز عـلى نفسـه. في كل الأحـوال أنـا سـعيد أنـه اسـتدعاني، مـع أن الغمـوض كان يلـف اختيـاره لي.

بالطبـع لمـا وصلـت إلى هنـا، كانـت روزان كلـير موجـودة في ذلـك الحـين، أجمـل قسـم مـن العشريـن عامـا، أو بالتأكيـد تحـت رعايـة الخدمـات النفسـية (دعنـي لا أكتـب «مـا يسـمى»).

يـا لهـذا الصـوت العنيـف الصـادر مـن البـاب. إنـه كـما لـو كنـت قـد عـدت مـرة أخـرى في الخامسـة مـن عمـري في منزلنـا الـذي اختفـى

في بادستو. إني خائف أن أذهب لأرى مصدر هذا الصوت. أنا على يقين من أنه مجرد صوت باب، ربما الباب في غرفة النوم الاحتياطية التي تزدريها بِت، على أنها في نفس الطابق الذي كنت فيه.

لقد أرسلتُ طلبا إلى مستشفى سليغو للأمراض العقلية ما إذا كان لديهم أي شي عنها. ربما لا يوجد لديهم أي شيء. في هذه الأثناء وجدت بقايا أوراق متآكلة قد قضمتها الفئران وزحفت عليها حشرة السمك الفضي فأصبحت مثل زخارف صحراوية قديمة. أو كما يكون الإنجيل المحرّف.

لا أعرف من كتب تلك الوثائق، إلا أنه يبدو مجهودا متقنا، بيد أني لا أعتقد أن الطبيب هو الذي كتبه. كانت طبعة باهتة، ربما طبعت على آلة الطباعة من الطراز القديم، والتي استخدمت أوراق الكربون الأزرق المجعد أسفل النسخة العليا أثناء الطباعة. أتمنى لو أن مستشفى سليغو لديه النسخة الأصلية.

في الوقت نفسه كنت أتحدث إلى روزان قدر استطاعتي، أسترق الوقت من مهامي المتعددة، وأحيانا، يجب أن أعترف بأنني أتريث فأبقى أطول مدةٍ مما ينبغي لي.

عندما أكون في غرفتها، أستطيع القول بأمانة إن سموم الأحزان كانت تقل لدي لبعض الوقت. حتى كان اليوم التالي فلم أتمالك نفسي وانهارت مشاعري في حضرتها، وفي محاولة يائسة من أن أحافظ على المسافة المهنية بيني وبينها أفشيت لها أن بِت قد ماتت. ولم أستطع أن أصون تلك المسافة بين الطبيب والمريض مما جعل السيدة ماكنلتي تزحف إلي. ولكن كان الأمر أشبه بلمسة برقٍ حنون، شيء ما فطري، غريب، وشفاف.

ربما شخص لم يزره أحد، قد اختزن بداخله حرارة المشاعر من نوعٍ خاص، مثل محطة الطاقة التي لم تستنفد طاقتها مثل مشروع شانون في الأيام الخوالي، عندما لم يكن لدى أحد كهرباء في بيته.

نعم، حصلت على بعض الإجابات لأسئلتي. في البداية كنت أتساءل هل تعرف الإجابة بدقة بالنسبة لماضيها، أو بالفعل غير قادرة على التذكر، وهل هذا، إلى حدٍّ ما، يجعلها فاقدة لعقلها؟ هل أودعوها في مستشفى الأمراض العقلية بسبب مرض الذهان الذي تعاني منه أو هو الانهيار العصبي الذي أصابها؟ مثل بعض المرضى النفسيين، كانت على يقين تام فيما يبدو أنها على دراية بأشياء وكانت متماسكة. مع ذلك تقر بصراحة عن جهلها في أمورٍ عدة، والذي يشير إلى أنها لا تعاني من مرض الذهان، لكن ربما ذاكرتها أيضا قد أصابتها حشرة السمكة الفضية فتآكلت بسبب تقدم العمر. مريض الذهان يعطي إجابات لكل شيء، بغض النظر عن مصداقيته، يكره بشدة هذا النوع من المرضى عدم المعرفة، لأن هذا يجلب لهم الألم ويعصف بهم الارتباك.

تفكيري التالي هو أنها كانت حذرة لأنها تخاف مني، أو حتى ربما مرهوبة من أي حوارٍ يأخذها إلى الماضي حيث الأشياء التي تفضل هي أن تنساها. وبالطبع في كلتا الحالتين أعرف أنها قد عانت كثيرا. تستطيع أن ترى المعاناة في عيونها بكل وضوح. والحقيقة أن هذا يضفي عليها هالة غريبة من الكياسة، إذا جاز لي القول. الآن، هذه لم تكن الفكرة التي فكرت فيها من قبل أن أكتبها هنا. إذن ربما هناك فائدة معينة من كتابة هذا الكتاب.

على أي حال، أريد بطريقة ما أن أعثر على خيوط قصتها وأصل إلى لب تاريخها، كما يقال. تاريخها الحقيقي أو أكثر ما

يمكن إنقاذه. من الواضح أنه لم يبقَ من عمرها المديد شيء يذكر. أعتقد أن أكبر معمر أيرلندي تم رصد عمره في التاريخ الحديث هو مئة وسبع من السنين، والذي يفترض أن يضيف على عمرها سبع سنواتٍ أخرى. ولكن لا يبدو أنها ستصبو للمزيد.

أنا على أملٍ أن يكون هناك المزيد من الأخبار قادمة من سليغو.

فوق كل أسفي على الأشياء الأخرى، أنا آسف على نزوح بِت إلى غرفة الخادمة.

إن مغازلتي -يا لها من كلمة طريفة اختارتها نفسي الباطنية الحمقاء كي أستر بها خطيئتي- لامرأة أخرى، وهي التي غيرتْ حياتها إلى الأسوأ بسببها هي، أظنها هي التي كانت السبب. وعلى الأرجح فإن الرأي المفاجئ الذي كونته عني بسبب ذلك هو أنني شخص وضيع وكريه أكثر مما كانت تظن.

الفصل الثاني عشر

شهادة روزان عن نفسها

«لا شيء هناك سوى المطر»، يغني غوين فارار، ويتخطف المفاتيح من يد بيلي مايرل، لا بد أنها ولدت في سليغو، غنت بنبرة حزينة: «أظن أننا قد ولدنا ومعطف المطر يلفنا».

الأمطار الغزيرة تتساقط على سليغو دوما، تتساقط على الشوارع والأزقة، تبعث الرعشة في المنازل، وتجعل الناس تحتشد مثل جمهور المتفرجين على مباراة كرة القدم، تنهمر الأمطار بشكلٍ خيالي وبكمياتٍ مهولة قد تكون بمقدار محتوى مئات الأنهار. ونهر غرافوج نفسه يتضخم حجمه، والبجعات الجميلات تنجرف على حين غفلة مع المياه أسفل الجسر وتظهر هناك في الجانب الآخر من النهر، مثل محاولات انتحار لم تنجح، تملأ الحيرة عيونها السوداء من جراء الصدمة، وجمالها الأخاذ يظل مسالما. كيف لهذه البجعات أن تكون متوحشة وهي في هذا الجمال المعروف. والأمطار تتساقط أيضا على الأرصفة خارج مقهى القاهرة، حيث سحبت معها السخانات والآلات، حدقت عبر النوافذ الضبابية بعيون محترقة.

يبدو الأمر هكذا. إذن من أنا؟ شخصٌ غريب، ومازال غريبا، يخبئني في نفسي، في عظامي وفي دمي. يختبئ في تجاعيد الجلد الذي يكسوني. أنا هي الفتاة التي كانت يوما ما.

بالأمس، بدأت أكتب عن مقهى القاهرة، ولكن داهمتني تلك المشاعر الرهيبة. كأن عظامي تتحول إلى مياه، مياهٍ باردة. كان يسميه الدكتور غرين شيئا وهو يتفقدنا. كان تأثير كلماته مثل لوح يهوي على قمة زهرة جافة. رقدت في سريري طوال اليوم، أشعر أني عجوزٌ في الغابرين، متهالكة، مذعورة. دخل جون كين، حتى هو كان مندهشا من التغيير في وجهي، لم يقل شيئا. أخذ يمسح الغرفة بعجالة مع مكنسته الشنيعة. بدوتُ حانقة. يقال إن الإنسان يتساقط جلده الميت بعد كل حين. مكنسته قد جلبت كل خبايا المرضى إلى هنا. كلما يكنس يكشط بمكنسته شيئا من كل غرفة. لا أعلم على أي شيء يدل هذا.

أشعر أني ابتعدت عن مهمتي التي علي أن أقوم بها. أعتقد أنه مثير للسخرية إذ إنني أحاول أن أكتب عن حياتي العديمة الفائدة، وأنا أقاوم الإجابة على أغلب أسئلته. أعتقد أنه من دواعي سروره أن يقرأ هذا، لكي تسهل عليه مهمته. حسنا، إذا كنت قد مت، وفكر شخصٌ ما أن يبحث تحت اللوح الراخي، سيجد ما كتبت. لا مانع لدي أن يقرأه طالما لن أكون موجودة ليستجوبني عن كثب، حيث لا شك أنه سيستجوبني إذا وقعت مذكراتي بين يديه الآن. ربما في الواقع أنا أكتب لأجله، بما أنه هو الشخص الوحيد الذي أعرفه، وبمعنى الكلمة بالضبط. وحتى هو قد اعتاد أن يأتي إلى هنا بانتظام في الآونة الأخيرة. إني أتذكر أنني كنت أراه مرتين سنويا، مرة في عيد الميلاد المجيد، مرة ثانية في عيد الفصح، عندما كان يأتي بخفة ويسأل عن أحوالي، وهو في الحقيقة لا يكترث أن يسمع الرد، وينطلق خارجا. ولكن، هو لدية مئة مريض أو أكثر، لا أدري، ربما أكثر من ذلك. ترى هل هناك أناسٌ أقل في هذا المكان الآن. ربما منحونا رتبا كهنوتية مثل الراهبات والرهبان القدامى وبقينا في نفس المكان نتضاءل مع

الزمـن إلى أن نصبح حفنـة قليلـة منهـم. ليس لـدي سبيل لأن أعـرف، إلا إذا قمت بجولـة في المـكان، وهـو أمرٌ غـير محتمـل في الوقـت الراهـن.

في الفنـاء أسـفلنا، تراكـم الصقيـع للمـرة الثانيـة، بـصرف النظـر عـن قطـرات الثلـج الـذي تنبأ بهـا جـون كـين، أنـا عـلى يقـين أن شجرة التفـاح العتيقـة تشـعر بالـبرد الشـديد. لابـد أن هـذه الشجرة عمرهـا مئـة عـام. منـذ سـنين خلـت، اعتـدت أن أنـزل إلى الفنـاء عندمـا يسـمح لي ذلـك، وأجلـس تحـت الشـجرة عـلى مقعـدٍ خشـبي يلتـف حـول الشـجرة مثـل قريـة إنجليزيـة قديمـة، شيء مـا يشـبه القصـص الإنجليزيـة القديمـة. القريـة الخـضراء. لكنـه عبـارة عـن مـكان ضيـق يسـمح للشـمس بـأن ترسـل الـدفء للشـجرة القديمـة وتبعـث فيهـا الحيـاة في فصـل الربيـع. ومـن ثـم تظهـر البراعـم الرائعـة. ولكـن ليـس بعـد وأنـا متأكـدة، وإن تجـاسرت وأخرجـت بعـض البراعـم، فالصقيـع سـوف يجعلهـا تسـود، وعليهـا أن تعـاود الكـرّة مـن جديـد.

كانـت هنـاك خادمـة تخـدم في المطبـخ وترمـي بقايـا الخبـز الجـاف عـلى طاولـة الطيـور المؤقتـة. فتجلـب الطيـور منهـا ذات الريـش الأزرق، ومنهـا ذات الريـش الأخـضر، وكل العصافـير الجائعـة التـي يمكـن أن تتخيلهـا في روسـكومن. أظـن تلـك الخادمـة قـد رحلـت مـن هنـا منـذ أمدٍ طويـل. أظـن شـجرة التفـاح سـتكون الأخـيرة بـين الذيـن يرحلـون مـن هنـا.

مـن شـأن شـجرة التفـاح القديمـة هـذه أن تصنـع مـن طائـر الشـحرور فيلسـوفا. براعـم التفـاح أكـثر رقـة مـن الكـرز، ولكنهـا تبقـى غامـرة ومفعمة تبـشر بالخـير الوفـير. كانـت تجعلنـي أبـكي في الربيـع. كانـت تثمـر سـواء أصابهـا الصقيـع أم لم يصبهـا. أحـب أن أراهـا ثانيـة. الصقيـع يؤخرهـا ولكنـه لا يهزمهـا أبـدا. ولكـن مـن الـذي يمكنـه أن يحملنـي لأنـزل إلى هنـاك.

عندما يصل اللبن إلى المنزل متجمدا في الدلو
وديك الراعي ينفخ في ظفره

كان لدى والد زوجي توم العجوز حديقة خلابة في منزله ذي الطابق الواحد في سليغو. لقد كان رجلا ذا خبرة واسعة في زراعة الخضراوات الشتوية. أتذكر أنه كان يقول إن الصقيع يحسن نمو الملفوف والخس الشتوي. كان عفريتا في زراعة الخضراوات طوال السنة، والذي على ما يبدو من الممكن إلى حدٍّ بعيد أن تقوم به لو كنت تعرف كيفية زراعته. كعمل أي شيءٍ آخر.

توم ماكنلتي العجوز. حتى هذه اللحظة، أنا لا أعرف إن كان عدوا لي أم صديقا. إلى هذا اليوم أحمل في رأسي فكرتين عنهما، جاك - كلا، كلا، ربما أستطيع ومن دون أن أظلمه لعن الأب غانت، وتلك المرأة العجوز والدة توم وجاك، السيدة ماكنلتي الأصلية. من ناحيةٍ أخرى، أنا فعلا لا أعلم. على الأقل، كانت السيدة ماكنلتي دائما عدائية وبشكل صريح، في حين جاك والأب غانت كانا دائما يظهران نفسيهما كصديقين. أوه، يا له من لغزٍ محير.

الآن صار عندي سوء ظنٍ: ألم يقدم الدكتور غرين ذاته كصديق؟ ربما كصديق محترف حسب الطريقة التي يتحدث بها. صديق أو عدو، لا أحد يحتكر اليقين. حتى أنا نفسي، وهذا مرة أخرى سوء ظن مثير للقلق.

كان من الصعوبة بمكان أن أسمعه يقول إن أبي كان يعمل في سلك الشرطة. أعتقد أنه لم يكن عليه أن يذكر هذا الشيء. لقد سمعت هذا بلا شك من قبل، ولكني لا أدري أين سمعته أو ممن. إنها كذبة، لكنها ليست محبوكة بشكل جيد. تلك الأكاذيب في ذلك الزمان، كانت يمكن أن تودي بحياتك، وكان نوعا من النمط السائد حينذاك في أيرلندا، فمثلا السبعة والسبعون المشهورون قد

أطلق عليهم النار من قبل الحكومة الجديدة. والرجال الذين أعدموا كانوا أساسا رفاقا سابقين. جون لافيل كان ذا حظٍّ عظيم أن ينجو من هذا المصير وأن لا يزيد العدد إلى ثمانية وسبعين. أنا أجزم بأن هناك من قتلوا بالسر، كان يحدث إطلاق الرصاص بالسر لكن أحدا لم يحصِ عدد القتلى أو يتذكرهم. موتٌ حزين، باردٌ وبائس موت أولئك الأولاد على جانب الجبل وموت من شابههم، الموت الذي شاهدته بنفسي أو ما نتج عنه في أبسط الأحوال، مثل ما حدث لويلي شقيق جون.

تنفست الصعداء وأنا ألبس لباس النادلة في مقهى القاهرة. هذا المقهى كان يقدم الخدمة للجميع في سليغو دون انتقاد. يملك المقهى أسرة كويكر، وقيل لنا أن لا نطرد أحدا، لذا كنتَ ترى رجلا فقيرا متقاعدا يجلس وحيدا يشرب الشاي، ويأخذ خلسة بعض قطع الجبن من حضنه، وقد أتى بها معه في جيبه يحسب أن لا أحد قد لاحظه. أتذكر جيدا ذلك الرجل، تحسبه كبيرا بالسن وهو في سترته البنية. ربما كان في السبعين من عمره فقط! إن وجود هذه الشخصيات المتواضعة لم يثنِ سيدات سليغو من التردد على المقهى للثرثرة والنميمة. بالفعل كن مثل الدجاج في الفناء، من الطريقة التي يجلسن بها عند الطاولات ويدردشن ترتفع أصواتهن بالإشاعات والنميمة مثل قافلة من الجمال في الصحراء تعلوها الغبار. البعض منهن نساء رائعات متألقات، لدرجة أننا نحن طاقم النادلات أحببنا ترددهن على المقهى كل يوم، وكنا نخدمهن بكل سرور. البعض منهن كن بذيئات اللسان كما تتوقع منهن. ولكن كل الأشكال والأنواع التي كانت تأتي إلى المقهى، كانت بالفعل هي جامعتي التي تعلمت فيها الكثير، إحضار الشاي، والتصرف بأدب وتهذيب، ربما كان ذلك بداية لحياة طيبة، لست أدري.

أعتقد أني حصلت على هذه الوظيفة بالطريقة المعتادة، بعد رؤيتي لإعلانٍ لُصق على شباك، دخلت وبطريقة ما عرفتهم أنني من المشيخية ولو أن مظهري لم يكن مشجعا، ولكني مناسبة للوظيفة (رحابة صدر المالكين للمقهى أسرة كويكر، لم يكن بالإمكان أن تتوظف فتيات كاثوليكيات، إلا كريسي التي كانت كاثوليكية ولكنها تربت في مدرسة مستقلة كبروتستانتية). ولكن جاءت بطريقة مغايرة.

بعد وفاة أبي، أمي التي كانت كعادتها ساكتة، تراجع سكوتها أكثر وأكثر. في صباح أحد الأيام استيقظت صباحا ونزلت لكي أعد لها الشاي، ولكن عندما صعدت إلى غرفتها لم أجدها في السرير. كانت صدمة شنيعة، صرت أنادي عليها وأنا في الطابق السفلي وأبحث عنها في كل أنحاء المنزل، في الشارع وفي كل مكان. ثم ومصادفة وأنا أنظر من نافذة غرفة الغسيل وجدتها، جاثمة تحت دراجة أبي النارية التي قد تقولبت في مكانها. نعم، أرجعتها إلى سريرها ووضعتها تحت الأغطية التي أشعر بالخزي أن أقول إنها أصبحت رمادية اللون من جراء استخدامها دون غسيل. لقد أحزنني وأغاظني هذا الشيء، خرجت أسير ذلك اليوم إلى روسِس بوينت حيث هناك أجمل الشواطئ، أفكر لو أتجول في نواحي ملعب الغولف مع البرك الصغيرة من الطيور المنعزلة، والمناظر الخلابة التي تظهر فجأة عند المياه لبيوتٍ بعيدة عند البحر كأنها وصلت إلى الحافة لتشرب (بالطبع كان بحرا مالحا بالنسبة لي). ومشيت هناك في البدء وصلت إلى البيوت الريفية لروسِس، وجزيرة كوني عبر الجانب الآخر من مجرى غارافوج، ومجسم الرجل المعدني الذي يقف في سكونٍ بديع، رداؤه الأزرق القديم وقبعته السوداء، يشيران إلى المياه العميقة في وضعٍ

سرمدي ليخبر السفن الآتية بوجهتها. كان تمثالا فوق صخرة، لكن بأسلوبٍ في منتهى الروعة يدل على عمق المياه والذي لم يتكرر مثله من قبل. قيل لي إن هناك تمثالا أخا لهذا التمثال موجودا في الحديقة الصغيرة في دالكي عند البحر في دبلن، ما دوره؟ لا أعلم.

ما وراء كوني والرجل المعدني بالطبع تقع منطقة ستراندهِل، الشاطئ الأصغر، حيث كان مسرحا لمعاناتي فيما بعد.

عندما وصلت إلى ساحل روسِس بونت، هبت تلك الرياح العاتية، وبالرغم من وجود السيارات السوداء وراء الكثبان، إلا أن أصحابها كانوا لابد أن جلسوا بداخلها، حيث لم يكن هناك أحد على الساحل الواسع.

فقط تلك الهبّات من الرياح التي انطوت على نفسها. ولكن على البعد مني تراءت لي هيئة امرأة بثوبٍ أبيض يتماوج في الهواء وسرعان ما رأيتها تدفع عربة كبيرة سوداء أمامها بصورة عشوائية. وما إن اقتربت منها حتى سمعتها تنادي، كلماتها تخفت وتعود تعلو تتحكم فيها الرياح كما تشاء. وأخيرا وصلت إليها، وكانت تتعرق بالرغم من الطقس البارد من شهر يونيو (حزيران) الأيرلندي.

تقول وهي تبدو مثل الأرنبة في قصة أليس في أرض العجائب: «يا إلهي، يا إلهي، أنا لا أجدها، أنا لا أجدها».

قررت أن أجاري لكنتها التي تدل على أنها من الطبقة الراقية في المجتمع ويحلو لها أن أتوجه لها بالقول «سيدتي» فقلت لها: «من الذي لا تستطيعين أن تجديه يا سيدتي؟».

قالت بنبرة غريبة أقرب إلى الصياح: «ابنتي، ابنتي الصغيرة، لقد نعست وأنا على التلة، حيث المساحة المشمسة اللطيفة وكانت

هـي بجانبـي تلعـب، ولكـن عندمـا اسـتيقظت كانـت قـد اختفـت، إنهـا ذات سـنتين فقـط، يـا ربي، يـا ربي».

سألتها من وحي أفكاري: «أليست هي في العربة؟».

«لا إنهـا ليسـت في العربـة، هـي تمشي. أخوهـا هـو النائـم في العربـة نومـا عميقـا! ابنتـي وينـي تمـشي. وينـي، وينـي!».

بـدت لي فجـأة تجـري بعيـدا عنـي، كأنهـا تخلـت عـن أي فكـرة بـأن يكـون بمقـدوري المسـاعدة، بعـد أن رأت عـدم معرفتـي بأمـر عربـة الأطفـال.

قلـت لهـا: «سأسـاعدك في البحـث عنهـا. سأسـاعدك». وأمسـكت بذراعهـا للحظـة. كان هزيـلا تحـت ثوبهـا الأبيـض القطنـي. توقفـت ونظـرت إليّ وحدقـت بعينيهـا الخضراويـن الباكيتـين.

ركضـت فـوق الكثبـان ومشـيت في الطريـق العلـوي القديـم وبينها مثلـما كنـت أفعـل ذلـك مـراتٍ عديـدة عندمـا كنـت مـع أبي. كان الطريـق ينحـدر ويعلـو بسرعـة شـديدة. وبعـد قليـل وصلـت إلى حيث السـيارات. كانـت ميـاه المـد قـد بـدأت تحـوم حـول الصخـور هنـاك وترفسـها عنـد الشـاطئ. ومـن منطلـق الغريـزة عرفـت ذلـك الكهـف العميـق والغريـب الـذي يجـذب الأطفـال. أخـبرني أبي بـأن الكهـف قـد وجِـدت فيـه بقايـا الحيـاة البشريـة في أيرلنـدا، والأوائـل منهـم كانـوا بـلا شـك أقويـاء وشـجعانا لكنهـم في نفـس الوقـت يهابـون وجودهـم بمفردهـم في أرضٍ تكسـوها الغابـات الشاسـعة والمسـتنقعات، وأن يتخـذوا مـن هـذه الأرض سـكنا لهـم.

دخلـت الكهـف المظلـم وقـد مُنحـت مكافـأتي عـلى حـدسي كـما يجـب. كان ثمـة جسـم صغـير جاثـمٌ عـلى الأرض يحفـر في الرمـال الجافـة، مقعـده مبلـولٌ مثـل بركـة، وباقـي جسـده مـسرورٌ لا يبـالي. التقطتهـا وحملتهـا، لم تكـن خائفـة، ربمـا كانـت تظـن أنني أحـد

المخلوقات الخيالية التي نسجتها في خيالها. بينما خرجت من الكهف إلى الهواء الطلق، وجدت أمها على بعدٍ منا تبحث بين الصخور على الجانب الآخر من الساحل. كان منظرا عبثيا دون جدوى محكوما عليه بالفشل. كم تمنيت لو أمي تسعى إلى البحث عني بهذا الإخلاص الشديد، تنضح بالعرق بحثا عني لتجدني مرة أخرى على الساحل الآخر من العالم، لتنقذني، لتوظف الآخرين لينقذوني، لتقربني إلى ثديها، مثل ما تلك الأم التي أراها عن بعد التي بلا منازع تتوق شوقا لأن تفعل هذا الشيء مع تلك المخلوقة المبتهجة بين ذراعَيّ.

لكنني انطلقت على أي حال عبر الرمال المبعثرة مع تلك الأصداف البحرية الشائكة، والمياه التي تتموج في كل مسافة من المكان. عندما وصلت منتصف الطريق، شعرت الأم أني قادمة نحوها، أدارت وجهها نحوي بغموض. بالرغم من تلك المسافة، أصبح لدي إحساس هائل من وجود لغزٍ ما، وذعر لا يوصف من شكلها، وكان لهيب الارتياح يطفر منها كما كانت تظن وتتمنى، نظرت إليّ مستطلعة وجود ابنتها بين ذراعي. تابعت في سرعتي ودفقات الرمال تتخلل خطواتي وتتناثر على مساحة فدان من الأرض. والآن جاءت تهرول نحوي ومازالت تدفع بالعربة الضخمة، فكنا على بعد عدة ياردات عن بعضنا، الأم تصيح بفرحٍ، وكأن العربة على وشك أن تصطدم بي، والطفلة التي بين ذراعيّ سحبت نفسها بقوة نحو أمها وصارت الآن تبكي فرحا. وكأني أعدت لها الطفلة من عالم الأموات، وبخاصة عندما أخبرتها عن الكهف والماء المتراجع إليه من حركة المد في هذا الوقت.

قالت: «لا أستطيع أن أصف لك، لا أستطيع. إن الألم الطاغي في جوفي لا يوصف عندما غابت عن نظري. أصوات عويل آلاف

النوارس ملأت رأسي. كان صدري مليئا بالآلام وكأنه قد صب داخلي زيت ساخن. وصار الساحل يصرخ بأكمله ويرجع الصدى إليّ في الفراغ. فتاتي العزيزة، فتاتي العزيزة، فتاتي العزيزة».

الكلمات الأخيرة كانت في الواقع موجهة إليّ، رغم أنها تقبض على الفتاة العزيزة الأخرى، وراحت تمسك ذراعي الآن.

«أشكرك، أشكرك يا عزيزتي، يا أيتها الفتاة العزيزة».

كانت هذه المرأة هي السيدة برونتي، زوجة مالك مقهى القاهرة. لم تأخذ الكثير من الوقت قبل أن تعرف قصتي، أخبرتها بعناية وبطريقة راجية أن تكون مناسبة أثناء عودتنا إلى سليغو في سيارتها السوداء الكبيرة. وكان من دواعي سرورها أن تقترح عليّ أن أعمل في مقهى القاهرة بما أنني قد أنهيت الدراسة، وأبي قد توفي، وأمي «عليلة» كما وصفتها، وهي بالبيت.

لا أتذكر اللحظة الاستثنائية حين دخول توم لأول مرة إلى المقهى، لكن لدي ذاكرة قوية عنه وكأنه قد احتوى صورة فوتوغرافية بحواف مزركشة بالذهب، مثل تلك الصور المعلقة خارج دور السينما في مدينة سليغو، له هالة واستشعار للرفاهية، رجلٌ قصير وممتلئ، يميل إلى السمنة تقريبا ببدلة متينة وأنيقة، لذا لم يكن مثل أخيه جاك، والذي كان يلبس البدلات التي تناسب ذوي المراتب العالية، والمعاطف الراقية لأقصى درجة، لها ياقات من الجلد مثل نجم في الأفلام. كلاهما يرتديان القبعات الباهظة الثمن، رغم أنهما كانا ابني خياط المصح العقلي في سليغو، ربما هذا هو السبب في التفصيل الدقيق لبدلة توم وليس بدلة أخيه، دون شك في ذلك. ولكن الواقع أن والدهما كان أيضا يقود جوقة موسيقية خاصة لفرقة الراقصين في سليغو، أوركسترا توم ماكنلتي، وهذا يعني أن لديهم المال أكثر من معظم الناس المفلسين في

ذلك الوقت. والده، رجل ضئيل الحجم، تشاهده يضع طاقية من القش في حر الصيف اللاذع، ويرتدي سترة مقلمة مثل الذين تراهم فقط في المسابقات أيام الأربعاء خلف المدينة، كان يدعى توم العجوز، أما توم نفسه فكان يدعى توم الصغير، كان هذا أمرا له خاصية مفيدة بما أنه كان يعزف أيضا مع الجوقة المشهورة، مشهورة بين كثبان ستراندهيل وفي أحلام أهالي سليغو.

لابد أنه قد مضى على وجودي في مقهى القاهرة أكثر من سنتين عندما عرفت الأخوين ماكنلتي. في تينك السنتين عملت نادلة بسيطة، ومرت حينها سنتان سعيدتان في حياتي، أنا وكريسي المنعزلة عن الناس سرعان ما توطدت الصداقة بيننا يساند بعضنا بعضا ضد العالم حولنا. كريسي إنسانة مهذبة وأنيقة، ويوجد من هم على شاكلتها، فالدنيا ليست مجرد سكاكين وفؤوس. علاة على ذلك، فبالرغم من أن السيدة برونتي نادرا ما يراها أحد، فقد كانت دائما في مشاعري أرى حضورها الخفي وراء بخار السخانات، وعند حاملات الكعك وحوافها البديعة ذات الأغطية المتعددة، والنهر الفضي من السكاكين والملاعق، وتلك الشوَك الرقيقة التي تستخدم في قطع الكعك الناعم. في مكانٍ ما خلف كل هذا والأبواب المنحوتة بتفصيلٍ دقيق، ولمساتٍ من بلاد مصر التي لم يرها أحدٌ في الحقيقة، كنت على يقين بأن السيدة برونتي كانت تتجول مثل ملك من جماعة الكويكر وهي تتحدث عني بالخير. هكذا تخيلتها. كسبت بعض المال، لإطعام وتنظيف أمي، التزمت السكنى في المنزل أمسياتٍ عديدة، شاهدت آلاف الأفلام، واستمعت لنشرات الأخبار، وكل باقي الأشياء، عجائب تتخطى أدق العجائب، أسرفت في أحلام لا تضاهيها أحلام. وإلى حدٍّ ما كنت راضية عن ذلك، رفضت جميع العروض للخروج مع أي شخص بصورة وطيدة، أو الرقص مع أي شاب بعينه أكثر من مرة أو مرتين. كنا نخرج كزمرة من الفتيات الصغيرات

من نفس البلدة إلى مرقص توم ماكنلتي على ساحل البحر مثل سيلٍ من الورد على طول طريقٍ كئيب، وأحيانا ننساب من الطريق ببساطة وابتهاج فنخرج إلى الساحل نفسه حيث ينحدر الطريق من القرية في أعالي ستراندهيل، والأعمدة التي قد شُدت عليها حبال المراكب الواحد تلو الآخر على الرمال ذاتها أظهرت جَزْر البحر المتدني باتجاه كوني. يمكنك أن تسمينا نوارس البحر البيضاء الأنيقة تنغمس وتنادي، كنا دائما على اليابسة كما لو أن هناك دائما عاصفة بحرية آتية. يا إلهي، فتياتٌ في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من أعمارهن يعرفن كيف يعشن في الحياة، ويرغبن العيش فيها، لو يتركن في حالهن.

لم ير أحدٌ مصر كما قلت، ولكن بالطبع جاك كشابٍ كان بحارا في البحرية البريطانية للتجارة وكان قد ذهب إلى كل ميناء على كوكب الأرض، ولكن بالطبع أنا لم أكن أعرف هذا. ملحمة جاك ملحمة قصيرة، وملحمة عادية، ملحمة محلية، ولكنها ملحمة بكل ما تعني الكلمة وغائبة عني. كل ما كنت أراه، أو بدأت أرى هو شقيقان مهندمان ومهذبان يأتيان إلى المقهى لشرب أقداحٍ من الشاي، الشاي الصيني لتوم وإيرل غري المفضل لجاك. وقصة أخيهما إينياس السوداوية لم أكن أعرفها إلا بعد فترة طويلة، إذ لم أكن في الحقيقة أعرف عنه شيئا. كنت أعرف بعض الرتوش عن قصته، بعض الصفحات قد مُزقت من كتابه الرث. هل بإمكانك أن تحب رجلا تعرفه فقط بالحس الديني لليلةٍ واحدة؟ أنا لا أعلم. ولكن كان هناك الحب واللطافة، والعنف، الحب اللائق. فليغفر الله لي.

مذكرات الدكتور غرين

قصص رائعة (قراءتي «للشاعر» فيرجيل في المدرسة منحتني خيرا لأنها تركتني مع هذه العبارة)، المزيد من الوثائق وصلت من

مستشفى سليغو للأمراض العقلية. إنها مسودة النسخة القديمة المخزنة، ويبدو أن ترتيبهم أفضل مما لدينا بكثير، لأن الأوراق كانت سليمة. علي أن أقر أن قصتها كما كانت مفصلة في الوثيقة أثارتني بشدة، تقدم لي نوعا من رؤية وراء الشخص الذي أعرفه مستلقيا على السرير. مثل منظر إنسان متكون من مشكلات وأحداث، كأنه لوحة من رسومات دافنشي[6] أو ما شابه، موناليزا نفسها، بقلعتها وسهولها (مما أتذكره: ربما لا يوجد هناك قلعة).

مثلما هي نفسها تستمر في عدم البوح، فقد كان لدي الكثير من الحماس لقراءة هذه الوثائق، كما لو أنني أتلقى الإجابة التي كنت أبحث عنها عندها، ولكن عليّ أن أكون حذرا جدا. كانت الكلمة المكتوبة تفترض السلطة لكنها قد لا تملكها. لا يجب بالضرورة أن أترك صمتها يمتلئ بهذا الأمر، على الرغم من الإغراء الكبير، لأنه انتصارٌ، أو التفافٌ حوله. يصل عدد الأوراق تقريبا إلى سبع عشرة تمت طباعتها بعناية، ويبدو أنها تقدم سردا للأحداث التي أدت إلى -كنت سأقول- الحبس، لكنني أقصد الحجز. إنها مقسمة إلى جزأين، الأول يعطي تفاصيل عن حياتها السابقة حتى زواجها، ثم أسباب إبطال ذلك الزواج، إذا كانت هذه هي العبارة الصحيحة لهذا الزمن. يبدو أن هذا تلا فترة من الفوضى الهائلة في حياتها، هائل، حقا إنه بالأحرى رهيب ومثير للشفقة. كان هذا منذ زمن بعيد للغاية، في القصة الخيالية للحياة الهمجية في أيرلندا إبان العشرينيات والثلاثينيات، خاصة، على الرغم من أن فترة الصعوبات الكبرى قد جرت بالفعل أثناء سنوات الطوارئ، كما سماها دي فاليرا الحرب العالمية الثانية.

(6) ليوناردو دافنشي: (1452 - 1519م) أحد أبرز رسامي النهضة الإيطالية. أشهر لوحاته الموناليزا. **(المراجع)**

لا أعرف بكل صدقٍ وأمانة مقدار ما يمكنني تقديمه لها. أنا أشك، حسب ردة فعلها في اليوم السابق، إذا كانت مستعدة لبوح بأسرارها، مما يكون أو لا يكون كشفا لأسرارها. إذا كانت تمثل الحقيقة، فهي حقيقة مروعة تثقل كاهلها. في مكان مثل هذا يجب أن لا نهتم كثيرا بالحكم الأخلاقي، أو الحكم القانوني.

نحن مثل رجال الدين المصلحين في السجن هنا في هذه المستشفى، حيث نتعامل مع بقايا الإنسان بعد أن يكون قد أتت عليه السلطات المدنية وصنعت ما شاءت معه. نحاول أن نجعله مستعدا وثابتا من أجل ماذا؟ الفأس، المقصلة التي تتخلص من سلامة عقله؟ لطول مشاهدة الموت الذي يعيشونه بالفعل هنا؟

الوثيقة التي كنت مهتما بها إن لم أكن مذعورا منها قليلا كانت موقعة بيد الأب آلاويزيوس ماري غانت، الذي كان اسما مألوفا لدي. لقد حللت اللغز وأدركت فجأة من كان ذلك الأب، هو الرجل الذي أصبح الأسقف الوسيط لمدينة دبلن في الخمسينيات والستينيات، وأخذ من الدستور الأيرلندي المبهم والمشوش بيانا واضحا لسلطاته في السيطرة الأخلاقية على المدينة، كما فعل معظم إخوانه من رجال الدين. رجلٌ يبدو في كل حديثه يتوق إلى إبعاد النساء وراء مداخل منازلهن، وتضخيم الرجولة ليصل إلى حالة العفة المتسامية، والمروءة المتباهية. هناك شيءٌ مضحكٌ الآن، ولكن لم يكن مضحكا من قبل.

هذا الأب غانت كقسيس شاب في سليغو كان مدركا جدا لظروف روزان كلير. كانت على ما يبدو ابنة رقيب في الشرطة الملكية الأيرلندية (وكان هذا شيئا أعرفه من قبل لأنني قرأت الجزء التالف الذي وجدته هنا). دي فاليرا، كقائدٍ شاب خلال حرب الاستقلال، صرح معلنا أن يطلق النار أي فرد من أفراد

الشرطة إذا عرقلوا أهداف الحركة الثورية. لذا هؤلاء الأفراد، على الرغم من أنهم أيرلنديون ولكن ليسوا كاثوليكيين بمعنى الكلمة (والد روزان كان من المشيخية)، وتعيش عائلاتهم تحت التهديد الدائم وفي خطر حقيقي. كل هذا ممكن فهمه في فترة الثورة، ولكنني أتساءل إن كانت روزان في عمر الثانية عشرة أو نحو ذلك قد فهمت ذلك. بالنسبة لها ما حدث لا بد أن يكون حقا مأساة، حقا محيرا ومروعا.

لقدنظرت للتو إلى ساعتي وهي تشير إلى السابعة وخمسين دقيقة، وهو آخر وقتٍ يمكنني أن أترك الكتابة فيه، كي أقوم بجولاتي في الثامنة وعشر دقائق. علي أن أهرب.

تذكيرا لنفسي: قال البناؤون سيكتمل المبنى الجديد في ستة أسابيع. وهذا الخبر من المصدر، هذا لأنني كنت في الموقع بنفسي، أسألهم، كجاسوسٍ حقيقي، في اليوم السابق. لكن هذا كافٍ..

الفصل الثالث عشر

شهادة روزان عن نفسها

الغريب أنني لم «ألتقِ» بتوم في مقهى القاهرة، ولكن كان في مكانٍ آخر كليا. إنه البحر نفسه. على امتداد سواحل العالم الذي له خاصية جلب الأطفال بشكل جلي. يا له من عذاب للعانس والرجل الذي بلا أطفال، عند رؤية مختلف الأعمار من الشياطين والحمائم الصغيرة وقد امتدوا على خط المد والجزر. مثل بعض سلالات الحيوانات المهاجرة. حين بدأ الحيوان البشري من مجرد شيء يتلوى في البحار العتيقة، يتصارع للوصول إلى اليابسة فيصيبه الكثير من الندم بعد ذلك. هذا الذي يجعلنا نتوق شوقا للبحر. أنا لست شخصا بلا أطفال تماما. تلك القصة تنتمي إلى البحر أيضا، أو الساحل على أي حال. طفلي. طفلي رحل إلى الآخرة، هذا ما قد أخبرت به. أو هذا ما قد سمعته منهم. ولكني لم أسمع أي شيء كما يجب أن يكون، وبشكلٍ صحيح، في ذلك الوقت. ربما قالوا لي أيضا إنه رحل إلى ولاية وايومنغ.

إن شاطئ ستراندهيل ضيق، مكدس ومهددٌ بالخطر، ويبدو أن تلة الرمال نفسها قد رفعت ركبتيها الهائلتين لتتجنب ما يجري أسفلها. هناك منتزه طويل وعر حيث كانت العربات ذات العجلتين تتوقف فيه، وغير ذلك من أنواع العربات التي تتحرك

بواسطة الأشخاص والسيارات ذات المحركات، والركاب يخرجون أفواجا أفواجا، وأنا واثقة من أنهم بمستوى الحماسة المألوفة لدى البشر جميعا، والأطفال ينطلقون من أمامهم، الآباء يضحكون، يلعنون، والأمهات يعاتبن، يهلعن.. كل هذه الضجة والاضطراب لأجل سعادةٍ اعتيادية. أثواب السباحة الطويلة تنافس البكيني المدهش الذي شاهدته فقط في المجلات بالمصادفة. كم كنت أود لو أتباهى بواحد منه.

في البداية، لا شك أن بعض المنازل انتصبت بجرأة فوق المستنقعات ومساحات من الرمال غير المستقرة، والأعشاب الكثيفة، وصارت الأرض تعلو وتعلو حتى تلامس مملكة نوكينيريا، حيث تنام الملكة ميف في لحدها الحجري. من فوق نوكينيريا يمكنك رؤية شاطئ ستراندهيل، بيد أن الناس يبدون مجرد نقاطٍ كالمسامير، وأي شيء بحجم الطفل يصبح مجرد ذرة غبار في عينك. من هناك نظرت إلى الأسفل، أبكي يائسة. كل تلك البلاد كانت بلادي فيما بعد. ستراندهيل، ستراندهيل، المرأة المعتوهة من ستراندهيل.

في البداية، شيدت بعض المنازل على هذه الأرض غير المستقرة، ومن ثم الفندق القديم، وبعدها الأكواخ والمزيد من المنازل، ثم في وقت ما في العشرينيات المنصرمة، بنى توم ماكنلتي قاعة البلازا التي فيها المرقص. كان مبنى فخما من الحديد المموج بسقفٍ دائري، وبواجهةٍ إسمنتية مربعة تؤدي إلى القاعة، وعلى عكس فخامة المكان كان شكل الباب متواضعا، وكان أيضا هناك شباكٌ للتذاكر، وأنوار كلها تغري الناظر، وتعدِه بالمفاجآت، أوه، هيجان الأحلام تتصاعد من الحشد الآتي إلى القاعة كل ليلة جمعة، والتي تصل بلا شك إلى عنان السماء.

ذلك كان عمل توم ماكنلتي، الأب والابن، يضعون ثمنا لتلك الأحلام الجميلة. وشعرت أنا بهذا الحلم شخصيا مع عاطفة تلفني.

أجلس هنا، أكتب هذا، يداي يدا عجوزة مثل يدَيْ ميثوسيلا[8]. انظر إلى هذه اليدين. كلا، كلا، لا يمكنك رؤية ذلك. فالجلد دقيق مثل.. هل سبق لك أن رأيت قشرة السمك المتناثرة في روسس ستراند؟ لا بد أنك رأيت هناك خيوطا من أشياء شفافة تغطي تلك القشور مثل الورنيش المجفف. إنها أشياء غريبة. هكذا هو جلدي الآن. أعتقد أني أستطيع أن أحصي عظامي. الحقيقة أن يديّ تبدوان كما لو أنهما قد دُفنتا منذ زمن ثم أخرجتا. سيصيبك الذعر حين النظر إليهما. أنا لم أنظر إلى نفسي في المرآة منذ حوالي خمسة عشر عاما.

كانت المياه آمنة بما فيه الكفاية على عمق عدة أقدام في ستراندهيل. في الصيف كانت مثل الحمام الدافئ. كان البحر دائما يبدو لي أنه لا يبذل مجهودا كبيرا للبقاء على حالته عند الولوج فيه والخروج منه. ربما تبول الأطفال فيه له علاقة بذلك، أقصد سخونته. على أنه كان ممتعا. أنا وكريسي والفتيات الأخريات من النادلات في مقهى القاهرة.. السيدة برونتي كانت تحرص على أن توظف الفتيات الصالحات للعمل في المقهى، أما الفتيات الحسناوات، فكان ذلك أمرا آخر. أعتقد أننا كنا نشبه الطيور الشابة. كانت ماري تومبسون يمكن أن تجد لها صورة في مجلة، ويني جاكسون كانت لها صورة ذات مرة في مجلة أبطال سليغو. كتبوا تحت صورتها «الآنسة ويني جاكسون تستمتع بالطقس

(8) ميثوسيلا: جاء في سفر التكوين أنه عاش 969 عاما. **(المراجع)**

البديع في ستراندهيل». هي في لبس السباحة المكون من قطعة واحدة أرسلوها لها في علبة من آرنولدز في مدينة دبلن على خط قطار دبلن إلى سليغو. كنت تجد أناقة الأزياء. كان لها صدر ممتلئ وأظن أن الشباب يتحسرون وهم ينظرون إليها لأنهم لم يحصلوا على فرصة للتحدث معها.

تتحول بشرتنا إلى بشرة سمراء مثل أولئك الأفارقة في حرارة شهر أغسطس. وجوهنا تشع بحمرة في المساء ونحن في طريق عودتنا إلى بيوتنا عبر الساحل، وقد احترقت جلودنا، وعند الاستلقاء على السرير لا نجرؤ على جعل أكتافنا تلامس أغطية السرير. سعداء. وبعد ذلك يزول الألم في الصباح التالي، ونعود نتوق للخروج إلى الشاطئ مرة أخرى، ثم مرة أخرى. سعداء. كنا مجرد فتيات بسيطات صريحات. كنا نود جذب الحسرة إلى قلوب الشباب قدر المستطاع.

هؤلاء الشباب كانوا يسترقون النظر إلينا ونحن نمرح عند الخطوط الجانبية مثل أسماك القرش، يلتهمون تفاصيل أجسامنا بأعينهم. أحيانا عندما كنت أتحدث إلى أحدهم أثناء الرقص، أجده لا يقول الكثير، وعندما يتحدثون مع بعضهم لا يقولون شيئا يستحق السمع. ولكن هذا أمرٌ لا بأس به. فكان في المرقص كل النماذج منهم، ذلك الشاب الأنيق، وآخرون ببناطيل قصيرة جدا بالنسبة لطولهم، فتظهر جواربهم، أو سيقان عارية في أحذية متشققة. كان دائما هناك عددٌ من البغال مقيدة في الخارج يزعج بعضها بعضا، وعربات متوقفة. يسكب الجبل أبناءه وبناته إلى خارجه مثل انهيار جليدي غير عادي. إنها الطبيعة البشرية البديعة.

كان الأب غانت هناك دائما أو أي خوري آخر، مثل طائر المالك الحزين بين أسماك المناو في المياه الضحلة. قسما بالله، كان ثمة

قانـون يحكـم صالـة الرقـص عـلى مـا أتذكـر. أو مـن المحتمـل أننـي أتخيـل. حيـث أدانـوا في الكنيسـة هـذه الأنـواع مـن الرقصـات، ولكننـي لم أكـن مطلعـة عـلى هـذا الأمـر بصـورة جديـة. لم يكـن مـن المفـترض أن يكـون الكثـير مـن التلامـس بيننـا أثنـاء الرقـص. كان غـير معقـول أن لا يكـون هنـاك لمـس أثنـاء الرقـص. كان رائعـا أن ترتمـي في حضـن الشـاب عنـد نهايـة الرقصـة، ينضـح منـك العـرق، وهـو أيضـا كذلـك، في الصيـف تفـوح منـه رائحـة الصابـون. وكان ذلـك الـشيء الـذي يضعـه عـلى شـعره آنـذاك يسـمى بريلنتـين، اسـمه التجـاري عـلى مـا أظـن. هنـاك مـن هـم منحـدرون مـن آبـاء وأمهـات يتحدثـون الأيرلنديـة مـن وراء تـلال سـليغو، وبمـا أنهـم يحـضرون الأفـلام السـينمائية مـن وقـت إلى آخـر، أصبـح لديهـم فكـرة بأنهـم لا بـد أن يظهـروا مثـل نجـوم السـينما في الشاشـة الفضيـة، إلا أن بعضهـم كانـوا يفضلـون أن يكونـوا مثـل الأيرلنديـين الوطنيـين، ربمـا كانـوا فعـلا كذلـك. مايـكل كولنـز كان أكثرهـم اسـتخداما لهـذه المـادة الزيتيـة في شـعره. لدرجـة أن دي فالـيرا ينزلـق عليـه كليـا مـن شـدة الإسـهاب في كميتـه.

وكانـت فرقـة تـوم ماكنلتـي تفجـر عاصفـة. يقـف تـوم الصغـير عـلى حافـة المـسرح مـع آلـة البـوق أو يكـون رافعـا مزمـاره، وينفـخ فيـه مدويـا إحـدى المقطوعـات الموسـيقية المعروفـة في ذلـك الزمـان. كان لابـد أن يعـزف موسـيقى الجـاز للرقـص، إلى جانـب رقصـة خطـوات الثعلـب التـي مازالـت تـؤدى هنـاك، وكذلـك رقصـة الفالـس. سـجل تـوم معزوفـة تدعـى تـوم ماكنلتـي الأفريقيـة، كانـت هـذه المعزوفـة تجعـل كل مـن في الصالـة يدخلـون في نوبـة مـن الهيجـان. تجعـل أنـوار تـوم ساطعـة في تلـك الأيـام. بالتأكيـد في ذلـك الوقـت كان تـوم الرجـل المشـهور الـذي لم أكـن قـد تحدثـت معـه، إلا حينـما كان في المقهـى لأقـول لـه: «مـا الـذي تطلبـه؟»، فتكـون إجابتـه عـلى الأرجـح:

«الشاي الصيني وكعكة العنب المجفف. وشاي إيرل غري للأخ». كان حريصا جدا على تناول تلك الكعكة. ترى هل مازال هذا الكعك موجودا الآن. في ذلك الزمان كان هذا الكعك مثل شيء مقدس، لا يحلو لك شرب الشاي من دونه. إنه مثير للضحك كيف كانت تلك الأمور تسير بحذافيرها في ذلك الزمان. كعك العنب المجفف، الكعكة القشدية، المعجنات، وكعكة الكرز المجفف التي تعلوها طبقة من السكر المنثور الناعم، تلك الأشياء كانت ضاربة في القدم مثل وجود الحيتان والدلافين وأسماك الماكريل وكباقي الأشياء الطبيعية التي ظهرت في الحياة منذ الأزل. إنه التاريخ الطبيعي للمقهى.

المهم، والدي قد رحل ولكنني استطعت أن أستجمع هذه الأسرار تحت طيات شعري لكي أنام عليها كما هي. لم أستطع أن أجافي السعادة التي كنت أصحو عليها، صحيح، هناك أمي التي عليّ أن أرعاها، إلا أنني أستطيع أن أطعمها وأدير شؤونها، وهي بدورها لا تقول شيئا ولا تخرج إلى أي مكان، تبقى في المنزل وقد لبست معطفها المخطط، وكانت لدي طاقة متوقدة في كياني، مثل محرك سيارة قد تم تشغيلها يدويا، تضخ بي الحيوية، تخرجني من المنزل إلى شوارع سليغو عبر الأبواب الزجاجية لمقهى القاهرة، أرى صديقتي كريسي أحييها تحية الصباح وأقبلها، ونضحك سويا، وإن وجدت السيدة برونتي فإنها تبتسم لي ابتسامتها الخجولة، فأبتهج وأتهلل.

تجدر الإشارة إلى تفصيل السعادة، هناك المزيد منها في الحياة، فالأفضل أن تضع علامات حيث توجد السعادة إن كان بوسعك هذا الشيء. عندما كنت في تلك الحالة كان كل شيء يبدو لي رائعا، الأمطار المنهمرة تبدو لي مثل خيوط الفضة، كل شيء كان يثير اهتمامي، بدا الجميع مسالمين معي، حتى أولئك الأولاد ذوو العيون الضيقة

الذين يجلسون عند زوايا الطرقات في سليغو، يدخنون السجائر وقد اصفرت أصابعهم من جراء كثرة التدخين، والبقع الصفراء تعلو شفاههم التي حشرت فيها السيجارة وظلت هناك إلى الأبد. نبرات أصواتهم مثل صوت قناني زجاجية تتهشم في الزقاق الخلفي.

هناك، تعود كل الذكريات دون أن يكون أي شيءٍ منها محظورا. جلست اليوم لأكتب عن توم والبحر. هذا ينقذني من فرط السعادة.

لقد انغمست في الذكريات عميقا. أعتقد أني أعرف أين سينتهي بي الأمر. إنه غريب بالنسبة لي إلى أي مدى أتذكر جيدا ملمس ثوب السباحة من الصوف الخفيف على جلدي. كان لديه ثلاثة أشرطة سميكة متبادلة والذي وفرت ثمنه طوال الشتاء. لم يوجد ثوبٌ أحلى منه في كل سليغو. يوم أيرلندي حار كان بمثابة معجزة نصبح حينها كائنات غريبة في غمضة عين. تسوق الأمطار الجميع إلى اللجوء داخل الأبنية وكذلك يفعل التاريخ نفس الشيء. في الأيام الحارة يكون محببا عدم الحاجة للقيام بعمل شيءٍ ما، ولأن عالمنا في واقعه مبتلٌّ للغاية في الأصل، اخضرار الحقول والتلال تبدو أنها تشتعل في ارتباك، ودهشة. تظهر الأرض جميلة في حد ذاتها، والبنات والأولاد على طول الساحل كأنهم لوحة رسمت من ألوان الأصفر المائل إلى السمرة وألوان الأزرق والأخضر للبحر، أيضا تشتعل وتشتعل. أو هكذا بدا لي. كل من كانوا في المدينة قد حضروا، هناك كل شيء يكابد لفحة الحرارة من فرشاة الرسام. كل شيء يرتبط ببعضه ويختلط. لا علم لي إن كانت البلازا قد شيدت في ذلك الوقت، إنه لابد أن يكون كذلك، لأنني رأيت توم ماكنلتي يعزف، فإن كان كذلك فسيكون إذن سنة 1929، أو بعدها، لذا لم أكن بالتأكيد فتاة صغيرة حينها، ولكن صار الأمر يختلط

علي في هذا الخصوص. إنه ليس سهلا أن تعرف عمر الإنسان وهو بثوب السباحة، وفي خضم ضوء الشمس، لا أستطيع أن أحدد عمري حينذاك، أتمعن في الماضي من خلال عين عقلي، كل ما أراه هو ذاك البريق الخرافي.

بريق سطح البحر يتلألأ مغلولا بسلاسل المعجزات بشكلٍ أو بآخر، لدرجة أن ذلك العمى النصفي الرائع حين الولوج في البحر، يصبح غير واضحٍ، لأن البحر نفسه عبارة عن عدسة هائلة، وكأنك تلبس البحر على وجهك. هكذا يصبح المنظر شيئا أبعد من كونه مجرد لوحة فنية، إنها لوحة صاخبة جامحة، هناك كتاب متكامل عنها في مكتبة دار البلدية، والطلبة الذين رسموا اللوحات في فرنسا وكان الناس يضحكون منهم في البداية، على أنهم لا يتقنون فنون الرسم، لن أجازف في ذكر اسم أحدهم، لكنني بالفعل أتذكرهم، أسماء صعبة ومؤلمة، معذبون لا مثيل لهم، أستطيع أن أذكرها في رأسي وأنا أكتب. ولكن أخجل لو كتبت الأسماء بتهجئة خاطئة. وأنا نفسي في ذلك البحر يصبح كل جسمي متراخيا، وتظل رئتي ممتلئة بالهواء في البداية وبعد ذلك تفتقر للهواء، فيغدو رأسي خفيفا وأشعر بمتعة أكبر، والمياه في الأعماق تكون أكثر برودة، تغسل وجهي وتسائلني لمن يكون هذا الوجه، وكيف كان شكله بتفاصيله غير المحددة. فجأة أشعر بالحنين إلى دكتور غرين لأخبره عن هذا، لا أدري لماذا، أتصور سيهمه هذا الشيء، ويسعده، وفي نفس الوقت أخشى أن يفهم شيئا آخر من بين طياته. إنه يفسر الأشياء التي هي في غاية الخطورة. أوه نعم، الشاطئ في ستراندهيل، وقت المد العالي يكون جيدا بعض الشيء، ومن ثم يغوص بك إلى الأسفل حيث المياه الشاسعة هناك عند الخليج، العضلة الكبيرة الهائلة، مثل نهر هدسون، كلا، ليس بذلك الحجم بالطبع،

ولكن لم أكن قد ولجت فيه عندما شعرت أنني ألمس شيئا هائلا ينثني هناك. هل بإمكاني أن أشعر به يسحبني، بسرعة، أعمق؟ لا أدري. بل أعرف أني وهبته قلبي وتركته له، وأعرف أن هذا أثار عواطفي، ربما بكيت، هل بالإمكان البكاء تحت الماء؟ كم من الوقت قضيت بالسباحة تحت الماء دون أن أعود إلى السطح؟ دقيقة، دقيقتين، ثلاث دقائق، مثل الغواص الذي يجمع اللؤلؤ في البحار الجنوبية، أينما هي، وأيما كانت؟ أنا وثوب السباحة الذي أحمل بداخل الجيب الصغير منه قطعة من الشلنات التي هي التعريفة لثمن عودتي إلى سليغو في الحافلة الخضراء القديمة، وقد ظلت عالقة في الجيب بأمان، مثل شيءٍ تعلقه في رقبتك تحفظ فيه أيقونة لو كنت كاثوليكيا. أعتقد شبابي، نعومتي، هياجي، عيناي الزرقاوان وشعري الأشقر ينساب تحت الماء، وهناك ثلاثمئةٍ من أسماك القرش تجمعت وهي تنتظرني في منطقة أسماك القرش، مدهش، مدهش، أنا لا أبالي. أصبحت الآن كسمكة القرش.

بدأ التيار يشدني بقوة ويستحوذ عليّ مثل كلمةٍ مفقودة في صخب الموسيقى.

وفي خضم كل هذه السعادة، فجأة التف عليّ شيء، خطفني، وأخذني إلى الأعلى، كانا ذراعين لإنسان كنت أدرك هذا، كان شخصا محترفا ويكاد يكون مراوغا. هذا الشخص أملس ضخم وقوي، رفعني إلى الأعلى من بين البريق الطائش، واقتحمنا سطح البحر، وعاد الهدير إلى العالم مرة أخرى، البحر يعلو، ولاأدري إن كانت السماء تحتي أم فوقي هذا ما لم أعرفه. أعادني السباح إلى ساحل البحر حيث الأولاد والبنات والدلاء والمدفع يشير إلى البحر، المنازل، البلازا، والبغال، وبعض العربات ذات المحرك، سليغو، ستراندهيل، وقدري، قدري الذي يرثى له مثل قدر أبي، قدري التافه، عديم الرحمة، والمضحك.

لم يكن أي أحد في العالم يستطيع انتشالي من البحر سوى توم ماكنلتي. سيبقى دائما هو نفسه. إجمالا، لقد كان أشهر سباح حينها، منحه مختار مدينة سليغو نفسه وسام الشرف لإنقاذه حياة أحدهم، وهو ما حدا به لأن يدخل معترك السياسة، كان هو يقول هذا الشيء دائما. فقد أنقذ امرأة عجوزا ذات مرة حين اختطفها المد من الشاطئ، بصورة هزلية للعجوز الشمطاء، لكنها لم تكن عجوزا مثلي كما أنا الآن. كلا.

قال: «أنا أعرفك» وهو يلتمع فوق الرمال، وعلى وجهه المربع ابتسامة، والعالم بأسره قد اجتمع حولي، وكان جاك حاضرا الآن أيضا بلباس السباحة الأسود الكئيب، وجسده الذي لم يكن يبدو أبدا أن اللحم يكسوه، بل كان كتلة متحجرة من العظام والعضلات كالرحالة. «أنت الفتاة من مقهى القاهرة».

وضحكت أو حاولت أن أضحك، والمياه المالحة تتردد في حنجرتي.

قال: «الرحمة، لقد ابتلعتِ المحيط. فعلا ابتلعته بأكمله. يا الله، أين منشفتك؟ هل لديك واحدة؟ أين ملابسك؟ نعم، هيا. تعالي معي».

ومن ثم وضع جاك المنشفة حول كتفي وراح يلملم ملابسي بتأنٍّ، وسار كلاهما معي عبر الطريق الساخن نحو البلازا، واصلنا المشي على حافة العشب قدر المستطاع، خلال موقف السيارات الذي يبدو كالصحراء ومنه إلى مكتب التذاكر، وكان توم يضحك على سجيته ومرتاح البال على الأرجح، لإنقاذي. لا أتذكر إن كان قد نال وسام شرف آخر لإنقاذي، أتمنى أن يكون قد حصل عليه، لأنه ربما يستحق ذلك، كل شيءٍ قد أخذ بعين الاعتبار.

أوه، يا إلهي، من الصعب أن أسترجع البهجة التي كانت في تلك الأيام، ولكن من ناحية أخرى، أنا أدرك أن ما حصل لي كان شيئا نادرا في الحياة، أن أكون مررت بهذا القدر من النصيب والفرح.

كنت أعرف نصيبي، أعرفه كما يعرفه العصفور الذي يجد كسرة من الخبز لنفسه بأكمله.

كان زهوي أيضا، وفخري به، وبشهرته وثقته بنفسه.

وكنا نصعد الدرجات الإسمنتية إلى السينما بين الشجيرات المسورة. ربما كنا ممثلين في هوليود، ربما كنت أنا ماري بيكفورد نفسها، إلا أنني أعتقد بكل أمانة أن توم كان صغيرا مقارنة بدغلاس فيربانكس.

الجانب المظلم في عالمنا الصغير هو بمثابة عادات الشرب في سليغو. رجال مثل توم وأخيه حين كانا سكارى في الساعات الأخيرة من الليل وكانا يقومان بأمور ليس فقط لا يمكنهما أن يتذكرا منها شيئا بل لا يريدان ذلك، وكان هذا بلا شك نعمة عظيمة.

أكون واقفة حيث المرقص، سعيدة أن أختلي بنفسي، أنظر إلى المسرح وفرقة توم الموسيقية تصدح، والده الهزيل والنشيط يربت يديه على مفاتيح آلة البوق، أو أي آلة موسيقية تشاء. في الأمسيات المتأخرة يعزف توم معزوفة «الفتاة المدهشة»، وينظر إليّ بعينيه الثاقبتين مثل عين النسر. في إحدى المرات كنا نمشي في طريقنا على الشاطئ عند ساحل روسيس صار يعاكسني بأغنية «عندما تخفت الأنوار في القاهرة»، فكنت أنا التي تعمل في مقهى القاهرة. كان يُقلد صوت مطربٍ يسمى كافان أوكنور، وكان يعتبره أعظم مطرب عاش على هذه الأرض. ولكن توم ترعرع إلى حدٍّ ما على صوت جلي رول مورتون ومتولع بأداء بابر ميلي، كما كان جميع عازفي البوق كذلك، وحتى أكثر ولعا به من لويس آرمسترونغ نفسه. كان توم يقول إن بابر تفوق على ديوك إلينغتون بلا شك. هذه الآراء بالنسبة لتوم تقريبا لا تقل أهمية عن الآراء السياسية. ولكن عقلي يتركه لشأنه عندما يبدأ الخوض في هذا الموضوع. لم يكن يثير اهتمامي كثيرا كما كانت الموسيقى بحد ذاتها. وسرعان

ما جعلني أنضم إلى الفرقة لأعزف على البيانو عندما كان عازف البيانو الأصلي مصابا بوعكة صحية. كان رجلا كبيرا من المنطقة الخلفية لمدينة نوكناريا مصابا بمرض السل. له معزوفة اشتهر بها هي «بلاك بوتم ستومب». لم يكن جاك يشاركهم في العزف فوق المسرح، لكنه كان يميل للغناء عندما يصبح في بدايات الثمالة، عندما يصبح مبتهجا، مبتهجا للغاية. فتكون أغنية «روزز أوف بيكاردي» أو «لونغ واي تو تيبراري»، لأنه كان في البحرية البريطانية للتجارة عندما كان صبيا، لكنني أظن أني قد كتبت هذا سابقا. لقد رأى جميع الموانئ من كوف إلى القاهرة، ولكن سبق أن كتبت هذا أيضا. ربما يستحق الأمر أن أكرر كتابته مرتين.

كان جاك دائما يوجد بيننا ومن ثم يختفي لبرهة من الزمن. فقد اعتاد السفر إلى أفريقيا حسب العقود المبرمة له. يا الله، كم كان توم فخورا بأخيه جاك، لقد حصل جاك على مؤهلين اثنين في جامعة غالاوي في نفس الوقت، الهندسة وعلوم الجيولوجيا. إن جاك رجلٌ متألق. عليّ أن أقر بأن جاك كان أفضل مظهرا من توم بكثير، ليس هذا هو المهم. لكنه بالفعل كان يظهر مثل نجوم السينما الشبابية، تكون كأنك بالسينما تشاهد برودواي ميلودي أو شيئا من هذا القبيل، وعندما تضاء الأنوار في نهاية الفيلم، نعم، تعود أدراجك إلى مدينة سليغو اللعينة، ما عدا جاك. مازال جاك يحتفظ ببعض تلك الهالة التي تكسو نجوم هوليود.

بيد أن جاك أبقى فجوة بعض الشيء بينه وبيننا، أنا لا أعرف ماهية هذه الفجوة. كان مثيرا للسخرية إن اعتبرناه ودودا، يهرج ويمزح بعض الوقت، وكنت أحيانا أراه ينظر إليّ بنظرة على نحو خاطئ. أنا لا أقصد نظرة هتك عرض، ولكن ربما نظرة غير لائقة.. نظراتٍ طويلة ظنا منه أنني لا أراه. يعاينني من أعلى إلى الأسفل.

كان عند جاك سيارة فورد تناسب الياقة الجلدية لمعطفه. كنا في تلك السيارة على الدوام، رأينا الآلاف من المناظر الطبيعية الأيرلندية خلال النافذة الأمامية، مسحنا ملايين الأطنان من الأمطار عنها بواسطة تلك المساحات الصغيرة التي كانت تتحرك ذهابا وإيابا، ثم ذهابا وإيابا، وفيها شربوا غالونات من الشراب بينما كانت تسير بنا على طول الطريق. الأهم هو أن نصل إلى الساحل عبر جزيرة كوني عندما يكون البحر جزرا ونندفع خلال المياه الضحلة ويصدر صوت هدير حيث نكون حينها في أريحية غير متناهية. كان هناك من الأصدقاء من نصطحبهم معنا، الفتيات الحسناوات اللاتي تعلقن شغفا بالفرقة وشباب من سليغو وغالواي. الطريف في الأمر، أن جاك لديه صديقة كان ينوي الزواج منها، اسمها ماي، ولكننا لم نرها أبدا، كانت تعيش في غالواي مع والديها، لقد كانوا أثرياء للغاية. كان والدها مندوب مبيعات التأمينات، كان هذا يثير إعجاب جاك، كانوا يسكنون منزلا فخما، وهذا شيء يستحق الإشادة به بالنسبة لرجلٍ والده مجرد خياط في المصح للأمراض العقلية في سليغو. لقد قابلها بالجامعة، كانت من أوائل الطالبات هناك، أقول من أوائل الفتيات هناك لأمور جمة، فقد كانت تتعالى عليّ أن أكون واحدة منهن. كلا، هذا ليس من العدالة، لا أظن أني قد قابلتها يوما سوى مرة واحدة فقط.

لكن في الواقع أنا أسيء إلى توم بالحديث هكذا، لأن ابن عمه يملك مجلة أبطال سليغو وكان عضوا في البرلمان الأيرلندي وهو ما اعتادوا تسميته البرلمان الحقيقي الأول أي برلمان ما بعد المعاهدة. جاك دائما يقول -كنت أسمعه يخبر أحد معارفه الجدد- إنه ابن عم ذلك الشخص الظالم إدوارد كارسون، الذي تنصل عن الدولة الحرة مثل جرذٍ يفلت من سفينةٍ غارقة، أو هذا ما كان

يتمناه ويدعو الله أن تغرق السفينة. حكى لي توم أن أهله كانوا يصدرون الزبد من سليغو، أو كانوا يستوردون، وكانوا يملكون السفن، مثلهم مثل عائلات جاكسون وبوليكسفن. والذي كان يدعى أوليفر، توماس أوليفر ماكنلتي، بقي هناك لأنهم فقدوا ما يملكون من الأراضي في زمن كرومويل عندما رفض أوليفر ماكنلتي أن يصبح بروتستانيا. كان يقول لي هذا والحذر في عينيه بشأني، ليرى ردة فعلي، كوني بروتستانتية على ما أظن. كنت بروتستانتية، ولكن ربما لم أكن من جماعة البروتستانت. أحب جاك الإصلاحية البروتستانتية وانشغل بها لأنه كاثوليكي من الطبقة الراقية. لا أظنه كان ينشغل كثيرا في أمر تقاليد المشيخية العظيمة في أيرلندا. طبقة العمال. كانت هذه العبارة التي تخيفهم.

«هذا الشخص من طبقة العمال بمعنى الكلمة» كانت إحدى الجمل التي يقولها حين يريد أن يستصغر الشخص. ولكونه يتردد على أفريقيا، فكانت لديه عبارات غريبة مثل «هذا تصرف رجل أبيض». وأيضا «هاما هاما». ولأنه قضى آلاف الليالي وهو سكران، يقول «حافظ على نظافة الحزب». جملة أخرى غريبة عندما يرى شخصا ليس جديرا بالثقة «شرذمة من التافهين».

شعر أحمر، كستنائي في الواقع، ومسرحٌ إلى الخلف. قسمات حادة تماما، وتبدو جادة كثيرا حول العينين. أجل، كلارك غيبل أو حتى أفضل، غاري كوبر فائق الجمال.

إنني أبحث عن أمي في هذه الذكريات، ولكنني لا أجدها. إنها ببساطة قد اختفت.

الفصل الرابع عشر

مذكرات الدكتور غرين

مـررت هـذا الصبـاح أثنـاء ذهـابي بسـيارتي إلى العمـل بتلـة عليهـا طواحـين هوائيـة لم ألحظهـا سـابقا، ربمـا لم ألتفـت إليهـا لأنهـا لم تكـن موجـودة أساسـا، وإذا مـا كان الأمـر كذلـك فهـذا يعنـي أن عمليـة تشـييدها قـد فاتتنـي بالتأكيـد، وهـو مـا قـد يكـون اسـتغرق وقتـا طويـلا. هـذه الطواحـين ظهـرت إلى الوجـود فجـأة.

وذات مـرة عندمـا عـدت إلى البيـت والسـماء تمطـر، جلسـت عـلى الأريكـة وبعـد مـرور بضـع دقائـق، لمسـت شـعري، وتسـاءلت: «لم رأسي قـد ابتـل؟» ومنـذ ذلـك الحـين، تولعـت بِـت بـسرد هـذه الحكايـة للنـاس متـى مـا سـنحت لهـا الفرصـة.

ولكـن كانـت هنـاك الطواحـين الهوائيـة، في حـين غفلـة. إنهـا تلـة - جبـل بالأحـرى عـلى مـا أظـن، لـو كنـا نحظـى بمثـل هـذا في أيرلنـدا، تسـمى لاباناكلاخ، وهنـاك غابـة أيضـا، تسـمى غابـة نوجنتـس، صعـودا إلى خـط وجـود الصقيـع. مـن كان نوجنتـس هـذا أو لمـاذا قـام بزراعـة الغابـة؟ هـذا مـا لا يسـتطيع أحـد أن يخمـن سـببه، أو ربمـا وحدهـم القدامـى عـلى الأقـل هـم الذيـن يعرفـون سر هـذه الأشـياء. كنـت أقـود سـيارتي التويوتـا، ويتملكنـي الشـعور بالتعاسـة، مـع اسـتمرار قـرع طبـول التأثيـم في رأسي الأحمـق، عندمـا شـاهدت الطواحـين الفضيـة تـدور، وكما

يقال، قفز قلبي كطائر السمان من بركة ماء، وصعد عاليا. كانت في غاية الجمال. تلك الطواحين توجد في اللوحات الفنية، والمشاعر الغامضة قد التصقت حتى بذاكرتها. ربما يكون هناك دون كيشوت الذي حارب طواحين الهواء. كم كنت أشعر بالأسى عندما أرى إحدى الطواحين قد حالت إلى التلف. مبانٍ مدهشة. هذه النسخ الحديثة بالطبع ليست كما كانت عليها بالأصل. مؤكدٌ هناك اعتراض شديد على ذلك. ولكنها تظل حتما خلابة. إنها تبعث بي التفاؤل، كما لو أنها تدفعني بالشعور إلى أنني مازلت أستطيع إنجاز عملٍ ما.

أستيقظ بالليل فينتابني شعور فظيعٌ بالقلق والحرج. لو كان فقط بمقدوري أن أحدد وصف أحزاني وأطبعها في دفتر يومياتي، ستكون خدمة عامة أسديها للعالم. كنت أشك أنه من الصعب تذكر الحزن، وهو بالتأكيد أمرٌ خفي غير ظاهري. لكنه مع ذلك هو نحيب الروح لا ينبغي أبدا أن أقلل من شأن جبروته مرة أخرى وتأثيره العظيم على الإنسان.

إن لم يكن هناك ثمة شيء آخر، فسوف أحتفظ على الأقل بذلك التحليل الطبي المفصل للحزن.

أشكر الله على نعمة وجود هذه الطواحين.

بيد أني مازلت أستيقظ في الساعات الأولى بعد منتصف الليل، ربما كان ذلك بسبب صوت تلك الطرقات الغريبة المكررة التي لا أعرف مصدرها. إنها بِت تتوسل إلي أن لا أنساها. فلا يوجد داع لأن تقلق. راجعت ما كتبته عن روزان كلير، ولكن كل الذي وجدته، وكل ما دونته، كانت تلك الكلمات السخيفة التي كتبتها عن صدام حسين. كما أظن أنني رجل غير ذي شأن، الأمر الذي يجعلني أحتفظ بآرائي لنفسي، وبخاصة عندما تكون محرجة وغير ملائمة، فتصبح أمرا شخصيا بحتا.

لما توفي البابا الراحل كانت لدي مشاعر غريبة أيضا. لقد تأثرت بشدة لوفاة رجل مثله، لم يكن ذا جدوى لأولئك المرضى الذين كانوا متدينين، وللمثليين كذلك، وللنساء أيضا. كان من قمة صفات ذلك الإنسان أن يكون على طبيعته. لكنه حين وفاته كان شهما وعظيما، عند وفاته صار يميل أكثر للديمقراطية، ربما لأن الموت يشمل كل شيء، يرغب في أي شيء يخص الإنسان، فلم يكن يشبع منه بما فيه الكفاية. لا تكن فخورا أيها الموت. ولكن هذا صحيح، الموت أمرٌ عظيم ومروع في نفس الوقت. لم يقم البابا ببذل جهدٍ كبير حيال ذلك.

التفكير المفرط في الموت، إنما هو إيقاع حياتنا. مع نهاية الألفية، أنا والأغبياء مثلي نفكر أننا على وشك أن نحظى بقرنٍ يعم فيه السلام. بيد أن كلينتون وسيجاره كان أكثر هيبة من بوش وبندقيته.

كلما أنظر إلى أداء شهادة الأب غانت، أجد المصداقية قد تجلت فيها. ذلك لأنه قد كتبها بمهارة على الطريقة الكلاسيكية، لا شك أنه امتلك مهارة في تركيب الجمل، وذلك من جراء تدريبه في جامعة ماينوث. يبدو لي أن لديه ذلك الأسلوب اللاتيني المنمق، مما أتذكره منذ زمن بعيد عندما كان في المدرسة بمقاطعة كورنول حيث واجه صعوبات في فهم شيشرون. وإذا ما استعملنا مصطلحات نفسية، فإن توقه وقلقه لحكاية القصة يوضحانها.

إنه يلقي العبء عن كاهله كما لو أنه يتخلص من ذنب، بالطبع كتابته أبعد من أن تكون شيئا مقدسا. لكنه لم يكن أبدا منفرا. إنه صارم مقدام. فالأب غانت لديه ذهنٌ متوقد يُفصِّل كل شيء.

كما هو العرف في أيرلندا، لم يكن رجل الشرطة يتمركز بالقرب من بلدته، حتى إنه لا يترك مجالا للشك أن تكون له مصلحة ما تجاه أولئك الناس الذين قد ترعرع بينهم. كان والد روزان من القلائل الذين شذوا عن هذا القانون، حيث إنه ولد وترعرع في مقاطعة كولوني، وهي ليست بعيدة جدا، بالتأكيد ليست ببعيدة عن بلدة سليغو نفسها. فقد ألِف المقاطعة تماما بما لا يترك مجالا لأن يكون هذا من صالحه. كان من المحتمل أن يعتبر الناس وجوده في البلدة أمرا شخصانيا. خاصة بعد استقدام الشرطة المساندة المؤلفة من الضباط الذين حاربوا في الحرب العالمية الأولى، وجنود أيرلندا الملكية، رجالا وضباطا من نفس موقع المذبحة. كان هذا ردا على العديد من الاعتداءات في حرب الاستقلال، حرب الاستقلال التي تشكلت في الأغلب من إيقاع الجنود والشرطة في الكمائن، وإطلاق النار عليهم. قوات التاج كما اعتادوا تسميتهم.

يبدو أن والدها كانت لديه القدرة على معرفة الأمور التي تحدث في المدينة. ربما كان قادرا على اقتناء المعلومات بطريقة غير مكشوفة على أي شخص غريب. قد يكون الناس أكثر ميلا لاستدراجه عن طريق النميمة أو الإشاعة حيث إنهم كانوا يوجودون في مكان التجمع العمومي في المساء. بالطبع لدى والدها الكفاءة العالية لاحتساء المشروبات الروحية، فهو قادرٌ على استهلاك خمسة عشر قدحا من المشروبات في الليلة الواحدة، كما يفعل عامل الحاويات في الميناء ومن ثم يعود أدراجه إلى المنزل بعد ذلك. وعلى ما يبدو كانت ابنته روزان تنتظره بقلق بلا شك عندما تراه قادما في شارعهم، فتلملمه وتقوده إلى المنزل.

كان ملعب روزان هو مقبرة سليغو القابعة خلف منزلهم. كانت تعرف كل زقاقٍ وكل طريق ملتوٍ في ذلك المكان، وكان

موقعها الخاص أطلال المعبد القديم الذي يقع في وسطها، حيث كانت تحب أن تلعب الحجلة وما شابه من الألعاب في ذلك الرواق المتهاوي. وفي إحدى الأمسيات، كتب الأب غانت، يبدو أن الفتاة شاهدت دفن جنازة غير اعتيادي. رأت مجموعة من الرجال يأتون بتابوتٍ، من دون كاهن أو مراسم دفن، وينزلون التابوت في قبر مفتوح، ويدفنونه هناك بكل هدوء في جنح الظلام، والشيء الوحيد الذي يظهر منهم هو وميض السجائر في أفواههم ودردشات مقتضبة مكتومة. ركضت روزان، كما طبيعة البنات، لتخبر والدها بما شاهدته. ربما اعتقدت أنهم لصوص القبور، على الرغم من أنه في الواقع قد تم وضع التابوت في القبر المحفور ولم يتم إخراج أي شيء منه، ولم تكن هناك مثل هذه السرقات في أيرلندا أو في أي مكان آخر لمدة نصف قرن.

كيف للأب غانت أن يعرف كل هذه التفاصيل؟ هذا أمر غير واضح، وبالفعل، أشعر وأنا أقرؤها بالحيرة من علمه الشامل بكل شيء، لكن هذا هو طموح الكاهن في زمانه.

على أي حال، في صباح اليوم التالي، لم يعد والدها يعير موضوع التابوت أي اهتمام. الأب غانت نفسه كان حاضرا، ولم يكن في التابوت أية جثة بل كان مخبأ للأسلحة، ومقتنياتٍ يصعب الحصول عليها في وقت حرب الاستقلال، وكانت تلك الأشياء تُجمع بمشقة كبيرة، في الواقع وغالبا ما كانوا يستحوذون عليها بواسطة سلبها من جثة شرطيٍ مذبوح. وهكذا اتضح الأمر، وأن العديد من المقتنيات الموجودة في التابوت كانت في الواقع أمورا تخص الشرطة، وتلك الغنيمة كانت من جراء الغارات والكمائن. لذا من وجهة نظر والد روزان، فإنه لابد أن ينظر الآن إلى بقايا آثار الرفاق المقتولين.

الاسم الذي نقش للتو على حجر الشاهد للقبر كان اسم جوزيف برادلي، بينما لم يمت أحد في المدينة بهذا الاسم.

وبصورة لا يمكن أن تصدق، وفي منتهى الحماقة دفن الرجال أيضا مع البنادق مخططات لاجتماعات سرية، بما في ذلك أسماء وعناوين مختلفة، تشمل بعض الأفراد المطلوبين بجناية القتل. لقد كان ذلك منجما بائسا بالنسبة للشرطة. وقبل أن يعرف أي أحدٍ ما كان يجري، تم القبض على بعض الأسماء، وقتل واحد منهم كان «هاربا من الأسر»، رجل يدعى ويلي لافيل، الذي لعب شقيقه فيما بعد دورا بارزا في حياة روزان في مدينة سليغو، وفقا لما قال الكاهن. ولسبب ما، تم دفن ذلك الرجل ويلي لافيل في نفس القبر حيث كانت البنادق مخبأة عبثا دون جدوى.

تسببت إعادة الاستيلاء على البنادق والوثائق ومقتل الرجل بضجة مدوية في الدوائر المعنية بإخفاء الأسلحة. وصدرت الأوامر تحذر بشأن أي عمل انتقامي محتمل ضد الشرطة. ولكن لم يحدث هذا الشيء في الحال، فقد مرت فترة طويلة تكفي لكي تعيش روزان وعائلتها يوما بعد يوم ودقيقة بعد دقيقة، تحت وطأة ذلك الكم من الفزع والترقب. أنا على يقين أنهم كانوا يأملون ويدعون الله أن تتم هزيمة المتمردين واستعادة أيرلندا بالطرق السلمية. قد تكون فرصة جديدة، كما كانوا يقولون آملين ذلك.

وبينما أضع يدي على هذه الأوراق المهترئة للأب غانت، أتساءل بكل أمانة كيف يمكنني استخدامها وهي بهذه الحالة؟ هل يمكنني حقا أن أطلب من روزان أن تواكب كل ما جرى مرة أخرى؟ لكن عليَّ أن أضع في اعتباري أنه ليس العذاب الذي تكابده في حياتها هو من أولوياتي في المقام الأول، ولكن تداعيات هذا العذاب، والسبب الحقيقي لحجزها. الآن أعود إلى السبب

الأصلي لمسعاي، وهو ببساطة التأكد من أنها كانت فعلا مختلة عقليا، وما إذا كان حجزها له مبررٌ أم لا، وما إذا كنت قد أوصيت بها للعودة إلى العالم الخارجي أم لا. أعتقد أنني أستطيع أن أقرر هذا من دون التعاون معها، أو فقط التعاون معها إذا كانت هي ترغب في ذلك. يجب أن أحكم على المعطيات التي أمامي، وليس المعطيات التي يتم التلميح بها فقط، أو التي توحي بها فطرتي. تدق أجراس كنيسة القديس توماس في المدينة معلنة الساعة الثامنة. أنا متأخرٌ مثل الأرنب في قصة لويس كارول.

شهادة روزان عن نفسها

قابلتُ العالم بأكمله مع توم فقد كان رجلا اجتماعيا إلى أقصى حد، لكن كان ذلك في الواقع قبل بضع سنوات من رؤية أمه لي[9] لأول مرة. سمعت عن الأم بطبيعة الحال، فإن الأخوين كانا يتحدثان كثيرا ويطول حديثهما في هذا الصدد. فقد تشكلت لدي صورة عنها، وعن مكانتها البسيطة، كما عرفت عن ولعها بالاحتفاظ بالقصاصات التي كانت تسجل فيها كل الأمور المتعلقة بأبنائها، تذاكر السفر الخاصة بجاك، والوثائق، وملحوظات توم في المرقص تشامبيون، والآن، مع مرور الوقت، صارت أحاديثه في مختلف الأوقات في المدينة عن مواضيع أخرى مختلفة. وعرفت أنها هي وزوجها كثيرا ما كانا يمران بضائقة، وأن توم العجوز عموما يسير على نهجه الذي تعتبره غير فعال. ولكن ربما كانت هي خبيرة في أن لا تبالي بكل ذلك. ولم يكن يوما على حساب نفسها. كنت أعلم أنها وعدت ابنتها الوحيدة بالرهبنة في سن

(9) رواية لويس كارول «أليس في بلاد العجائب» تحوي شخصية الأرنب الأبيض الذي يشكو من التأخر دوما. (المراجع)

مبكـرة، وتلـك الفتـاة تيـسي سـارت عـلى النحـو المفـترض لهـا إلى أخوات الرحمـة، كراهبـة مدفـوع لهـا حصتهـا. كان ذلـك أمـرا لـه ترتيـب في درجـة الزهـد، فعاشـت في مـكان يسـمى بيـت النـاصرة. كان لديهـم بيـوت في جميـع أنحـاء إنجلـترا وحتـى أمريـكا. لم أكـن أعـرف مطلقـا مـا إذا كانـت الأم لديهـا الطمـوح لأبنائهـا في الكهنـوت، لكـن ربمـا كانـت تظـن أن هـذا سـيؤمّن لروحهـا الخلـود إذا مـا قدمـت ابنتهـا لتحيـا تلـك الحيـاة. لا أدري. كان لديهـم بالطبـع ابـن آخـر يدعـى إينيـاس، لكنـه لم يتحـدث عنـه إلا حديثـا هامشـيا، عـلى الرغـم مـن أنـه بـدا مـرة أو مرتـين يتسـلل إلى المنـزل، عائـدا مـن شـتى الأماكـن، حيـث كان يتجـول في الليـل عـلى مـا يبـدو لينـام في سـاعات النهـار في منـزل والدتـه، وكان يغامـر بالخـروج فقـط مسـاء. لقـد كان هـذا شـيئا غامضـا في وقـت كان فيـه الغمـوض يسـود الأشـياء، ولا أتذكـر أننـي كنـت أهتـم لأمـره بشـكل خـاص. سـألت تـوم ذات مـرة: «لماذا يـترك أخـوك المنـزل معظـم الأوقـات؟». قـال تـوم: «إنهـا مجـرد هفـوة»، وهـذا كل مـا كان يقولـه في البدايـة.

ولكـن في إحـدى المـرات كنـا في المدينـة معـا وواحـد مـن المنافسـين لـه، وهـو أحـد الرجـال الجمهوريـين الصاعديـن الجـدد، سـخر منـه بصـورة غـير مبـاشرة وهـو في الشـارع. كان رجـلا يدعـى جوزيـف هيـلي وهـو بـلا شـك أحـد الأوغـاد.

قال: «يا توم، يا شقيق الشرطي».

قال توم وقد خرج عن طوره المعتاد: «ماذا قلت؟».

«لا تبـال، لا تبـال، فجميعنـا لديـه مـا يخبئـه في الخزانـة، أنـا عـلى يقـين مـن هـذا».

«هـل تـود أن تحصـل عـلى شيء يـا هيـلي، لانتخابـات المجالـس القادمـة؟».

أجاب جوزيف هيلي: «ماذا؟ لا، لقد كنت فقط أتشاقى معك، توم». وقد انزعج منه بالرغم من أنهما كانا معارضين، لكن في الواقع كان الجميع يحب توم، وكما قلت سابقا فإن توم لديه قلب حنون.

وبعد ذلك تصافحا بمودة جمة. ولكني رأيت مزاج توم قد تغير. وفي الطريق طوال الوقت كان ساكتا وكئيبا. في بلدٍ تكثر فيه الخزائن وما تحتويه من أسرار، وبالأخص بعد الحرب الأهلية، لم يستثن أحد. ولكني وجدت أن توم أصبح مستاء من ذلك وبمرارة. لقد كان لدى توم خارطة طريق وهو أمرٌ يدعو إلى الإعجاب بالنسبة لشخصٍ شاب مثله. ولكنه بالتأكيد لا يحتاج لخزائن يخبئ فيها الأسرار.

كانت الأم من نفس العقلية. لقد أحبت نجاح جاك وتوم، حتى لو ظهر جاك بملابسه القديمة غير اللائقة له، وكان توم يضع قبعة حديثة الطراز في أيرلندا الجديدة. لقد استخلصت هذا عن أمهم من حديثهم عنها، وكنت دائما ما أصغي بانتباه عما يتحدثون عنها، مثل الجاسوس الذي يعير اهتماما جما إلى الدردشة في الحانات، إذ كان لدي شعور بأنني سأحتاج يوما ما كل جزئية من المعلومات أستطيع الحصول عليها إذا ما رغبت بالنجاح لدى مقابلتها.

ولو افترضنا وجود بطاقة باردة في تلك اللعبة، فإنها كانت البطاقة الفارغة المظلمة لأمي أنا.

في تلك الأيام الغريبة عندما كان يحدث شيء غير متوقع، وهو أمر يحدث عادة، تجد دي فاليرا قد أصبح رئيسا للبلد.

قال توم بشكل غامض: «عادت البنادق الآن إلى البرلمان».

سألته: «ما الذي تقصده يا توم؟».

«لقد كانوا خائفين للغاية من الوجود هناك، فهم يعدون لإحضار أسلحتهم إلى مجلس النواب».

تحدث توم في حينها باشمئزاز معروف سببه، لأن هؤلاء الرجال هم أنفسهم الذين ناضلت مجموعته من أجل إخضاعهم وسجنهم وإعدامهم للأسف. إذن كيف لنفس الرجال الذين عارضوا المعاهدة، والذين كما كان توم نفسه أيضا، يراد أن يمحى نضالهم من الأحداث الأيرلندية، قد أصبحوا الآن الرجال المسؤولين.. قد تشعر بالتوتر في حياة سليغو. لقد برز الآن صِبية مثل جوزيف هيلي. لقد كان هذا صعبا ومريرا بالنسبة لتوم. أما بالنسبة لي، فلم يكن لديّ رأيٌ مختلفٌ عن أي منها، لكن توم حتى في حديثه الغزلي، كان يثير دهشتي في ربطه بالسياسة. كنا مستلقين على الكثبان الرملية الشاسعة التي أعطت ستراندهيل هذا الاسم في الواقع، حينما أفصح عن شعوره في ما سبق عن أولئك الرجال. لقد كانت عقبة كبرى أمام مستقبله أكثر من أي تجربة قد مر بها. لم يكن مطلقا يحمل السلاح، ووصل إلى مرحلة النضج وظل كما هو لم يتغير بعد كل ذلك. للإنصاف، فقد كان يعتقد أن وقت البنادق قد ولى. كانت لديه فكرة عن إمكانية انضمام الشمال إلى الجنوب في نهاية الأمر، ولكن مع فكرته المجنونة تلك فإنه سيبرز بعض الرجال مثل كارسون ليكون «ملك أيرلندا»، على حد تعبيره الهزلي. كانت هذه فكرة قديمة في رأس أولئك الرجال ومثلهم توم كذلك. كانت آراء توم متأرجحة مثل موسيقاه. لو كان بإمكان جوزيف هيلي أن يطلق رصاصة على رأس كارسون دون أن يدري أحد ويعود إلى بيته وأسرته بعد ذلك لفعلها.

كانت العائلات والشباب قد تشبعوا بتلك الأفكار، لم يكن الأمر مجرد دور أفراد فقط، وربما حتى النساء كانت تساندهم.

حسنا، على الرغم من كل ذلك، سرعان ما عكف توم على الاقتراب مني مرة أخرى، على الكثبان الهادئة، مع طيور النورس الهائجة التي وحدها كانت تشاهدنا، والبحر يحمل موسيقى توم البطولي إلى الجانب الآخر من الرمال. يحتدم نسيم ستراندهيل المعتاد على طول أعشاب المرام الساحلية بدقة متكاملة. كان البرد قارسا.

وبعد بضعة أسابيع وأنا أمشي عبر الجسر بجوار فندق سوان، أوقفني مظهر جون لافيل الباهت.

كان لا يزال في شبابه إلى حدٍّ ما، ولكن هناك شيء آخر قد لاحظته في مظهره المهلهل. لقد بدا كأن الزمن قد أخذ منه مأخذا خلال الفترة التي قضاها في أمريكا، أو أينما كان قد ذهب، ونظرت إلى أخمص قدميه، رأيت نعل حذائه قد اهترأ تماما. تخيلته وهو يتنقل بين قطار وآخر مثل رجلٍ متشرد يهيم على وجهه بلا جدوى. مع ذلك كان يبدو وسيما بوجهه الكئيب النحيل.

قال «أهذه أنتِ؟ بالكاد عرفتك».

قلت: «وأنا كذلك، بالكاد عرفتك». كنت وحدي، لكنني كنت حذرة، لأن سليغو كانت مثل عائلة محدودة العدد، فكان الجميع يعرف بعضهم بعضا وإن لم يعرفوا تفاصيل كل شيء عن كل شخص، فإنهم يتوقون إلى ذلك. أعتقد أن جون لافيل لاحظ نظرتي الحانقة.

سألني: «ما الأمر؟ ألا تريدين التحدث معي؟».

أجبت: «كلا، بل أريد ذلك. كيف تسير أمورك؟ هل كنت خارج البلاد في أمريكا طوال الوقت؟».

قال: «كانت هذه هي الفكرة. لم تسر الأمور كذلك. كانت أفضل فكرة طرحت».

قلت: «نعم بالتأكيد».

أردف قائلا: «على الأقل بإمكاني التجول في أيرلندا الآن».

«ماذا؟».

«ماذا عن ديف الآن».

«أوه، أجل. حسنا، هذا شيءٌ جيد على أي حال».

«إنه أفضل من سجن كراغ اللعين».

جعلتني الشتيمة أقفز من مكاني، ولكني ظننت أن له الحق في استخدامها.

«هل كان هذا المكان هو الذي كنت فيه».

«نعم، هو نفسه».

«حسنا، جون، سأراك حوالي هذا المكان».

«سأذهب بعد فترة إلى الجزر حيث منزلنا، ولكني سأعود وأراك هنا بلا شك. سأذهب للعمل في المجلس».

«هل أنت شخصٌ منتخب؟».

قال: «لا، لا. أشغال الطرق. وظيفة بالمجلس. حفريات وما شابه».

«هذا جيد. إنها وظيفة فحسب».

«إنها وظيفة. من الصعوبة بمكان إيجاد وظيفة. حتى في أمريكا كان يقال لي هذا. هل تعلمين أنت أيضا؟».

أجبت: «نادلة. في مقهى كايرو».

«هنيئا لك. سأراك حين أعود إلى سليغو».

قلت فجأة مع شيء من عدم الارتياح والإحراج لا أكاد أعرف كنهه: «أجل قم بذلك».

لقد أحضر لي جون كين الحساء للتو.

يقول: «إن هذه الوظيفة اللعينة ستذبحني، أنا أفضل أن أكون حيوان الخلد آكل الحشرات في كونوت ولا أعمل بهذه الوظيفة».

مع الاستمرار في حركة حنجرته التعيسة وكأنه يبتلع شيئا ما.

قلت له: «ولكن لا يوجد حيوان الخلد في كونوت».

«ولا في كل أيرلندا. أليست تلك الوظيفة هي المناسبة لرجلٍ عجوز مثلي؟ يا لتلك السلالم الكريهة».

وطفق خارجا.

كان سكن الأم لائقا إلى حدٍّ ما، لكن تنبعث منه رائحة خروفٍ مسلوق؛ في حالتي الحاضرة من الذعر، كنت سأقول بأنه قربان. في مكانٍ ما وراء المنزل تشعر بأوانٍ تغلي فيها الكرنب المجعد والملفوف من حديقة توم العجوز، وخروف يغلي ويغلي، ويقذف برائحته المميزة بالعفونة والرطوبة في الممرات. كان هذا انطباعي عن المكان. كنت فقط قد اقتربت من ذلك السكن مرتين طيلة حياتي، وكنت أشعر في كل مرة أنني أقترب من الموت عندما أكون قريبة منه. في تلك الأيام كانت رائحة طهي اللحم تسبب لي الغثيان. كان غلي اللحم بمثابة البسكويت. لماذا، لا أعرف، بما أن أمي يروق لها كل نوعٍ من أنواع اللحم حتى المخلفات منها والأحشاء التي من شأنها أن تخيف الطبيب الجراح، تستطيع أن تتعشى على قلب خروف بسرورٍ جم.

أحضرتُ توم إلى غرفة الجلوس الأمامية. وشعرت كأنني حيوان من الحقل هناك، شعرت كالبقرة أو العجل في الماضي عندما يساق إلى الكوخ ليلا. في وقتٍ ما، كان الناس والحيوانات ينامون معا في نفس المنزل في أيرلندا. لهذا تجد العديد من المطابخ الريفية لا تزال فيها تلك المنحدرات التي تبعد عن المدفأة وسرير العجوز الشمطاء وغرفة النوم العليا، لذا ومن الواضح أن فضلات وبول الحيوانات ستتدفق بعيدا عن المكان. عنابر البشر. ولكنني شعرت بذلك الإحراج، فأرتطم بالأثاث بطريقة غير مألوفة بالنسبة لي. كان

السبب أنه لم يكن من المفروض أن أوجد هناك. لم أكن أود أن أكون هناك. أستطيع القول إنها كانت مفاجأة أن أكون هناك.

كان لديها القليل من المقاعد وأريكة مكسوة بقماش مخملي لونه أحمر داكن، المقاعد والأريكة ضاربة في القِدم ظهرت فوقها كتل قاسية كأنما عشعشت فيها أشياء وماتت هناك في مكانها تحت القماش المخملي فأصبحت مثل نوع من الوسائد. وعم المكان رائحة الخروف النتنة. لا أقصد أن أكتب نتنة، ولا أتعمد أن أصف كل ذلك بطريقة سيئة. فليغفر لي الرب.

نظرت إلي نظرة وديعة جدا. أدهشتني. لكن نبرة صوتها لم تكن لطيفة مثل نظرتها لي. أعتقد، من تلك المسافة، كانت ربما تحاول أن تكون طيبة، حتى تتصرف بالشكل المقبول. كانت امرأة ضئيلة البنية مع كتلة شعر قد نمت في وسط جبهتها يقال لها قمة الأرملة. فقد تلفعت بالسواد، عليها فستان أسود منمنم من قماش تعلوه لمعة كاذبة. مثل كوع سترة الكاهن. كنت أعلم أنها كانت تعمل كخياطة الملجأ في البلدة هناك، حيث إن زوجها توم العجوز كان خياطا أيضا. أجل، أجل، لقد تقابلا هناك عند طاولة تفصيل الملابس.

قال لي توم العجوز ذات مرة: «إنها تبدو كالحمامة في ضوء النافذة». لا أدري بمناسبة أي شيء أو في أي مكان. ربما في الأيام الخوالي، ذات الأوقات الأكثر إشراقا. كانت أفكاره تميل إلى الالتفاف حول الشيء، معتزا بنفسه للغاية، وأعتقد أن له كامل الحق في ذلك. لكنها لا تشبه الحمام الآن.

قالت لي وهي تحدق في ساقي بشدة: «ليس لديك حضن».

قلت: «ليس لدي ماذا؟».

«لا حضن، لا حضن».

ساعدني تـوم لأفهـم مـا تقصـد: «لتجلسي عليـه الأطفـال». لكـن لم يسـاعدني شرحـه أبـدا.

قلت: «أوه».

كانـت توجـد خيـوط بيضـاء عـلى محياهـا مثـل ثلـوج متناثـرة بـلا اكـتراث عـلى جوانـب الطريـق. ربمـا كان هـذا مسـحوق البـودرة الـذي تسـتخدمه. وقـد شـوهته أشـعة الشـمس التـي تملأ الغرفـة.

علي أن أتوخى الحذر حتى أكتب عنها بإنصاف.

ثـم أجلسـني تـوم العجـوز عـلى أحـد الكـراسي ذات الكتـل. وعـلى كل مسـند ذراع قـد وضـع غطـاء صغـيرا مطـرزا بأزهـار اسـتخدم فيـه خيوطـا عاديـة. وكانـت مجـرد خياطـة منتظمـة. اتخـذت السـيدة ماكنلتـي مكانهـا عـلى الأريكـة وعـلى جانبهـا ارتفعـت كومـة مـن الكتـب التـي اكتشـفت أنهـا مجلـدات جمعـت فيهـا قصاصـات مـن الصحـف. لقـد تركتهـا لبعـض الوقـت جانبـا بصرامـة مثـل أولئـك المدمنـين عـلى تنـاول الشـكولاته تتعـذب وعـلى مقربـة منهـا قطعـة الشـكولاته. سـحب تـوم العجـوز كرسـيا خشـبيا وجلـس قبالتـي. كان مفعـما بالسرور كـما تـوده أن يكـون. يقبـض بيـده عـلى آلـة المزمـار الصغـير، ومـن دون أيـة مقدمـات شرع بعـزف لحـن أيرلنـدي بمهارتـه المعهـودة، ثـم توقـف وضحـك وعـاد يعـزف لحنـا آخـر.

سألني: «هل تتقنين العزف على آلة شيللو؟ هل تحبينها؟».

بالطبـع لم يعـزف بيكولـو أو شـيللو مـن قبـل مـع الفرقـة، وكـما لـو أنـه بـدلا مـن التحـدث معـي، كانـت المحادثـة مـن خـلال هـذه الآلات المميـزة. ولكـن الـذي كان يحـاول أن يقولـه قـد اسـتعصى عـلي. كنـا غالبـا مـا نتحـدث في البـلازا، ولكـن مثـل تلـك الأحاديـث كانـت غـير مجديـة في هـذا المـكان. ربمـا أيضـا لم أكـن قـد قابلتـه في حيـاتي قـط، كان هـذا في منتهـى الغرابـة.

أصدرت السيدة صوتا متأوهة، ونهضت من مكانها وانجرفت خارج الغرفة. قد يكون هذا له عدة دلالات، ذلك الصوت الذي كنت آمل أن يكون تأوها كما اعتادت أن تسميه الروايات القديمة. ثم راجع توم العجوز بعض ما يلزمه من مجموعاته الموسيقية، ونهض هو الآخر وغادر الغرفة. لم يعاود حتى النظر إلي.

لذا جلست في الغرفة. لقد كنت أنا والغرفة وصدى موسيقى توم العجوز، وصدى صوت آخر تركته السيدة ماكنلتي وراءها، شيئا مبهما تماما مثل قطعة من موسيقى كارولان[10].

عاد توم أخيرا وساعدني كي أنهض من الكرسي، لم ينبس ببنت شفة، مجرد أن محياه تهلل في لحظة وكأنه يقول لي: حسنا، ها أنت هنا، ماذا عساك أن تفعلي؟

خرجنا إلى شارع ستراندهيل حيث كان البنغَل واحدا من بين خمسة أو ستة أملاك كل واحد منه على مساحة فدان. كانت بعض الأعمال نصف مكتملة في ذلك الشارع شبيهة بلقائي مع السيدة ماكنلتي.

سألته: «ألم تحبني؟».

قال توم: «حسنا، حسنا، إنها تشعر بالقلق إزاء أمك. حسنا، ربما يمكنك القول إن لها اهتماما خاصا بهذا الأمر. لكن هذا ليس هو جوهر القضية. كلا. وأظن أنه كذلك. ولكن كلا. الأم متدينة جدا. هنا تكمن الصعوبة الحقيقية».

قلت: «أوه». وأنا أشبك ذراعي بذراعه، تبسم لي بكل لطف وحلاوة. كنا حينها نقترب من الشوارع القديمة الضيقة عند طرف البلدة.

(10) ترلوف أوكارولان: (1670 - 1738) عازف قيثارة ومغنٍ إيرلندي. يعتبره الكثيرون موسيقار إيرلندا الوطني. توفي في روسكومن. (المراجع)

قال: «آ، نعم. إنها تود لو تتحدث إلى الأب غانت إن كان ذلك ممكنا».

قلت: «بخصوص ماذا؟» إذن هي كانت صديقة للأب غانت، يا إلهي.

قال: «أنت تعلمين، كل ما في الأمر وما هو عليكِ أن تفعليه إزاء هذه الأمور. نعم. إنه قانون الزواج اللعين عند الكاثوليك وما إلى ذلك. ذلك التافه الآن، لا يهمني إن كنت هندوسية، ولكن كما ترين، إنها من حيث المشيخية، كما تعرفين. أوه، لا أظن أنها جعلت بروتستانتيا يطأ قدمه منزلها من قبل، هذا من المؤكد واليقين».

«ماذا عني، هل هي تحبني إلى حدٍّ ما؟».

أجاب: «لا أدري، لم تقل شيئا عن هذا. كان بمثابة اجتماع لجنة رسمية في غرفة غسيل الصحون، كما تعلمين».

لم يطلب مني توم الزواج منه، مع ذلك كنت أعرف أن جل حديثه له علاقة بالزواج. وعلى نحوٍ مفاجئ، كنت لا أرغب بالزواج منه، أو من أي شخصٍ آخر، أو حتى أن يطلب مني ذلك. كنت حينها في أوائل العشرينات من عمري، وفي تلك الأوقات تكون الفتاة قد تقدمت بالعمر في سن الخامسة والعشرين، ولن تحصل حتى على رجلٍ أحدب ليتزوجها بعد ذلك. كانت الفتيات أكثر بكثير من الرجال في أيرلندا آنذاك. كانت النساء أكثر حكمة فذهبن إلى أمريكا وإنجلترا بسرعة مضاعفة، قبل أن تغوص أرجلهن في وحل المستنقع الأيرلندي ويعلقن هناك. كانت أمريكا تصرخ لأجل جلب النساء، كنا نصدر لهم كالذهب. مئات ومئات ذهبن في كل سنة مباركة. منهن الجميلات، والممتلئات، الضئيلات، الدميمات، القويات، والمراهقات، الشابات، والعجائز، ومن كل

الفئات الملعونة. كن يهرعن خلف الحرية على ما أعتقد، يتبعن غرائزهن. يفضلن أن يكن خادمات في أمريكا على أن يكن عانسات في أيرلندا الملعونة. وفجأة، شعرت برغبة عارمة وقوية للانضمام إليهن. وكانت رائحة الضأن قد علقت في ثيابي، وحدها رحلة عبر المحيط الأطلسي أظنها تستطيع أن تزيلها.

والآن كما ترى، أحببت ذلك الرجل توم. وليكن الله في عوني.

الفصل الخامس عشر

مذكرات الدكتور غرين

أخبار اليوم حيال جون كين تبدو مزعجة وغريبة. أثناء اجتماع الموظفين، كنا نحاول تحضير تقرير ميداني من أحد الأجنحة. فقد وجد أحد أقارب المرضى أن قريبته المريضة في حالة يرثى لها، والمريضة المعنية امرأة شابة بالمقارنة بالعجائز هنا وهي من مقاطعة ليتريم، في أوائل الخمسينيات من عمرها على ما أظن. كانت قد أتت هنا في الآونة الأخيرة، تعاني من نوبة عقلية تجعلها تتخيل أنها النسخة الأنثوية من المسيح المنتظر التي فشلت في إنقاذ العالم، وبالتالي عليها أن تعذب نفسها بالأسلاك الشائكة. كان يتم هذا في أجواء عادية جدا في حقل ليتريم، وزواجها يبدو عاديا جدا وسعيدا. لذا بالفعل كانت مأساة. لكن إحدى قريناتها، أظن شقيقتها، قد وجدتها في غرفتها في صباح اليوم التالي بحالة مشوشة إلى حدٍّ كبير، وثوب المستشفى الخاص بها قد سحب من جسدها، وبعض من الدماء ظهرت على ساقيها. لم يكن كثيرا، كان مجرد لطخات من الدم. بالطبع الأسوأ قد يكون الاشتباه في أحدهم، كما هو الحال دائما، وبعد ذلك يعقد الاجتماع. جميع الظنون اتجهت نحو جون كين، لأنه قد تورط من قبل في مثل هذه الأمور، وأطلق سراحه بعد ذلك. إلى جانب أنه قديم هنا، هل مازال قادرا على

هذا العمل؟ أعتقد أن الرجل دائما قادرٌ على هذا العمل. ولكن لا يوجد دليل، ولا أي شيء، وعلينا جميعا أن نكون حذرين.

كان الفزع الذي ينتاب الجميع يصدمني كلما حدثت تلك الاجتماعات والأحداث في المستشفى التي تتطلب نوعا من البث الخارجي. عن أي شيءٍ يتطلب ذكره للزوار المهنيين في أي مجالٍ كان. حتى وإن واجه المطبخ حالة من التسمم الغذائي البسيط في جناح من أجنحة المستشفى. فقد ينتاب الجميع الخوف كما هو الحال هذا الصباح. يبدو أن العاملين بالمستشفى يجتمعون حول بعضهم ويتدحرجون مثل كرة لها أبر باتجاه الخارج. عليَّ أن أعترف أنني أشعر بنفس الشيء. ربما سيذهل من هو بالخارج إلى أي حد بإمكاننا تحمل الأمور عندما تسوء، حتى حين تقع كارثة. بينما هي غريزة متعمقة، بالأخص أننا في مؤسسة للأمراض العقلية، حيث العمل في حد ذاته شاق واستثنائي. عندما يكون قياس شدة المحنة كقياس درجة الإعصار أو التسونامي يوميا. من الأفضل أن تعالج داخل المستشفى. غير أني لا أعرف ما سيشعر به أقارب المرضى بصدد هذا الأمر.

من الغريب جدا أن يذكر المرء نفسه أن كل هذا: الأشخاص، والغرف، وتلك الأمور سوف تذروها الرياح في كل اتجاه حين زوال المشفى.

من الغريب جدا أن يأتي هذا في نفس الأسبوع مع تشخيص جون كين بعودة سرطان الحنجرة له. هم لم يخبروه بذلك، لا. لديه صعوبة متزايدة في البلع، هذا كل ما يعرفه عن الأمر. سيكون هذا محزنا جدا، إن لم يكن الأمر يتعلق بالمسألة الأخرى. إذا كان الأمر الآخر صحيحا بطبيعة الحال، فعلينا أن نأمل أن يموت بعذاب أليم، كما يقول الأيرلنديون. إنه أكبر من أن يتحرك مثل هذا

السرطان ببطء شديد. كم من العمر؟ لم أستطع أن أكتشف. من كلامه، ليس لديه شهادة ميلاد، حيث تمت تربيته في مكان ما من قبل والدين بالتبني. حسنا، لدينا هذا القاسم المشترك أنا وهو، وأتمنى أن يكون هذا الشيء الوحيد المتشابه بيننا. يبدو أن السبب في أنه لايزال يعمل هو أنه لم يفكر أحد في إحالته إلى التقاعد، لأن عمره لم يسجل أبدا. علاوة على ذلك، فإن وظيفته سيئة للغاية، سيكون من المستحيل تقريبا أن يقبل بوظيفته أحد، حيث إنه من المشكوك فيه أن يتولى شخص راغب من الصين أو البوسنة أو روسيا أن يقبلها. جون كين نفسه لا يظهر أي رغبة في إلقاء الفرشاة بإرادته الحرة. ويصر على تسلق السلالم إلى غرفة روزان، على الرغم من أن الصعود يتعبه كثيرا، وقد قيل له إنه يمكن أن يترك العمل لشخص آخر. أوه لا، انتابته الغمغمة وراح «يرعد» عن ذلك. بسبب بِت، عليّ أن أعترف أنني لا أشغل ذهني كثيرا بهذه الأمور. على الأقل، ألطف الأجواء. رأسي ممتلئ بالحزن مثل امتلاء الرمان ببذوره الحمراء. لا أستطيع إلا أن أنزف الحزن، لا يوجد في رأسي سعة للمزيد. في حين تحدث الطبيب الاختصاصي والممرضات عن المريضة المسكينة المعتدى عليها، إذا كان هذا هو ما حدث لها، فإن رأسي كان يهدر. جلست هناك بينهم برأس هادر.

ثم صعدت إلى غرفة السيدة ماكنلتي وجلست معها بعض الوقت. يبدو أن هذا هو الشيء المنطقي القيام به. حتى لو كان ذلك هو منطق سيد سبوك المسكين، الذي لا يشعر بأي شيء. لكنني كنت أشعر بالكثير. لم أواصل التحقيق في وجودها في المستشفى. لم أستطع. هذا اعترافي الرهيب، وهذه هي الحقيقة.

جلست هناك في غسق في غرفتها. أعتقد أنها كانت تراقبني. لكنها لم تقل أي شيء. كنت أفكر بأفكار لم أستطع على أي حال، وفي

أي ظرف، التعبير عنها بصوت عالٍ في حضورها. أفكار هي مزيج من الرغبة الجامحة عفّى عليها الزمن ولهفة جديدة مستمرة.

كنت أحاول إعادة ترتيب نفسي، كما يقول الأمريكيون. لأنها كانت ليلة أخرى غريبة مثل البارحة. لا أعرف ماذا سأقول لنفسي إن لجأت إلى نفسي للعلاج. أقصد أني لم أعد أعرف كيف. هناك تجاويف من الحزن بالتأكيد لا يعرفها أحد إلا الحزانى أنفسهم. إنها سفر إلى مركز الأرض، وهي آلة ضخمة وثقيلة تثقب قشرة الأرض. وهناك رجل عديم الأهمية يزداد جموحا في محطات القيادة. مذعور، مذعور، ولا يقدر العودة إلى الوراء.

هذا الطرقُ في رأسي هو الذي قضى علي. شيء تافه مثل هذا، لكنه يقذف أعصابي بنوع من الانتباه الشديد. أعصاب! أبدو الآن كطبيب من العصر الفيكتوري. لكن الأمر يشبه إلى حد بعيد الأعصاب الفيكتورية، تحضير الأرواح، وإنذار الأحياء، تلك القبور التي لفظت أنفاسها في مقبرة مونت جيروم، بعيدة عن المساس بها لأنه الموت الأبدي، ولكنها تتلاشى، ولا أحد من الأحياء قد قام بفرك النحاس. انظروا إلى أعمالي، أيها العظماء، وإلى آخره[11].

في الليلة الماضية خطت الأمور خطوة نحو الغموض. كنت مستلقيا في سريري وأكثر انتباها من أي كلب. فجأة في ظلام دامس، في تلك اللحظات القصيرة الساكنة، بدأ هاتف زوجتي بِت يرن، سمعته يهدر فوق رأسي. عمدت أن أزودها بخط ثانٍ عندما اشتكت من أنني كنت دائما أستخدم شبكة الاتصالات ولم يكن باستطاعتها إجراء مكالمات هاتفية أبدا. قالت إن صديقاتها كن فقط يتركن الرسائل النصية، إلا أنني لم أعطها الرسائل مطلقا.

(11) هذه إشارة إلى سوناتة الشاعر بيرسي سيللي بعنوان «أوزيماندياس». (المراجع)

لذا، فقد حصلت على خط ثانٍ، مع أنه كان مكلفا. كان الهاتف هناك بجانب سريرها. والآن رن فجأة، وجعلني أقفز فجأة مثل الرسوم المتحركة. من الناحية الكيميائية، أظن أنه كان بمثابة حقن الأدرينالين في الرأس، لا أعرف. ولكنه كان يسبب المرض إلى حدٍّ كبير، مفاجئ جدا وغريبٌ جدا. وظل يرن ويرن، طبعا سيظل يرن، لأنه لم يكن هناك من يجيب عليه. بالتأكيد كنت لن أذهب إلى هناك في تلك الغرفة في منتصف الليل. ولكن بعد ذلك أدهشني أنه لم يتحول إلى خدمة الرسالة النصية كما كان الحال عادة، عندما تكون بِت بالخارج. أعتقد أن شركة الهاتف قد أوقفت هذه الخدمة. ولكن فكرة تعيسة جالت في ذهني وهو أنني لم أتصل هاتفيا بشركة الهاتف قبل بضعة أسابيع لأطلب قطع الخط؟ إن كنت قد فعلت ذلك وأنا بالفعل لا أتذكر الآن، لا بد أن يكون هذا الرنين نتيجة خطأ ما. أوه، لكن، أن أكذب على نفسي وأسمعه يستمر بالرنين.

ثم توقف. حاولت أن أهدئ نفسي، وأحث نفسي على الشعور بالراحة. حينها حدث الشيء الرهيب. أوه، يا إلهي، نعم. لقد سمعت ذلك بكل وضوح، كان فوق رأسي، كان الصوت مكتوما بعض الشيء لأنه قادم عبر ألواح الأرضية والسقف ذي الجبس القديم، لكنني سمعت، كلمة «مرحبا». كان صوت بِت.

لقد فقدت السيطرة على مثانتي وكنت في غاية الفزع. كانت تدور في رأسي صورة وحش يلف حولي سلاسل، مثل أفعى أناكوندا، ويبدأ بالضغط علي. تقتل الأناكوندا ضحيتها عن طريق الضغط على الأعضاء الداخلية حتى ينفجر القلب. هذه الكلمة الواحدة فجرت قلبي تقريبا. أنا أشتاق إلى بِت بشكل رهيب، لكن بكل صراحة لم أكن أريد أن أسمع صوتها، وليس بهذه الطريقة. أجل أن تكون تلك

المرأة التي تعيش وتستنشق الهواء، نعم، ولكن ليست تلك الكلمة الفريدة التي تطفو فوق كياني، تخترق أعماقي. ولكن بعد ذلك فكرت، ماذا لو كان هناك بعض الأخطاء الشنيعة، لو تخيلتها تموت، أو إن كنت قد دفنتها وهي على قيد الحياة، لكن لم يكن لدي متسع من الوقت لمزيد من هذا الضرب من الجنون، لأنه بعد ذلك أتت كلمة أخرى، كان اسمي يستدعى، واضحا كما صوت الجرس، «وليام!» أوه، أعتقد أنه أنا المعني. وبما أن هذا في حد ذاته كان فكرة جنونية. أقصد كان بالإمكان عدم الرد على المنادي، وبالتالي، كيف يمكن أن يكون النداء موجها لي أنا؟

كان اسمي هو المستدعى. وكان الصوت بالضبط كما هو بالسابق، كان يحمل في طياته نفس لحن الصوت الذي ينم عن نفاد الصبر والانزعاج لأنني قد أعطيت رقم هاتفها لشخص ما، وصار يستخدم خطها.

لم أكن أعرف ماذا سأصنع. «ماذا؟» ناديت، دون أن أنوي ذلك.

لم أستطع ترك الأمر عند هذا الحد، الآن كان هذا جنونا من نوعٍ جديد، لم يكن باستطاعتي الرد. نهضت من السرير وأنا أشعر كأنني رجل ميت، كما لو كنت الآن في عالم الموتى، أو قصة من قصص م. ر. جيمس نفسه التي شغفت بها بِت. خرجت من باب غرفتي وأنا مستغرق بالاشمئزاز وأنا أمشي على طول الممر حافي القدمين. لو رأتني هكذا، أعتقد أنها ستوبخني لأني أسير حافي القدمين. وصلت إلى المدخل الصغير ومن ثم إلى السلالم وإلى الغرفة العلوية، وصعدت خطوة بخطوة.

وصلت إلى حيث سقطت ووجدتها تكابد الرمق الأخير، كنت على ما أعتقد أتوقع أن أراها هناك. نقرت على مفتاح المصباح ولكن يبدو أنه قد انطفأ دون أن أدري، لأنه لم يحدث أي شيء. كان هناك

غلالة من ضوء القمر على العتبة، مجرد طبقة من الضوء. تركت باب غرفتها مواربا شيئا ما حتى لا أعيق دخول الهواء إلى الغرفة، كإجراء وقائي ضد العفونة. لذا ذهبت إلى الباب بخطوات بطيئة، وقفت هناك برهة.

قلت: «بِت؟».

الآن اجتاحتني كل التعاسة في الدنيا. أيا كانت المادة الكيميائية المرتبطة بالخوف -الأدرينالين وأخواتها- كانت تغمر ذهني. كانت ركبتي ضعيفة بمعنى الكلمة، وشعرت أن محتويات الأمعاء قد تحولت إلى ماء. أردت أن أتقيأ. منذ سنوات وأنا صبي في المسلخ في بادستو، رأيت الأبقار تسير في طابور باتجاه المسدس، وشاهدتها وهي تبول وتتغوط من الرعب. كنت في حينها مثلهم. جزء مني يتوق إليها بأن تكون داخل الغرفة، لكن جزءا أكبر بكثير مني كان يهاب هذا الشيء، يهاب مثل الحي الذي قد كتب عليه الموت. إنه قانون الحياة إلى أبعد حد. نحن ندفن أو نحرق موتانا لأننا نريد أن نفصلهم جسديا عن حبنا وذكرياتنا. نحن لا نريدهم بعد الموت أن يظلوا في غرف نومهم، نريد أن تكون لدينا صورة لهم وهم أحياء، يعيشون الحياة برمتها في أذهاننا.

ومع ذلك، فجأة، وبالتساوي مع ذلك الشعور، مثل هبوب الرياح في بداية عاصفة هائلة، أردتها أن تكون هناك، أردت هذا الشيء. دفعت الباب ودخلت، أردت أن أرى بِت هناك، أردت أن آخذها بين ذراعي بلطف، كما لم أفعل ذلك منذ سنوات عديدة، وأضحك وأشرح لها، وأشرح حماقة تفكيري وكيف ظننت أنها ماتت، ورجائي، ورجائي الآن، هل بإمكانها أن تغفر لي حماقة بوندوران (مدينة في أيرلندا)، وهل بإمكاننا أن نعاود من جديد، فلنذهب في عطلة إلى مكان ما، لماذا، إلى بادستو ذاتها، لرؤية المنزل القديم وتناول الطعام

في المطاعم الفاخرة الجديدة التي سمعنا عنها، ونقضي وقتا ممتعا. الفراغ، بالطبع الفراغ.

أعتقد لو أن شخصا ما قد رآني حينئذٍ فسوف يخيل له كأنه يشاهد شبحا، كما لو أنني الشبح. رجل ذو عيون جامحة، يبلغ من العمر خمسة وستين عاما في غرفة نوم زوجته الميتة، قد أصبح معتوها من فرط الحزن ويبحث كالمعتاد عن الغفران والخلاص بالطريقة التي يبحث عنها الأشخاص العاديون وقتها. إنها الآلية المتخلفة للتفكير فيها معظم الأوقات. بِت خلصيني، حرريني، اغفري لي. عندها تكون الحقيقة المقرفة بأن عليها أن تطردني.

كنت جالسا في غرفة روزان أفكر في كل هذا.

لم يكن ثمة ما أقوله لها. كنت في غرفة المريضة، حيث من المفترض أن أقيمها لكي أطلق سراحها، «تعود إلى المجتمع». أحد تطلعات نظام الحكم للسيدة تاتشر في إنجلترا، وهو أحد أساليب التاتشرية كما يقال والذي لم يبرح. كانت روزان جالسة على سريرها مرتدية ثوب المستشفى الأبيض، والذي يبدو في نصف الإضاءة مثل الأجنحة المتجعدة، كالأجنحة الجديدة للفراشة قبل أن يضخ الدم فيها. مما يثير الدهشة كثيرا أنها مخلوق، بيد أنها فجأة بإمكانها أن تطير بجناحيها.

أقيمها. وعلى حين غرة بدا الأمر تافها وضحكت بصوت عالٍ. كانت الصحة العقلية للشخص الوحيد موضع شكٍّ لدي في تلك الغرفة هو عقلي أنا.

شهادة روزان عن نفسها

لقد تزوجنا في دبلن، في الكنيسة ببلدة ساتون، وكان ذلك أسهل شيء يمكن فعله. وكان الكاهن صديقا لتوم، فقد ذهبا إلى الكلية في

نفس الوقت في دبلن، ولو أن الكليتين مختلفتان. داوم توم بضعة أشهر فقط يدرس القانون في كلية ترايبنيتي لفترة تكفي لتكوين صداقات في المدينة. كان بإمكان توم تكوين صداقات حميمة في المساء حين تقوم السباقات. أي شيء يحتاج إنجازه كالترخيص والدعوات، وكل ما تحتاجه لتزويج امرأة من المشيخية، يكون قد قام به. أعتقد أن أهل ساتون الطيبين لم يكترثوا بهذا العرس بحد ذاته، لكن حتى لو أنه يفتقر إلى قرع الطبول والصخب، كان هناك زمرة من رفاقه الآخرين في دبلن، وبعدها ذهبنا إلى فندق باري وقضينا ليلتين، في الليلة الثانية ذهبنا للرقص في متروبول، ولأن توم كان يعرف قائد الفرقة هناك، قمنا بالرقص معا تقريبا للمرة الأولى. لسبب غريب، لم نكن قد رقصنا معا في قاعة الرقص الخاصة به.

أظن أن هذا كان غريبا، لا أدري. بدا توم راضيا تماما ولم يقل أي شيء عن عدم وجود أي أحدٍ من أفراد عائلته هناك. كان جاك سيحضر لولا وجوده في أفريقيا، لكنه قد دفع ثمن غداء الزفاف كهدية لأخيه. شرب توم الكثير أثناء الغداء ولم يشرب كثيرا في الفندق في تلك الليلة، لكنه عوض ذلك بليلة الرقص. فكان ألطف عاشق. هذه هي الحقيقة.

رقدنا في الظلام في غرفة الفندق. اشترى توم حزمة من هذه السجائر البيضاوية الروسية عند كلية غرين، بجانب كليته القديمة، وكان يدخن واحدة منها. أعتقد أنني كنت في الخامسة والعشرين من عمري، كان أكبر سنا بقليل.

قال: «أتعرفين، إن الأمر ممتعٌ هنا للغاية. هل يمكن أن أفعل ذلك في دبلن؟».

«أنت لا تفوت على نفسك الغرب؟».

أجابني وهو يقوم بنفث الدخان من سيجارته الروسية على شكل دوامات في الغرفة المعتمة: «أفترض أنني سأفعل ذلك».

قلت: «توم؟».

«نعم؟».

«هل تحبني؟».

«بالتأكيد، أنا أحبك».

«هذا جيد، لأنني أحبك».

قال: «هل فعلا تحبينني؟ تملكين ذوقا جيدا جدا. أنت حكيمة، عليّ أن أقول هذا. نعم».

ثم ضحك.

قال: «هل تعلمين، أنا حقا أحبك».

قلت: «ماذا؟».

قال: «أنا أقصد، ليس بالكلام فقط، لكن أنا فعلا. أحبك».

أعتقد حقا أنه يحبني.

***

لقد كان أطيب رجل، أعتقد أنه من الأهمية بمكان أن أقول ذلك.

***

يمكنك الحكم على الكثير من آثار الحرب الاقتصادية الشهيرة للسيد دي فاليرا في ذلك الوقت وأنت تنظر من نافذة القطار. كنا متزوجين في فصل الربيع ولأنه لم يكن هناك سوق للخراف كان على المزارعين أن يقتلوا الخراف في الحقول. لذا، بينما كان القطار يمر عبر الأرياف بين الحين والآخر، كنا نرى تلك الجيف الهالكة. كان توم حانقا بشدة حيال هذا الأمر. رجال دي فاليرا كانوا في السلطة، وكان هذا بالنسبة له كالمسلحين والقتلة الذين سيطروا على البلاد،

وهي نفس البلاد التي حاولوا التسلل إليها بعد المعاهدة. كل ذلك جعل الشباب مثل توم على حافة الغضب. كان توم صغيرا وجاء إلى بلده وأراد أن يسترد إرث البلد على ما أظن، وأن يجعل منه شيئا ذا قيمة. كان هناك شعور في داخله بأن دي فاليرا يحاول خنق البلد الجديد عند ولادته، من شأنه أن يعيث فسادا فيه ومازال في طفولته، كما كان من قبل، ويدمر هذا المكان في العالم الأكبر. على أي حال، فقد حطم قلوب المزارعين الأقوياء الذين عليهم قتل الخراف، وليس لديهم مكان لإرسال الخراف نفسها، لقد كان كل ذلك بمثابة خنق لأحلامهم.

قال توم وهو بجانبي يراقب الدمار في المزارع: «مثل دار للمجانين وبمنتهى النذالة». وكان يعلم هذا، بالطبع، لأن والده ووالدته كانا يعملان في دار المجانين. «لقد أصبحت أيرلندا بأكملها مجرد دار للمجانين الآن».

لذا طُلب من والد توم أن يفصل ويخيط قميصا أزرق لتوم، وبدأ يعقد اجتماعات صغيرة ومسيرات في سليغو، لمعرفة ما إذا كان بإمكانهم المضي قدما في الاتجاه الآخر. كان هناك رجل يدعى أودفي قد رتب أمورهم، وكان مسؤولا عن الشرطة لكنه فقد هذه الوظيفة لسببٍ ما، والآن أصبح هو أحد هؤلاء الرجال مثل موسيليني أو فرانكو. أعجب به توم لأنه عندما كان وزيرا، حاول سن قوانين لحماية الأطفال في أيرلندا. لقد فشل في هذا، مع ذلك. كما كان رجلا متحمسا في خطبه، واعتقد توم أن جميع الرجال العظماء عليهم أن يقتلوا أثناء الاضطرابات، كولينز بالطبع أولهم. وكان أودفي حليفا كبيرا لكولينز. لذلك كل شيء يبدو منطقيا حقا، لتوم على أي حال. لم أكن أعرف أبدا رجلا يتعرق مثل توم وبعد مسيرة سيكون قميصه الأزرق قد تشبع بالعرق. اضطررت

إلى صبغه عدة مرات لأن لونه باهت تحت الإبطين وهذا لن يكون لائقا. لم أره أبدا في مسيرة، لكنني أردته أن يبدو أنيقا، كأية زوجة بطبيعة الحال.

في هذه الأثناء، أعددنا منزلا في مبنى صغير في ستراندهيل. لقد كان كوخا في الواقع، لكنه قريب من قاعة الرقص وأبعدني عن سليغو. في الوقت نفسه، كانت رحلة ممتعة بالنسبة له للعودة إلى المدينة. تطل غرفة النوم الخاصة بنا إلى نوكناريا، فقد كنا نرى في الواقع أعلى قمة مافي كارين، كان الأمر ممتعا عندما نضطجع هناك، زوجان شابان متزوجان في الثلاثينيات من القرن الماضي، في الزمن الحديث يومها، وهي هناك مستلقية على سريرها الأيرلندي الخاص بها. كما يقولون، مطويٌ هناك منذ أربعة آلاف سنة. كان لدينا منظر جميل لجزيرة كوني من الشرفة المتهالكة في المقدمة، وعلى الرغم من أن تلة الجزيرة كانت تخفيه، إلا أنني كنت أعرف أن الرجل الحديدي كان هناك صلبا وأبديا، وكان بإمكاني أن أتخيله في عين عقلي يشير إلى أسفل المياه العميقة، بكل أمانة وهدوء.

***

«الهبوط إلى ريو» و«القبعة الفضلى»[12]. إن الرجل الذي حكم القلب لم يكن دي فاليرا ذا الوجه النحيف المخيف بل فريد أستير، بوجهه النحيف المخيف.

***

حتى النبلاء جاؤوا لمشاهدة الأفلام. لو كانت كنيسة لكان لهم فيها مقصورات. مثل ما كان لمعظم ذوي المعاطف الفرو الذين يوجدون في الشرفة. أما بقية أهالي سليغو فيعجون في الصالات

(12) هذان فيلمان من ثلاثينيات القرن العشرين من بطولة فريد آستير. (المراجع)

بالأسفل. كان هناك صخب من نوع آخر غير أن السيد كلانسي وإخوته كانوا جميعهم في الجيش، حشدوا الرعاة مثل المجندين الهائجين. أي شغبٍ من الفتيان سيتم سحبهم من آذانهم وطردهم خارجا في الليلة المظلمة والممطرة من ليالي سليغو، وهو أمر غير مرغوب به. أوه، لم يكن لديه مانع للتقبيل، فلم يكن كاهنا أبرشيا، وماذا كان بإمكانه أن يفعل بأي حال من الأحوال والأنوار خافتة. لم تكن كنيسة، لكنها كانت تشبه الكنيسة، كانت أفضل منها، أفضل منها بكثير. في السينما يمكنك أن ترى في وجوه الناس تلك النظرة الجذلة التي يحلم الكاهن برؤيتها على محيا مرتادي كنيسته كل من كان في سليغو هم في حشد خانق، كل هؤلاء الأناس المختلفين وبدرجات متفاوتة، منهم الفقراء والأمراء وقد اتحدوا جميعا على سحرهم. يمكنك القول إن أيرلندا كانت قد توحدت وأصبحت حرة، في السينما، على أي حال. على الرغم من أن توم حجرني في ستراندهيل، حتى يتمكن من إقناع والدته بأن تخفف من عدائها لي. إلا أنه لم يكن قاسيا لدرجة أن يمدد فترة الحجر إلى ليالي السبت. في وسط أزيز سيارته الصغيرة الجميلة ذهبنا إلى المدينة بسيارته وأخذنا أماكننا كما هو الحال دائما، كما لو كنا نخاف على أرواحنا إذا لم نقم بذلك.

كان هناك دائما مزاح مثير في السينما، حيث الشباب يرمون بعضهم بألفاظٍ نابية. في بعض الأحيان، تلميحات تنسب إلى بعض الأفكار السياسية، وأحيانا كانوا يتقبلون جميعها، ولكن من وقت لآخر لم تؤخذ الأمور على محمل الجد، وشيئا فشيئا في الثلاثينيات زاد هذا الشيء سوءا. كان بالإمكان معرفة الكثير عن حالة البلد من خلال نوعية الإهانات ليالي السبت في السينما. بالطبع لم يكن السيد كلانسي يتجنب أي حزب على وجه الخصوص، أو ضد السياسة على

الأرجح عموما. يمكن طردك بسبب تعليق سيئ، والذي كان أكثر مما يمكنك قوله عن البرلمان نفسه، وفقا لقول توم.

قد يقول توم: «هناك أشياء يمكنك قولها دون عقاب في المجلس التشريعي الأيرلندي والتي من شأنها أن تطرد من المسرح».

كانت هناك دائما تقارير إخبارية قبل الفيلم الرئيسي، إذا كانت هناك أشياء خاصة عن الحرب الأهلية الإسبانية على سبيل المثال، فستكون هناك أصوات مدوية بشأن ذوي القمصان الزرقاء وما شابه. سيظل السيد كلانسي وإخوته مشغولين فعلا بمحاولة اجتثاث الساخرين.

يقول توم: «حشد من الحثالة».

سيقول جاك لو لم يكن في أفريقيا حينذاك: «رزمة من التافهين». ليس لأن جاك قد مشى على خط ذوي القمصان الزرقاء، ربما قد يقول جاك لتوم: «أخشى أن يكون صديقك أودفي ما هو إلا واحدا من زمرة المثليين».

لكن توم ينفجر ضاحكا، فقد كان يحب شقيقه جاك، ولم يبال بما قاله. كان ذلك جزءا من سحر توم الرائع كصديق وأخ. كان متساهلا من صميم قلبه. كما كان يعتقد أن جاك عبقري أيضا، لأنه حصل على شهادتين علميتين من غالواي، واحدة في الهندسة وأخرى في الجيولوجيا، في حين إنه لم يمض سوى أشهر قليلة في كلية الحقوق. كانت لديه طريقة للتغاضي عن كلمات جاك التي كان يمارسها من وقتٍ لآخر في الماضي حين كانوا صبية. لا أدري كيف أن شقيقهم الآخر إينياس تأقلم مع ذلك. بالطبع لم أسمع الكثير عن المسكين إينياس.

في إحدى الليالي حين عرض فيلم القبعة الفضلي وبينما كنت في طريقي إلى دورة مياه السيدات، أغلق شخصٌ مألوف متشحٌ

بالسـواد الطريـق أمامـي. لم يكـن مـن المعتـاد أن يشـترك رجـل في محادثـة مـع امـرأة متزوجـة، ولكـن مـن ناحيـة أخـرى، لم يكـن أبـدا من غـير المعتـاد بالنسـبة لجون لافيـل. الآن وبعـد أن أصبحـت جماعته في السـلطة بشـكل آمـن، بـدا عليـه الازدهـار، عـلى الرغـم مـن أنـه كان يحـاول جاهـدا للوصـول إلى المجلـس. كان ذلـك أفضـل لـه مـن الهروب أو أكل خليـط مـن الأكل الـرديء للمسـجون في كـورا. لا بـد أنـه كان يحب الملابـس السـوداء لأنـه كان يرتـدي ملابـس سـوداء فقـط، وقـد أعطـاه هـذا مظهـرا مثـل مظهـر رعـاة البقـر، مـع شـحوب بشرتـه البيضـاء واكتسـاح الشـعر الأسـود أعـلاه. بالنسـبة إلى كانـس الطريـق، فهـو بالتأكيـد يـدرك مـا هـي الصدريـة. أمـا بالنسـبة لي فكنـت أرتـدي أفضـل فسـتان صيفـي أرجـواني اللـون، والـذي كان بحـد ذاتـه غنيـا عـن التعريـف. عـلى أي حـال، لم يكـن جـون لافيـل مـن أولئـك الذيـن يهتمـون بمـا يجـب أن يفعلـه الشـخص أو لا يفعلـه.

«مرحبـا، روزان. هـل تعلمـين أيتهـا الفتـاة أنـك تبديـن جميلـة حقـا».

كان هـذا الآن تعبـيرا عظيـما بالنسـبة لـه. أو لأي أحـد. لأنـه لم يقـم أبـدا بعـرض ولـو القليـل مـن أي نـوع مـن الـكلام عـن الحـب لي. بالنهايـة، كنـا نعـرف بعضنـا فقـط بسـبب العواقـب المثـيرة للـمآسي. ربمـا كان لا يـزال يعتقـد أنـه قـد ألقـى الجنـود الأحـرار مـن فـوق رأسـه منـذ سـنوات. ربمـا كان الحديـث بهـذا الشـكل معـي نوعـا مـن الانتقـام المخفـي. أيـا كان الأمـر، لم أكـن لآخـذ الأمـر عـلى محمـل الجـد، مـررت بمحاذاتـه، ومشـيت في طريقـي. عـلى أي حـال، مثانتـي قـد انفجـرت.

قـال: «أنـا أخـرج في نوكناريـا معظـم أيـام الآحـاد. في معظـم أيـام الآحـاد تقريبـا في السـاعة الثالثـة سـتجدينني عنـد النصـب الحجـري أعـلى الجبـل».

توهج الدم في وجهي من الإحراج. كان ثمة تجمع صغير من النساء والفتيات الصغيرات يحاولن فعل ما أفعله، لكنهن كن هادئات للغاية، لأن الفيلم كان مايزال مستمرا خلف رؤوسنا. في الواقع، كان من الصعب للغاية تحديد ما قاله جون لافيل، لكنني مع ذلك استوعبت ما قاله. كنت أتمنى أن لا أحد يستوعب ما قاله. ربما كان يقصد أن يكون ودودا. ربما كان يقصد فقط أنه يعلم أنني أعيش هناك، وهو غالبا ما يكون هناك.

لم أره مطلقا في المرقص. ضع هذا في اعتبارك. لم أكن أحضر إلى البلازا كما في الأيام الخوالي عندما كنت فتاة غير متزوجة وكان بإمكاني العزف على البيانو دون تعليقات. حيث إن النساء المتزوجات لم يعملن في تلك الأيام. كنا مثل المسلمين في تلك الأوقات، كان الرجال يريدون إخفاءنا بعيدا عن الأعين، إلا في مثل هذه المناسبات، عندما كان هناك فيلم جيد يستحق المشاهدة. لم يكن جون لافيل كغيره من الشباب. لم يكن مجرد شاب يتسكع في الشارع ويتفوه بالتعليقات من ورائي، لقد كان شخصا جليلا يعرف والدي ويعرف عنه أمورا أخرى. تربطنا وفاة شخصين وأشياء أكثر، يمكنك القول، وفاة شقيقه وموت والدي. كان ينبغي أن نكون أعداء لكن بطريقة أو أخرى لم نكن كذلك. لم أكن ضده، وبالرغم من أنني لم أكن ضده لم أكن أؤيده. حتى يومنا هذا لا أستوعب حقا هذا الشيء. قلما كنت أراه وبالرغم من ذلك كان يظهر في أحلامي. في أحلامي، كان دائما يُطلق عليه النار ويموت، مثل أخيه في الواقع. كثيرا ما رأيته يموت في أحلامي. أمسك بيده وما شابه.. بأخوية.

إلا أنني لم أتحدث عن ذلك قط لتوم. لم أحبذ التحدث عنه. كيف لي أن أبدأ؟ لقد أحبني توم، أو أحب ما عرفه عني، وما رآه مني. لا أريد الآن أن أقول شيئا غير ملائم، لكنه كان دائما ما يمدحني في نهاية الأمر. إنها الحقيقة.

قال لي ذات مرة: «عندما أشعر بالكآبة، أفكر فيك».

ليس رومانسيا البتة، لكن من وجهة نظر أخرى، فهو رومانسي جدا.

الرجال ليسوا إنسانيين على الإطلاق، كلا، أنا أقصد أن لديهم أولويات مختلفة. ضع في اعتبارك، أنني حتى لا أعرف ماهية أولويات المرأة، على الأقل، أعرف ما هي الأولويات ولكنني لم أشعر بها أبدا. كانت لدي رغبة جامحة لتوم. لكل كيانه. لا أدري. كان يجعلني أشعر بالدوار باستمرار. هناك بعض الأمور التي لا يمكنك أن تشبع منها. يمكنك أن تكتفي من الشوكولاته. لكن بعض الأشياء. أحببت صحبته، في جميع مظاهرها. أحببت شرب الشاي معه. أحببت تقبيل أذنيه. ربما لم أكن أبدا امرأة سوية. إلهي اغفر لي. ربما كان الخطأ الأكبر الذي ارتكبته هو أنني كنت دائما أشعر بالسواسية معه. شعرت أنه هو وأنا، مثل بوني وكلايد، اللذين كانا في ذلك الوقت في أمريكا يبحثان عن قتل الناس، معبرين عن حبهما بطرق غريبة.

حسنا، فلماذا صعدت إلى النصب الحجري في يوم الأحد التالي؟ كلا. لا أدري. لأن جون لافيل طلب مني هذا؟ لا، أنا أعلم أنه كان شيئا حقيرا أن أقوم به، خطأ. لماذا على سمك السلمون العودة إلى غارافوج، بينما لديها البحر باتساعه تستطيع أن تجوبه؟

***

مذكرات الدكتور غرين

في الأيام الأولى من كل عام كنا نذهب إلى بوندوران زيارة دينية لقضاء إجازتنا. يضحك الناس الآن من بوندوران، وهم يعتقدون أنه النموذج الأصيل للعطلة الأيرلندية من الطراز القديم، فيها دور ضيافة رطبة وأمطار موحلة وطعام رديء وما إلى ذلك. لكننا

أحببنا كل هذا، أنا وبِت. ضحكنا من تلك الأشياء أيضا، لكن بمودة، كما قد تضحك على عمتك الكبيرة الرعناء. كنا نحب الذهاب إلى هناك نهرب إلى هناك، يمكنك القول، لتجديد أرواحنا عند مذبح بوندوران.

أشعة الشمس هي قارئ عظيم للوجوه. العودة إلى المكان نفسه عاما بعد عام، جعلت وجه بِت كما الساعة. كل عام كانت هناك قصة جديدة، الصورة الأخرى على التوالي. كان ينبغي علي تصويرها كل عام في نفس المكان في نفس الوقت. كانت دائما تتذمر وتشعر بالقلق من تقدمها في العمر، وكانت ترصد كل خط جديد على وجهها في اللحظة التي يظهر فيها. مثل كلب نائم يصحو فجأة عندما يسمع صوت أقدام شخص غريب من البعيد وهو يخترق حدود السكن. كان الإسراف الوحيد الذي تمارسه هو استثمارها لقناني الكريمات الليلية، تستخدمها في حربها ضد تلك الخطوط. لقد كانت إنسانة ذكية للغاية، وأتقنت قصائد مطولة من أشعار شكسبير منذ أيام الدراسة، يومها إحدى تلك القصائد ألهمت المعلمات اللاتي حاولن أن يجعلنها معلمة أيضا. لكنها لم تكن تنظر لتلك التجاعيد مستخدمة ذكاءها، فقد كانت شيئا بدائيا منذ الأزل. بالنسبة لي، أقسم بالله لم تكن هذه الأشياء تزعجني أبدا. إنها فضيلة من فضائل الحياة الزوجية حيث كنا نتشابه دائما لسبب غامض. حتى أصدقاؤنا لم يبدُ أنهم يهرمون. يا له من نعمة هذا الشيء، ولم يكن يثير الشك بي من قبل عندما كنت صغيرا. لكنني أعتقد، لو العكس صحيح، فماذا عسانا أن نفعل؟ لم يكن هناك شخص في دار المسنين لا ينظر إلى النزلاء الآخرين من حوله بريبة. إنهم كبار السن، وهؤلاء هم الذين لا يريدون الانضمام إلى ذلك المأوى. لكننا لم نكن نعتبر

أنفسنا من كبار السن أبدا. ذلك لأن السفينة التي نبحر فيها هي في نهاية المطاف الروح وليس الجسد. أوه، وأنا أكتب هذا، أكون أكبر اللاأدريين في أيرلندا. كالعادة، ليس لدي كلمات تشرح ما أقصده. أحاول أن أقول إنني أحببت بِت، نعم، حب الروح إلى الروح، وصارت الخطوط والتجاعيد جزءا من قصة أخرى، قراءتها المعذبة لحياتها. ولن أستهين بالألم الذي قد سببها لها ذلك. حسب تقديرها هي، فإنها امرأة عادية، لم تكن تود أن تكون امرأة عادية وعجوزا. ومع ذلك أود أيضا أن أشكك في كونها عادية. هناك مرات حين يومض وجهها بجمال خاص. كانت هناك اللحظة التي وقفنا فيها جنبا إلى جنب في الكنيسة، ونظرت إلى وجهها في مجرد اللحظة قبل أن تقول «موافقة»، ثم سمعتها تقولها، ثم خرج من وجهها نورٌ لا مثيل له، يغمر حتى وجهي. كان حبا. إنك لا تتوقع أن ترى حبا كهذا. أنا لم أتوقع على أي حال.

فلماذا اضطررت لخيانتها في بندوران من بين كل الأماكن؟

ذهبت إلى هناك بمنتهى البراءة، من دونها، ولكن لأجل حضور مؤتمر في هذا الفندق الجديد على الساحل. كان تجمعا للأطباء النفسانيين، تماما. كان موضوعنا كالعادة عن ماهية ذهان الشيخوخة، والخرف، وما إلى ذلك. كنت أقدم ورقة عمل حول أنماط الذاكرة، والحقيقة المتسلطة المطلقة للذاكرة، وقهر الذاكرة المزعج أعتقد أنه كان نوعا من الهراء الذي ينتاب الكهل، لكنني اعتقدت في ذلك الوقت أنه راديكالي وثوري تماما. وقد تم اعتباره كنوع من التحذير يذهب أدراج الرياح في ذلك المؤتمر. اعتباره كنوع من طيش الفكر. لذلك ربما لم يكن ملفتا للنظر حيث إنه قد تبعه طيش الجسد.

مسكينة هي مارثا. كان لديها أربعة أولاد لطيفين في المنزل، وزوج كان أحد أكثر المستشارين القانونيين الموهوبين في جيله. ينأى بنفسه، رجل خشن الطبع، لكنني متأكد من أنه شخصٌ جدير. ببساطة شديدة وبشكل مرعب شربنا الكثير من النبيذ معا، ورجعنا نتجول مرة أخرى إلى ممر الغرف غير المبهرة. كانت تسديدة، استسلاما، رجوعا إلى فترة المراهقة، حين كانت هذه التلامسات بطولية وشاعرية.

ذهبت مارثا إلى المنزل وأخبرت زوجها الصالح. لا أظن أنها كانت تعني ذلك أو تريده. أعتقد أن ما أرادته حقا هو عدم وقوع ذلك الشيء. العالم ليس مليئا بالخونة، إنه مليء بالأشخاص ذوي الدوافع النبيلة والرغبة في فعل الصواب من قبل أولئك الذين يعرفونهم ويحبونهم. هذه حقيقة ربما غير مدركة، لكنني ومع ذلك أعتقد أنها الحقيقة. عمليا، ومن صميم سنوات عملي، أشهد على ذلك. أعلم أنه استنتاج استثنائي، لكن هو كذلك. نميل إلى أن نصف الجنس البشري بالوحشية والشهوانية والبدائية، ولكن هذا يجعل كل واحد منا غريبا عن الآخر. نحن لسنا ذئابا، لكننا حملان تفاجأت عند حدود الحقول بضوء الشمس والصيف. فقدت عالمها، مارثا. وأنا فقدت عالمي. لا شك أننا كنا نستحق ذلك تماما. كل ما عانى منه زوجها لم يكن، وأياً ما عانت منه بِت لم يكن، أعرف هذا على وجه اليقين.

لأن الإخلاص ليس أمرا يخص البشر، بل أمرٌ إلهي.

ها أنا أعود وأتفلسف مرة أخرى.

***

وأتساءل كيف كان الأب غانت سيفسر ذلك؟ الأب غانت، مجتهد للغاية، مكرس نفسه لكشف سر روزان، طبيعتها، قصتها في تورطها بالجرم.

شهادة الإقرار في الغرفة الأخرى، وأنا متعب للغاية للذهاب والحصول عليها. سوف أرى مقدار ما يمكنني الكتابة من الذاكرة. الأحداث في المقبرة والتي قد فصلتها. ثم جاء الاستقلال، وتم تفكيك الشرطة الإمبريالية، مما زاد من أنني يجب أن أخمن مخاوف والد روزان، ثم.. أضع الفرضيات، يمضي الوقت. تضعف قابلية التأثر أم تزيد؟ يحصل والد روزان على وظيفة في المقبرة ذاتها. بما أن هذه الوظيفة كانت بمثابة هبة من مجلس المدينة، فمن الصعب فهم السبب في أن رجلا فاسدا قد حصل على مثل هذه الوظيفة، ما لم تكن وظيفة متواضعة جدا اعتبروها مجرد إهانة. في الواقع، مع مرور الوقت جرد من هذه الوظيفة وأعطيت له بعد ذلك وظيفة صائد الفئران في سليغو، بالتأكيد إنها إهانة ما بعدها إهانة لمثل هذا الرجل. يكتب الأب غانت بضيقٍ شديد: «بما أنه كان يطارد إخوانه من مواطنيه مثل الجرذان، من الجدير بالذكر أنه لائق لهذه الوظيفة» (أو كلمات شبيهة بهذا المعنى). لكن الذاكرة تكون طويلة وقصيرة معا في أيرلندا، مثل أي مكان توجد فيه تلك الحروب. تسببت الحرب الأهلية التي أعقبت تلك الفترة في مزيد من التشويه للفطرة الطيبة لدى الشباب في سليغو. في نهاية المطاف، جاء الوقت لتحويل الانتباه إلى والد روزان، وكانت نهايته مثيرة للفضول وطويلة الأمد.

في إحدى الليالي عند عودته إلى المنزل، اختُطف عند منعطف الشارع. كان في حالة سكر كما كانت عادته، وكانت ابنته تنتظر كما لو كانت تمتلكه. وأعتقد حقا، ومن الواضح بالفعل من رواية الأب غانت، أن روزان كانت تعشق والدها الغريب الأطوار. على أي حال، أخذه عدد من الرجال وسحبوه داخل المقبرة. تتبعتهم. وحسب رواية الأب غانت كانت الخطة أن يتم نقله إلى أعلى البرج

الدائـري هنـاك في المقـبرة ويقذفـوه مـن أعـلى النافـذة، أو مـا شـابه مـن تلـك التدابـير.

كان فمـه محشـوا بالريـش الأبيـض، بـلا شـك مثلـما كان يحصـل في وظيفتـه السـابقة، عـلى الرغـم مـن أن اللـه وحـده يعلـم أننـي لا أسـتطيع أن أجـد أيـن مكمـن خوفـه، ولـو أنـه ربمـا قـد غـرر بـه في عـدة نـواح. ثـم للأسـف تعـرض للـضرب بالمطـارق، وبذلـوا جهـدا لدفعـه خـارج النافـذة الصغـيرة مـن أعـلى الـبرج. كانـت روزان نفسـها تنظـر إليـه مـن الأسـفل. أصـوات وجلبـة مفزعـة بـلا شـك مـن الرعـب تـأتي مـن الغرفـة الصغـيرة في الأعـلى. وقـد زجـوا نصفـه في النافـذة، إلا أن بطنـه كان قـد تكـور بشـكلٍ كبـير جـدا بعـد سـنوات مـن شرب الجعـة، ولم يتسـن لهـم ليخرجـوه إلى الهـواء الليـلي. لم تقتلـه المطـارق في الحقيقـة، وبينـما كان يهـدر، تدفـق الريـش مـن فمـه. في هيـاجٍ يائـس، قامـوا بسـحبه للداخـل مـرة أخـرى، وقـام أحـد الرجـال بقـذف المطـارق المدميـة مـن النافـذة. وطـار الريـش إلى الأعـلى وهـوت المطـارق إلى الأسـفل، وهـوت عـلى رأس روزان التـي تقـف هنـاك وتحـدق فيـما يحـدث، فأردتهـا أرضـا.

كان حلهـم الدراماتيـكي الوضيـع لمسـألة إعدامـه هـو أن يشـنق في منـزل مهجـور في الجـوار. لا أظـن في أجـواء ذلـك الزمـن أن فقـده سـيكون كبـيرا. لا شـك أنـه تـصرف ضـد مواطنيـه. لقـد كانـوا شـبانا يحاولـون الانتقـام مـن عمـلٍ غـير أخلاقـي، والشـباب يتحمسـون وأحيانـا يتصرفـون بحماقـة. لا، لم يفقـده أحـدٌ كثـيرا، رجـلٌ مثـل هـذا. باسـتثناء روزان.

كيـف أصيـغ كل هـذا لهـا؟ وهـذا مجـرد نهايـة للقسـم الأول، وهنـاك جـزء آخـر يصـف تاريخهـا فيـما بعـد. وفيـه اتهـام هزيـل بحـق ومخيـف ضدهـا. خطايـا الأب هـي أحدهـا، لكـن خطايـا الأم.. حسـنا.

عليّ أن أتذكر، وأقول لنفسي مرة أخرى، لماذا أنا ملزمٌ في هذا التقييم. كن محترفا. حافظ على الموضوعية. فقد تربيت في إنجلترا، ولو أني كنت حينها كطفلٍ أيرلندي إلى حدٍّ ما، فإن لدي تحفظا على ما أعتقد من الفصول الغريبة من قصة هذا البلد العجيبة.

أليس كل تاريخنا متشابكا وغريبا عنا، أعني بعيدا عن خيالنا؟ وفاة والدتي بحد ذاتها كانت قاسية، بكل المقاييس، والشيء المفيد الوحيد الذي يمكنني أن أتذكره هو أنه قد أصبح «مصدر إلهام» لي أن أقرأ في الطب النفسي في درام، تقريبا كتصرف احترازي وغير مضمون نحو ما سيحدث من الأمور.

عاشت في الجنة عبر النهر من بادستو، في منزل تحسد عليه ويحظى بإعجاب زوار الصيف، تجلس بين أشجارها على الساحل نفسه. بالطبع، ليست والدتي «الحقيقية»، ولا والدي «الحقيقي» أيضا.

كل عام حين تقاعدا يذهب كلاهما إلى منطقة ليك ديستركت. تسلق أبي الجبل في صباح أحد الأيام من دونها. عندما وصل إلى القمة، حدق في الوادي بالأسفل، وكانت هناك بحيرة، ورأى شكلا ضئيلا يتقدم في المياه. كان بعيدا جدا لا يمكن سماعه. عرف فورا من يكون ذلك الشكل.

بعد حوالي ثلاث سنوات من تبنيهما إياي، حين يأسا من إنجاب طفل، وكان لديهما طفل ينتمي لهما، أخي جون. لقد كان مخلصا لي. عندما كنا أطفالا نصطاد السمك في مجرى النهر المحلي، كان يقف لساعات في شورته القصيرة في النهر، ينحني فوق عبوة المربّى ليصطاد البلم الصغير طُعما لخطافاتي.

عندما كان عمري أربعة عشر عاما، كنا نركب الدراجة الهوائية في الصباح حول مصب النهر لكي نصل إلى حافلاتنا، أنا أذهب

إلى مدرسة القواعد الكاثوليكية وهو إلى المدرسة الإعدادية التي التحقت بها ذات مرة. كانت محطات الحافلات قريبة من بعضها، ولكن على الجانب المعاكس للطريق، لأن مدرسته كانت في الجانب الآخر. كان مجرد طريق ريفي صغير خارج القرية، وكانت الحافلات هي تلك المركبات البراقة المكتنزة آنذاك.

في صباح أحد الأيام -كيف أن كل شيء يصبح قصة صغيرة- ذات مرة، ممكن أن أحكيها كذلك، بعد أن صعدت دراجاتنا خلف السياج من الشجيرات كما كنا نفعل على الدوام، رأيت الحافلة التي تخصني تأتي على طول الطريق، وحافلته تتجه في الاتجاه الآخر على نفس المسافة تقريبا. كان جون في العاشرة من عمره، قبلني وعانقني وبدأ يعبر إلى الجانب الآخر من الطريق. وجدت نفسي مازلت ممسكا بمعطفه، وناديته: «أيها الشاب الصغير!» توقف جون واستدار. قلت له: «معطفك!» وقمت برميه عليه، ووجدت جون يبتسم وعاد بضع خطوات نحوي. أثناء هذا الوقت كانت الحافلتان تقبلان علينا، ومهما كانت العمليات الحسابية التي أجراها السائقان حتى يعبر الفتى الصغير الطريق، فإن صرخاتي لجون قد تسببت في ضرر كبير، مرت حافلتي فوقه، وأنا ما زلت أحمل معطفه بيدي.

كان هذا سبب حزن أمي. حزن عظيم. ما وراء الخيال. حزنٌ دمر قلبها من الأعماق. ومع ذلك، هناك شعورٌ ما يراوغني. إنه التفهم للحقيقة.

كانت حياتها خصبة بشكلٍ آخر. عاشت في الجنة. بالفعل تركت والدي المسكين في الجنة. ألم أكن غاضبا منها أنا أيضا؟ ألم يكن هذا كافيا لي بأي حال من الأحوال؟ أو لأبي؟ والذي لم تتحمله؟ هذا ليس من العدالة، وأنا أعلم. ولكن، هناك شيء مثل الصمود،

وهذه خاصية مميزة. أعتقد أن ما أحاول أن أكتبه، وأنا لست بأي حالٍ من الأحوال أكن الاحترام لأمي، هو أن روزان قد تحملت، على الرغم من أن حياتها كلها لا تساوي شيئا.

أنا أشعر بالاشمئزاز قليلا من نفسي لكتابة هذا. ولماذا أنا أبكي؟

أنا مذهولٌ من قراءة ما كتبت للتو. لقد صنعت حكاية من الموت المأساوي لأخي، والتي، كما تبين لي من الصياغة الفاترة للجمل أنني ألوم فيها نفسي. وحتى عندما كنت في درام، وقد اعتدنا نحن الطلاب على إجراء التحليل النفسي لبعضنا، لم أتطرق لهذا الشيء مطلقا. ولم أفكر في هذا الأمر بتاتا، ولم أتخل عنه أبدا في السنوات الخمسين الأخيرة. إنها فضيحة تحوم بأرجاء روحي. أرى ذلك بمنتهى الوضوح. ولكن كيف لي أن أبدأ النظر إليه الآن، كيف يمكن أن أداوي نفسي؟ إنه فوق مقدوري. الشخص الوحيد الذي ربما تحدثت عنه حول هذا الأمر، هو أموردات سينغ، الذي كان في قبره منذ أمدٍ طويل. ووالدي، أيضا. ما الذي يكون قد عانى منه، في عزلته الإنجليزية المحببة.

لكن إلى جانب هذا، من الواضح أنني أتقبل أن أكون خارج نطاق العون. إنه أمر مثير للاشمئزاز. أنا الآن لا أبكي فقط، بل أرتجف أيضا.

بالطبع، تمتد حياة روزان لتغطي كل شيء، بقدر ما نستطيع معرفته عن عالمنا، عاشت هي على امتداد مئة عام منه. يجب أن تكون معلما يزورها الناس ورمزا قوميا. لكنها تعيش في مكان ما، حيث لا تكون أي شيء. ليس لديها عائلة ولا أي قومية تنتمي لها. امرأة المشيخية. أحيانا ينسون الجهد الذي بذلته في العشرينيات لإدراج شتى أطياف الرأي في مجلس الشيوخ الأيرلندي الأول، لكنه

كان مجهودا سرعان ما افتقد جوهره. كان رئيسنا الأول بروتستانتيا حينئذٍ، كانت لفتة جميلة وعاطفية. الحقيقة هي أننا نفتقد الكثير من الخيوط في قصتنا لدرجة أن نسيج الحياة الأيرلندية لا بد له إلا وأن ينهار. لا يوجد شيء تجعلها متماسكة. فمن أول هبوب الريح، ستعصف بنا الحرب الجبارة التالية، وسوف تقذف بنا إلى جزر الأزور. ستكون روزان مجرد قصاصة ورقة تذرو بها الرياح على حافة أرض الخراب.

انتبهت أنني أصبحت مشغولا بها كثيرا. ربما أنا مهووس بأمرها. ليس فقط أنه لا يمكنني الحصول على قصتها منها شخصيا، بل لدي نسخة من قصة حياتها والتي أعتقد أنها سترفضها. لديّ عشرات الأنفس الأخرى التي علي أن أعتني بها، لأستمع إليها، لأرى ما إذا كان بالإمكان إعادتها إلى «المجتمع». أقسم بالله، إن هذا المكان يجب تفكيكه وبعثرته، لدي الكثير لأفعله، الكثير لأفعله.

لكنني أشعر كل يوم بأنني مجبر على الذهاب إلى غرفتها، وغالبا ما أستعجل، كما لو كانت هناك حالة طارئة، كما هو الحال في نهاية الفيلم القديم، اللقاء الموجز. كما لو إن تأخرت فلن أجدها هناك. كما أنها بالأحرى ممكن أن لا تكون.

من دون بِت، من المستحيل بالنسبة لي أن أعيش. علي الآن أن أتعلم القيام بذلك.

ربما أنني أستخدم روزان كوسيلة لتحقيق هذا الشيء، أعتني بشخص أنا معجب به، ولكن في الوقت نفسه لدي النفوذ عليه؟ لا بد لي أن أستقصي عن دوافعي الآن في كل شيء، لأنني أخشى أنه لم تكن هناك الكثير من العدالة في سير الإجراءات بالماضي، دع عنك جانبا جدية الادعاء، أو ربما الشائعات ضدها، والتي هي كلمة أفضل. على الرغم من أنها مدفونة هنا إلى حد ما، فهي ليست

الرئيس صدام في جحره المخفي الرهيب، ليس عليهم سحبها من الجحر وفحص أسنانها كحصان (على الرغم، وهذا تنبيه لنفسي، من أن أسنانها تحتاج عناية، لاحظت وجود الكثير من السواد في فمها). فحصت أسنانها، جسدها قد تنظف من القمل، وأهينت، وحكم عليها الموت.

الفصل السادس عشر

شهادة روزان عن نفسها

عـاد الدكتـور غريـن بعـد فـترة وجيـزة. عندمـا دخـل إلى غرفتـي داس عـلى لـوح الأرضيـة الرخـوة حيـث أخفيـت هـذه الصفحـات، والتـي أحدثـت صريـرا قاسـيا، تمامـا مثـل ذلـك الفـأر الـذي ينـزل شريـط المصيـدة فوقـه، فأصابنـي بالخـوف. ولكـن لا، لم يكـن الدكتـور غريـن يعـير اهتمامـه لـشيء، حتـى بالنسـبة لي. جلـس عـلى كرسـيي القديـم ولم يقـل شـيئا. أضـاء النـور الباهـت الآتي مـن النافـذة وجهـه إلى حـدٍّ مـا. مـن مـكاني المميـز في السريـر، بـدا وجهـه كصـورة جانبيـة. حقيقـة، تـصرف كـما لـو كان وحـده، بـين الحين والآخـر يطلـق تنهيدات قويـة لم يكـن منتبهـا لهـا. كانـت تنهيـدات مـن دون وعـي. لم أبـالِ بهـا. كان مـن الجيـد أن يكـون في الغرفـة مـن دون إلقـاء الأسـئلة. عـلى أي حـال، كانـت لـدي أفـكاري الشـخصية لأسـلي بهـا نفـسي. إنهـا أفكارنـا الصامتـة والمنغلقـة وغـير المقـروءة.

فلماذا أكتب هذا؟

في نهايـة المطـاف، حالمـا ظننـت أنـه ذاهـب، أصبـح مثـل هـؤلاء المحققـين في الأفـلام القديمـة، اسـتدار عنـد البـاب ونظـر إليّ وابتسـم.

قال: «هل تتذكرين الأب غارفي؟».

«الأب غارفي؟».

«نعم، لقد كان القسيس المقيم هنا. منذ حوالي عشرين عاما».

«هل كان ذلك الرجل الضئيل الذي لديه شعر في أنفه؟».

«ليس تماما، أنا لا أتذكر الشعر. كنت جالسا هناك، وتذكرت للتو، كنت لا تودين أن يأتي لرؤيتك. لا أعرف لماذا تذكرت ذلك فجأة. هل هناك ثمة سبب لذلك؟».

قلت: «أوه، لا. أنا فقط لا أحب المتدينين».

«المتدين؟ تقصدين، الناس المؤمنين؟».

«لا، لا، الكهنة والراهبات، وما شابه».

«وهل هناك سبب لذلك؟».

«إنهم يجزمون بشدة معرفة الأشياء، وأنا لست كذلك. ليس لأنني مشيخية. أنا لا أحب القديسين. كان طيبا للغاية، الأب غارفي. قال إنه تفهَّم الأمر تماما». فقلت بالفعل تفهَّم.

بقي واقفا في الباب. هل كان يريد قول شيء آخر؟ أعتقد ذلك. لكنه لم يفعل، أومأ برأسه عدة مرات. قال: «أنت لا تمانعين رؤية الأطباء، أتمنى هذا؟».

قلت: «لا. أنا لا أمانع رؤية الأطباء على الإطلاق». ضحك وخرج.

لم يكن فريد أستير رجلا وسيما. قال بنفسه إنه لا يستطيع الغناء وكان يفقد شعر رأسه طيلة حياته. لقد قام بالرقص مثل قردٍ يركض بالقطرة. أقصد، منذ الأسبوع الأول. في يومٍ من تلك الأيام، خلق الله فريد أستير. يوم السبت ربما، بما أنه كان يوم حضور السينما عندما ترى فريد تشعر بتحسن في كل شيء. لقد كان كالبلسم. يتم عرضه في الأفلام ومن ثم يُشاهد في جميع أنحاء الأرض، من كاسل بار إلى القاهرة، لقد كبح جماح البعض وعالج المكفوفين. هذه هي الحقيقة. القديس فريد. فريد المخلص.

كان بإمكاني أن أصلي له في ذلك الوقت.

في الجزء السفلي من الجبل، التقطت حجرا ناعما جميلا من الطريق الممطر. إنها عادة قديمة أن تحمل حجرا حتى تضعه على أعلى كومة الحجارة. أوه، لكن نعم، كنت في تلك الحالة ليس من الصعود الذي لم يكن ذا أهمية بالنسبة لي في ذلك الوقت. لا، بل لأن رأسي كان «في دوامة» كما كان يقال في الأفلام الغرامية. ولا أستطيع أن أقول لماذا على نحوٍ دقيق، إلا أنني كنت أعرف أن هناك شيئا خاطئا في ما كنت أفعله. كان اليوم ينعم بالسلام تماما، وهادئا تماما، وانشقت السماء عن ندوب زرقاء على امتداد السحب، لكن مزاجي كان ينتمي إلى نوع آخر من الأيام. عندما هبت العواصف على نوكناريا وغرقت بطوفانٍ من الجيوش اللامرئية والتنانين المتهورة إلى ستراندهيل، حيث كانت هناك بين منازل القرية والبحر. كنت بلا سلاح وقفت هناك وانحنيت لألتقط حجرا، حتى في حالة عدم ارتياحي وحرصي على أن أختار حجرا مناسبا، كنت عزلاء وخالية الفؤاد.

إن كان لوالدي مصيره، فقد كان لي أنا أيضا مصيري.

عزيزي القارئ، أنا أطلب حمايتك، لأنني خائفة الآن. جسدي العجوز حقا يرتجف. كل هذا كان منذ فترة طويلة، وما زلت خائفة. كل هذا كان منذ فترة طويلة، ومع ذلك ما زلت أنحني، وأشعر بالحجر في أصابعي كما كان في ذلك الوقت. كيف لهذا أن يكون؟ كم أتمنى أن أشعر الآن بنفس الحيوية، أتسلق الجبل بخطوات جريئة. أتسلق وأتسلق، بتهور، وتهور. ربما أشعر بطيف ذلك. أطرافي مع تلك الحرارة فيها، بشرتي مصقولة مثل المعدن، الشباب مهمل وغير ذي قيمة في داخلي. لماذا كنت أعرف القليل جدا؟ لماذا أعرف القليل جدا الآن؟ روزان، روزان، إذا ما ناديتك الآن، أكلم نفسي بنفسي، هل ستستمعين إلي؟ وإذا كنت تسمعينني،

فهل تعيرينني اهتماما؟

حوالي نصف الطريق إلى أعلى الجبل كان هناك حشد صغير من الناس ينزلون، أستطيع أن أسمعهم يضحكون، بين الحين والآخر تهوي صخرة صغيرة بسرعة على الطريق. ثم أصبحوا في مكانٍ أعلى مني، كل معاطف الجبردين، وقبعات ترلباي، أوشحة، والمزيد من الضحك. كانت واحدة من المجموعات الأفضل في سليغو، كما أنني كنت أعرف امرأة من بينهم، لأنها كانت غالبا ما تأتي إلى مقهى القاهرة. حتى إنني تذكرت طلبها المعتاد وعلى ما يبدو هي أيضا تذكرت ذلك.

قالت: «مرحبا، مرحبا! الكاكاو وكعكة الكرز، من فضلك! » ضحكت. بالتأكيد لم تقصد أي إهانة بهذا. نظر إليّ رفاقها بشيءٍ من الاهتمام، مستعدون لأن يكونوا ودودين إذا شاءت المرأة ذلك. لم تُعرفني عليهم تماما. لكنها قالت بصوت منخفض: «سمعت أنك تزوجت من رجلنا الرائع في البلازا. تهانينا».

كان هذا لطفا منها، لأن الزواج لم يكن حديث الناس في الواقع، أو إذا كان كذلك، فإنه ليس هو الحديث المرغوب في المدينة. لنقل إن الزواج في الواقع تسبب في فضيحة إلى حدٍّ ما، كما يحدث مع معظم الأشياء الغريبة في سليغو. كانت بلدة صغيرة جدا تحت المطر.

«حسنا، أنا مسرورة لرؤيتك. أتمنى لكِ تسلقا موفقا. وداعا».

ومع هذه اللغة الإنجليزية الطفيفة، ذهبت، المسار الهابط يسحبها بعيدا، تغرق القبعات والأوشحة بسرعة أسفل الجبل. والضحك. كنت أسمع المرأة تتحدث بصوتها اللطيف، ربما تخبرهم عن شيءٍ ما، ربما كانت تعلق على حقيقة أن توم لم يكن معي، لا أدري. لكن هذا لم يساعدني كثيرا في مهمتي.

ما مهمتي؟ لم أكن أعرف. لماذا كنت أتسلق نوكناريا أراهن على رجل غير نظامي في الحرب الأهلية الأخيرة وربما غير نظامي كما في حياته أيضا؟ سجين كان يحفر مجاري سليغو. وهو على حد علمي لم يكن متزوجا ويتمشى وحيدا. كنت أعرف ما ذلك الجبل وكيف كان شكله، ولكنني لم أكن أعرف ما الذي دفعني إلى أعلى ذلك الجبل. ربما كان نوعا من الفضول اللامتناهي الذي ينبع من حبي لأبي. بحاجة إلى أن أقترب مرة أخرى من ذاكرته، أو أي ذكرى له تجعله أكثر حضورا، ولو كانت هذه أحداث تلك الليلة البائسة في المقبرة، كلتا الليلتين البائستين.

لم يكن هناك أحد في قمة الجبل للوهلة الأولى، ربما باستثناء عظام الملكة ميف[13] تحت ثقل مليون حجر صغير. من بعيد جدا في الحقول المنخفضة، بجانب بحر ستراندهيل، بدا المجسم المبني لها من الحجر مميزا ولكنه صغير. لم أدرك ما هذا الشيء الهائل، حتى وصولي نحوه على ساقيّ المتعبتين، وهو جهد مئة من الرجال، يلتقطون من الجبل منذ فترة طويلة حصادا غريبا من الأحجار بحجم قبضة اليد، ربما بداية مع جسد الملكة تحت بضعة ألواح وضعت بعناية وتأنٍّ، مثل طبقة واحدة من العشب تمت إضافتها فوق كومة الأعشاب، مثل الأحداث المنفردة التي أضيفت إلى قصة ملحمية، مما يجعل التلة الكبيرة مكانا تنام تحتها. أقول تنام، لكني أعني تتحلل، تتلاشى، تختفي في التلة، تزحف إلى الأسفل في الرطوبة تحت الأرض، تغذي الماسات القليلة ووميض الخلنج والطحلب. للحظة ظننت أنني أستطيع سماع موسيقى، موجة من موسيقى الجاز الأمريكية القديمة، لكنها

(13) الملكة ميف: ممثلة اسمها الحقيقي مارغريت شو، وهي إحدى الشخصيات الرئيسة في مسلسل أمازون «الأولاد». وهي بطلة خارقة وثاني أقوى شخصية في «مجموعة السبعة». (المراجع)

كانت مجرد ريح مبهمة تتأرجح فوق القمة. وخلال الموسيقى سمعت اسمي: «روزان»، نظرت حولي ولم أر أحدا. «روزان، روزان!» الآن أصبح خوف الطفولة القديمة يتملكني، كما لو أنني أسمع صوتا من العالم الآخر، مثل صوت روح المرأة التي ينذر صياحها بالموت في المسكن، كأنها نفسها قد تكون جالسة فوق المجسم من الحجر مع خصلات شعرها المغبر وخدودها المجوفة، تريد أن تضيفني إلى العالم السفلي. لا، لكنه لم يكن صوت امرأة، بل صوت رجل، والآن بينما كنت أنظر حولي ارتفع جسمٌ من سياج الحجارة، في ملابس سوداء، بشعر أسود ووجه مبيض.

قال جون لافيل: «ها أنت ذا».

لقد رأيت الوقت من الساعة في متجر «جميع الأشياء» في قرية ستراندهيل، لكنني كنت أعتقد أنه من غير المرجح أن أنجح في اللقاء به هنا ولدي أقل المعلومات. الأحد الساعة الثالثة. إذا كانت هناك ضرورة ماسة، إذا كانت وحدات للجيش قد اجتمعت لإرباك العدو من خلال التخفي، فربما لم تكن قد نجحت بهذه السهولة. لكن القدر يبدو أنه استراتيجي مثالي وسينجز معجزات في توقيت المساعدة لتدميرنا.

مشيت إليه حيث وقف. أعتقد أنه كان لدي تعاطف كبير معه، نعم هو كذلك، لأنه فقد شقيقه بتلك الطريقة الرهيبة. كان مثل جزء من تاريخ طفولتي التي لم أستطع فصل نفسي عنها. كان لديه أهمية لم أستطع فهم طبيعتها حقا. كان ذلك نوعا من الاحترام الشديد، ربما بالنسبة له لم يكن سوى حفار مَجارٍ، ولكن مع ذلك بالنسبة لي كان لديه دور بطولي، أمير في ثوب متسول.

كان واقفا في ما بدا وكأنه فراش صغير مكشوف من الحجارة. ربما ذات مرة كان قد تم تسقيفه مع بلاطة سقطت منذ زمنٍ طويل أو تم سحبها جانبا.

قـال: «كنـت مسـتلقيا هنـاك. إنـه مـكانٌ لطيـف يجلـب أشـعة الشـمس. تحسـسي قميـصي».

ورفـع الجهـة الأماميـة السـوداء مـن قميصـه. عندمـا وضعـت يـدا عليها لفـترة وجيـزة، كانـت دافئـة جـدا.

قـال: «هـذا مـا سـيفعله ضـوء الشـمس في أيرلنـدا، لـو منحـت الفرصـة».

ثـم بـدا أنـه لم يكـن لدينـا مـا نقولـه لبضـع لحظـات. كان قلبـي يـدق بقـوة تحـت أضلاعـي، وكنـت أخشى أن يسـمعه. أوه، لم يكـن الحـب لـه. كان حـب والـدي المسـكين. أن أوجـد بالقـرب مـن رجـل قريـب مـن والـدي. الغباء الفظيـع والخطـير الـذي لا يمكـن تفسـيره. فهمـت فجـأة وخطـر لي أن تـوم تـزوج مـن امـرأة مجنونـة. إنهـا فكـرة كانـت تطاردني عـدة مـرات منـذ ذلـك الحـين. لكننـي شـبه فخـورة بالقـول إننـي كنـت أول مـن فكـر في ذلـك.

لم أسـتطع مقاومـة إغـواء النهـر. البحـر المفتوح لا يمكـن أن يحجزني. تضـع أسـماك السـلمون بيضهـا عـلى الحـصى في آخـر الامتـدادات الضيقـة لمأواهـا في النهـر، حيـث يتدفـق المـاء في البدايـة مـن الأرض. عـالم غامـض، غمـوض فـوق غمـوض، ملـكات تسـكن الحجـارة، أنهـار تجتمـع تحـت الأرض.

قـال بعـد لحظـة: «هـل تعرفـين الأمـر يـا روزان؟ أنـتِ نسـخة مـن زوجتـي بالضبـط».

قلت بغضب فجأة: «زوجتك، جون لافيل؟».

«زوجتـي، نعـم. أنـت تشـبهينها، أو ربمـا يكـون وجهـك قـد حـل محـل وجههـا في ذاكـرتي».

«وأين زوجتك إذن؟».

«إنهـا في الجزيـرة الشـمالية في إنشـكياس. في العـام 21 أحـرق عـدد قليـل مـن فتيـان الجزيـرة ثكنـات الشرطـة. لا أدري لمـاذا، لأنـه لم يكـن

هناك شرطة فيها. لذلك خرجت مجموعة بلاك أند تانس في قارب لمعاينة النظر في كيفية الانتقام. كان توأماي مولودَين حديثا في ذلك الوقت. وكانت زوجتي كيتي واقفة عند باب منزلنا، تحمل الصبيين، كل واحدٍ منهما في ذراع، لتهويتهما كما نقول بالأيرلندية. كان التانس بعيدين تماما من أخذ القرار لكي يصوبوا عليها النار بصورة عشوائية. أصيبت برصاصة في رأسها، وقتلت رصاصة أخرى مايكل أبهيلي، وسقط شينن من ذراع والدته، وارتطم رأسه بحجر العتبة».

كان جون يتحدث بهدوء شديد وكأنه خائفٌ في هذه اللحظة. أمسكت بكمه.

قلت: «أنا آسفة».

«حسنا، لا يزال لدي شينن، وهو في الخامسة عشرة من عمره الآن. إنه ليس على مايرام عقليا، كما تعلمين، بعد سقوطه. غريب الأطوار قليلا. إنه شاب يحب أن يبقى على هامش الأشياء ويتأمل في داخله. أهل والدته يقومون بتربيته، ولذا فهو يحمل اسم والدته، كما تعلمين اسم جزيرة كين القديمة الجميلة. لكنه يحب التحدث معي. أخبرته عنك آخر مرة كنت فيها بالديار، وسألني مئة سؤال. وقلت له إذا حدث لي أي شيء، فعليه أن يبحث عنك، وقال إنه سيفعل ذلك، على الرغم من أنني لا أعتقد أنه فهم نصف ما كنت أقوله، ولا يعرف حتى أين تكون سليغو».

فقلت له: «لماذا تقول له أن يفعل ذلك يا جون لافيل؟».

«لا أدري، لا أعرف. هكذا..».

«فقط هكذا، ماذا؟».

«لا أعرف ما الذي سيحدث لي الآن. أعتقد أنني يجب أن أذهب للحرب مرة أخرى. لم أعتد كثيرا حفر الطرق. هذا أول سبب،

ويخيفني حتى الموت. قد يكون السبب الآخر هو أنني لم أر قط شخصا رائعا مثلك إلا كيتي».

«أنت غريب إلى حدٍّ ما. لا يوجد شيء طبيعي في هذا».

قال: «هو كذلك. غريب. إنها دولة متكونة بالكامل من الغرباء. أنت على حق. ولكن مع ذلك، ماذا يقول الناس عندما يشعرون كما أشعر؟ أنا أحبك، كما يقولون، على ما أظن».

وقفنا هناك فترة طويلة، والآن سمعت أصواتا أخرى، أصواتا جديدة قادمة من الأسفل. تداركت نفسي وفطنتي، وكنت على وشك الاندفاع نحو الطريق. لم يكن هناك طريق إلى أسفل الجبل إلا من خلال هذا المسار، على الرغم من أن فكرتي الأولى كانت الخوض عبر منطقة الخلنج والحصى نحو الشرق، ولكن في نفس الوقت كنت أعلم أن هناك جرفا كبيرا أسفل نوكناريا، وقد يستغرق هذا ساعات للالتفاف حوله ومنه إلى طريق. سيستغرق الكثير من الساعات وقد يتساءل فيها توم أخيرا عما هو خطبي، وربما جمع من في المدينة ليجدوني. كانت هذه أفكاري وهي كالريح، التي أصبحت أقوى الآن مع حلول وقت تناول الشاي، وألقت شعري إلى الأمام عبر وجهي، وظهرت المجموعة الصغيرة أدناه.

كانت مجموعة من الرجال يرتدون معاطف سوداء وثياب الكهنة. حفلة صغيرة للكهنة في نزهة يوم الأحد. ألم يكن هناك لمسة من الكفر في ذلك؟ هل تقواهم وصلواتهم وقواعدهم قد أبقتهم قريبين في البلدة. ولكن مع ذلك ها هم، بضحكاتهم المختلفة، وأصواتهم المتذمرة. نظرت إلى الوراء بإحكام لأرى أين قد يكون جون لافيل. أوه، كان يقف ورائي مباشرة، مثل أحد مكونات الريح نفسها.

فقلت: «ارجع وتوارَ! ألا يمكنك إخفاء نفسك؟ ليس من اللائق أن يراني أحد هنا وأنا معك!».

قال: «لم لا؟».

«لم لا؟ هل أنت مجنون؟ هل أنت مجنون مثلي؟ اذهب واختبئ في تلك الصخور».

لكن فات الأوان. بالطبع فات الأوان.

كانت زمرة من الرجال المتدينين فوقنا، الكثير من الابتسامات والترحاب، ورفع القبعات. باستثناء وجه واحد، تلطخ باللون الأحمر من الجهد والرياح، والذي نظر إلي بنظرة جوفاء، تجرح القلب. كان هو الأب غانت.

عندما عدت إلى منزلنا الصغير في ستراندهيل، لم يكن توم هناك لأنه ذهب إلى سليغو ليرحب بـ«الجنرال» في المحطة، استعدادا للمهرجان على طول شارع واين، وتسليط الضوء مثلما قال توم على الحماس الشديد لحركة الجنرال أودوفي في البلدة. لقد توسل إليّ أن أرتدي بلوزة زرقاء كان قد أغوى توم العجوز بخياطته لي، لكن الحقيقة كانت أن ذلك الجانب من توم قد أخافني. أظن في مقهى القاهرة الأصلي، في القاهرة نفسها -ولا أعتقد أن السيدة برونتي اللطيفة كانت هناك على الإطلاق- كان هناك الكثير من تدخين الأرجيلة، ناهيك عن الفتيات الراقصات الشهيرات اللواتي يرقصن رقصهن الشرقي. لم يسبق لي أن رأيت رجلا تحت تأثير الأفيون، لكنني تساءلت إذا كان شيئا يشبه التوهج الشرقي في وجه توم عندما تكلم عن الجنرال، والمنظمات (مهما كان ذلك، لست حقا متأكدة من أنه يعرف هذا بنفسه)، والنيل من «الخائن دي فاليرا»، و«البداية الحقيقية لمجد أيرلندا»، وكل ما تبقى من رنين الأغنية في تلك الأوقات. عندما كانوا يسيرون في سليغو، كانوا يخرجون جميعا إلى ستراندهيل للتجمع في بلازا. لم يكن أدنى ما تبقى لي من فزع بعد لقائي بجون لافيل، سوى الحقيقة الواضحة

أن رجلا مثله كان في الواقع «عدو» حركة الجنرال. لا أدري لماذا أزعجني هذا كثيرا، لكنه فعل. وقفت في غرفة جلوسنا الصغيرة، مكشوفة مثل مبنى سكني لكنها نظيفة ولطيفة، وارتعشت في ثوبي الصيفي. ارتعشت، وارتعشت أكثر عندما سمعت صوت المحركات عن بعد، صوت أزيز بسيط صار ينمو وينمو، فركضت إلى النافذة ونظرت إلى الخارج ورأيت عددا مهولا من سيارات الفورد وما شابه تمر، توم في المقدمة يقود مركبته الخاصة، مع وجود مخلوق يبدو ذا أهمية بكل ما في الكلمة من معنى في المقعد بجانبه، يلبس إحدى القبعات القابلة للطي وأنفه معقوف ليس مختلفا عن أنف شقيق توم جاك. كان هناك العشرات والعشرات من السيارات تتدفق، يصدر من جميعها موسيقى رنانة، يتصاعد الغبار الأبيض على الطريق الساحلي الضيق من العجلات مثل الصحارى نفسها. وكل الوجوه، رجالا ونساء، متوهجة فوق البلوزات والقمصان الزرقاء، مع هذا التوهج الغريب، على بعد بضعة حقول شرقا حيث السعادة؛ منظر من التفاؤل المحال، مثل الإعلانات في مجلة أمريكية وصلتنا إلى العالم البعيد «سليغو»، أُرسِلت إلى الأقارب مغلفة بالدولارات اليانكية المرغوبة.

وكان لدي إحساس فضولي بالنظر إلى عالم شخص آخر، توم ينتمي لشخص آخر، سليغو شخص آخر. كأنني لن أكون هناك لفترة طويلة جدا، ولم أبقَ هناك لفترة كافية، أو حتى لم أكن هناك أبدا. كأنني شبحٌ لنفسي وليس للمرة الأولى بالتأكيد.

ذهبت إلى السرير واستلقيت على الملاءات الباردة وحاولت أن أكون هادئة. حاولت أن أكون على طبيعتي، لم أتمكن من تحديد ذلك الشخص حتى الآن. روزان ربما كانت تختفي عني. ربما كانت تفعل ذلك منذ فترة طويلة. في حرب الاستقلال، لم يكن الأمر يقتصر

على قتل الجنود ورجال الشرطة فقط، حتى أولئك الأغبياء الذين توجهوا إلى الحرب العظمى دون التفكير في ما كانوا يفعلون، ولكن بينهم أيضا العمال والمتشردون وما شابه ذلك. الأشخاص الذين كانوا يلوثون أطراف الأشياء، هؤلاء الناس الذين كانوا يقفون على أطراف صور لأماكن جميلة وفي أعين أناسٍ معينين بدوا يبعثون رائحتهم الكريهة. عندما كانت قنابل الألمان تتساقط فوق بلفاست في مطلع تلك الحرب، فر عشرات الآلاف من الناس إلى الريف، الآلاف منهم من أحياء بلفاست الفقيرة، ولم يرغب أحدٌ في استضافتهم في منازلهم، لأنهم كانوا سلالة مهملين متوحشين، فقراء لدرجة أنهم لم يروا مرحاضا أبدا، ولم يأكلوا أي شيء سوى الشاي والخبز. تبولوا على أراضي بيوتٍ محترمة. كانوا جميعهم أناسا تم إخفاؤهم حتى قام الألمان بقصفهم خارج المكان، وأحرقوهم. مثل جرذان والدي المسكينة. كنت مستلقية على سرير ملاءاته نظيفة، لكني شعرت وكأنني مثلهم. مثلهم، لم أكن مقرة بالجميل بما فيه الكفاية، وقمت بتلويث عشي بنفسي. كنت أعلم أنه في عيون أصدقاء توم هناك، المجتمعين في بلازا، لو كانوا يعرفون كل شيء عني، فإنهم يودون كبح جماحي، يبنون آراء عني، يضعونني خارج إطار صور الحياة، والمناظر المترامية المبهجة للحياة العادية. بالطبع لم أكن أعرف شيئا عن الألمان في ذلك الوقت، إلا أن الجنرال هو رجلٌ كأولئك الذين في إيطاليا وألمانيا وفنلندا في تلك الأوقات، رجال جبابرة مفعمون بالصخب أرادوا أن يثيروا بهم الحماس ويجعلوهم جميعا طاهرين وسليمي البنية وذوي سريرة نقية، بحيث يكون بإمكانهم الخروج في حشد كبير لوضع حدٍّ للخسيسين، والمهملين، وعديمي المبادئ. في مكان ما في قلبي، في جواز سفر قلبي، إذا فتحته، سترى وجهي الحقيقي وهو معفّر، محترق بالنار، مرتعب، ناكر للجميل، مريض، وأخرق.

استيقظت في الساعات المبكرة، دفعتني إلى اليقظة أصوات خافتة من توم في الغرفة. كان هناك قمر ضخم فوق نوكناريا، المجسم الحجري كان واضحا للعيان كما لو كان في ضوء الشمس بذاته. كنت ما زلت عالقة في حلم، ولمجرد لحظة ظننت أنني رأيت طيفا أعلى المجسم الحجري، في ملابس سوداء، مع طية كبيرة من الأجنحة اللامعة خلفه. ولكن بالتأكيد كان ذلك الشيء بعيدا للغاية.

قال توم: «هل أنت مستيقظة، يا عزيزتي؟». وعندما نظرت إليه، كان يحاول بصعوبة أن يحرر نفسه من حمالة البنطال.

قلت له وأنا أنتصب واقفة: «هناك دم على وجهك».

قال: «هناك دماء على كافة قميصي المبارك، على الرغم من أنك بالكاد تستطيعين أن تري، ما الذي يوجد مع اللون الأزرق».

قلت: «يا إلهي، ما الذي حدث يا توم؟».

«لا شيء يسترعي الاهتمام. لقد واجهنا بعض المقاومة من الحراس في سليغو. كنا نسير بسلوكٍ طيب، أثناء ذلك جاء من شارع كواي حشد صغير من الفتيان الشرسين، جماعة جيء بهم من كولوني على ما أعتقد، لأنهم لم يكونوا حراس سليغو الاعتياديين. وانهال علي أحدهم بضربة مع عصا، دعيني أقل لك، كانت مؤلمة إلى آخر حد.

وبدأ الجنرال يصرخ بهم، وكان الحراس يردون بالصراخ عليه، «ليس لديك تصريح للمسير في سليغو» والجنرال كان رئيس نفس الحراس قبل بضع سنوات فقط. حسنا. كان هناك الكثير من هذا الصراخ والهذيان بشكل عام. لذلك كنا سعداء للغاية بالخروج إلى القاعة، دعيني أخبرك. أولم نقضي وقتا رائعا حينها. حشدٌ مثل هذا لم تريه من قبل».

وبحلول هذا الوقت كان يرتدي بيجامته المخططة اللطيفة ثم ذهب إلى حوض المغسلة ورش الماء بقوة نحو وجهه، ومسحه بالمنشفة، ثم ألقى بنفسه في السرير بجانبي.

قال: «ماذا فعلت؟ كان عليك أن تأتي. كان ذلك رائعا».

قلت: «ذهبت للمشي».

قال: «أوه، أقمت بذلك؟ ولم لا؟».

ثم وضع ذراعه اليسرى تحت يدي وأخذني بالقرب منه، وبعد فترة، بين الدم وضوء القمر، خلدنا إلى النوم.

مفكرة الدكتور غرين

كان هناك ذعر غير محدود في المبنى أمس. عليّ أن أقول إن مستوى الاستجابة أوشك أن يشجعني، لأنه غالبا في الماضي كان هناك ما يعطي الانطباع بأن سحابة من التراخي راكدة فوق هذه الأسقف العتيقة. لكن الشابة التي تم العثور عليها مضطربة وملطخة بالدم قد اختفت بعد ذلك. كانت ممرضة الجناح مرعوبة، لأن أختها كانت بالتو قد دخلت، وأعطتها هدية عبارة عن فستان جديد جميل. لاحظت الممرضة أن الحزام كان مصنوعا من نفس القماش الخفيف للفستان، ولكن لم تملك الشجاعة لإزالته على الفور. لذلك كانت تجوب الأجنحة، تسأل الجميع إن كانوا قد رأوا المرأة المسكينة سيئة الحظ، وتجعل المرضى القدامى يتحركون لأول مرة منذ سنوات عديدة. في النهاية، تم اكتشاف أنها لم تشنق نفسها، ولكنها ذهبت إلى مكتب الإدارة في فستانها، ووقعت على إذن الخروج من المستشفى بنفسها، حيث لديها كل الحق للقيام بذلك حسب التشريع الجديد. نزلت إلى الطريق العام ولوحت لأحدٍ بأن يوصلها إلى البلدة، ومن هناك استقلت حافلة

إلى ليتريم، كل هذا وهي لا تزال في نفس الفستان. كان الأمر مثل معطف سحري، يحملها إلى ليتريم. هاتفنا زوجها الليلة الماضية ليخبرنا، وكان صوته غاضبا للغاية في الطرف الآخر من الهاتف. قال إن المشفى من المفترض أن يكون ملجأ. تحدثت معه رئيسة الممرضات، وكانت مستسلمة للغاية، ليس بأسلوب المربين القدامى الذين اعتدنا عليهم هنا. أنا لا أعرف ما القرار الذي سيترتب على هذا الأمر، لكنني ذهلت من أن لدي كل مواصفات المنقذ. أتمنى للمرأة البائسة العافية، وأنا نادم لأننا لم نخدمها إلا قليلا، بل على العكس تماما. وأنا سعيد للغاية لأن ذعر الممرضة كان لا أساس له.

ذهبت هذا الصباح إلى السيدة ماكنلتي، لا، لا، روزان. غرفتها تشرح القلب تماما. بالتأكيد، وضع المرأة الشابة لا يزال محفوفا بالمخاطر، لكنني عاقل بما يكفي الآن لأضع أهمية لمجرد العيش في الحياة.

كانت الغرفة تحوي على القليل من أشعة شمس الربيع الجانبية، والتي بدت وكأنها تسللت من خلال زجاج النوافذ برقة واستحياء. شعاع مربع صغير استقر على وجه روزان. نعم، إنها كبيرة في السن. ضوء الشمس كما هو دوما المقياس الأكثر قساوة لتحديد العمر، وكذلك أكثر الرسامين إخلاصا. فكرت في بيت من شعر ت. س. إليوت الذي تعلمناه في المدرسة في إنجلترا:

حياتي مثل ريشة على ظهر يدي،

في انتظار ريح الموت.

يتحدث بها سيمون، الرجل الذي تمنى أن يعيش طويلا بما يكفي لرؤية المسيح الجديد. لا أعتقد أن روزان تنتظر ذلك. لقد فكرت أيضا في تلك الرسومات الشخصية لرامبرانت فان راين، التي تظهر شدة اليقين بعدم الإيمان في الفكرة التي نتخذها عن

مظاهرنا كترياقٍ ضد تأنيب ضميرنا. كيف نقرر عدم السماح لحقيقة أن جلدنا ينزل من فكينا ويخرج تحت ذقوننا مثل الجص المنفصل عن الشرائح الخشبية التي تمسكه لسقف من طراز قديم.

جلدها رقيق للغاية بحيث يمكنك رؤية الأوردة وما إلى ذلك، مثل الطرق والأنهار والمدن والمعالم الأثرية على خريطة. شيء ممتد لأجل الكتابة عليه. ومع ذلك، لم يكن هناك راهب يخاطر بريشة قلم للكتابة على مثل هذه الورقة الرقيقة. ومرة أخرى فكرت، كم كانت تتمتع بالجمال في الماضي، إذ هي جميلة بشكلٍ استثنائي الآن في عمر مئة عام. العظام قوية، كما اعتاد والدي أن يقول، كما لو أنه وهو يتقدم بالعمر وأولئك الذين يعرفهم يتقدمون في السن من حوله، كان يعرف قيمتها.

إلا أن لديها طفحا جلديا على جانب واحد من وجهها، كثير الاحمرار وغاضب كما يقولون، واعتقدت أن لسانها كان يعيق كلامها إلى حدٍّ ما، كما لو كان متورما قليلا في قاعه. يجب أن أحضر الطبيب المتخصص وين لإلقاء نظرة عليها. قد تحتاج بالفعل إلى مضاد حيوي.

لا أعرف إن عرفت حالتي أم لا، كانت متجاوبة للغاية، حتى إنها أوحت إلي بذلك، كانت رائقة بطريقة غريبة. ربما كان من جراء السعادة. أعلم تماما أنه يسرها تحسن الطقس، في مطلع العام. وضعت الكثير من الثقة في زهور النرجس على طول الطريق، التي زرعها هناك شخص كبير السن ذو خبرة عندما كان هذا المكان منزلا عظيما وضَيْعَة، في تلك الأيام القديمة السالفة. مع شعور برقة مخيفة من جهتي، محاولا أن أكون مثل أشعة الشمس، أخيرا تطرقت إلى موضوع طفلها. أقول «أخيرا» كما لو أنني طرحت

ألف موضوع آخر بنجاح، أو كنت أمهد الطريق لموضوع الطفل. ولكنني لم أفعل. لكن الأمر برمته كان في ذهني دائما، لأنه بالطبع، إذا كان ما كتبه الأب غانت صحيحا، إذن كل المسألة عن حالتها الذهنية ووجودها الطويل هنا وفي سليغو هو بلا ريب وعلى الأرجح مثير للجدل باستمرار. بالحديث عن سليغو، لقد كتبت مرة أخرى لأتساءل عما إذا كان من الممكن أن أزور المكان في وقت ما قريبا، وأتكلم مع المسؤول، الذي اتضح أنه أحد معارفي القدامى، رجل يدعى بيرسيفال كوين، أعتقد أنه بيرسي الوحيد الذي سمعت عنه على الإطلاق في الوقت الحالي، ناهيك عن اللقاء به. يبدو أنه هو الذي بذل الجهد الإضافي لاستخراج شهادة الأب غانت، واحتمال أن تكون هناك ملفات أخرى حتى بيرسي يفضل عدم الإفشاء عنها، لكنني لا أعرف. نحن مثل (المخابرات) MI5 أحيانا في مهنتنا للطب النفسي. جميع المعلومات تصبح حساسة، مقلقة، وغير محمية، حتى في بعض الأحيان أعتقد أنها مجرد وقت يمضي من اليوم. ومع ذلك، سوف أتبع إحساسي.

الليلة هناك هدوء تام في المنزل. يكاد يكون غريبا مثل ما كان القرع. لكني ممتن. إنسان، وحيد، يشيخ، وممنون. هل سيكون من غير المناسب أن أكتب هنا، أن أكتب إليكِ مباشرة هنا، بِت، لأقول، ما زلت أحبك، وأنا ممتن؟

كانت روزان ضعيفة للغاية، ومثيرة للإعجاب، ومنفتحة جدا عند لقائي معها، كنت أعرف أنه كان بإمكاني أن أسألها عن أي شيء، أو متابعة أي موضوع، وربما حصلتُ على الحقيقة، أو ما تعتقد أنها الحقيقة.

حسنا، كنت على معرفة بذلك، إنها كفتي الراجحة، ولو كنت شديد الإلحاح، لاكتسبت الكثير ولكن، من المحتمل، أن أخسر

شيئا ما. كان اليوم هو اليوم الذي ربما قد تخبرني فيه بكل شيء، واليوم كان هو اليوم الذي لجأتُ إلى صمتها، وخصوصيتها. لأن هناك شيئا يداهمني أكبر من الحكم عليها. أعتقد أنه يسمى الرحمة.

شهادة روزان عن نفسها

دخل الدكتور غرين وهو متفائل للغاية، جر كرسيه وكأنه ينوي أن ينجز العمل بجد. لقد فوجئت لدرجة أنني بالفعل شاركت في قدرٍ معين من الحديث.

قال: «إنه يوم ربيعي جميل، وتشجعت على أن أطرح عليك مرة أخرى بعض هذه الأسئلة البالية التي أنا متأكد من رغبتك بأن أتوقف عن طرحها. لكنني أشعر أنه قد يكون هناك فائدة في القيام بذلك. بالأمس فقط سمعت شيئا جعلني أشعر أنه لا يوجد شيء مستحيل. إن الأشياء التي تبدو للوهلة الأولى مبهمة ومستعصية قد تكون في الواقع قادرة على السماح لمرور بعض الضوء، بعض الضوء غير المتوقع».

تحدث على هذا المنوال لفترة من الزمن وفي نهاية المطاف توصل إلى سؤاله. كان الأمر مرة أخرى يخص والدي وكنت مقتنعة بما فيه الكفاية، للمرة الثانية، لأخبره بأن والدي لم يكن في الشرطة على الإطلاق. مع ذلك أخبرته أن هناك علاقة بالشرطة في أوساط عائلة ماكنلتي.

«شقيق زوجي يدعى إينياس كان يعمل في الشرطة. لقد انضم إليهم حوالي عام 1919، وذلك لم يكن الوقت المناسب للبحث عن وظيفة هناك». قلت ذلك أو كلمات مشابهة لهذا المعنى.

قال الدكتور غرين: «إذن أنت تعتقدين أن الصلة بالشرطة كانت هكذا.. وتم الجدال فيها؟».

قلت: «لا أعرف. هل مازالت أزهار النرجس متفتحة في الشارع القديم؟».

قال: «لقد أوشكت على الظهور، وهي تنذر بالخروج. ربما هي خائفة من الصقيع الأخير».

قلت: «الصقيع لا يعني شيئا للنرجس. مثل أزهار الخلنج، يمكن أن تزدهر في الثلوج».

قال: «نعم أعتقد أنك على حق. الآن، يا روزان، الموضوع الثاني الذي فكرت أنني قد أثيره معك هو موضوع الطفل. أنا أقرأ في الشهادة القصيرة التي ذكرتها أنه كان هناك طفل. في مرحلة ما».

«نعم، نعم، كان هناك طفل».

ثم لم أقل شيئا لأنه ماذا بإمكاني أن أقول. للأسف إنني بدأت في البكاء بصمت قدر ما استطعت.

قال برقة شديدة: «لا أقصد أن أزعجك».

قلت: «لا أعتقد أنك تفعل ذلك. إنه فقط بنظرة إلى ما مضى، يبدو الأمر برمته».

قال: «فاجعة؟».

«هذه كلمة كبيرة. على أي حال، يبدو لي حزينا جدا».

وضع يده في جيب سترته وسحب منديلا ورقيا مطويا صغيرا.

قال: «لا تقلقي، لم أستخدمها».

أخذت ذلك الشيء الصغير عديم الفائدة بامتنان. لَمَ لم يكن قد استخدمه، هو مع مشكلاته الخاصة مؤخرا؟ حاولت أن أتخيله جالسا في مكان ما في منزله، وهو مكان غير معروف لي بالطبع. مع اختفاء زوجته منه. الموت بلا رحمة مثل أي عاشق آخر، يأخذها بعيدا.

ومسحت دموعي. شعرت مثل باربرا ستانويك في بكاء تافه، أو

على الأقل مثل باربرا ستانويك عندما كانت تبلغ من العمر مئة عام. كان وجه الدكتور غرين وهو يحدق بي في غاية البؤس لدرجة أنني ضحكت. ثم توقف عن ذلك وضحك أيضا. ثم كلانا صرنا نضحك، ولكن بهدوء وسكون، وكأننا كنا نرغب أن لا يسمعنا أحد.

عليّ أن أعترف أن هناك «ذكريات» في ذهني غريبة حتى بالنسبة لي. لا أود أن أقول هذا للدكتور غرين. الذكريات، لا بد لي أن أفترض، إذا تم إهمالها تصبح مثل غرفة التخزين، أو غرفة خشبية في منزل قديم، وقد اختلطت محتوياتها، ربما ليس فقط من جراء الإهمال ولكن أيضا من كثرة البحث العشوائي فيها، وأشياء إضافية ملقاة هناك لا تنتمي لها. أظن بالتأكيد، حسنا، لا أعرف ما أظن بالتأكيد. هذا الشيء يشعرني بالدوار قليلا عندما أفكر في إمكانية أن كل شيء أتذكره قد لا يكون، قد لايكون حقيقيا، على ما أعتقد. كان هناك الكثير من الاضطرابات في ذلك الوقت أنه.. إنه ماذا؟ لجأت إلى سجلات أخرى مستحيلة، في الأحلام، في الخيال؟ لا أدري.

ولكن إذا وضعت ثقتي في ذكريات معينة، فربما تكون بمثابة نقطة انطلاق، وسأعبر سيل «الأوقات الماضية»، دون أن أنغمس في ذلك بالكامل.

يقولون إن المسنين على الأقل لديهم ذكرياتهم. لست متأكدة تماما أن يكون هذا أمرا جيدا دائما. أحاول أن أكون مخلصة لما يوجد في ذهني. وأتمنى أن الذكريات أيضا تحاول أن تكون مخلصة لي.

لقد كان أبسط شيء في العالم. لم يعد توم إلى المنزل قط. انتظرت لمدة يوم كامل. لقد طبخت له لحما مفروما مع الخضراوات كما وعدته في الصباح، لأنه لم يكن يقاوم الأطعمة المهروسة وإعادة

تسخينها، على الرغم من أن شقيقه جاك كان رجل السلاح البحري. إنها الأكلة المفضلة لدى البحارة والجنود، كما قد يشهد والدي. لكن الطعام فقد حرارته تحت الغطاء مرة أخرى. أسدل الليل ستاره على نوكناريا، فوق خليج سليغو، فوق بن بولبن، حيث قتل ويلي شقيق جون لافيل. على المنحدرات العليا، في تفرد الهواء الرقيق والخلنج. أُصيب بطلقة في القلب، أو في الرأس، بعد أن استسلم. رأى جون لافيل ذلك من مخبئه. شقيقه. إخوة أيرلندا. جون وويلي، جاك وتوم وإينياس.

كنت على معرفة فورا بأن هناك خطأ فادحا، ولكن يمكنك معرفة ذلك دون أن تسمح للفكرة بأن تحضر في رأسك، في مقدمة رأسك. تتراقص في الخلف، حيث لا يمكن السيطرة عليها. لكن مقدمة الرأس هو المكان الذي يبدأ فيه الألم.

جلست هناك ولا بد لي من الاعتراف وأنا أشعر بحبٍّ شديد لزوجي. كانت كفاءته العجيبة، حتى خطواته المقصودة على طول طرق سليغو. صدرياته، وسترته الطويلة، أو معطفه ذو البطانات الأربع، حذاؤه ذو النعل المزدوج الذي برع في صنعه، والذي لن يحتاج للتعديل (بالطبع يحتاج). وجهه المبتهج وعلامات الصحة في خديه الأمردين، وسيجارته المتدلية من فمه، نفس نوع السيجارة التي يدخنها شقيقه، «آرمري كلوب ساندهيرست». وموهبته الموسيقية وثقته بنفسه، نمط نشاطه، وجهوزيته دائما. وأنه لم يكن مستعدا فقط، بل ومنتصرا، منتصرا في سليغو وجميع النقاط غربا وشرقا، «من البرتغال إلى البحر» كما في القول المأثور، على الرغم من أن هذا قول غير منطقي في الحقيقة. توم ماكنلتي، رجل له كل الحق في الحياة لأنه كرمها بالاستمتاع فيها.

يا إلهي، يا إلهي، جلست هناك. أنا ما زلت جالسة هناك.

أنا كبيرة في السن بما يكفي لأعرف أن مرور الوقت هو مجرد خدعة، وارتياح. كل شيء موجود دائما، لا يزال ينكشف، لا يزال يحدث. الماضي، الحاضر، والمستقبل، في القمة إلى الأبد، مثل الفرشاة والمشط والشرائط في حقيبة يد. لكنه لم يعد.

في ستراندهيل، في ليالي ستراندهيل لم يرقص الناس، عندما يأتي إلى مسمعك فقط صوت سيارة منفردة قادمة إلى القرية، كان ثمة بومة تنعق. أعتقد أنها عاشت في الأراضي غير المأهولة أسفل نوكناريا، حيث تنحدر الأرض وتصبح نوعا من الوادي نحو البحر.

عاشت البومة قريبة بما يكفي لكي تصل صيحة واحدة متكررة منها بوضوح خلال الحقول الوعرة والأراضي البور. تنادي وتنادي، كما لو أنها تقول ما لا أعرفه. هل المخلوقات التي تستيقظ وتصطاد في الليل، تنادي رفيقها المرجح في الليل؟ إنهم يقومون بذلك على الأرجح.

قلبي كان ينادي أيضا، يرسل إشارات إلى ذلك العالم البشري العسير. لكي يعود توم إلى المنزل، ليعود إلى المنزل.

الفصل السابع عشر

بعد مرور ليلتين أعتقد أنني كنت ما أزال جالسة هناك. رغم أن هذا غير محتمل. ألم آكل، ألم أخرج إلى دورة المياه في الجزء الخلفي من الكوخ، ألم أمدد ساقي؟ لا أتذكر. أو بالأحرى، أتذكر فقط الجلوس هناك، وبعد ذلك، عند انحدار الشفق على ستراندهيل، بعث السكينة في كل شيء، حتى ألوان العشب، ذلك النسيم الليلي يتسارع من الخليج، مما يجعل رائحة وردي تهفهف على زجاج النوافذ، أو على الأقل البراعم الجديدة منها، تنقر وتنقر، مثل جين كروبا نفسه بدأ بشيء ما من الإيقاع على الطبول. وبعد ذلك، كما لو كانت في اللحظة المحددة، سمعت أنغاما تأتي إلى الشارع حتى زاوية الطريق ومن خلال الباب أوتار أغنية «هني سكل روز»، كانت بضع نغمات في البداية، ثم سمعت هاري يقرع الطبول، وبعدها بدأ عزف الكلارينيت، الذي ظننت أنه توم، وشخص آخر على البيانو، بالطبع لم يكن أنا، ومن خلال وخزه الواهن للأوتار اعتقدت أنه ربما يكون توم العجوز بنفسه، وربما كان هذا ديكسي كيلتي على الغيتار الإيقاعي الذي كان يحبه مثل الطفل، أوه، وكانوا يفككونه، قصبة قصبة وزهرة زهرة، تماما مثل زهرة «هني سكل» نفسها، على الرغم من أن تلك الأزهار كانت تتفتح في وقتٍ لاحق من السنة في تلك الأنحاء.

بالطبع إذن عرفت أنه كان يوم السبت. كان هذا شيئا يدلني على ما يجب أن أفعله بالتالي.

على أية حال يا للعجب! هذه أغنية كانت رائعة للعزف المنفرد بالغيتار.

«هني سكل روز».. بم بم بم تمضي الطبول في القرع تتعالى وتنخفض وعلى مدار الساعة تمضي أوتار الغيتار. يمكنها حتى أن تقود صبية التل في سليغو إلى الطيش لأبعد حد ممكن مع هذه الأغنية. تجعل رجلا ميتا يرقص عليها. يمكن لرجل معتوه أن يهتف لمعزوفاتها المنفردة.

قيل، على الأقل أخبرني توم، إن بيني غودمان سيخصص عشرين دقيقة كاملة لتلك الأغنية، في حلبة الرقص. يمكنني بالطبع أن أصدق ذلك. بالإمكان أن تعزفها طوال اليوم ولا يزال لديك ما تقوله من كلمات مع اللحن. ها هو ذا، ألا ترون، كانت أغنية تتحدث بنفسها. حتى من دون شخص يغني الكلمات.

وبالتالي.. وبالتالي، ذهبت هناك. لقد انتابني شعور أكثر كآبة وغرابة عندما فعلت ذلك. أن ألبس ما أملك من زينة لحلبة الرقص، أفضل فستان لدي، وبسرعة ألطخ بعض المساحيق على وجهي، أمشط شعري، أرتبه، ألبس حذائي الخاص للرقص بتهور، وكل ذلك أثناء تنفسي بشدة، ثم الخروج في النسيم البارد، أشعر بالبرودة فيه، بحيث بدا صدري ينكمش قليلا. لكنني لم أكترث بذلك.

لأنني اعتقدت أنه لا يزال من الممكن أن يكون كل شيء على ما يرام. لماذا أعتقدت ذلك؟ لأنني لم أسمع خلاف ذلك. كنت في وسط لغز.

كان الوقت مبكرا للرقص، ولكن كانت هناك سيارات قادمة من سليغو بالفعل، عوارضها الكبيرة مثل المجارف الكبيرة التي تجرف

الطريق المتجعد. وجوه متوثبة في السيارات، والفتيان واقفون على لوحات جانبي السيارات بين الحين والآخر. كان مشهدا مشوبا بالسرور. أسعد مشهد في سليغو.

كنت أشعر وكأنني شبح كلما اقتربت من البلازا أكثر وأكثر. كانت البلازا مجرد دارٍ لقضاء العطلات، وقاموا ببناء القاعة في الخلف، لذلك بدت الواجهة وكأنها مسكن عادي، ماعدا وضع خرسانة عليها، تم نزعها بطريقة أو بأخرى. كان هناك علم جميل يرفرف فوق السطح، مكتوب عليه ب-ل-ا-ز-ا. لم يكن هناك الكثير من الإنارة في الطريق، ولكن من كان بحاجة إلى الإنارة، عندما يكون المبنى ملاذا لأحلام وأفكار الجميع خلال أيام الأسبوع. يمكن أن تمارس عليك العبودية طوال الأسبوع في وظيفة نتنة في البلدة، ولكن طالما كان لديك البلازا.. إنه كان أعظم من الدين، بإمكاني قول هذا لكم، هو الرقص. كان هو الدين. أن تُحرم من الرقص هو بمثابة -ماذا أسميه- حرمان كنسي، حرمان من السر المقدس مثل رجال الجيش الجمهوري الأيرلندي في الحرب الأهلية. شباب مثل جون لافيل بالطبع.

«هني سكل روز». الآن أنهت الفرقة غناءها وبدأ العزف «ذا مان آي لف»، والذي يعرف العالم وشقيقه أنه لحن بطيء، وكنت أعتقد أنه لم يكن خيارا جيدا في وقت مبكر من الليل. في أية لحظة يعزف عضو الفرقة. كل مقطوعة تكون مناسبة في اللحظة المناسبة. بعض الألحان نادرا ما تجد لحظتها المناسبة، مثل بعض أغاني عيد الميلاد القديمة، أو القصص القديمة المبتذلة في جوف الشتاء حين ينتاب الجميع الكآبة. «ذا مان آي لف» هو للرقصة ما قبل الأخيرة، أو تقريبا، عندما يكون الجميع متعبين ولكنهم سعداء، وهناك وهج في كل شيء، الوجوه، الأذرع، الآلات، القلوب.

عندما دخلت القاعة لم يكن هناك سوى عدد قليل من الناس ترقص. كنت على حق، كان من السابق لأوانه لهذه الأغنية. لكن الفرقة كلها كانت لها نظرة ليلية متأخرة خاصة بها. كان توم العجوز يقوم بالعزف المنفرد عند البداية، ثم اقتحم ابنه مع الكلارينيت. كان الأمر صادما بالفعل. ربما لاحظ الناس أيضا أن توم، توم الذي يخصني، بدا ثملا بعض الشيء. كان بالتأكيد يتمايل قليلا، لكنه حافظ على العزف بشكل جيد، حتى توقف فجأة وأخرج سن الآلة من فمه. عزفت الفرقة الأغنية حتى النهاية وتوقفت أيضا. بدت وجوههم تحوم حول توم، لمعرفة ما الذي يريد القيام به. قام توم بوضع أجهزته في حرصٍ كعادته، وتنحى عن المسرح، وتمايل في الكواليس، حيث كانت غرفة تبديل الملابس. لم أكن أعرف ما إذا كان قد رآني.

كنت سأذهب هناك أيضا. لم يكن هناك سوى حلبة الرقص بيني وبين الستائر القديمة المعلقة عبر الباب. تقدمت إلى الأمام، يملؤني العزم، ولكن فجأة وجدت جاك بجانبي، الذي بدا وجهه صارما جدا في دوران الظلال عليه.

قال: «ماذا تريدين، يا روزان؟»، أبرد ما سمعته في أي وقت مضى، ويمكن أن يكون رجلا قادما من القطب.

«ماذا أريد؟».

كان الأمر مضحكا، لقد بقيت صامتة لمدة يومين أو ثلاثة أيام لدرجة أن صوتي كان يتصدع إلى حدٍّ بعيد عندما أتحدث، مثل إبرة تقع على أسطوانة موسيقية.

لا أعتقد أن أحدا كان ينظر إلي. لابد أننا نبدو وكأننا صديقان قديمان يتحدثان، مثلما يفعل ألف صديق قديم هناك ليلة السبت. ماذا كانت ستفعل الصداقة بلا البلازا، ناهيك عن الحب؟

ربما كانت معدتي فارغة، لكن ذلك لم يمنعني من محاولة التقيؤ. كانت ردة فعل على كلمات جاك الجليدية. لقد أخبرني حديثه القصير أكثر مما يستطيع قوله، ولا شك أني كنت على وشك سماع حديثه القصير. لم يكن صوت الجلاد، مثل ذلك الرجل الإنجليزي بييربوينت الذي أحضر حكومة دولة الأحرار في الأربعينيات لإعدام رجال الجيش الجمهوري الأيرلندي، لكنه كان صوت القاضي، معلنا إعدامي. كم من القتلة والمجرمين الذين بالفعل يعرفون من خلال النظرة نفسها على وجه القاضي، لا يهم قطعة القماش السوداء تلك التي توضع على رأسه، مصيرهم، على الرغم من أن كل ذرة في كيانهم تصرخ رافضة معرفة ذلك المصير، ليصل الأمل إلى حدود كلمات لا رجعة فيها. إنه المريض وهو يحدق في وجه الجراح. الحكم بالإعدام. هذا ما حصل عليه إينياس ماكنلتي لانخراطه في الشرطة. حكم عليه بالإعدام.

«ماذا تريدين، يا روزان؟».

«ماذا أريد؟».

ثم ذلك التقيؤ الجاف. ثم الناس الذين ينظرون إلي. ربما اعتقدوا أنني تجرعت نصف زجاجة من النبيذ المسكر بسرعة كبيرة جدا، أو ما شابه ذلك، مثلما يفعل الراقصون العصبيون، أو الزبائن المراوغون كما يصفهم توم. لم يكن هناك ما يُظهره استفراغي، لكن هذا لم يمنع إحراجي الشديد. على مقربة منه كان هناك شعور عميق، عميق بشيء ما، ربما الندم، ربما الرعب الذاتي، الذي يبعث السأم في داخلي.

نفر مني كما لو كنت بالفعل جرفا، أو شيئا خطيرا قد يتفتت عند الحافة، ويدفعه بقوة إلى الهبوط بسرعة حتى يلقى حتفه. منحدرات موهار، دُن إينغوس.

فقلت: «جاك، جاك»، لكن ماذا يعني هذا، لم أكن أعرف.

قال: «ماذا دهاك؟ ماذا يحدث معك؟».

«أنا؟ لا أعرف. أشعر بالغثيان».

«لا، ليس الآن، ليس الآن بحق الجحيم، روزان. ماذا يدور برأسك؟».

«لماذا، ما الذي يقولون إنني على وشك القيام به؟».

الآن، هذا لا يبدو لي مثل اللغة الإنجليزية. ماذا يقولون. مثل بعض أغاني الأفارقة الأمريكان القديمة من الولايات الجنوبية.

لكن جاك لم يقل شيئا.

قلت: «هل يمكنني العودة لأرى توم؟».

«توم لا يريد رؤيتك».

«بالطبع يريد ذلك، جاك، إنه زوجي».

«حسنا، روزان، يجب أن نعيد النظر في ذلك».

«ماذا تقصد، جاك؟».

ثم فجأة لم يعد عدائيا. ربما تذكر أياما أخرى، لا أعرف. ربما تذكر أنني كنت دائما ودودة معه، وأحترم إنجازاته. لقد استلطفت جاك، والله أعلم. لقد أحببت صرامته وابتهاجه السريع والغريب بين الحين والآخر، عندما كان يهز ساقيه فجأة، ويقوم بما يدعوه رقصة أفريقية.

قد يكون في حفلٍ، فجأة، دون سابق إنذار، فرحة هائلة تبدو أنها تتحكم به وتأخذه على طول الطريق إلى نيجيريا. أثار اهتمامي، مع ستراته الجميلة وحتى قبعاته الأكثر جمالا، وسلسلة ساعته الذهبية الرقيقة، وسيارته التي كانت دائما أفضل سيارة في سليغو، باستثناء سيارات الصالون الكبيرة التي تخص أصحاب الذوق الرفيع.

قـال: «انظـري، روزان. كل شيء معقـد للغايـة. ثمـة مسؤولية لـك في المتجـر في سـتراندهيل. لـن تجوعـي».

«ماذا؟».

قال «لن تجوعي».

قلـت: «انظـر. لا يوجـد سـبب في أن لا أتكلـم مـع تـوم. مجـرد كلمـة. هـذا ما جئـت للقيـام بـه. لا أتوقـع أن أعـزف مع هـذه الفرقـة، بحـق اللـه».

لم يكـن منطقيـا، وأجـزم أننـي صرخـت بالكلـمات الأخـيرة. لم تكـن هـذه أفضـل ردة فعـل مـع جـاك، والـذي كان عفيـف النفـس للغايـة، ولا يـود أن يجلـب الانتبـاه أبـدا. لا أعتقـد أن صديقتـه الحميمـة مـن مدينـة غالـواي قـد قامـت بـأي شيء يجلـب الانتبـاه. مـع ذلـك، جـاك تحكـم بأعصابـه، ودنـا نحـوي ببضـع بوصـات.

«روزان، لقـد كنـت دائمـا صديقـا لـكِ. ثقـي بي الآن، واذهبـي إلى المنـزل. سـأكون عـلى اتصـالٍ معـكِ. كل هـذا سيزول في النهايـة. فقـط هـدئي مـن روعـك وعـودي للمنـزل. هيـا، روزان. لقـد تكلمـت الأم في هـذا الشـأن ولا توجـد هنـاك طريقـة لـرد كلام الأم».

«الأم؟».

«أجل، أجل، الأم».

«وماذا تقول بحق السماء؟».

قـال بعنـف: «روزان، بهـدوء، هنـاك أشـياء عـن الأم أنـت لا تفهمينهـا. أشـياء عنهـا حتـى أنـا لا أعرفهـا. لديهـا تقلبـات عندمـا كانـت طفلـة. والنتيجـة هـي، أنهـا تعـرف نفسـها».

«تقلبات؟ أي تقلبات؟».

كان الآن يهمـس تقريبـا عندمـا تحـدث، وهـو عـلى مـا يبـدو في هيـاج لا يـود أن يسـمعه أحـد، ولكـن في نفـس الوقـت، يـود أن يقنعنـي بـشيء ربمـا كان لا يقنـع إطلاقـا.

«أشياء من الماضي. هي متأكدة أن توم سيفي بالغرض، لأنه.. لأنه أسباب قديمة، أسباب قديمة».

صرخت وكان باستطاعتي أن أشعل به النار: «تتكلم كالمعتوه».

قال: «ولكن انظري، لكن انظري، كل ما في الأمر سيمضي».

بطريقة أو بأخرى في أعماق قلبي كنت على يقين بأنني إن تركت الحفلة «كل شيء» بالتأكيد لن يمضي. هناك وقتٌ للحديث عن الموضوع، كما أن هناك وقتا لكل أغنية، مهما كانت فريدة من نوعها. كانت هذه لحظة نادرة في الحياة، وكنت أعلم أنه كان باستطاعتي مجرد أن أرى توم، أو بالأحرى أن أدعه يراني، تلك المرأة التي كان يحبها كثيرا، ويرغب بها، يحترمها ويحبها، كل شيء سيكون على ما يرام، في نهاية المطاف.

لكن جاك كان يسد طريقي. لا شك في ذلك. كان يقف بجانبي على بعد مسافة قصيرة، مثل صياد سمك السلمون على وشك أن يرمي الشباك عبر النهر، يسند وزنه على قدمه اليسرى.

جاك لم يكن خبيثا، لم يكن رجلا قاسي القلب. ولكن في تلك الحالة كان أخا، وليس صهرا.

كان أيضا عائقا كبيرا لي. حاولت التقدم إلى الأمام، لتجاوزه بكل ما أملك من إرادة، شيئا أبسط مما كان يحاول المرور به. استقوى من جراء مكوثه في أفريقيا، كان مثل الاصطدام في شجرة، وضع ذراعيه حولي بينما كنت أحاول أن أتحرر منه نحو القاعة، وكنت أصرخ، أصرخ من أجل توم، الرحمة. أغلق ذراعيه حول خصري، أطبق بإحكامٍ شديد حوله، «هاما هاما» بإحكام، استخدم الكلمات التي تعلمها في أفريقيا، اللغة الإنجليزية المحرفة التي يحب تقليدها والاستهزاء بها، وجهني إليه، بحيث تم تثبيت مؤخرتي في حضنه، ورست هناك، تمسك بشدة، وبسرعة، من المستحيل الهروب، مثل احتضان الأحبة.

قال: «روزان، روزان. هل لكِ أن تصمتي، أيتها المرأة، اصمتي».

أنا أعوي وأزأر.

لكمْ أحببت توم وحياتي مع توم. هذا هو مقدار رفضي وكراهيتي للمستقبل.

بالعودة إلى الكوخ الحديدي المموج لم أكن أعرف ماذا أفعل بنفسي. ذهبت إلى الفراش للنوم ولكن لم يحالفني النوم. حضر إلى ذهني شعور بارد يبعث بالقشعريرة إلى فكري، مما تسبب في ألم بجسدي، كما لو كان شخص ما يفتح الجزء الخلفي من عقلي بشفرة حادة من فتاحة العلب. «هاما هاما» حاد.

هناك أنواع من المعاناة يبدو أننا كمخلوقات ننساها، وإلا فلن يمكننا أن نحيا أبدا بين جميع المخلوقات الأخرى. يقال إن آلام الولادة مثال على ذلك، لكنني لا أوافق. وألم ما حدث لي ليس كذلك على الإطلاق. مع أني عجوز شمطاء ذابلة في هذه الغرفة ما زال باستطاعتي أن أتذكره. ما زلت أشعر بأثره. إنه ألم يزيل كل الأشياء ماعدا نفسه، بحيث كانت الشابة التي ترقد هناك على سرير زواجها زاخرة بالألم، تحتويها المعاناة. كنت غارقة في عرق مفرط. كان الجزء الأقصى من الألم ناتجا عن الذعر الهائل الذي لن يصل إليه أي شيء على الإطلاق، لا سيرك، ولا سلاح الفرسان يانكي، ولا وكالة بشرية، لتخفيفه. الذي سوف أظل فيه أغلي إلى الأبد.

ومع ذلك أعتقد أنه لم يكن ذا أهمية. في تلك الآونة لم أكن ذات أهمية بالنسبة للعالم، في زمن كانت المعاناة الموحشة أكبر بكثير من معاناتي، لو كان تاريخ العالم المألوف له مصداقية. التفكير في هذا الشيء يريحني الآن، بشكل مثير للغرابة إلى حدٍّ كبير، ولكن ليس في ذلك الحين. ما الذي كان يمكن أن يريح تلك

المرأة التي تتلوى في سرير بائس في أرض ستراندهيل المفقودة لا أعرف. لو كنت حصانا لكانوا قد أطلقوا عليّ رصاصة الرحمة.

ليس من السهل إطلاق النار على شخص، ولكن في تلك الأيام بدا أنه يعتبر أمرا بسيطا. بشكلٍ عام في العالم. أعلم أن توم قد ذهب قبل فترة وجيزة مع الجنرال إلى إسبانيا للقتال من أجل فرانكو، وكان هناك الكثير من إطلاق النار. قادوا الرجال والنساء إلى الهاوية ذات المناظر الخلابة وأطلقوا النار عليهم، وتركوهم يتساقطون في تلك الأماكن التي لا يسبر غورها. كانت الهاوية حقا هي التاريخ والمستقبل. أطلقوا النار على الناس بين أطلال بلادهم، في الاضطراب والخراب، كما هو الحال في أيرلندا. في الحرب الأهلية أطلقنا النار على بعضنا بما يكفي لقتل الدولة الجديدة في مهدها. بما فيه الكفاية وأكثر.

أنا أتحدث عن نفسي، كما أرى الأشياء في الوقت الحالي. لم أكن أعرف الكثير عن هذه الأشياء في ذلك الوقت. رغم أنني قد رأيت القتل بعيني. ورأيت كيف يمكن للقتل أن يسير بكل جانب ويحصد الأرواح دون معرفة القتلى. إتقان واكتساح القتل.

في صباح اليوم التالي كان يوما جميلا بشكلٍ غير مألوف. كان قد دخل عصفور إلى المنزل، انزعج وخاف لرؤيتي عندما دخلت إلى غرفة الجلوس التي لم يكن بها أحد من غرفة النوم. جعلت العصفور يمشي إلى زاوية وأمسكت به وهو يبدو مثل قلب طائر، أحضرته إلى الباب الذي نسيت أن أغلقه أثناء حزني العجيب في الليلة السابقة، وخرجت إلى الشرفة، ورفعت ذراعي، وأطلقت الطائر الرمادي الصغير عديم الفائدة نحو ضوء الشمس.

بينما قمت بذلك، كان جاك ماكنلتي والأب غانت يسيران في الطريق نحوي.

كـما كان الكهنـة يشـعرون في تلـك الأوقـات أنهـم يمتلكـون البلـد الجديـد، أعتقـد أن الأب غانـت شـعر أيضـا أنـه يمتلـك الكـوخ الحديـدي، وعـلى أي حـال دخـل مبـاشرة، واختـار كرسـيا متهالـكا، ولم يتكلـم بكلمـة بعـد، تقـدم جـاك بعـده، وأنـا أتراجـع إلى زاويـة الغرفـة مثـل العصفـور. لكننـي لم أظـن بـأي حـالٍ مـن الأحـوال أنهـم سيمسـكون بي في أيديهـم ويتركوننـي أذهـب.

قال الأب: «روزان».

«نعم أبي».

وقال: «لقد مرت فترة طويلة منذ أن تحدثنا آخر مرة».

«نعم، منذ فترة».

«لقـد مـررتِ ببعـض التغيـيرات منـذ ذلـك الحـين، أعتقـد أن هـذا يصح قولـه. وكيـف حـال والدتـك، أنـا لم أرهـا هـي كذلـك منـذ وقـت طويـل؟».

حسـنا، لم أكـن أعتقـد أن ذلـك بحاجـة إلى إجابـة، فقـد كان هـو الـذي يريـد أن يسـلمها للملجـأ، وعـلى أي حـال لم أتمكـن مـن الإجابـة عـلى السـؤال حتـى لـو كنـت أرغـب في ذلـك. لم أكـن أعـرف كيـف كان حـال أمـي. أعتقـد أن ذلـك كان خبثـا منـي أن لا أعـرف. لكـن في الواقـع لم أكـن أعـرف. تمنيـت أن تكـون بخـير، لكـن لم أكـن أعـرف إذا كانـت كذلـك. ظننـت أننـي أعـرف مكانهـا، لكنـي لم أعـرف كيـف كان حالهـا.

والدتي المسكينة الجميلة المجنونة المحطمة.

وبالطبـع بـدأت في البـكاء. ليـس عـلى حـالي بشـكلٍ غريـب، عـلى الرغـم مـن أننـي متأكـدة أنـه كان بإمـكاني ذلـك، دون أدنى شـك، ولكـن لا، ليـس لنفـسي. لأمـي؟ مـن يسـتطيع حقـا تحديـد سـبب دموعنـا البشريـة؟

لكن الأب غانت لم يكن يهتم ببكائي السخيف.

«امممم، جاك هنا يرغب في تقديم دور عائلي معين بالنسبة للأمور، أليس هذا صحيحا، جاك؟».

قال جاك: «حسنا. نريد الحفاظ على الموضوع في ظل القانون. نريد أن نمثل دور الرجل الأبيض هنا. كل شيء له حل، مهما أصبح معقدا. أنا أؤمن بأن هذه هي الحقيقة. غالبا في نيجيريا، كانت هناك مشاكل بدت غير قابلة لتخطيها، ولكن مع نوع مميز من البراعة في التنفيذ.. الجسور فوق أنهار تغير مسارها كل عام. من ذلك القبيل. يجب على الهندسة أن تواجه كل هذه المسائل».

وقفتُ هناك بصبر واستمعت إلى جاك. في الواقع، ربما يُعد خطابه أطول خطاب ألقاه عليّ، أو على الأقل في حضوري، أو باتجاهي غير المحدد على أي حال. كان يبدو حليقا تماما، ومعتنيا بنفسه، ونظيفا، وياقته الجلدية مرتفعة إلى الأعلى، وقبعته مائلة إلى زاوية مثالية. عرفت من توم أنه كان يشرب بشكل مذهل لبضعة أسابيع مضت، لكنه لم يبدُ على الإطلاق أنه ليس على ما يرام. كان قد تقدم لخطبة فتاة من غالواي ليتزوجها، وهذا، كما قال توم، جعله في حالة من الهيام الرجولي. كان سيتزوجها وسيأخذها معه إلى إفريقيا. عرض علي توم صورا لبيت من طابقٍ واحد يملكه جاك في نيجيريا، وجاك مع مجموعة من الرجال، سود وبيض. فعلا، لقد كنت مفتونة به، ربما مسحورة هي الكلمة الصحيحة، عندما أرى جاك في قميصه المفتوح الجميل وبنطاله الأبيض، مع عصاه، وفي إحدى الصور كان هناك رجل أسود، ربما يكون موظفا للدولة أيضا، وإن لم يكن يلبس قميصا مفتوحا، ولكن بدلة سوداء كاملة، مع صدرية، وياقة متيبسة وربطة عنق، في أي درجة من الحرارة لم أكن أعرف، ولكنه يبدو مفعما بالنشاط وواثقا من نفسه. ثم كانت هناك صورة لجاك مع حشد من الرجال العراة تقريبا، أسود داكن داكن

داكن اللون، ربما كان الفتيان هم الذين حفروا القنوات هناك حيث كان جاك قد أقامها، قنوات مستقيمة طويلة قال عنها توم، تنطلق عبر البلاد لجلب المياه التي ينتظرونها بفارغ الصبر للمزارع البعيدة. جاك، منقذ نيجيريا، جالب الماء، باني الجسور.

قال الأب غانت: «نعم. أنا متأكد أن كل شيء قابل للإصلاح. وأنا واثق من ذلك. إذا ما فكرنا معا».

كانت لدي رؤية غير مريحة للغاية من وجود رأسي بالقرب من رأس الأب غانت المقصوص شعره بحدة ورأس جاك الذي يلبس القبعة بأناقة، لكنها ذابت في ذرات أشعة الشمس العائمة التي اخترقت الغرفة.

فقلت: «أحب زوجي»، على حين غرة جعلني على وشك أن أقفز. لماذا قلت ذلك لهذين المبعوثين من المستقبل؟ يحيرني هذا الشيء حتى الآن. رجلان أقل احتمال أن أقول لهما ذلك، مع أي نتيجة مفيدة، لم أستطع تقدير ذلك. كان الأمر مثل المصافحة مع الجنديين المسكينين المطلوبين لحضور إعدامي.

هكذا كان الإحساس حالما خرجت الكلمات من فمي.

قال الأب غانت بشيء من الشغف، الآن بعد التطرق للموضوع: «حسنا، هذا كله من الماضي الآن».

لقد خرجت مني بعض الهمهمات الصغيرة حينها من الحروف الساكنة والحروف المتحركة، لم يكن عقلي متأكدا تماما ما الكلمات التي يجب أن أستخدمها، ولكن عندها خرجت كلمة:

«ماذا؟».

قال الأب غانت: «أحتاج إلى بعض الوقت للعثور على الخطوط العريضة لهذه المشكلة. في ذلك الحين أريدك، يا روزان، أن تبقي حيث أنت، هنا في هذا الكوخ، وعندما أتمكن من التوصل إلى

حـل، سـأكون عندهـا أكثر قـدرة عـلى إبلاغـكِ عـن وضعـكِ، ومـن ثـم القيـام بالترتيبـات للمسـتقبل».

قـال جـاك: «لقـد وضـع تـوم الأمـر في يـد الأب غانـت، روزان. لديـه السـلطة للتحـدث في هذا الشـأن».

قال الأب غانت: «نعم. هو كذلك».

فقلـت: «أريـد أن أكـون مـع زوجـي» بمـا أنهـا الحقيقـة، والـشيء الوحيـد الـذي يمكننـي قولـه دون غضـب. لأن الترفـع عـن الشـعور بالحـزن الشـديد كان غضبـا جديـدا، نوعـا مـن الغضـب الجامـح المتلهـف، مثـل الذئـب في حظـيرة الأغنـام.

قـال الأب غانـت، بإيجـاز ملائـم: «كان يجـب أن تفكـري في ذلـك مـن قبـل (امـرأة متزوجـة)».

لكنـه توقـف. إمـا أنـه لم يكـن يعـرف مـا كان عليـه أن يقـول بعـد ذلـك، أو كان يعـرف واختـار عـدم القيـام بذلـك، أو لم يرغـب في ذلـك، أو لم يسـتطع أن يرغـم نفسـه عـلى أن يتفـوه بذلـك. قـام جـاك فعلا بسـلك حنجرتـه كـما لـو كان في فيلـم في سـينما البرلمان، وهـز رأسـه، كـما لو كان شـعره رطبـا ويحتـاج إلى النفـض. بـدا الأب غانـت فجـأة حزينـا، محرجـا تمامـا، كـما كان في تلـك الليلـة منـذ فـترة طويلـة عندمـا كان جسـد ويـلي لافيـل ملقـى عـلى نحـوٍ هزيـل جـدا ومدمـرا للغايـة، في معبـد المقـبرة الخـاص بوالـدي. شـعرت بمـا كان يفكـر. هـذه المـرة الثانيـة التـي ألقيـت بـه في موقـف تسـبب لـه بمـاذا؟ الاسـتياء والقلـق. الاسـتياء والقلـق بخصـوص طبيعـة المـرأة؟ مـن يـدري؟ لكـن فجـأة كنـت أنظـر إليـه بعيـون مـن الازدراء غـير المتوقـع. لـو كانـت نظـراتي مـن لهيـب النـيران لكانـت حولتـه إلى رمـاد. كنـت عـلى علـم بقوتـه، التـي كانـت في هـذه الحالـة مسـتبدة، وبـدا لي في تلـك اللحظـة أننـي أعـرف طبيعتـه. صغـير، مؤمـن بذاتـه لـكل الحـدود، شـمال، جنـوب، شرق، وغـرب ومميـت.

قال الأب غانت: «حسنا، أعتقد أننا قمنا بعملنا هنا، يا جاك. يجب عليكِ البقاء حيث أنت، يا روزان، اشتري احتياجاتكِ من البقالة كل أسبوع، وكوني راضية عن وجودكِ وحدكِ. ليس لديك ما تخافينه، باستثناء نفسك».

وقفتُ هناك. أنا أود أن أقول بأنه حاصرني، من دون رجال الإنقاذ كما كنت في تلك اللحظة، كان هناك غضبٌ عارم غير مفهوم، يتحرك بداخلي، موجة على موجة، مثل البحر بعينه، وبشكلٍ غريب هذا كان يشعرني بالراحة. ربما يبين وجهي مجرد القليل منه، كما تفعل الوجوه.

خرج الرجلان اللذان يلبسان البدلات الداكنة إلى ضوء الشمس. بدلات داكنة، معاطف داكنة، وقبعات داكنة تحاول أن تخفف سيل الأزرق من شاطئ البحر، والأصفر، والأخضر.

الغضب، الغضب العارم، لا يخففه شيء.

لكن امرأة هائجة وحدها تماما في كوخ من الصفيح هو شيء ضئيل، كما قلت من قبل.

الراحة الحقيقية هي أن تاريخ العالم يحتوي على الكثير من الحزن لدرجة أن أحزاني الصغيرة تتلاشى، وهي مجرد رماد على أطراف النيران. أقول هذا مرة أخرى لأنني أريده أن يكون الحقيقة.

على الرغم من أن عقلا واحدا عند درجة من المعاناة يبدو أيضا أنه يملأ العالم. لكن هذا وهم.

رأيت بأم عيني أشياء أسوأ بكثير مما أصابني. بأم عيني. ومع ذلك، في تلك الليلة، وحدي وغاضبة بشكل لا يمكن تفسيره، صرخت وصرخت في الكوخ كما لو كنت الكلب الوحيد الذي يتأذى في العالم كله، ولا شك في أنني تسببت في الرعب والقلق لأي

شـخص يمـر بالجـوار. صرخـت وصرخـت. ضربـت صـدري حتـى كانـت هنـاك كدمـات في صبـاح اليـوم التـالي بحيـث بـدا ثديـي مثـل خريطـة مـن النـار، وخريطـة لا مـكان، أو كـما لـو أن كلـمات جـاك ماكنلتـي والأب غانـت قـد أحرقتنـي بالفعـل.

ومهـما كانـت حيـاتي حتـى ذلـك اليـوم، كانـت حيـاة أخـرى بعـد ذلـك. وهـذه كانـت هـي الحقيقـة الصارمـة.

الفصل الثامن عشر

لا يسبر غوره. يمكن سبر غوره. أتساءل هل من الصعوبة أن ذكرياتي وتخيلاتي تكمن بعمق في نفس المكان؟ أم أن أحدها فوق الآخر مثل طبقات الأصداف والرمل في قطعة من الحجر الجيري، بحيث أصبحت جميعها من نفس العنصر، ولا يمكنني تمييز أحدها عن الآخر بأية سهولة، إلا إذا كان عن قرب، نظرة عن قرب؟

ولهذا السبب أخشى التحدث إلى الدكتور غرين، لئلا أمنحه سوى التخيلات. تخيلات. مناسبة لوصف الكارثة والوهم.

لقد تركوني هناك لسنوات وسنوات، لأن الأمر يستغرق سنوات لحل ما كانوا يحاولون معرفته، جاك والأب غانت وآخرون بلا شك، من أجل إنقاذ توم ماكنلتي. هل كان العدد ستة أم سبعة أم حتى ثمانية أعوام؟ لا أستطيع أن أتذكر.

عندما كتبت هذه الكلمات قبل بضع دقائق، ألقيت قلمي ووضعت جبهتي بين يديّ، وفكرت قليلا، محاولة استيعاب تلك السنوات. صعب وصعب. ما الصواب، ما غير الصواب؟ ما الطريق الذي سلكته، وأي طريق رفضته؟ أرض فقيرة، أرض زائفة. أعتقد أن الحساب أمام الله يجب أن يحتوي فقط على الحقيقة. لا توجد وكالة بشرية أحتاج إلى خداعها. الله يعرف القصة الحقيقية قبل أن أكتبها، لذلك يمكن أن يكشفني في الباطل بسهولة. يجب أن

أفرز بعناية الواحدة عن الأخرى. إذا كانت لدي روح متبقية، وربما ليس لدي روح، فسوف يعتمد ذلك عليها. أعتقد أنه من الممكن أن يتم إلغاء الأرواح في الحالات الصعبة، وإلغاؤها في مكتب ما في أروقة الآخرة. أن تصل إلى أبواب السماء في ذلك الحين والعنوان يكون خطأ، قبل أن يتفوه القديس بطرس بكلمة.

لكنها كانت مظلمة وصعبة للغاية. أنا خائفةٌ فقط لأنني لا أعرف كيف أستمر. يا روزان، يجب أن تتجاوزي بعض الخنادق الآن. عليكِ أن تجدي القوة في جثتك البالية لتقفزي.

هل من الممكن أنني أمضيت كل تلك السنوات في هذا الكوخ من دون حدث، أجمع مشترياتي من البقالة كل أسبوع، ولا أقول شيئا لأي أحد؟ أعتقد أنه كذلك. أحاول أن أكون على يقين. من دون حدث، أعتقد، ومع ذلك، علمت أن الحرب قد بدأت في أوروبا، تماما مثل تلك الأيام التي كنت فيها طفلة صغيرة. ومع ذلك لم أر أزياء الجيش الآن. كان الكوخ مثل مركز ساعة ضخمة، بداية العام في ستراندهيل، هدير السيارات التي تمر ليل السبت، الأطفال مع دلائهم، وطيور الزرزور طوال الشتاء، الجبل المظلم والمنير، الخلنج مع زهوره الصغيرة البيضاء المتلألئة، يا لها من راحة، وأنا أحاول أن أقوم بمهمتي مع الورد على الشرفة الأمامية، رعايتها، قصها مرة أخرى لتنبت، ومشاهدتها يوما بعد يوم في العام المفعم بالقوة تملؤها الدوائر التي تتفتح منها البصيلات؛ كانت «تذكار القديسة آن»، أنا أعيد التفكير في الأمر الآن، وردة تم إنتاجها في حديقة في دبلن من تلك الوردة الشهيرة التي أنتجتها جوزفين في ذكرى حب نابليون لها «تذكار ماليمسن».

الآن، عزيزي القارئ، أحاول أن أتذكر. سامحني إذا كنت لا أتذكر بشكل صحيح.

أفضل أن أتذكر الصواب بدلا من مجرد تذكر أشياء تكون لصالحي. هذا ترف غير مسموح لي به.

عندما عاد الأب غانت لي أخيرا، فعل ذلك وحده. أظن أن الكاهن دائما ما يكون وحيدا بصفة ما. لا يكذب مخلوق أبدا في وجوده. وبدا فجأة أكبر سنا، وكان أقل حيوية، بإمكاني أن أرى أنه قد فقد شعره عند صدغيه فقط، كان ينحسر إلى الوراء، مثل مدٍّ صغير لن يرجع مرة أخرى. كان في منتصف الصيف ويبدو أنه يشعر بحرارة شديدة في ملابسه الصوفية. طلب ملابسه من محل الملابس الخاص برجال الدين في شارع مارلبورو في دبلن. كيف علمت ذلك؟ لا أعرف الآن. كانت هذه الملابس جديدة تماما، وأنيقة بشكل غير معتاد، ورداء الكاهن يبدو كشيء قد ترتديه امرأة في حفلةٍ رسمية عند الحاجة، لو كان بلون آخر، وأقصر. كنت أعتني بالورد عندما جاء من البوابة الصغيرة، فاجأني، وأصابني بصدمة حقا، لأنه لفترة طويلة جدا لم يكن أحد قد أحدث هذا الضجيج على المزلاج إلا أنا، حيث كنت أتسلل في وقت متأخر من الليل للمشي. الكثبان الرملية والمستنقعات، التي أصبحت الآن جافة وإسفنجية بعد أسابيع قليلة من الحرارة النسبية. أعتقد أنني كنت أنيقة، على عكس ما حدث لاحقا، كان لدي مقص لقص شعري أمام مرآة الحلاقة الصغيرة لتوم، وكان فستاني نظيفا، مع ذلك القطن اليابس الرائع من تجفيفه على الشجيرة. كان يحمل معه حقيبة جلدية صغيرة، مخدوشا ومنبعجا من هنا وهناك من الاستخدام الطويل والمكثف. حقا ربما أعتبر هذا الرجل كفوءا ليكون صديقا قديما، كنت أعرفه وتعاملت معه لزمنٍ طويل. كان مؤهلا بالتأكيد لكتابة تاريخ حياتي الخاصة، لأنه كان شاهدا على أجزاء معينة وغريبة منها.

بنفس النبرة التي استخدمها منذ تلك السنوات السابقة بدأ يخاطبني «روزان»، كما لو كان هذا مجرد استمرار لتلك المحادثة. لم يكن هناك: أهلا كيف حالك؟ أو أي تردد. في الواقع كان له أسلوب طبيب لديه أخبار جادة لنقل مضمونها، ولم يكن لديه حتى العناية الحميمة التي لدى الدكتور غرين حينما يغزو بلطف «أسراري». هل يمكنني القول إنني كرهته؟ لا أعتقد ذلك. ولا بإمكاني أن أفهمه. ما الذي أسعده في هذه الحياة، ما الذي يجعله يستمر؟ لقد ألقى نظرة على الورد بينما كان يصعد الدرج الصغير إلى الكوخ المظلم.

مسحت أصابعي على خشب الدرج، لكي أزيل العصير الأخضر عنها، واتبعته إلى الداخل.

ألم يكن خنوعا غير عادي في داخلي أن أبقى في هذا الكوخ حسب طلبه؟ أشعر إلى حدٍّ ما بالخجل من التفكير في أنه يمكن أن يكون كذلك. هل كان ينبغي عليّ أن لا أغضب منه في السابق، وأن أكون عظمة في حلقه وحلق جاك، وأن أغرس أسناني في تفاحة آدم البارزة في عنقه وأنزع صوته؟ أناقشهم بغضب، أصرخ عليهم؟ لكن إلى أي مدى؟ مجرد غضب، غضب غير مجدٍ استهلك نفسه على الغبار الأبيض في طريق ستراندهيل. قلت: «ليس لدي أي شيء أقدمه لك يا أبي. ما لم تود أن تأخذ كوبا من مسحوق بيتشام؟».

«لماذا علي أن أشرب كوبا من مساحيق المعدة، يا روزان؟».

«حسنا، مكتوب على العلبة، مشروب صيفي منعش. لهذا السبب اشتريته».

قال: «إنه لأولئك الذين أفرطوا في تناول الطعام. لكن شكرا».

«حسنا، على الرحب والسعة يا أبي». ثم جلس حيث جلس من قبل، وفي الواقع لم أر أي سبب لتحريك الكرسي من مكانه. لاحقنا ضوء الشمس إلى الغرفة وظل يحيط بنا في بُقعٍ مغبرة.

قال: «أرى أنك بصحة جيدة».

«أجل بالتأكيد».

قال: «بالطبع، لقد جعلت جواسيسي يراقبونك». قال هذا دون أي أثر للذنب. جواسيس.

قلت: «أوه. لم ألاحظهم».

قال: «حسنا، بطبيعة الحال».

ثم فتح الحقيبة على حجره، فأخفى الغطاء المحتويات. لقد أخرج حزمة من الأوراق، مرتبة ونظيفة جدا، وكان الجزء العلوي يحتوي على ما يمكنني رؤية تصميم أو ختم رائع المظهر للغاية.

قال: «لقد كنت ناجحا، في جهودي لتحرير توم».

قلت: «معذرة؟».

«لو كنت قد اتبعت نصيحتي، يا روزان، قبل بضع سنوات، ووضعت إيمانك بالدين الحقيقي، لو كنت قد تصرفت بلياقة حسنة كالزوجة الكاثوليكية، لم تكوني لتواجهي هذه الصعوبات. لكنني أقدّر أنك لست مسؤولة بالكامل. الشهوة هي بالطبع معناها جنون. قد يكون بلاء، ولكن في الدرجة الأولى هو جنون، جذوره ربما يكون مصدرها الجسد. وافقت روما على هذا التقييم، في الواقع لم يوافق فقط قسم كيوريا الذي يتعامل مع هذه الحالات النادرة لحسن لحظ، ولكن أيضا طرح نفس النظرية. لذلك يمكنك أن تطمئني إلى أنه تم النظر في قضيتك بكل دقة وإنصاف من قِبل عقول واعية، ومن دون تحيز، ومن دون نية سيئة من أي نوع».

نظرت إليه. إنه أنيق، أسود، نظيف، غريب. مخلوق بشري آخر يتصرف بطريقة خاطفة للبصر. كلماته قاتمة ومحسوبة بكل أريحية. لا أثر للإثارة والنصر، ولا شيء سوى نبرته المعتادة الحريصة والمحسوبة.

قلت: «أنا لا أفهم. ولم أفهم، رغم أني أعتقد أنني عرفت، ولن يغير هذا شيئا».

«زواجك يعتبر باطلا، يا روزان».

بما أنني لم أتحدث، بعد نصف دقيقة كاملة، قال: «لم يحدث قط. إنه غير موجود. توم حر في الزواج من شخص آخر، وكأنه لم يتزوج قط. وهو كما أقول لم يكن كذلك أبدا».

«هذا ما كنت تفعلينه في تلك السنوات الماضية؟» قال بنفاد صبر: «نعم، نعم. إنه اتفاقٌ معقدٌ للغاية. شيء من هذا القبيل لا يتم منحه باستخفاف على الإطلاق. بعد تفكير عميق في روما، وأسقف بلدي بالطبع. يَزِنُون كل شيء، ويغربلون كل شيء، وإقراري الخاص، وكلمات توم بنفسه، والسيدة العجوز ماكنلتي التي بالطبع لديها خبرة في مشكلات النساء، وفي عملها. جاك بالطبع غائب في الهند أثناء الحرب، وإلا كان قدم مساهمته. تنفذ المحاكم الأحكام بحرص شديد. تبذل قصارى جهدها».

كنت ما زلت أحدق فيه. «يمكنك أن تطمئني إلى أن كل الإمكانية لتقديم العدالة قد تم توفيرها لك».

«أريد أن يأتي زوجي إلى هنا».

«ليس لديك زوج، يا روزان. أنت لست في حالة زواج».

«أنا مطلقة؟».

قال فجأة وبقوة: «إنه ليس طلاقا». كأنه وجد الكلمة مقرفة في فمي.

«لا يوجد هناك طلاق في الكنيسة الكاثوليكية. الزواج لم يكن له وجود. بسبب الجنون في وقت عقد القرآن».

«جنون؟».

«نعم».

سألتُ بعد لحظة: «كيف تحسبون ذلك؟»، وبصعوبة، أصبحت الكلمات الآن غريبة وثقيلة في فمي.

«نحن لا نعتقد أن حماقاتك تقتصر على حالة واحدة، وهي حالة سوف تتذكرينها حيث كنت شاهدا عليها بأم عيني. لم يكن يُعتقد أنه من المحتمل أن هذه الحالة لم يكن لها تاريخ، نظرا بالطبع لموقعك الخاص تجاه سنواتك الأولى، ناهيك بالطبع عن حالة والدتك، والتي قد نفترض أنها وراثية. الجنون، يا روزان، لديه العديد من الزهور، تنبثق من نفس الساق. قد يتم عرض أزهار الجنون المتفتحة، من نفس الجذر، ربما بشكل متنوع. في حالة والدتك، الانطواء الشديد على نفسها، في حالتك، شبق خبيث ومزمن».

«لا أعرف ما تعنيه هذه الكلمة».

قال مع أثر الخوف الآن في عينيه، لأنه استخدم الكلمة مرة واحدة وربما اعتقد بأنني قد قبلتها. لكنه عرف أنني قلت الحقيقة وخاف فجأة الآن: «إنه يعني الجنون الذي يتجلى في الرغبة في إقامة علاقات غير منتظمة مع الآخرين».

قلت: «ماذا؟». كان التفسير محيرا مثله مثل الكلمة.

«أنت أعلم ما ذاك».

قلت: «أنا أجهل ذلك» ولست أعلم.

قلت الكلمات الأخيرة وأنا أصرخ، وبالفعل صرخ هو بكلماته أيضا. أعاد الأوراق بسرعة إلى الحقيبة، وأغلقها بقصفةٍ، ووقف. لسبب ما، لاحظت مدى لمعان حذائه، مع بعض غبار الطريق العالق على أطرافه الصغيرة عندما ترك سيارته ومشى على مضض واقترب من منزلي.

قال وهو في نوبة من الانزعاج والغضب: «لن أشرحها لك أكثر. لقد حاولت أن أوضح موقفك. أعتقد أنني فعلت ذلك. هل تفهمين موقفك؟».

صرخت: «ما تلك الكلمة التي استخدمتها؟».

صرخ: «العلاقات! العلاقات! اللقاءات، اللقاءات الجنسية!».

قلت: «لكن» كانت هذه هي الحقيقة أمام الله، «لم أقم علاقات مع شخص آخر غير توم».

«بالطبع، قد تلجئين إلى كذبة فظيعة، إذا أردت ذلك».

«يمكنك أن تسأل جون لافيل. لن يخذلني».

قال بفظاظة: «أنت لا تبقين على عشاقك. جون لافيل مات».

«كيف يمكن أن يموت؟».

«لقد عاد إلى جماعة الجيش الجمهوري الأيرلندي، معتقدا أننا سنضعف بسبب هذه الحرب الألمانية، وأطلق النار على شرطي، وشُنق بعدالة. أحضرت الحكومة الأيرلندية ألبرت بييربوينت بنفسه من إنجلترا لتنفيذ المهمة، لذلك يمكنك التأكد من أن الأمر تم كما يجب.

أوه، جون، جون، أحمق جون لافيل. سوف أعترف أنني كنت أتساءل عنه كثيرا، وأين كان، وماذا كان يفعل. هل عاد إلى أمريكا؟ أن يكون راعي بقر، سارق قطار، جيسي جيمس؟ لقد أطلق النار على شرطي. شرطي أيرلندي في دولة أيرلندية.

كان هذا عملا مروعا. ومع ذلك، فقد منحني النعمة العظيمة للابتعاد عنه، ولم يطاردني مرة أخرى كما كنت أخشى أنه قد يفعل، لقد أبقى نفسه بعيدا، ولم يحاول أن يزعجني مرة أخرى، وليس لديه شك في فهم حقيقي للمشكلة التي أتى بها إلي في نوكناريا. كان هذا هو وعده، وقد أوفى به. بعد ذهاب الكهنة،

أمسك بيدي ووعدني. لقد أوفى بوعده. شرف. لم أكن أعتقد أن هذا الرجل الآخر الذي أمامي الآن لديه نفس الشرف.

أراد الأب غانت تجاوزي الآن، للوصول إلى الباب الضيق والخروج بعيدا. للحظة أغلقت طريقه. لقد منعته. كنت أعرف أنني سأحصل على القوة إن شئت أن أقتله، شعرت بها في تلك اللحظة. كنت أعلم أنني أستطيع انتزاع شيء ما، كرسي أو أي شيء قريب من يدي، وأنزله على رأسه. وبقدر ما كان تصريحي له حقيقيا، كان هذا أيضا حقيقيا. كنت أفعل ذلك بسرور، على الأقل بكل رحابة صدر، وبصدق، وبشراسة، ونعومة، لقتله. لا أعرف لماذا لم أفعل.

«أنت تهددينني، يا روزان. تنحي بعيدا عن الباب، هيا أيتها المرأة الخيرة».

«امرأة خيرة؟ أنت تقول ذلك؟».

قال: «إنه تعبير فقط».

لكنني ابتعدت عن طريقه. كنت أعرف أن أي حياة ملائمة ولائقة قد ولت. كانت كلمة رجل مثل هذا بمثابة الحكم بالإعدام. شعرت بكل شيء من حولي في منطقة ستراندهيل النائية بأكملها وهي تتحدث ضدي، وكانت مدينة سليغو بأكملها تدمدم ضدي. كنت أعرف ذلك طوال الوقت، لكن الأمر مختلف تماما حين تعرف حكمك، ثم سماعه من قبل القاضي. ربما يخرجون ويحرقونني في كوخي كساحرة.

أصدق ما في كل هذا، أنه لم يكن هناك من يساعدني، ولا أحد يقف بجانبي. أخرج الأب غانت نفسه بعناية من المنزل المخيف. المرأة الساقطة. المرأة المجنونة. الحرية لتوم، يا حبيبي توم. وماذا بالنسبة لي؟

مذكرة الدكتور غرين

سكون مطلق مرة أخرى الليلة الماضية في المنزل. يبدو الأمر كما لو أنها نادتني للمرة الأخيرة، فلن تحتاج إلى أن تناديني مرة أخرى. هذه الفكرة أخرجتني من الفزع، إلى حالة مختلفة تماما. نوع من الزهو في نهاية المطاف كنت أملك حبا في أعماقي مدفونا بين الفوضى. وربما هي أيضا كذلك. لقد استمعت مرة أخرى ليس من منطلق الخوف، بل بسبب حنين حزين. لكنني كنت أعرف أن لا شيء سيسأل ويجاب عليه مرة أخرى، عدم معرفة أي شيء يمكن أن يُسأل أو يجيب.

حالة غريبة. أعتقد أنها السعادة. لم يدم الأمر، لكن مثلما كنت أفعل لمريض ضعيف يعاني من آلام الحزن الفظيعة، طلبت من نفسي أن أدون هذا، وأتذكره، وأمنحه مصداقية عاطفية عندما تقتحمني مشاعر أخرى أكثر كآبة. من الصعب جدا أن تكون بطلا من دون جمهور، مع أن -بمعنى آخر- كلا منا بطل في فيلم غريب مضحمل يسمى حياتنا. أخشى الآن أن هناك ملحوظة لن تخضع لأي تدقيق.

ما هذا المقطع في الكتاب المقدس عن الملاك القابع فينا؟ شيء مشابه. لا أستطيع التذكر. أعتقد أنه ليس سوى الملاك، ربما الجزء منا الذي لا تشوبه شائبة، الملمُّ بالسعادة. هو يسعى لذلك، لأنه قد تذوق القليل منه بما يكفي. وبعد.. كفاية.

موضوع حزين لطبيب نفسي. لكنني الآن عجوز، وقد ذقت من الحزن ما اعتقدت في الأيام الأولى أنه سيقتلني، أو يسلب روحي، أو يشنقني، لذلك أقول: لو كان ذلك فقط لخصوصية هذا الكتاب، فلم لا؟ أنا سئمت إلى حد الموت من التفكير العقلاني. ما المخلوق الذي يشبه ذلك؟ المتحذلق اللاأرضي؟

كنت أقرأ شهادة الأب غانت مرة أخرى. أتساءل إذا كان مثل هؤلاء الكهنة الذين يعرفون كل شيء، والذين لا يرحمون، المتشددون غير المتسامحين بتاتا لا يزالون موجودين؟ أظن أنهم موجودون، لكن بسرية إن جاز القول. ربما كان ذلك لأن نسب دي فاليرا غير مؤكد وغامض بحيث وضع ثقة كبيرة برجال. لقد مجدهم بالتأكيد في دستوره، لكن من الصحيح أيضا أنه قاوم الطلب الأخير لرئيس الأساقفة في ذلك الوقت لجعل الكنيسة الكاثوليكية كنيسة رسمية. الحمد لله أنه لم يذهب إلى ذلك الحد، لكنه ذهب بعيدا بما فيه الكفاية، أبعد مما توجب عليه. ولأنه شارك الجيش الجمهوري الأيرلندي في حرب الاستقلال، ثم الجيش الجمهوري الأيرلندي كما كان ممثلا من القوى المناهضة للمعاهدة، وسجن فعلا بعد الحرب الأهلية، فإنه حين وصل إلى السلطة في الثلاثينيات وجد أن رفاقه السابقين، الذين رفضوه إلى جانب رفضهم المعاهدة، يجب قمعهم بقوة قصوى. لا بد أن هذا قد سبب له حزنا هائلا، وأزعج أحلامه كما يمكن أن يحصل لأي شخص. يشرح الأب غانت مصير رجل يُدعى جون لافيل، برز في حياة روزان، والذي تم شنقه في النهاية على يد دي فاليرا عند اندلاع الحرب العالمية الثانية، من دون أي رحمة. تعرض آخرون من رفاقه للجلد، ولم أكن أعرف أن هناك جلدا قضائيا في أيرلندا، ناهيك عن الشنق. يقول الأب غانت إنها كانت ستا وثلاثين جلدة من سوط ذي تسعة أشرطة، لكن ذلك يبدو قاسيا للغاية. لكن بالنسبة إلى دي فاليرا، كان لابد أن يكون مثل جلد وشنق أبنائه أو أبناء ورثة رفاقه في شبابه. والذي لا بد أنه شكلٌ آخر من اضطرابه النفسي. إنه لأمر عجيب أن البلاد تعافت كليا من هذه المآسي والصدمات المبكرة، ومن دواعي الأسف الشديد أن دي فاليرا

قد قوبل بهذه الأهوال التي لابد منها. ربما يمكننا هنا أيضا تتبع أصل الإجرام الغريب للجيل الأخير من السياسيين في أيرلندا، ناهيك عن العديد من القساوسة الذين اكتشفوا أنهم تحركوا عبر براءة أطفالنا مع الإجرام المروع ومحاريث الشر. إن القوة المطلقة لمثل الأب غانت تقوده كما يقودنا النهار إلى الليل، إلى الفساد المطلق.

كان لديّ فكرة لا قيمة لها في أن رغبة دي فاليرا الجامحة في تجنب الحرب العالمية الثانية لم تكن بسبب خوفه من العدو في الداخل، وخوفه من تقسيم بلاده الجديدة، بل لأنها شكلت في الواقع جهدا إضافيا لمحو النشاط الجنسي. وهو نوع من الامتداد لنوايا رجال الدين. في هذه الحالة، إذا لم يكن هذا واضحا جدا وفظا، فالمقصود هو الحياة الجنسية الذكورية.

أنا متعبٌ جدا في هذه اللحظة لدرجة أنني لا أعرف ما إذا كان الذي أكتبه مبتذلا. في وقت لاحق يمكنني أن أمزق ما كتبت.

هذا الرجل لافيل، على الرغم من أنه شارك ساحة السجن مع ديف منذ فترة طويلة، وشنق أمام ناظري ديف، فإنه يمكنك القول إنه لم يكن ملاكا. ووفقا للأب غانت، فإنه قد أحضر رجل الشرطة الأسير إلى التلال خلف سليغو، ووضع غطاء على رأسه، وحمل بندقية نحو صدغه. استمر في تدوير صمام الطلقات وسحب الزناد. على ما أظن أن الشرطي المسكين كان بسرعة في حالة رعب. كان لافيل يحاول معرفة متى يتم توصيل الأجور إلى الثكنات، لأنه كان يرغب في سرقة أجور الشرطة. يبدو أنها جريمة سرية. لكن الشرطي لأي سبب من الأسباب، الشجاعة أو الجهل، لم يرغب أو لم يستطع الإجابة. استمر لافيل بقرقعة البندقية. كما قام بعض شركائه باختطاف زوجة الشرطي وابنته، واحتجزوهما في منزل مهجور في البلدة، وظل لافيل يقول له إنهم سيُقتلونهما

إذا لم يستجب لهم. لكن أخبركم بالحقيقة فالرجل المسكين لم يكن يعرف الكثير. بالتالي أطلق عليه لافيل النار. كل هذا تبين لأن أحد رفاقه أدلى بأدلة للدولة، وأفلت من الجلد المذكور سابقا. لكن الحرب بدأت وكان دي فاليرا خائفا من أن يصبح الجيش الجمهوري الأيرلندي قويا مرة أخرى وكان يعلم أنهم كانوا في ذلك الحين على اتصال بالألمان. وإذا كان لدى ديف ديانة ثانية، فقد كان اسمها الحياد، فقد دافع عن ذلك حتى الرمق الأخير. لذلك لم يستطع إنقاذ لافيل. بكل صدق لا أستطيع أن أقول إنه كان فقدانا عظيما.

أكتب هذا كما لو كنت رجلا مقدسا في ما شابه خلية نحل فوق سكلِنج. بالطبع لست كذلك. يتوجب علينا على ما أعتقد أن نعترف بذلك فكلنا إخوة وأخوات لهذه الذنوب الحديثة. والحرب الأهلية شر يصيب النفوس جميعا بالتساوي.

على الرغم من عدم وجود أي شيء من تدريبي يسمح لي أن أتكلم عن الخطايا.

يقص الأب غانت كل هذا في وثيقته، في ما أعتقد أنه جهد شيشروني هائل قام به لتوريط، لا، ربما لم تكن تلك هي الكلمة الصحيحة، لأنه يلف روزان بنفس الصوف المعقود، لكي يصطادها به. لم يدخر الأب غانت أي قطرة حبر في هذا الموضوع. إنه حقا عملٌ رائع، ذو صلة برجال الدين، شامل، ومقنع. إنه أشبه بالنار في الهشيم، يحرق كل آثارها، ويعبر خلال روايتها ويحول كل شيء إلى جمر ورماد. صغيرة، وغامضة، ومنسية إلى هيروشيما. هناك نوع من القلق في جميع أجزاء الوثيقة، قلق يعبر عن نفسه أحيانا بشكل مفرط، أو يجب أن أقول بتفاصيل غير متوقعة. الأب غانت يكاد يكون إكلينيكيا في تشريحه لأمور روزان الجنسية. إنه لمن

الغريب للغاية بالطبع أن أقرأ عن روزان العجوز هذه، عندما يكون حامل الاسم نفسه يبلغ من العمر مئة عام ويكون في رعايتي. لا أعرف ما إذا كانت حقا معلومات وجيهة. يبدو أحيانا أنها لصوصية للغاية ومشكوك في قراءتها أخلاقيا. يعود ذلك جزئيا إلى أن الأخلاق التي تخص الأب غانت قديمة الطراز. إنه يفصح في كل جرة قلم عن كراهية شديدة إن لم تكن للنساء، فللنشاط الجنسي للمرأة، أو النشاط الجنسي بشكل عام. بالنسبة له الجنس عباءة الشيطان وقلنسوته، أما بالنسبة لي فهو نوع من نعمة البقاء على قيد الحياة. أنا لست عدوا لسيغموند فرويد. كما أنه من الواضح كوضوح الشمس أنه يعتبر بروتستانتيتها شرا ساذجا، بدائيا في حد ذاته. إن غضبه من أنها لم تسمح لنفسها بأن تصبح كاثوليكية بناء على طلبه هو غضب مطلق، قبل أن تتزوج زوجها الكاثوليكي بوقت طويل، وبقيت هي على ما كانت عليه. هذا في حد ذاته بالنسبة للأب غانت هو تشوه حقيقي.

لذلك يعتقد منذ وقت مبكر أنها، إن لم تكن شريرة، فهي عنيدة وصعبة وربما غامضة. لم يتظاهر أبدا أنه يفهمها، لكنه بالتأكيد يدعي معرفة تاريخها. لقد كشفت نفسها لعيون المدينة، في الحقيقة لقد تفاخرت بجمالها، لكونها جميلة بالفعل. يبدو الأمر كما لو أنها أغرت كل ذكور سليغو، ومن ثم اصطادت توم ماكنلتي، الرجل الواعد في البلد الجديد، اختارت أن تقلل من شأنها أمام مخلوق جامح مثل جون لافيل، الذي يصفه الأب غانت بأنه رجلٌ متوحش من أكثر الأركان ظلمة في مدينة مايو في أيرلندا. بعد ذلك، بعد أن قامت بفعل مثل هذا الشيء، وبعد أن عرض الأب غانت المساعدة على النحو المطلوب منه، تم رفضها لهذه المساعدة. يمكنك أن تشعر بغضبه الجديد الآن. غضب هائج. حكم

عليها أن تعيش في كوخ حديدي في ستراندهيل، حيث أصبحت مرة أخرى مثل المغناطيس لشهوات رجال سليغو. والأمر الأكثر فظاعة، هو أن الأب غانت قد أمّن من روما فسخ زواجها، بعدئذٍ تصبح روزان حاملا في ظروف غامضة، وتنجب طفلا. تحمل طفلا، كما يقول الأب غانت، وفي سطرٍ همجي ينسب إليه، يحتوي على ثلاث كلمات، يكتب: «وتقتل هي الطفل».

لو كنتُ قد قرأت هذه الكلمات منذ سنوات، بوجود سلطة كاهن وراءها، كنت سأضطر إلى تجريمها.

شهادة روزان عن نفسها

أصبح جون كين أكثر غموضا مع مرور الوقت. فهو لا يتكلم على الإطلاق الآن، ولكن ارتسمت ابتسامة على وجهه هذا الصباح. فقد بذل بالتأكيد جهدا غريبا ليخرج بنصف ابتسامة. يبدو أن الجانب الأيسر من وجهه قد ترهل قليلا. أثناء خروجه، تمكن من رطم لوح الأرضية الفضفاض بحذائه. ترى هل فعل ذلك ليشير لي أنه يعلم أن شيئا ما هناك. أعتقد ليس بإمكانه أن يعرف أن ذلك الشيء ذو قيمة على أي حال، أو أنه ليس من طباعه أن يبحث ما أسفل لوح الأرضية. كنت أحاول أن أتذكر بينما كنت واقفة بجانب النافذة أراقبه منذ متى أعرفه. يبدو أن معرفتي به تمتد إلى زمن الطفولة البعيدة للغاية، لكن هذا ليس صحيحا. إنه وقت طويل جدا على أي حال. يجب أن أقول كان يرتدي نفس معطف الجينز الأزرق منذ حوالي ثلاثين عاما. وهو ما يتطابق مع ملابسي الرثة. أخجلني ردائي في ضوء النافذة، لأنه كان بإمكاني أن أرى كيف تناثر وتلطخ الجزء الأمامي منه. كان إحساسي هو الانسحاب من الضوء، لكن بعد أن ابتعدت عن

السرير لهذا الحد، لم أستطع التخلي عن التقدم. أردت أن أسأله عن مدى تقدم الربيع في الخارج، الآن بعد أن كشف عن نفسه كعالم نباتات، أو شيء كهذا. الأبيض والأصفر والأزرق هو التسلسل. بدأت زهرة اللبن الثلجية وزهرة النرجس وزهرة الأجراس الزرقاء، وعندما تأتي أزهار النرجس على أزهار اللبن الثلجية فإنها تذبل وتموت. ترى لماذا الأمر هكذا؟ ترى لماذا يكون أي شيء؟

ثم أصبت بدوار شديد عند النافذة وشعرت بأن أطرافي تترنح، كما لو أن مفاصلي تريد أن تطرحني أرضا. رفعت ذراعَي وحاولت أن أوازن نفسي تجاه الجدار. وللحق، فإن جون كين ما كاد يخرج إلى الممر حتى عاد وساعدني على الوصول إلى السرير، رغم أن هذه ليست مهمته. كان لطيفا جدا وكان لا يزال يبتسم. نظرت إلى الأعلى في وجهه. لديه شعر على وجهه ليس لحية تماما، مثل نبات الخلنج غير المكتمل في المستنقعات. عيناه زرقاوان تماما. ثم أدركت أنه لم يكن يبتسم حقا، لكن فمه كان عالقا بطريقة ما، ويبدو أنه لا يستطيع تحريكه بسهولة. أردت أن أسأله عن هذا، لكنني لم أرغب في إحراجه أو إزعاجه. أعتقد أن هذا كان غباء مني.

لم يمض وقت طويل بعد زيارة الأب غانت حتى بدأت أتجول فوق الكثبان الرملية لشاطئ ستراندهيل في ليلة مقمرة منعشة. منذ أن جاء لرؤيتي شعرت أنني محجوزة تماما في الكوخ الحديدي، كما لو كان حضوره ما زال الآن في الغرفة بشكلٍ ما. كنت أنتظر الظلام بفارغ الصبر كل ليلة، والذي منحني على الأقل حرية الاستمتاع بالكثبان الرملية والأهوار.

لم تكن لدي رغبة في أن يراني أي أحد أو التحدث مع أي أحد. أحيانا ما أكون أتمشى في الخارج في حالة ذهنية غريبة لدرجة أنني أود أن أسرع إلى المنزل في أدنى إشارة من أي شخص. في الواقع، كانت

هناك أوقات كنت أتخيل أنني أرى أشخاصا من المحتمل أن لا يكونوا موجودين، حيلٌ صغيرة مثل عشب المرام أو ما شابه ذلك، ارتفاع طائر المستنقعات؛ على وجه الخصوص بدوت وكأنني مسكونة بشكلٍ بشري أحيانا يظهر، يبدو وكأنه يظهر، في الأطراف البعيدة من حيث أكون، في ما يمكن أن يكون ببدلة سوداء، وما قد يكون قبعة بنية، حتى عندما جمعت قواي وسرت نحوه، في المرات القليلة التي ظننت أنني رأيته، اختفى فجأة. لكن مثل هذه الأمور كانت من طبيعة تلك الأيام.

أتذكر هذه الليلة على وجه الخصوص لأنها على الأرجح الشيء الوحيد الأكثر غرابة الذي شاهدته على الإطلاق، لكوني رأيت بعض الأشياء الغريبة في حياتي.

يجب أن أكون حذرة للغاية مع هذه الذكريات لأنني أدركت أن هناك بعض الذكريات الحية من هذا الوقت المضطرب، والذي أعرف من صميم قلبي أنه لا يمكن أن يكون قد حدث. لكنني لا أعتقد أن هذه الليلة هي واحدة من تلك الذكريات، حتى إنها كانت بعيدة الاحتمال.

إنها نوع من الخجل من نفسي فبدل التسلق إلى قمة تلك الكثبان الرملية نفسها، وهو ما كنت أحب أن أقوم به سابقا، وعلى الرغم من أنه كان يعرضني لمجازفة مواجهة المرتبطين بعلاقات حميمية، بل وحتى التعثر بهم، فقد مشيت مباشرة إلى حافة كل شيء، إلى حيث يتدفق مياه نهرٍ ضيقٍ عميقٍ إلى البحر، وفي النهار يصبح مرتعا لمأدبة غداء للطيور البحرية.

وقفت على الرمال. كان المد بعيدا، وكان كل شيء هادئا تماما. بعيدا على يمين نوكناريا، بعض الطرق الصغيرة الملتوية رحبت بأضواء سيارة غير مرئية، تظهر وتختفي. لكنها كانت بعيدة جدا فلم تصل إلى مسامعي.

لم تكن هناك رياح وكانت السماء شاسعة وذلك اللون الأزرق الذي قد اكتسبته من ضوء القمر. كان من السهل جدا افتراض أن أحد الكائنات البشرية هو العنصر الأقل أهمية هناك. وقف البحر فدانا بعد فدان من المياه المنعزلة الحالمة.

ثم من بعيد، هذا الهدير الخفيف. في الواقع نظرت ورائي، ظننت أنه قد يكون هناك كلب مسعور أو شيء من هذا القبيل على الشاطئ. لكن لا، كان الصوت يأتي من بعيد عن يميني. نظرت نحوه، على طول الشاطئ الخالي، إلى الأضواء الصغيرة للمباني القليلة الموجودة على الشريط الذي يبعد حوالي ثُمن ميلٍ. هناك رأيت ما شابه خيطا من الضوء الأصفر الثاقب يبدأ بالنمو في الأفق، أفق نصفه أرض ونصفه بحر.

اعتقدت أن الله سيقضي بمحوي تماما كما فعل الأب غانت. لا أعرف لماذا اعتقدت ذلك، إلا أنني شعرت بالذنب.

نما ونما الخيط اللامع الرفيع. ازدادت الضوضاء أيضا، وتحت قدميّ العاريتين ظننت أنني شعرت بالرمل يهتز، يهتز في الأعماق تحتي، كما لو كان شيء ما يرتفع من خلال الأرض. اتسعت الأضواء وازدادت ارتفاعا، ثم صارت هديرا، وحشدٌ يتوالى بعد حشد، ثم أصبحت ما يشبه حافة بساط سحري طائر من الوحوش، ثم تعالت تلك الضوضاء إلى ضجيج شلال هائل، وكنت نظرت للأعلى، فعلا مثل امرأة مجنونة، بالتأكيد كنت أشعر تماما بفقدان عقلي، جاءت الضوضاء والأضواء كثيفة وكثيفة، وأكبر وأكبر، حتى استطعت أن أرى البطون المستديرة لأجزاء خاصة منها، وأنوفها معدنية، وأسمع أزيزا هائلا، وكانت هي الطائرات، العشرات منها، وربما المئات، وكلها تشبه الحيوانات في ضوء القمر، ولكن بشكل غريب، مع النوافذ الصغيرة الرفيعة المرئية في المقدمة، وربما كان الأمر جنونا حقا، لكنني ظننت

أنني أستطيع أن أرى رؤوسا ووجوها صغيرة، وكلها كانت في تشكيل كما يقولون، قاتمة، كارثية، مثل شيء من نهاية العالم. ولأن الطائرات كانت كلها تطير معا، فقد ازداد ضجيجها حقا إلى آخر الحدود، شيء خارج عن البوح، وكانت السماء مليئة بها فوق رأسي، المعدن، الضوء والمناورة، وانكبوا فوقي، كانوا يطيرون قريبا جدا من الماء مما جعل قوة المحركات تمتص المياه، وقطع الماء في صفائح ممزقة، والتي سقطت مرة أخرى على سطح الماء بصوت يشبه هسهسة الثعبان، ويمكنني أن أشعر بالطائرات تسحبني، تسحب الشاطئ، تحاول أن تزعزعنا من أماكننا، تحاول سحب عقلي خارج جمجمتي، وعيناي من تجويفهما، ثم كانوا يتدفقون فوقي، صفا بعد صف، هل كان هناك خمسون منهم، مئة، مئة وخمسون؟ لدقائق كاملة صارت تتدفق، ثم تبدأ في الابتعاد أكثر، تاركة فراغا كبيرا في السماء، تاركة صمتا على ما أعتقد أكثر إيلاما من الضوضاء، كما لو أن تلك الطائرات الغامضة قد سلبت الأوكسجين من هواء سليغو. وابتعدوا، وهم يزعجون ويشوشون الساحل الأيرلندي.

بعد بضعة أيام كنت في الخارج على الشرفة الخاصة بمنزلي، وألهو بزهوري. لقد كان نشاطا جلب معه بعض الراحة حتى في محنتي. لكن اتضح لي بعد ذلك أن أي جهد في البستنة، حتى لو كان عشوائيا، مثل مجهودي غير المستمر، هو مجهودٌ لجلب ألوان ومعنى الفردوس إلى الأرض. كان الجو باردا في ذلك اليوم وقد اقشعر ذراعاي. كان وجود الورد بحد ذاته، والذي لم تسبق رؤيته بعد، تنغلق بإحكام شديد وغموض على براعمها الخضراء، يجعلني أصاب بالدوار تقريبا.

نظرت للخلف من فوق كتفي الأيمن لأنني سمعت شخصا يتحرك على طول الطريق. كان شخصا ما أو شيئا من هذا القبيل، ربما

كان حمارا عجوزا يجر حوافره على طول الطريق، حسب تفسيري للأصوات. لم أكن أرغب حقا في أن يراني لا إنسان ولا وحش، على الرغم من وجود مثل هذه الراحة عند وردي. ربما سيكون هناك مظهر جديد لهذا الورد هذا العام، ليس «سانت آن» أو «ماlميزون» بالضبط، ولكن سيتحول ببطء إلى سليغو، «سوفينير دي سليغو»، ذكرى سليغو. لكنه لم يكن حمارا، لقد كان رجلا، رجلا غريبا جدا، كما تخيلت، لأن شعره كان لاصقا بإحكام على رأسه بشكل من التجعد، مثل الزنجي عازف الجاز، وكان اختياره لطقم ملابسه من اللون الرمادي الداكن الغريب. لا، لم يكن طقم ملابسه، كان زيا موحدا من نوع ما، حتى إنه أزرق بصورة غريبة. ولدهشتي رأيت أنه جاك. وبطبيعة الحال، فإن ذلك يفسر الزي الموحد، لكونه بعيدا في الهند أليس كذلك، يحارب باسم الملك، ولكن إذا كان بالفعل بعيدا في الهند فما الذي أتى به إلى هنا في ستراندهيل، في البلد الذي كان خاليا من الناس؟

ثم بدا الجو فجأة أكثر برودة من برودة ساحل البحر الأيرلندي الغادر، وبدا أن هناك قشعريرة تضاف إلى القشعريرة التي لدي. ألم يكن هذا الشبح الغريب عدوي الآن؟

«جاك؟» صرخت على أي حال، وألقيت الحذر أدراج الرياح. كان لدي ظنٌ جنوني أنه ربما قد جاء لمساعدتي. ولكن ماذا قد حدث له؟ الآن أصبح أقرب مني وبدا أكثر غرابة، لو لم أكن أجيد وصفا أفضل، لقلت إنه قد تعرض للحرق بعض الشيء، لقد احترق حقا.

توقف الرجل على الطريق، ربما مندهشا لأنني تحدثت إليه. في الحقيقة بدا خائفا.

قلت: «جاك ماكنلتي؟»، كما لو أن ذلك كان مفيدا. من المؤكد أنه يعرف اسمه. الآن أنا متأكدة من أنني بدوت متشككة كما هو كذلك.

تكلم مثل رجل لم يتكلم منذ عدة أيام، وكانت الكلمات متعثرة من شفته.

قال: «ماذا؟ ماذا، ماذا؟».

بدا خائفا للغاية فذهبت إلى الطريق المؤدي إلى البوابة ووقفت بالقرب منه. توقعت أنه قد يركض بعيدا إلى آخر الطريق، مثل الحمار في النهاية. لكنني كنت مجرد امرأة ضئيلة في ثوب قطني.

قلت: «أنت لست جاك ماكنلتي، أليس كذلك؟ أنت بالتأكيد تشبهه».

قال: «من أنت؟»، وحدق في البحر كما لو أنه يخاف من الكمين.

قلت له: «أنا لا أحد»، مما يعني أنه ليس عليه أن يخشى مني. «أنا روزان، زوجة توم، كما كان من المحتمل».

قال: «أوه، لقد سمعت عنك»، لكن دون استهجانٍ متوقع. بدا فجأة سعيدا جدا للتحدث معي، لمقابلتي. رفع يده اليمنى للحظة كما لو كان ينوي مصافحتي، لكنه تركها تسقط. «نعم».

شعرت بالارتياح الشديد، لقد كنت سعيدة جدا لأنه كان على هذا المزاج معي لدرجة أنني أردت أن أمزح معه، لأكون لطيفة معه، لأخبره بكل الأشياء التي حدثت، حتى الأشياء البسيطة، مثل اثنين من الجرذان في ليلة البارحة، رأيتهما يحملان بيضة تخصني من خلال ثقب في جدار الكوخ، حفرة صغيرة جدا لدرجة أن أحد الجرذان قد وضع البيضة على بطنه وترك الجرذ الآخر يسحبه عبر الفجوة! يا له من هزل. لكنها تلك المودة في صوته، مجرد الود البسيط، وهو الشيء الذي لم أسمعه منذ فترة طويلة، ولم أكن حتى أعرف أنه قد فاتني.

قال: «أنا إينياس، شقيق توم».

قلت: «إينياس؟ ما الذي تفعله هنا؟».

قـال: «أنـا لسـت هنـا بالفعـل. لا ينبغـي أن أكـون هنـا، وسـأرحل قريبـا».

«ما الأشياء التي على جسمك؟».

قال: «أي الأشياء؟».

قلت: «أنت مكسوٌّ بالسواد، ورمادي، مثل الرماد».

قـال: «أنـا كذلـك. كنـت في بلفاسـت. كنـت سـأعود إلى فرنسـا، كـما تعلمـين. أنـا جنـدي».

قلت: «مثل جاك».

مثـل جـاك، بيـد أنـه ضابـط. كنـت في بلفاسـت، روزان، أنتظر سـفينتي، أنـام في فنـدق صغـير، عندمـا علـت صافـرات الإنـذار الرديئـة والقليلـة التـي كانـت موجـودة هنـاك، وفي غضـون بضع دقائـق، دخلـت القاذفـات، العـشرات والعـشرات والعـشرات منهـا، يقذفـون قنابلهـم كـما يشـاؤون، ولا مقاومـة في السـماء مـن سـلاح مضـاد للطائـرات، ولا نفخـة، وانفجـرت المنـازل والشـوارع مـن حـولي. كيـف خرجـت، ركضـت مثـل الشـيطان عـلى طـول الطـرق، وأنـا أصرخ بـلا شـك، وأردد صلـوات غليظـة مـن أجل سـكان بلفاسـت، وسرعـان مـا كان هنـاك المئـات في الشـوارع، كلهـم يفعلـون نفس الـشيء مثـلي، أنـاسٌ في ملابـس النـوم وأشـخاص عـراة كالأطفـال، يركضـون ويصرخـون، وعـلى أطـراف المدينـة واصلنـا السـير، وأمـواج الطائـرات قـد جـاءت خلفنـا، يلقـون القنابـل طـوال الوقـت دون رحمـة، وبعـد سـاعة، أو ربمـا أكـثر، لا أسـتطيع أن أجـزم، كنـت جالسـا عـلى حافـة جبـل ضخـم مظلـم، ونظـرت إلى الـوراء، وكانـت بلفاسـت بحـيرة ضخمـة مـن النـار، تحـترق، وتحـترق، ألسـنة اللهـب تقفـز مثـل مخلوقـات حمـراء، كالنمـور ومـا إلى ذلـك، عاليـا عاليـا في السـماء، وأولئـك الذيـن ركضـوا معـي كانـوا أيضـا ينظـرون، ويبكـون، ويحدثـون أصواتـا مثـل رثـاء الكتـاب المقـدس. وفكـرت في مقتطفـات مـن الكتـاب المقـدس التـي يرغبـون في تقديمهـا

لنا في مهام رحلة البحارة، حيث كنت أتردد على هذه الرحلات قبل الحرب، لكوني مجرد رجل حر، فإن أولئك الذين لم يأت ذكرهم في كتاب الحياة سيتم إلقاؤهم في البحيرة الملتهبة لقد ارتجفت عندما رأيت غضب الرب، لكن هؤلاء الألمان بالأعلى بالقرب من النجوم، ينظرون إلى عملهم بالأسفل، وهم يشعرون بالدهشة مثلنا.

توقف هذا الرجل الذي يدعى إينياس. كان يرتجف مرة أخرى الآن. كان في حالة مزرية. كان انعكاس بحيرة النار تلك لا يزال يحترق في عينيه.

قلت: «تعال إلى الداخل، فقط لدقيقة، واسترح». لا أستطيع أن أقول ما إذا كانت هذه غريزة الأمومة أو الأخوة. لكن فجأة تدفق هائل من الحنان خرج مني إليه. ظننت أنه مثلي بعض الشيء. لقد تم طرده من عالمه، عالم سليغو. ولا أستطيع أن أقول إنه بدا كشرير. لا أستطيع أن أقول إنه بدا وكأنه رجل شرطة قاتل من الزمن الأغبر، من أسطورته، ليس لأنني كنت أعرف أسطورته في ذلك الوقت. وفي الواقع كم كنت أعرف القليل عنه، إذ نادرا ما تحدث عنه إخوته، فقط بتنهدات ثقيلة ونظرات ذات مغزى.

قال: «لا، لا أستطيع. أنت لا تعرفينني. أنا لست رجلا تريدينه في منزلك. سأجلب لك المتاعب. ألم يخبروك بأنه حكم علي بالإعدام؟ يجب حتى أن لا أكون هنا في سليغو. لقد خرجت من بلفاست، وعبر إنيسكيلين، وبالأحرى جئت إلى هنا، مثل حمامة تعود إلى عشها وليس بيدها حيلة».

قلت: «تعال إلى الداخل، ولا تبالِ من أي شيء. أنا زوجة أخيك ومثل أختك بالنهاية. ادخل».

فجاء إلى الداخل. وبينما كان يمشي، سقطت منه ذرات صغيرة من الغبار الأسود. لقد سار كل الطريق من بلفاست، طريقا طويلا

بالفعل، عائدا إلى سليغو مثل الحمامة، مثل سمك السلمون يبحث عن فتحةٍ في غارافوغ. بدا لي أنه أتعس رجل قابلته في حياتي.

عندما أدخلته إلى الكوخ، أشرت له دون التطرق إلى الكثير من التفاصيل أن يخلع زيه الرسمي. كان أول شيء يحتاجه هو كأس ماء يشربه، شربه بشراسة، كما لو أن حريقا بداخله يحتاج إلى إخماد. كان لديّ حمام قديم من الصفيح لاستخدامي الشخصي، ملأته بماء جلبته من البئر بضع مرات، محاولة الحفاظ على نظافة الماء، في الوقت الذي كانت غلايتي تغلي على النار. ثم تمكنت من إزالة الصقيع من الحمام بالماء المغلي، وليس أكثر من ذلك. كل هذا بينما كان الرجل الضئيل المغطى بالرماد يقف في وسط الأرضية بملابسه الداخلية، وقد أدهشتني نظافة تلك الملابس. لقد كان رجلا مرتبا ومهذبا، ليس به أدنى سمنة مثل توم، لا، ولا أستطيع القول عنه شيئا.

قلت: «سأخرج إلى حجرة غسل الأطباق الآن وأضع بعض الجبن في شطيرة».

ومن أجل الحياء، تركته وحده، وكان باستطاعتي أن أسمعه يتعثر قليلا وهو يخلع ملابسه الداخلية، ويقف في الحوض، ويغسل نفسه. أفترض أن رجلا في الجيش مثله كان معتادا على الغسل البارد، كنت أتمنى ذلك. على أي حال، لم يصدر أي صوت منه. عندما توضح لي الموقف ووجدت بأنه مناسب لي، عدت إليه. لقد بدأ يفرك نفسه جيدا فغطته رغوة عارمة، كان الحوض عبارة عن غليان من الصابون المغطى بخطوط الرماد، والآن كان يقف مرة أخرى في وسط الأرضية، يقوم بربط أزرار ملابسه الداخلية. كان شعره الذي يمكنني رؤيته الآن نوعا من الأحمر الخمري، حتى إنه كان محترقا بالقرب من فروة رأسه.

كانت الشمس قد تركت علامات داكنة على بشرته، وكانت يداه خشنتين وأصابعه غليظة. أومأت إليه برأسي كأنني أقول: هل أنت بخير؟ وأومأ إليّ وكأنه يقول: نعم أنا بخير. أعطيته شريحة الخبز السميكة والجبن، والتهمها برفق حيث كان يقف. حينها قال مبتسما: «حسنا، من الجيد أن يكون لديك عائلة».

وضحكتُ.

قلت: «أعرف ما تعنيه».

في الخارج كان الظلام ينسدل وكان البوم رفيقي القديم يشغل محركه (بالنعيق). الآن لم أكن أعرف ماذا أصنع به. بدا أنني أعرفه جيدا، على الأقل تقاطيع جسده ووجهه، وبالطبع لم أكن أعرفه منذ زمن بعيد. ومع ذلك، فهو رجل لطيف وغريب لم أقابله من قبل. كان يقف بهدوء تام مثل الغزلان على الجبل عندما يسمع صوت أغصان صغيرة تتكسر.

قال بكل بساطة وإخلاص: «أشكرك». لقد تأثرت كثيرا لشكري من قبل إنسان آخر. لقد تأثرت كثيرا بسماع إنسان آخر يتحدث معي بلطف واحترام. كنت أقف في سكون الآن أيضا، أحدق فيه، مندهشة تقريبا.

قلت: «يمكنني أن أخرج الزي الرسمي للخارج وأنفض ما علق به، وإلا فلن يجف في الغد».

قال: «لا، اتركيه وشأنه. ليس من المفترض أن أرتديه في الولاية الحرة. سيفي بالغرض كما هو، كله مغطى بهذا الشكل. سأذهب إلى دبلن وأحاول الانضمام مرة أخرى إلى كتيبتي من هناك. سيكون الرقيب قلقا جدا علي».

قلت: «أنا متأكدة من أنه سيكون كذلك».

قال: «أنا جندي صالح، كما تعلمين».

قلت: «أنا متأكدة من أنك كذلك».

قال دون داعٍ: «لست من النوع الهارب من الخدمة العسكرية». أستطيع القول إنه لم يكن من هذا النوع.

قال: «هل تعلمين، لا أقصد أي شيء بهذا، أعني، أنا أقف هنا في ملابسي الداخلية، وأنتِ غريبة، لكن سبب مجيئي إلى ستراندهيل هو أنني كنت على علاقة بفتاة، وهي وأنا اعتدنا أن نأتي إلى هنا للرقص بالطبع، وكان اسمها فيف، وقد تم تحذيرها مني، أتعلمين، وأنا لا أراها. لكنني أردت أن أقف على الشاطئ حيث اعتدنا أن نقف، وننظر إلى الخليج. كما تعلمين، شيء بسيط من هذا القبيل. وكانت فيف فتاة جميلة المظهر، كانت بالفعل جميلة. وأردت أن أقول، ولا أعني أي شيء به، لكنك أيضا أجمل شخص رأيته في حياتي، أنت وهي».

حسنا، كان هذا خطابا جميلا. ولم يقصد به أي شيء، إلا إذا كانت هي الحقيقة. فجأة شعرت بدفقٍ من الفخر، والذي لم أشعر به منذ فترة طويلة. هذا الرجل، وهو لا يعرف، تحدث مثل والدي عندما أراد والدي أن يقول شيئا مهما. كان هناك نوع من التخبط القديم والغريب، كأنه خارجٌ من كتاب، نفس الكتاب الذي ما زلت أحرسه وأعتز به، كتاب توماس براون العجوز ريليجيو ميديسي. وكان صبيا من القرن السابع عشر، لذا لا أعرف كيف تسللت تلك اللغة إلى إينياس ماكنلتي.

قال: «أعلم أنك امرأة متزوجة، لذا أرجوكِ سامحيني وأنت متزوجة من أخي».

قلت: «لا»، لأجل الحقيقة أيضا، وقبل أن أفكر في الأمر بشكل أفضل قلت: «أنا لست امرأة متزوجة. أو هكذا قيل لي».

قال: «أوه؟».

قلت: «لا. كما تعلم، لقد كان لدي حكم بالإعدام تم نطقه ضدي».

وكان يقف هناك وكنت أقف هناك. وذهبت إليه مثل الفأر، بهدوء، بهدوء، حتى لا أخيفه، وأخذت إحدى يديه القاسيتين، وقدته إلى الغرفة الخلفية، حيث كان صوت البومة يسمع أوضح، ونوكناريا تشاهَد بسهولة أكثر، من سرير الريش الرديء.

ثم بعد ذلك لاحقا، كنا مستلقيين هناك مثل اثنين من تماثيل من الحجر على قبر، سعيدين تماما مثل أي لحظة طفولية.

قال بعد قليل: «أعتقد أن جاك أخبرني بأن والدك كان في البحرية التجارية».

قلت: «أوه، نعم، لقد كان كذلك».

«مثلي وجاك أيضا، كما تعلمين».

«هل صحيح بالتأكيد؟».

«نعم بالتأكيد. وقال إن والدك كان في الشرطة القديمة، أليس كذلك؟».

قلت: «جاك قال ذلك؟».

«أعتقد أنه فعل. وكنت مهتما بسماع ذلك بالطبع، لأنني كنت أنا نفسي في الشرطة القديمة. وهو بالطبع ما كلفني غاليا في النهاية. لكن بالتأكيد، لم نكن نعرف. يبدو أننا نرغب في الاشتراك في كل شيء، صبية ماكنلتي. ها هو جاك الآن في وحدة الهندسة الملكية. وحتى الشاب توم نفسه يسافر إلى إسبانيا مع شخص مثل دوفي، هاه؟».

«أودوفي. هل هو؟ لم أكن أعرف ذلك».

«أودوفي، هذا صحيح. يتوجب علي أن أعرف ذلك لأنه صار رئيس الشرطة الجديدة بعد ذلك. نعم، ذهب توم، قيل لي ذلك».

«وكيف كان مع الأوضاع؟».

«قال جاك إنه عاد بعد أسبوعين. لم يبالِ جاك كثيرا في أن يذهب توم لتقديم الدعم لفرانكو الآن. لا. على أية حال، عاد توم. كان يشعر بالاشمئزاز. ثم انفصل عن أودوفي تماما. لقد جعلهم عالقين في خنادق مع الفئران تأكل أصابع أقدامهم، وأودوفي نفسه بعيد في مكان ما، ولا أشك أنه كان في سالامانكا. مرتاح البال، آه حسنا بالتأكيد».

قلت: «توم المسكين. هذا الزي الجميل، ذهب سدى».

قال إينياس: «أوه، بالفعل. إذن لم يكن والدك في الشرطة؟». قال ببراءة كافية وهو يدردش في ضوء القمر.

قلت: «ما نوع كلام الحب هذا؟». قلت بطريقة أن لا أسيء إلى رجل بريء للغاية. ضحك على أي حال.

قال: «حديث الحب الأيرلندي. المعارك وفي أي صفٍّ أنت».

وضحك مرة أخرى.

قلت: «متى كان كل هذا على أي حال، الذهاب إلى إسبانيا وكل هذه الأشياء؟».

«أوه، في عام سبعة وثلاثين أعتقد. كان هذا منذ زمن طويل، أليس كذلك؟ يبدو كذلك».

«وهل تسمعين أي أخبار أخرى حديثة عن توم؟».

«أوه، فقط إنه توافق، كما تعلم. الرجل القادم وما إلى ذلك، كما تعلم».

ونظر إلي بعد ذلك، ربما خوفا من أنه كان يزعجني. لكنه لم يكن كذلك حقا. كان من اللطيف أن يكون هنا معي. كانت ساقه دافئة جدا على ساقي. لا، لم أمانعه.

كان الطبيب مهتما بي منذ زمن بعيد. لم يعجبه الطفح الجلدي على وجهي، وفي الواقع وجده على ظهري أيضا. ولقول الحقيقة

فإنني كنت أشعر بالتعب قليلا، وقلت له ذلك. كان الأمر غريبا، لأنني عادة أثناء مرور فصل الربيع كنت أشعر بالسعادة والانتعاش. استطعت أن أرى في عين خيالي أزهار النرجس تتوهج على طول الطريق وكنت أتوق إلى الخروج ورؤيتها، ومنحها التحية برفع تلك اليد. يا لها من فترة طويلة تتربص البذور تحت الأرض الباردة الرطبة، وبعد ذلك تظهر المتألقة. كان ذلك غريبا، وقد أخبرته بهذا.

قال إنه لا يحب أنفاسي أيضا، وقلت إنني أحب ذلك بما فيه الكفاية، وضحك، وقال: «لا، أعني، لا أحب تلك الخشخشة الغريبة في صدرك، أعتقد أنني سأعطيك بعض المضادات الحيوية».

ثم قدم لي أخبارا حقيقية. قال: الجزء الرئيسي للمستشفى قد تمت إزالته، والجناحان الموجودان بجواري هما الوحيدان اللذان لا يزالان يعملان.

سألته إذا كان قد تم نقل السيدات العجائز وقال أجل. قال إنها كانت مهمة مزعجة، بسبب الألم والتقرحات الناتجة عن النوم لفترات طويلة بالفراش. قال إنني كنت حكيمة للغاية بالاستمرار في التحرك، وإنني لم أعانِ من تقرحات الفراش. قلت إنني أصبت بها عندما ذهبت إلى سليغو لأول مرة ولم أطقهم كثيرا. قال: «أعرف».

قلت: «هل يعرف الدكتور غرين بهذه التغييرات؟».

قال: «أوه، نعم، لقد دبر الأمر برمته».

«وماذا سيحل بالمكان القديم الآن؟».

وقال: «سيتم هدمه في الوقت المناسب. وبالطبع سوف يتم وضعك في مكان جديد لطيف».

قلت: «أوه».

شعرت بالهيجان فجأة، لأنني كنت أفكر في تلك الصفحات تحت الأرض. كيف يمكنني جمعها وإبقاؤها بسرية إذا تم نقلي؟ وإلى أين سيتم نقلي؟ كنت في حالة اضطراب الآن، مثل فتحة في الجرف الخلفي لخليج سليغو يخرج منه الهواء، عندما يأتي المد ويدفع الماء إلى الصخر.

«ظننت أن الدكتور غرين قد ذكر كل هذا، وإلا لم أكن قد قلت أي شيء. لا يوجد داع للقلق».

«ماذا سيحل بالشجرة في الأسفل وأزهار النرجس؟».

قال: «ماذا؟ أوه، أنا لا أعرف. مهلا، سأطلب من الدكتور غرين مناقشة كل هذا معك. كما تعلمين. هذا هو قسمه وأنا أخشى أنني قد أطلت فيه، يا سيدة ماكنلتي».

كنت حينها متعبة للغاية لكي أشرح من جديد، للمرة المليون في ستين عاما وأكثر، أنني لست السيدة ماكنلتي. لم أكن أحدا، لم أكن في الحقيقة زوجة أي شخص. كنت فقط روزان كلير.

الفصل التاسع عشر

مذكرات الدكتور غرين

فاجعة. الطبيب الدكتور وين، بعد أن صعد للكشف عن حالة روزان بناء على طلبي، ودون قصد أفشى بالسر فيما يتعلق بالمشفى. أعني، أعتقد أنها كانت تعرف على ما أظن، أن شخصا ما كان سيخبرها. إذا فعلوا ذلك، فقد طارت المعلومات من رأسها. كان علي أن أكون أكثر حكمة وأن أجهزها لذلك. مع الأخذ بالاعتبار أنني لم أكن أعرف كيف سأخبرها بالأمر، من دون أن أحدث نتيجة مماثلة. بدت أكثر حزنا لأن السيدات العجائز طريحات الفراش قد رحلن. في الواقع، أشعر أننا قد تقدمنا جميعا بشكل أسرع بكثير مما أردناه، لكن المنشأة الجديدة في مدينة روسكومن ستكون جاهزة بعد فترة، وكانت هناك شكاوى في الصحف من أنها قد تكون غير مستخدمة. لذا فقد نجحنا في حث أنفسنا على المضي قدما. الآن كل ما تبقى هو الناس في مبنى روزان وجناح الرجال في الغرب. معظمهم من غريبي الأطوار القدامى من نوعٍ أو آخر، يرتدون ملابس المستشفى السوداء. كما أنهم غير سعداء مطلقا لسماع خطط وشيكة، وفي الواقع ما يؤخر كل شيء الآن هو أنه لا يوجد مكان يذهبون إليه. لا يمكننا أن نضعهم على قارعة الطريق، ونقول، حسنا، أيها الفتيان، لقد تركوكم وشأنكم. يتجمعون عليّ

مثل الغربان، عندما كنت أتحدث معهم في الفناء حيث يمشون قليلا ويدخنون. هؤلاء هم بعض الرفاق الذين كانوا في منتهى الفائدة في الليلة التي اندلعت فيها النيران بالمستشفى، وكثير منهم حمل سيدات كبيرات في السن على ظهورهم، ونزلوا على السلالم الطويلة، وهذا أمر مذهل للغاية، وبعد ذلك يتفكهون بأنهم منذ فترة طويلة لم يخرجوا مع فتاة، أولم يكن لطيفا أن يرقصوا رقصة فوكستروت مرة أخرى، وما يصاحبها من الدعابات. من المؤكد أن معظمهم ليسوا مرضى عقليين، فهم مجرد مخلفات النظام، كما سبق لي أن سمعت ذات مرة أنه يطلق عليهم «مخلفات». أعرف جيداً أن أحدهم قاتل ببسالة في الكونغو مع الجيش الأيرلندي. عدد قليل منهم في الواقع رجال جيش سابقون. أعتقد أننا نفتقر إلى مكان مثل ثكنات تشيلسي، أو دار الجنود المسنين في باريس. من سيكون جنديا قديما في أيرلندا؟

في الواقع كانت روزان تتعرق في سريرها عندما دخلت عليها. قد يكون بسبب آثارٍ جانبية للمضادات الحيوية، لكنني أظن أنه كان مجرد هلع. قد يكون هذا مكانا فظيعا في حالة فظيعة، لكنها مخلوق بشري مثلنا، وهذا بيتها، أعانها الله. لقد فوجئت بوجود جون كين هناك، بصوته المكركر مثل الديك الرومي، الرجل المسكين، وعلى الرغم من أنني كنت متشككا في أمره، فقد بدا في الواقع مهتما بها، قد يكون محتالا، أو أسوأ من ذلك.

للحقيقة دعني أقل إنني لست متفائلا جدا بشأن كل هذا، وأشعر كثيرا في عجلة وضيق، ولكن على الرغم من ذلك، يجب أن يكون أمرا جيدا أن تحصل على مبان جديدة، وليست مباني مليئة بمياه الأمطار في بعض الغرف، وبشقوق في ألواح السقف بحيث لا يمكننا إقناع أحد بالمخاطرة في تصليحها، لأنني متأكد

من أن الأخشاب نفسها ستتلف. نعم، نعم، إنه فخ الموت، المبنى بأكمله، ولكن في نفس الوقت تم تجاهل عنصر انخفاض قيمته بشكل فاضح ولم يتم تمويله أبدا، وما كان من الممكن صيانته تم التخلي عنه ليذهب إلى الجحيم. ونوعٌ من مخلوقات الجحيم ظهر على الأرجح للعين غير المدربة. ليس لعين روزان.

نهضت روزان عندما رأتني وطلبت مني أن أذهب إلى طاولتها وأبحث لها عن كتاب. لقد كان كتابا يُدعى ريليجيو ماديسي. تلك النسخة القديمة جدا التي جنى عليها الزمن، والتي طالما لاحظتها كثيرا عند مروري بها. قالت إنه الكتاب المفضل لوالدها، هل أخبرتني بذلك، فقلت لها، نعم، أعتقد ذلك.

قلت إنني اعتقدت أنها ربما أظهرت لي اسم والدها في الكتاب ذات مرة، نعم. قالت آنذاك: «عمري مئة عام، وأريدك أن تفعل شيئا من أجلي».

قلت: «وما هو؟» متسائلا، وقد عادت بشجاعة من ذعرها إذا كان هذا ما شعرت به، لو أنها كانت قد شعرت، وصوتها متزنٌ مرة أخرى الآن، حتى لو كانت ملامحها القديمة لا تزال مشتعلة من الطفح الجلدي اللعين. يبدو أنها قفزت عبر ساحة نيران مشتعلة وغمست وجهها في الحرارة.

قالت: «أريدك أن تعطي هذا لطفلي». قالت: «إلى ابني».

قلت: «ابنكِ؟».

«يا روزان، أين ابنك؟».

قالت: «لا أعرف»، وقد اكفهرت عيناها وفجأة كاد يغمى عليها، ثم بدت وكأنها استعادت وعيها مرة أخرى. «لا أعرف. الناصرة».

«الناصرة طريق طويل». قلت لها مازحا معها.

قالت: «دكتور غرين، هل ستفعل ذلك؟».

قلت: «سأفعل، سأفعل»، وأنا متأكد تماما من أنني لن أفعل، ولن أكون قادرا على ذلك، مع الأخذ في الاعتبار ما كنت أعرف من تصريح الأب غانت الصريح في وثيقته. وعلى أية حال ثمة وقت شاسع بينهما. سيكون طفلها أيضا كهلا الآن بالتأكيد، حتى لو كان على قيد الحياة. على ما أعتقد فإنني قد سألتها: هل قتلت طفلك؟ أعتقد أنني ربما سألتها ذلك، لو كنت أنا مجنونا تماما. لا، لم يكن هذا سؤالا يمكن طرحه بشكل لطيف، حتى على نحوٍ احترافي. وعلى أي حال، فقد زودتني بإجابات لأسئلة لم أطرحها. لا شيء يمكن أن يغير رأيي في حالتها من الناحية الطبية.

أوه، وفجأة شعرت بالتعب والإرهاق، كما لو كنت أعيش طوال سنواتها وأكثر. مرهق، لأنني لم أستطع أن أعيدها مرة أخرى إلى «الحياة». لم أستطع فعل ذلك. لم أستطع حتى أن أعيد نفسي.

قالت وهي تنظر إلي بحدة: «أعتقد أنك ستفعل. آمل ذلك على أي حال».

ثم أخذت الكتاب من يدي بشكل غير لائق ووضعته مرة أخرى في يدي، وأومأت برأسها، كما لو كانت تقول: تأكد من قيامك بذلك.

شهادة روزان عن نفسها

أنا لست على ما يرام، على ما يبدو، أنا متوعكة، لكنني بحاجة إلى الاستمرار في هذا لأنني قادمة إلى الجزء الذي يتوجب عليّ أن أخبرك به.

عزيزي القارئ، يا إلهي، د. غرين، أي أحدٍ كنت.

بغض النظر من تكون، أتعهد لك بحبي مرة أخرى.. أنا أمزح. أرفرف بجناحي الثقيلين.

ربما. هل تعتقد ذلك؟

أتذكر طقس فبراير الرهيب، الكئيب، المظلم، وأتذكر أسوأ أيام حياتي وأكثرها رعبا.

ربما كنت في ذلك الوقت في الشهر السابع. لكن لم أتمكن من تحديده بالضبط.

كنت أزداد ثقلا لدرجة أن معطفي القديم لم يكفِ لإخفاء «حالتي» في المتجر في ستراندهيل، على الرغم من أنني اخترت فقط الساعات الأخيرة من الظلام في يوم العمل للذهاب إلى هناك، وبهذه الطريقة كان الشتاء رحمة، يصبح الجو مظلما في الرابعة.

عندما نظرت إلى نفسي في مرآة خزانة الملابس، رأيت شبح امرأة يكسوها البياض ذات وجه طويل بشكل غريب، كما لو أن ثقل بطني كان يسحبني في كل مكان، مثل تمثال يذوب. ثم برزت السرة من بطني للخارج مثل أنف صغير ويبدو أن الشعر الموجود أسفل بطني قد نما إلى ضعف طوله.

كان لدي شيء ما بداخلي، مثل النهر الذي في داخله شيء عندما كان السلمون يجري فيه. إذا كان لا يزال هناك سمك السلمون في غارافوج البائس. في بعض الأحيان كان الحديث في المحل عن النهر، وكيف تدهور من جراء الطمي بسبب الحرب، لأن الأرصفة والمرفأ في البلدة نفسها كانت مغلقة طوال مدة الحرب، ولم تعد الجرافات تسحب الحاويات الكبيرة من الطين والرمل. تحدثوا عن الغواصات بالخارج في خليج سليغو، والنقص، وندرة الشاي والوفرة الغريبة لأشياء مثل مسحوق بيتشام. ربما ذكروا أيضا ندرة الرحمة. لم تكن هناك سيارات على الطرقات، وكان كوخي يعم بالصمت معظم الليالي، على الرغم من أن الدراجات الهوائية والمشاة والمهر والعربات كانت تشق طريقها للمرقص.

شخص ما في سليغو قد حصل على عربة للنقل الجماعي تأتي زاحفة فوق الرمال مع حمولتها من المحتفلين مثل مركبة ضلت طريقها من قرن آخر. أرسل البلازا بعض الومضات الضوئية التي ربما كانت بمثابة منارة لأي طائرات ألمانية في السماء، والتي رأيت مثلها أثناء عودتها من عملياتها في بلفاست، لكن لم يتساقط على هؤلاء الراقصين سوى الوقت.

كنت فقط المراقب لهذه الأمور. أتساءل ما شهرتي في تلك الأيام، المرأة في كوخ من الحديد المموج، المرأة الساقطة، الساحرة، المخلوق الذي «تجاوز الحدود». كما لو كان هناك شلال على حافة عالمهم يمكن للمرأة أن تغتسل، مثل نياجرا غير مرئية في الحياة اليومية. جدار شاسع الارتفاع من الماء المغلي الضبابي.

ذات يوم نظرت إليّ امرأة جميلة المظهر ترتدي معطفا بياقة من الفراء، وهي تمر. كانت أنيقة للغاية، مع حذاء أسود مصقول وشعر بني، كانت تسريحة شعرها نتيجة قضائها ساعات طويلة عند مصفف الشعر. كان ثمة منزل قديم له جدار عالٍ على الطريق المقابل لكوخي، وكانت ذاهبة إلى هناك، حيث يسمع صوت حفلة في مكان ما، وكان الغراموفون يعزف تلك الأغنية لغريتا جاربو التي كانت تغنيها. ظننت أنني أعرف المرأة، حتى إنني توقفت بشكل غير معهود على الطريق، دون أن أقصد ذلك، كما لو أن الأمر في أيام أخرى. لدهشتي كثيرا، عندما ألقيت نظرة خاطفة على البوابات، رأيت جاك ماكنلتي، مرتديا أكثر المعاطف روعة كالعادة، لكن يجب أن أقول أيضا إن وجهه بدا مخطوفا ومرهقا. أو ربما رأيت كل شيء بهذه الأحوال في تلك الأيام. لذلك تساءلت إن كانت هذه هي ماي الشهيرة، فتاة غالواي العظيمة التي تزوجها. لقد كانت أخت زوجي، على ما أظن ربما هي كذلك.

بـدت فجـأة غاضبـة ومتضايقـة. أنـا متأكـدة مـن أن مظهـري كان أعجوبـة، في معطفـي البائـس الـذي لم يكـن كفـوءا أن أكتـب عنـه كثيرا، وحـذائي البنـي الـذي تحـول إلى حـذاء خشـبي مـن نـوع مـا لأنـه لم يكـن لـديّ أربطـة لـه، كان بحاجـة إلى أربطـة طويلـة رقيقـة مـن متجـر في ستراندهيل يتفاخـر أنـه لا يوجـد منهـا لديـه. نعـم، ربمـا أظهـرت أسـفل سـاقي أننـي لا أمتلـك جـوارب، وهـذه حسـب علمـي جريمـة، وبالنسـبة لانتفـاخ البطـن تحـت المعطـف.

قالـت: «لقـد اجتزنـا النهايـة العميقـة، أليـس كذلـك؟» هـذا كل مـا قالتـه. ثـم مـرت عـبر البوابـات. لقـد اهتممـت بهـا، مندهشـة مـن الكلـمات، لكننـي كنـت أيضـا أتسـاءل كيـف قـد قصدتهـا، بقسـوة، يائسـة، واقعيـا؟ كان مـن المسـتحيل بالنسـبة لي أن أعـرف. ذهـب الزوجـان معـا داخـل المنـزل، دون أن ينظـرا إلى الـوراء، لئـلا، حسـب اعتقـادي، تتحـول مـاي إلى عمـود مـن الملـح وهـي تنظـر خلفهـا إلى سـدوم.

كان الطقـس يـزداد سـوءا وكنـت أزداد توعـكا. لم يكـن الأمـر مجـرد الغثيـان في الصبـاح، والخـروج مـن الجـزء الخلفـي مـن الكـوخ عـلى عشـب المـرام والخلنـج للتقيـؤ في مهـب الريـح. لقـد كان نوعـا مختلفـا مـن المـرض، بـدا أنـه شيءٌ يحرقنـي في سـاقي ويـؤلم معـدتي. كنـت قـد أصبحـت أثقـل لدرجـة أنـه كان مـن الصعـب عـليّ أن أنهـض مـن مقعـدي، وكان لـدي ذعـرٌ شـديد مـن أن أعلـق فجـأة هنـاك، تقطعـت بي السـبل، وكان خـوفي الأكـبر عـلى الطفـل. كان بإمـكاني أحيانـا أن أرى مرفقـه وركبتـه الصغيريـن يـبرزان تحـت جلـدي، ومـن يخطـر ببالـه أن يجلـب خطـرا عـلى مثـل هـذا الـشيء؟ لم أكـن أعـرف عـدد الأشـهر، وكنـت مرعوبـة للغايـة أن أبـدأ في ولادة الطفـل، بعيـدة عـن أي شـخص يمكنـه مسـاعدتي. تمنيـت لـو تحدثـت مـع أمـي مـرارا

وتكرارا، أو اتصلت بجاك، ولا أعرف لماذا لم أفعل ذلك، باستثناء أن حالتي كانت واضحة وجلية بالنسبة لهم، ولم يبال أحدٌ منهم بمساعدتي. كنت أعلم أن النساء المتوحشات في سهول أمريكا يذهبن إلى الأحراش وحدهن ليلدن أطفالهن، لكنني لم أرغب في أن تكون ستراندهيل هي أمريكا بالنسبة لي، وعلي أن أجرب القيام بشيء فريد للغاية ومليء بالمخاطر. بينما كنت وحدي، تعلمت خطة بسيطة حول التكتم والبقاء على قيد الحياة، لكنني الآن كنت أبتعد كثيرا إلى ما وراء ذلك. لقد رجوت من الله أن يساعدني، وقلت للأب ألف مرة، إن لم أكن جاثية على ركبتي، فبالضرورة كنت في كرسيي. كنت أعلم أنني يجب أن أفعل شيئا، ليس من أجل نفسي، حيث كان من الواضح أنه لا تنفع معي المساعدة أو العواطف، ولكن فقط من أجل الطفل.

في يوم ما في تلك الأيام من شهر فبراير، انطلقت على الطريق إلى مدينة سليغو. لقد أمضيت ساعة أو ساعتين في الاستحمام. في الليلة السابقة كنت قد غسلت ثوبي، وحاولت تجفيفه طوال الليل قبل أن تخمد النيران.

كان رطبا قليلا عندما ارتديته. وقفت أمام المرآة ومشطت شعري مرارا وتكرارا بأصابعي، لأنني أقسم إنه لم يكن باستطاعتي العثور على فرشاتي. كان لدي القليل من أحمر الشفاه باقٍ في الأنبوب، لطخة أخيرة على الشفاه. تمنيت لو كان لدي بعض من المسحوق لمسح بشرتي، وكل ما أمكنني فعله هو إزالة بعض الدهان القديم في الجزء من الكوخ الذي كان عبارة عن المدفأة، وهو مبني من الحجر الصلب، فتَتُّه في يدي، وحاولت تلطيخ وجهي بالتساوي. كنت سأذهب إلى المدينة نفسها، وكان علي أن أكون محترمة إلى حد ما. رسمت نفسي مثل مايكل أنجلو على سقفه. لم

يكن بإمكاني فعل أي شيء بخصوص معطفي، لكنني مزقت شريطا من ملاءة سريري، ولففته حول رقبتي كوشاح. لم يكن لدي قبعة، لكن على أي حال، كانت الرياح شديدة لدرجة أن القبعة على رأسي طويلا. ثم انطلقت، اندفعت إلى أعلى التل أكثر مما كنت أفعله منذ فترة طويلة، مرورا بكنيسة أيرلندا عند ركن الطريق، وعلى طريق ستراندهيل. تمنيت أن أحصل على توصيلة من إحدى الطائرات الألمانية التي رأيتها، لأن الطريق قد امتد لفترة طويلة وكان محظورا أمامي. برز الجبل عن يميني، وتساءلت في نفسي أنني لم أمش قط للأعلى إلى هناك بمثل هذه الحيوية والسهولة. يبدو كأن مئة عام قد انقضت.

لا أعرف عدد الساعات التي استغرقتها في المشي، لكنها كانت مسيرة طويلة وشاقة. على الرغم من ذلك، بدا أن المرض يختفي كلما تابعت المسير، كما لو لم يكن هناك مكان لأجله في حالة الطوارئ الحالية.

بدأت أشعر بالحيوية والتفاؤل بشكل غريب، كما لو أن مهمتي قد تكون مباركة بالنهاية. بدأت أقول لنفسي، إنها ستساعدني، بالطبع ستساعدني، وهي امرأة أيضا، وكنت متزوجة من ابنها. أو ربما كان الأمر كذلك إذا لم يتم عدم قبولها في روما. اعتقدت، على الرغم من أنها كانت غير مبالية في تلك السنوات الماضية، عندما ظهرت لأول مرة في منزلها، من المؤكد أن تجربتها الطويلة في الحياة ستجبرها على التخلي عن كرهها وما إلى ذلك.

دارت ودرات ودارت في ذهني، ميلا بعد ميل، ومشيت بخطواتٍ ثقيلة، مع ذلك النوع من المشي بالأقدام المتباعدة بسبب بطني الكبير، ولم يكن ذلك مشهدا جميلا من المؤكد، وأنا أقنع نفسي بهذا اليقين.

مذكرات الدكتور غرين

لدينا الآن موعد للهدم، لجميع الأشياء، ليس ببعيد. يجب أن أذكر نفسي باستمرار. من الصعب جدا نوعا ما تخيل هذا الاحتمال، على الرغم من وجود أشياء في كل مكان في المستشفى في علب وصناديق جاهزة، كل يوم تأتي الشاحنات وسيارات النقل وتنقل الأشياء بعيدا، وقد تم تخزين رزم كبيرة من المراسلات والسجلات، وقد تم إخراج عشرات المرضى، الأماكن فجأة، وبشكل غير متوقع، وبطريقة سخيفة، ظهرت حتى بالنسبة للرجال ذوي المعاطف السوداء المساكين، وبعضهم أعيدوا بصورة مؤقتة بين.. بين الأحياء كنت سأقول. السكن المحمي هي العبارة الرسمية، وهي عبارة إنسانية كانت لائقة ذات مرة. في تقديري، هي كذلك. ستذهب مجموعة أساسية في النهاية إلى المنشأة الجديدة. أوه، لكني، أشعر برغبة شديدة في الوصول إلى نتيجة بشأن روزان.

رسالة لطيفة من بيرسي كوين في سليغو يقول إنه يمكنني المجيء في أي وقت أرغب. لذلك يجب أن أجهز عقلي للقيام بذلك. لقد بدا ودودا للغاية لدرجة أنني سألته في خطابي عما إذا كان يعرف أين تحفظ سجلات الشرطة الملكية الأيرلندية القديمة في سليغو، وإذا كان بإمكانه العثور عليها، يمكنه البحث عن اسم جوزيف كلير بينها، سيكون ذلك من لطفه. كانت سنوات الحرب الأهلية مدمرة، وفتاكة للغاية، ولا أعرف حتى إذا كانت مثل هذه المباني قد نجت، أو إذا كان أي شخص قد كلف نفسه عناء حمايتها إذا كانت لديه المقدرة. قام جيش الدولة الحرة، الذي كان يحاول قصف غير النظاميين خارج المحاكم الأربع في دبلن، بإحراق كل سجل مدني تقريبا وحوله إلى رماد، شهادات الميلاد وشهادات الوفيات ووثائق الزواج ووثائق أخرى يصعب تقدير قيمتها، مما أدى إلى محو سجلات الأمة ذاتها

التي كانوا يحاولون منح حياة جديدة لها، في الواقع يحرقون الذاكرة وهي في علبها. مع البنادق التي أعطيت لهم أو أقرضت لهم من قبل البريطانيين المغادرين إذا كانت ذاكرتي لا تخونني، محاولا بلا شك أن أكون مفيدا للحكومة الجديدة، مع تلك الخاصية الجذابة والمحبوبة للبريطانيين، على عكس القتل المصاحب لها. لا يعني ذلك أنني قلت أي شيء من هذا القبيل لبيرسي. تذكرت فجأة عندما أجبت على رسالته أنه كان في ذلك المؤتمر المصيري في بوندوران، لكنه بالتأكيد لم يقل أي شيء عن ذلك، وأنا بالتأكيد لم أتطرق إليه. بعد ظهر الأمس، أتيت مبكرا ومرهقا، صعدت بلا خوف إلى حد ما إلى غرفة بِت. أعتقد أنني ربما تجاوزت مرحلة لوم الذات والشعور بالذنب. بعد كل شيء، في نهاية المطاف، أنا وحدي الآن، وقد انتهت قصتنا. استلقيت على سريرها محاولا الاقتراب منها. شممت الرائحة الخافتة لعطرها، أو دو روشا، التي كنت أبحث عنها في المطار في السوق الحرة عندما كان لا يزال لديهم مثل هذه الأشياء. شعرت بالانبساط والغرابة، لكنني لست تعيسا. كنت أطلب من غيابها أن يكون حاضرا كنوع من الراحة المعكوسة الغريبة. فقط لبضع دقائق شعرت بأني كنت أنا هي، مستلقية هناك، وأنه أنا، أنا الآخر الحقيقي، في الطابق السفلي في غرفة النوم القديمة، وتساءلت عما أفكر به في نفسي. رجل غير لائق، خائن، غير محبوب؟ وجود ضروري بشكل غريب، حتى مع وجود طابق وسقف بينهما؟ لم أكن أعرف. حتى كوني هي لم أكن أعرف بِت. لكن لبضع دقائق فقط امتلكت شيئا من قوتها ولطفها ونزاهتها. يا له من شعور رائع. وقعت عيني على رف الكتب المختارة عن الورد، وأخذت واحدا وبدأت في القراءة. يجب أن أقول إنه كان ممتعا للغاية، وشاعريا. تمالكت نفسي بعد ذلك، ووضعت يدي بعناية على كل جانب من

المجموعة ورفعتها كواحدة، وقلبتها على جوانبها حتى أتمكن من حملها إلى الطابق السفلي، مثل كسب عظيم، مثل شيء مسروق. استلقيت على سريري وتابعت القراءة، طوال الليل. كان الأمر كما لو كنت أقرأ رسالة منها، أو كان لي شرف في إدخال موضوع ربما يصطف في ذهنها مثل ورق الحائط. روزا جاليكا، وهي وردة صغيرة بسيطة مثل تلك التي تراها منحوتة على مباني القرون الوسطى مثل روزا موندي، كانت الأولى. الورود الأخيرة هي ورود الشاي الضخمة التي تبدو في الحدائق مثل مؤخرات الراقصات في ملابسهن الداخلية المزخرفة. يا لنا من مخلوقات، نحول تفتح الزهور إلى تلك الصورة على مر القرون، ونحول تلك الحيوانات القاتلة التي تعيش على حافة معسكرنا القديم إلى كلاب بورزوا وكلاب بودل.

الشيء نفسه، الشيء الأول، لن يتركنا وحدنا أبدا، يجب علينا التوضيح، والتحسين وكتابة الشعر، لتلطيف حياتنا القصيرة، كما كتب توماس براون في الكتاب الذي أعطتنيه روزان لتسليمه لابنها. وبين ريليجيو ماديسي والأزهار التابعة للجمعية الملكية للبستنة، قمت بنصب خيمة من نوع ما. والذي احتاجته بِت وأرادته، وهذا ما جعلني أعرف كل هذه الأشياء عن الورود فجأة، فشعرت بالسعادة والفخر. ومن الغرابة بما يكفي أن هذا الشعور لم يفسح المجال للندم والشعور بالذنب. لا، لقد فتح ذلك الشعور غرفة بعد غرفة، وردة بعد وردة، لمزيد من السعادة. لم يكن هذا أفضل يوم أمضيته منذ وفاتها فحسب، بل كان أيضا أحد أفضل أيام حياتي. كان الأمر كما لو أنها غمرت شيئا من جوهرها نزل عليّ من السماء وساعدني. كنت ممتنا للغاية لها.

أوه، لقد نسيت أن أقول (لكن لمن أقول ذلك؟) إنه أثناء وضع كتاب روزان جانبا بعناية، حتى أتمكن من التركيز على مجلدات

بِت، كادت تسقط رسالة منها. لقد كانت رسالة غريبة للغاية، حيث بدا أن الظرف لم يكن قد سبق فتحه، ما لم تكن رطوبة غرفتها قد أغلقته بطريقة ما. علاوة على ذلك، كان الختم البريدي من تاريخ مايو 1987، قبل عشرين عاما بالكامل. لذلك لم أكن أعرف ماذا أفعل بشأنها، أو بالأحرى ماذا أفعل بها. علمني والدي دائما أن البريد كان مقدسا إلى حد ما، ولم يكن مجرد فتح خطاب شخص آخر جريمة فعلية، كما أعتقد أنه كذلك، بل كان بمثابة هفوة أخلاقية خطيرة أيضا. أخشى أنني أنجرف بشدة لمثل هذا السقوط الأخلاقي. من ناحية أخرى، ربما ينبغي علي إعادة الخطاب. أو حرقه؟ ليس بالضبط. أو تركه؟

شهادة روزان عن نفسها

استقبلتني أطراف البلدة ببرود. أظن أنني بدوت كشيء جامح منتفخٍ جدا خارج من المستنقع. فتاة صغيرة تجلس مع دميتها في نافذة منزلها، المحاصرة في الداخل بسبب العاصفة، لوحت لي بتحية، ببركة الفتيات الصغيرات. كنت ممتنة لأنني لم أضطر للذهاب إلى المدينة أبدا. بدا أن الرصيف الصلب يبعث ضربات في بطني، لكنني تحمّلت. ثم وصلت عند بوابة منزل السيدة ماكنلتي.

كانت حديقة توم العجوز عبارة عن فدانٍ من الجمال تم حجبه للتو. كان بإمكاني أن أرى كل المسطحات من نباتات وأزهار يبدو أنها تتبرعم، مع سيقان البامبو يمسك كل شيء ضد الريح. سيكون مشهدا رائعا في غضون أسابيع قليلة في حقيقة الأمر. في الزاوية العلوية من الحقل كان هناك رجل غير واضح يحفر، ربما كان توم العجوز. يقوم بالحفر، دون أن تزعجه دوامات العواصف

والأمطار المتجمدة، في معطف كبير وقبعة تحمي رقبته ورأسه من المياه. فكرت في التوجه إليه لكنني لم أكن أعرف من هو عدوي. أو ظننت أنهم، حسب نظرة جاك الكئيبة عند البوابات عبر الطريق من كوخي، كانوا جميعا أعداء. قررت عدم الاقتراب منه. قررت أن أغتنم فرصتي وأتجه نحو الباب. أتذكر في هذه المرحلة أن عضلات بطني تشعر وكأن لديها محترفين رفيعي المستوى يستخدمونها كأرجوحة.

أعتقد أنني كنت موحلة ومبللة، على ما أظن أنني كنت كذلك. لا شك في أن كل جهودي لأبدو بمظهرٍ لائق قد فشلت تماما بسبب الرحلة. لم يكن لدي مرآة للتحقق من شكلي، باستثناء النوافذ المظلمة على جانبي الباب، وعندما نظرت هناك، رأيت غولا بشعر غريب. هذا لن يساعدني. لكن ماذا يسعني أن أفعل؟ هل أرجع من الطريق الذي أتيت منه، بصمتٍ وهزيمة؟ كنت خائفة، لقد كنت مرعوبة من هذا المنزل، لكنني كنت أكثر خوفا مما قد يحدث إذا لم أضغط على الجرس.

أجلس هنا يابسة وعجوزا مع سيقانٍ ضعيفة أكتب هذا. ليس الأمر كما كان منذ زمن بعيد، فهو ليس كقصة، وليس كما لو أنه قد انتهى وولى. كل هذا يجب القيام به. إنه شيء مثل مداخل النعيم للقديس بطرس، تطرق على الأبواب، تطلب الدخول إلى الجنة، وفي قلبي الحزين أعرف، الكثير من الذنوب، الكثير من الخطايا. لكن ربما الرحمة! ضغطت على جرس البيكليت السميك. لم يصدر أي صوت حين الضغط عليه، ولكن عندما عاد الزر إلى مكانه، سمعت قعقعة حادة داخل القاعة. لم يحدث شيء لفترة طويلة. كنت أسمع أنفاسي الموجعة في الشرفة القريبة. ظننت أنني سمعت دقات قلبي. ظننت أنني أستطيع سماع دقات قلب

طفلي، وهو يشجعني باستمرار. لقد ضغطت على الزر الكبير مرة أخرى. كم تمنيت لو كنت شخصا آخر يرن الجرس هناك، ابن القصاب، بائعا متجولا، وليس هذا الإحراج المثقل لمخلوق يلهث. كان لدي رؤية مصفرة لشكل السيدة ماكنلتي، وأناقتها، ووجهها الأبيض مثل براءة الزهرة، وكما فعلت للتو، سمعت صوت خشخشة في الجانب الآخر من الباب، وانفتح الباب، وهي نفسها في الفرجة. حدقت في وجهي. لا أعرف ما إذا عرفت على الفور من أكون. ربما ظنتني امرأة متسولة، أو عاملا متسولا، أو مخلوقا ما هرب من دار المجانين حيث كانت تعمل. في الواقع كنتُ نوعا من المتسولات، أتوسل إلى امرأة أخرى لتفهم محنتي. منبوذة، منبوذة كانت الكلمة التي بدأت ترن في رأسي.

قالت: «ماذا تريدين؟» بإدراك، ربما عرفت في النهاية أنني أنا، المرأة غير المرغوب فيها التي تزوجها ابنها ولم يتزوج. افترضتُ أنها تآمرت ضدي قبل سنوات، لكن هذا لم يقلقني الآن. لم أكن أعرف عدد الأسابيع التي مضت على حملي. كنت خائفة تقريبا من أن أبدأ في ولادة الطفل على عتبة بابها. وربما يكون من الأفضل للطفل لو وضعته هناك. لم أكن أعرف ماذا أقول لها. لم أعرف أي شخص في وضعي من قبل. لم أكن أعرف ما وضعي. كنت بحاجة.. كنت في أمس الحاجة إلى شخص ما.

«ماذا تريدين؟» قالت مرة أخرى، وكأنها تميل إلى إغلاق الباب إذا لم أتكلم.

قلت: «أنا في ورطة».

قالت: «أرى ذلك يا طفلتي».

حاولت النظر في وجهها. طفل. بدا ذلك في الشرفة بقوة الكلمة الجميلة.

قلت: «أنا في ورطة يائسة».

قالت: «ما عاد لنا شيء نفعله لك بعد الآن».

قلت: «لا شيء. أعلم ذلك». ولكن ليس لدي مكان آخر أذهب إليه. لا مكان. لا شيء ولا مكان»،

وتابعت: «سيدة ماكنلتي، أتوسل أليكِ أن تساعديني».

«لا يوجد شيء يمكنني القيام به. ماذا يمكنني أن أفعل لأجلك؟ أنا خائفة منك».

هذا جعلني أتوقف فجأة. لم أفكر في ذلك. خائفة مني. «أنا لست خائفة من السيدة ماكنلتي. أنا بحاجة إلى مساعدة. أنا، أنا..». كنت أحاول أن أقول حامل، لكن لا تبدو أنها كلمة يمكن أن تقال. كنت أعرف أن وقع الكلمة في أذنيها سيعني عاهرة، ساقطة، أو أنها ستسمع ظلال تلك الكلمات في كلمة حامل. شعرت وكأن هناك خشبا في فمي، على شكل فمي بالضبط. صعدت ريح كبيرة في الطريق خلفي وحاولت دفعي في الباب. أعتقد أنها اعتقدت أنني كنت أحاول الدخول بقوة. لكن فجأة أصبحت ساقي متعبة جدا على حملي، ظننت أنني سوف أنهار. قلت: «أعلم أن لديك مشاكلك الخاصة بالماضي»، وأنا أحاول يائسة أن أتذكر ما قاله جاك في بلازا. ولكن هل كان قد قال شيئا؟ ولكن مهما كنت تريدين قوله، لا تقولي.

قال: «تقلبات. في الماضي البعيد؟».

صرخت: «لا». ثم صرخت: «توم»، ثم همست مثل طائر جريح: «ماذا قال لك، ماذا قال لك جاك؟».

«لا شيء. تقلبات». قالت: «ثرثرة قذرة، هذا كل ما كان».

لا أعرف كيف سمعها توم العجوز، ربما من خلال الاهتمام الطويل بصوتها، ولكن في لحظات قليلة ظهر حول المنزل مرتديا

معطفـه وقبعتـه، بـدا وكأنـه بحـار نصـف غريـق. قـال: «روزان!!».

قالـت السـيدة ماكنلتـي: «عليـك أن تجعلها تذهـب بعيـدا». قـال تـوم العجـوز: «هيـا يـا روزان، هيـا، أخرجـي مـن البوابـة».

لقـد أطعتـه كـما قيـل لي. كان صوتـه ودودا. كان يهـز رأسـه وهـو يقـودني للخلـف. قـال: «هيـا، اسـتمري، كـما لـو كنـت عجلا في المكان الخطـأ مـن الحقـل. هيـا». ثـم خرجـت عـلى الرصيـف مـرة أخـرى. سـارت الريـح عـلى طـول الشـارع مثـل عصابـة مـن الشـاحنات غـير المرئيـة، تـزأر وتنقـب في جسـمي. قـال تـوم العجـوز: «هيـا».

قلت بأقصى قدر من اليأس: «أين؟».

قال: «ارجعي. اذهبي من حيث أتيتِ».

«أريدك أن تساعدني».

«لا يوجد أحد لمساعدتك».

«اطلب من توم يساعدني، من فضلك».

«تـوم لا يسـتطيع مسـاعدتك، يـا فتـاة. تـوم سـيتزوج. ألا تعلمـين؟ تـوم لا يسـتطيع مسـاعدتك».

«متزوج؟ يا ربي».

«لكن ماذا أفعل؟».

قال: «عودي أدراجك إلى الطريق. هيا اذهبي».

لم أعـد إلى الطريـق عنـد طلبـه، ولكـن لأنـه لم يكـن لـدي خيـار آخـر.

كان تفكـيري، إذا مـا اسـتطعت الوصـول إلى الكـوخ مـرة أخـرى، أن أجفـف نفـسي، وأرتـاح، والتفكـير في خطـة أخـرى. ولكـن فقـط لتجنـب المطـر والريـاح، وأكـون قـادرة عـلى التفكـير.

توم يتزوج مرة أخرى. لا، ليس مرة أخرى، ولكن للمرة الأولى.

لـو كان أمامـي في ذلـك الوقـت، فربمـا قتلتـه بـأي طريقـة يمكـن أن

تسنح لي. ربما كنت قد خلعت حجرا من جدار، وعصا من سياج، وضربته بهما وقتلته.

لأنه أوصلني بحبه إلى مثل هذا الخطر الرهيب.

لا أعتقد أنني كنت أسير في ذلك الوقت، ولكنني صرت أرفع نفسي إلى الأمام. كانت الفتاة الصغيرة لا تزال خلف زجاج النافذة بينما كنت أعبر الطريق وما زالت مع دميتها، مازالت تنتظر العاصفة أن تخف، حتى تتمكن من الخروج واللعب. هذه المرة لسبب ما لم تلوح بيدها لي.

يقولون ربما يكون الحيوان الساكن فينا هو الذي يعرف أشياء في أعماقنا لا ندرك أننا نعرفها إلى حدٍّ ما. كان هناك شيء ما، ساعة أو محرك، بدأ يتلوى بداخلي، وكانت غريزتي بكاملها هي أن أسرع بخطواتي، الإسراع بخطواتي، والعثور على مكان هادئ ومحميّ حيث يمكنني محاولة فهم هذا المحرك. كان في الأمر استعجال، ورائحة، ارتفعت بعض الأصوات الغريبة مني، وخطفتها الرياح. كنت الآن على الطريق الإسفلتي نحو ستراندهيل، الحقول الخضراء والجدران الحجرية من حولي، والمطر المرئي يضرب سطح الطريق ويقفز بنوع من الغضب. كان الأمر كما لو كان هناك موسيقى في بطني، وموسيقى قرع الطبول القوية، أغنية «بلاك بوتوم ستومب» وقد تجاوزت الحد، وعازف البيانو وقد أصبح أكثر عصبية مع مفاتيح العزف.

أخذ الطريق منعطفا تدريجيا ثم بدأ الخليج في الظهور بأسفل الطريق. من يوجد لكي يساعدني؟ لا أحد.

أين كان العالم؟ كيف كان باستطاعتي أن أتمكن من العيش في الحياة بلا أحد؟ كيف حدث أن سكان البيوت القليلة على طول الطريق لم يهرعوا إليّ، ليدخلوني إلى منازلهم بسرعة، ويحتضنوني بين

أذرعهم؟ لقد اجتاحني شعور وحشي، بأنني كنت بلا قيمة في العالم لدرجة أنه لم يشأ أي أحد أن يعينني، لقد أصدر هذا الكاهن والمرأة والرجل مرسوما بأنه لا يمكن لأي أحدٍ مساعدتي، كان يجب أن أُترك لعناصر الطبيعة، مثلما كنت، حيوانا يمشي، منبوذا. ربما حدث عندئذٍ أن قفز جزء مني بعيدا عن ذاتي، شيء ما تلاشى من عقلي، لا أعرف.

اللجوء.. كائنٌ بائسٌ يبحث عن ملجأ. لقد غطيتُ النيران بالرماد في كوخي، وكل ما تحتاجه هو نزع الرماد من الحشائش، وإضافة المزيد من الحشائش، وسرعان ما سأحصل على نيرانٍ ملتهبة. ويمكنني أن أخلع معطفي القديم وثوبي وملبسي الداخلي وحذائي وأجفف نفسي مبتهجة في الغرفة الجافة، ضاحكة منتصرة، بعد أن انتصرت على العواصف والعائلات. كان لدي حساء بسيط في وعاء مغطى وكنت سأتناول ذلك، وبعد ذلك أجف وأشبع، وأذهب إلى السرير، وكنت أرقد هناك ناظرة للخارج إلى نوكناريا، الملكة العجوز المسكينة ماييف تعلو على قاعدتها الحجرية، ربما تشعر الملكة ماييف بأسوأ ما في العاصفة لكونها موجودة في الأعلى للغاية، وكنت أنظر إلى بطني كما أحب أن أفعل، وأرى المرفقين يبرزان ويختفيان وأرى الركبتين كذلك، بينما يتمدد طفلي ويتقلب. كان لدي حوالي ستة أميال لأقطعها قبل أن أصل إلى هذا الأمان الذي أتوق إليه. كان بإمكاني أن أرى من قطعة الأرض أنه إذا خرجت على الشاطئ كما كانت تفعل السيارات البخارية عند انخفاض المد، ينقص ميلان من الرحلة. لقد لاحظت حتى في حزني أن المد كان في أدنى مستوياته، على الرغم من أنه كان من الصعب تحقيق ذلك مع هطول الأمطار الغزيرة التي كانت تنهمر على الشاطئ.

لذلك تركت الطريق العام واتجهت إلى طريق ضيق شديد الانحدار، دون أن أبالي البتة بالحجارة الخشنة، وقلت في ذهني

إنني كنت أقصر طريقي، وبالفعل قد تخدرت قدمي وساقي، أعتقد أنني لم أعد أشعر بألم شديدٍ فيهما. كان الألم كله في بطني، وكان الألم كله متعلقا بطفلي، وكنت قلقة للغاية كي أحصل على مرادي.

كانت جميلة في يومٍ من الأيام، ولكن هذا الجمال قد انتهى. على الرمال كان كل شيء عبارة عن رقصة، كما لو أن بلازا نفسها قد توسعت لتحتوي خليج سليغو. كان المطر مثل التنانير تلتف وتعلو، مع أعمدة تطرق السيقان فتنغمر إلى الأسفل، وكل الساحل والبحر بين ستراندهيل وروسيس مغطاة بمليون جرة فرشاة من اللون الرمادي ودرجاته. اعتقدت حينها أنه لم يكن من المعقول أن أذهب إلى الساحل، أو على الأقل لم أكن محظوظة في دورة الطقس هذه، وعدد لا يحصى من تقلصات مستمرة تدق في بطني، مخلوقي الصغير المتكون من المرفقين والركبتين.

ثم بدأت في غرس رجلي في مجاري المياه الضحلة وأدركت أنني لست في المسار الصحيح. كان الرمل الذي تفضله السيارات أثناء صعودها إلى المرقص بمستوى أعلى من البقية، وأثناء ليلة صيف صافية يعمها الجفاف كنت أخشى أنني كنت متجهة نحو قناة غارافوج، فهي كارثة لا يمكن تصورها، والآن لا أعرف في أي اتجاه أعود. أين كان الجبل وأين انتفاخ الأرض؟ أين كانت ستراندهيل وأين كانت كوني؟

فجأة لاح أمامي وحش.. لا، لم يكن وحشا، بل كان شكلا مخروطيا من الحجارة المنحوتة، لقد كان أحد الأعمدة التي تم وضعها كإشارة إلى الطريق نحو الجزيرة، على طول الطريق الرملي الممهد، كانت آخر الرمال التي قد تمت تغطيتها بالمياه مع دخول المد. كان شيئا بدأ المد بفعله، عرفت ذلك، لأنني استطعت أن

أسمع، داخلها هدير العاصفة، صوت الموج المتدفق، وهو يكتسح الأماكن الفارغة بلهفة بين ذراعيه. لكنني وصلت إلى العمود الذي يربط به حبال المراكب وتمسكت بالأحجار لبضع لحظات، محاولة تهدئة نفسي، على الأقل أشجع نفسي بعض الشيء بأنني عثرت عليه. وإذا لم أكن قد غيرت اتجاهي تماما، فإن النهر حسب تقديري سيكون على يميني، وستراندهيل في مكان ما على يساري. في أعلى العمود كان هناك سهم معدني صدئ يشير إلى الجزيرة.

مع خوفي الشديد من العاصفة، كان الرجل المعدني يقف على صخرته، مشيرا إلى المياه العميقة، مشيرا، مشيرا. لن يكون لديه وقت لمساعدة أشخاص مثلي. كنت أعلم أنني يجب أن أستمر في المضي قدما، إذا بقيت في المكان الذي كنت فيه، فسوف يتجمع المد ببساطة، وتغطي المياه الرمال وقدمي، ورويدا رويدا يرتفع العمود. لم أجرؤ على العودة نحو الشاطئ، حيث قد يكون هناك فيضان متصاعد. ولكن عند ارتفاع المد، تكون معظم الأعمدة مغطاة بالمياه، ولن يكون هنا أمان. وسيكون هناك عالم من التيارات والأسماك. وجعلت العمود ورائي، واتخذت مسارا يشير له السهم، واتجهت إلى الأمام في العاصفة، أدعو الله أن أحتفظ بما يكفي من خط مستقيم من تلك البوصلة، وأن أصل إلى كوني.

قطعة من الضوء الأزرق تتميز غيظا وتشق في جوف العاصفة، مثل شريحة من الكعك الجامح، وفجأة رأيت مقدمة ضخمة لبن بولبن تلوح في الأفق، مثل سفينة لنقل الركاب كادت تصدمني. لا، لا، لقد كانت على بعد أميال. لكنها كانت توجد أيضا حيث كنت أتصور، وبعد ذلك تمكنت من الوصول إلى العمود التالي. أوه، لقد وهبت قلبي إلى الرجل الحديدي عرفانا لفضله. الآن استطعت أن أرى بشكل غير واضح، ولكن واضح بما يكفي تلة جزيرة كوني

أمامي. اتجهت نحوها تدريجيا. عندما انتقلت من العمود التالي شعرت بأن الماء يتدفق مني وشعرت بالحرارة لبرهة في ساقي. مع مئات الخطوات المؤلمة الأخرى، وصلت إلى الصخور الأولى والطحالب البحرية السوداء، وقدت نفسي إلى أعلى المسار المائل. لولا توقف العاصفة، لم أعرف ما كنت سأفعله، باستثناء الغرق في البحر المتلاطم. لأن العاصفة الطائشة الآن حاصرتني مرة أخرى مثل غرفة جدرانها من الماء وسقفها ألسنة من اللهب، على ما يبدو، وأنا في عش من الصخور، ألهث، ومنهكة بشدة.

استيقظت. كانت العاصفة لا تزال تعوي وتلتوي. بالكاد أعرف من أنا. أتذكر أنني كنت أبحث في ذهني حتى عن الكلمات. أثناء نومي أو أيا كانت حالتي، كنت قد رفعت ظهري من فوق صخرة تكسوها الطحالب، ولا أعرف السبب. كانت العاصفة تعوي، مع تساقط الأمطار الغزيرة. كنت مستلقية بسكون تام حتى طرأت في ذهني فكرة جنونية بأنني ميتة. لكنني كنت بعيدة عن الموت. في أحيان كثيرة، دقائق أو ساعات لم أستطع أن أجزم، شيء ما تملكني، كما لو أنني أُعصر من قمة رأسي إلى أصابع قدمي. لقد كان مؤلما للغاية لدرجة أنه يبدو وقد تجاوز الألم، ولا أعرف طريقة أخرى لوصفه. جثوت على أطرافي الأربعة، للمرة الثانية لا أستطيع بالضبط حسم الموضوع، لكنني استجبت لمشيئة غير معروفة. نظرت الآن بحدة إلى الأمام، ظننت أنني رأيت شخصا يقف هناك يراقبني في زخات المطر المتتالية. ثم بدت العاصفة وكأنها لطخت الصورة. صرخت منادية من كان هناك، صرخت وصرخت. ثم انتابتني صدمة أخرى من الألم، كما لو أن أحدهم كسر عظام عمودي الفقري بفأس. من كان ذلك الشخص الذي يراقبني تحت المطر؟ لم يكن الشخص الذي كان على وشك الاقتراب مني آتيا

لمساعدتي. مـرت سـاعات عديـدة. شـعرت بالمد ينحـسر مـرة أخـرى مـن الجزيـرة، وشـعرت بـه في عروقـي. خمـدت العاصفـة في السـماء كـما تخمـد النـيران. أو بالأحـرى، كنـت في كل ذلـك البلـل أحـترق. كان بطنـي مثـل فـرن الخبـز، تتجمـع فيـه الحـرارة. لا، لا، مـن المسـتحيل أن يكـون. انقـضى زمـن السـاعات البشريـة، وكان مجـيء الألم وذهابـه هـو العلامـة الجديـدة للزمـن.

هـل كان الألم يقـترب أكـثر فأكـثر الآن؟ وقـت أقـل بـين الألم والألم؟ هـل حـل الظـلام سرا لتعتيـم العاصفـة؟ هـل كنـت عميـاء؟ الآن كانـت الفجائيـة، الوصـول، الـدم. نظـرت إلى الأسـفل بـين سـاقي. شـعرت بـأن ذراعـيّ تنفرجـان مثـل الأجنحـة، وعـلى اسـتعداد لالتقـاط شيء يسـقط مـن السـماء. لكنـه لم يكـن شـيئا يسـقط مـن السـماء، بـل كان يسـقط مـن خـلالي. سـقط دمـي عـلى نبـات الخلنـج الناقـع وصرخـت أنـادي ليسـاعدني اللـه، أنـا مخلوقـه المجاهـد. صرخ صـوت دمـي. لا لا، كان ذلـك مجـرد جنـون، جنـون. بـين سـاقي كان هنـاك جمـر فقـط، حلقـة مـن الفحـم تحـترق بلـون أحمـر لا يمكـن أن يعيـش أي شيء يمـر عـبره. في أثنـاء تلـك الثانيـة مـن الجنـون، ظهـرت قمـة رأس صغـير، وفي ثانيـة أخـرى كتـف ملطـخ بالجلـد والـدم.

كان هنـاك وجـه، كان هنـاك صـدر، كان هنـاك بطـن وسـاقان، وحتـى العاصفـة بـدت وكأنهـا تنفـث أنفاسـها في صمـت، كان قـد خيـم الصمـت، نظـرت إليـه، حملـت المخلـوق الصغـير، خـرج بعـده الحبـل الـسري، رفعـت الطفـل إلى وجهـي، ومـرة أخـرى دون تفكـير واقعـي، عضضـت الحبـل الـسري، وازدادت العاصفـة وصـارت تعـوي وتعـوي، وانتفـخ طفـلي أيضـا، وبـدا وكأنـه يتشـكل في الظـلام، والتقـط جوهرتـه الأولى مـن التنفـس، وصرخ قليـلا، نـادى بصـوتٍ متقطـع، نحـو الجزيـرة، نحـو سـليغو، ونحـوي، نحـوي أنـا.

عندما استيقظت مرة أخرى، كانت العاصفة قد تلاشت مثل ثوب جانحٍ ينسل من غرفة سليغو. أين كان المخلوق الصغير؟ كان هناك الدم والجلد والحبل السري والمشيمة. وقفت على قدمي. كنت أشعر بالدوار والضعف مثل المهر حديث الولادة. أين طفلي؟ تدفقت مشاعر الذعر والفقد في داخلي. نظرت حولي بحنين محموم وملتهب مثل شعور أي أم، بشرية أو حيوانية. لقد فرقت الأغصان المنخفضة ونباتات الخلنج، وبحثت عن نفسي في دوائر. ناديت للمساعدة. كانت السماء واسعة وزرقاء على طول الطريق إلى الجنة.

كم مر من الوقت على هدوء العاصفة؟ لم أكن أعرف. سقطت على الأرض، فاصطدم وركي بالصخرة. كان لا يزال هناك خيوط ثابتة من الدم تخرج مني، دم أسود دافئ وداكن. استلقيت هناك، أحدق في العالم مثل امرأة أصيبت برصاصة في رأسها، والشاطئ الهادئ، والطيور الرملية تغمس وتضرب بمناقيرها الطويلة على طول خط المد المتراجع. بقيت أنادي: «أرجوك ساعدني»، لكن يبدو أنه لا يوجد أحد يسمعني باستثناء تلك الطيور. ألم يكن هناك عدد قليل من المنازل على الجزيرة، مختبئة هنا وهناك من الرياح؟ ألا يستطيع أحد أن يأتي ويساعدني في العثور على طفلي؟ ألا يمكن لأي أحد أن يأتي؟

بينما كنت مستلقية هناك، شعرت بألم حاد غريب في ثدييَّ، لقد كان الحليب يملؤهما، كما كنت أظن. لدي الحليب الآن، جاهز. أين، أين كان طفلي ليشربه؟

ثم على الطريق المتعرج إلى الساحل رأيت شاحنة بيضاء تتحرك. عرفت على الفور أنها كانت سيارة إسعاف، لأنه حتى عن بعد كان بإمكاني سماع صفارات الإنذار في السكون. وصلت إلى الرمال واندفعت إلى الأمام، وأخذت مسارها، تماما كما فعلت

أنا في العاصفة، من عمود المربط إلى الآخر. وقفت مرة أخرى ولوّحت بذراعي، كما يفعل البحار الغارق عندما يرى في نهاية المطاف سفينة بعيدة آتية لإنقاذه. لكن لم أكن أنا من تحتاج إلى الإنقاذ، بل ذلك المخلوق الصغير الذي اختفى من المكان الذي كان ينبغي أن يشغله. عندما جاء الرجال إليّ ومعهم نقالة، طلبت منهم إخباري بمكان طفلي، وتوسلت إليهم.

قال أحدهم بأخلاقٍ عالية: «نحن لا نعرف، سيدتي. ماذا تفعلين هنا عند كوني، تلدين طفلك؟ هذا ليس مكانا لإنجاب طفل، الآن، هذا من المؤكد».

«ولكن أين هو، أين طفلي؟».

«هل كان المد في أعلاه، سيدتي، وسحبه، فليرحم الله ذلك المخلوق الصغير المسكين؟».

«لا، لا، كنت أحمله بين ذراعي، ونمت، وأبقيته قريبا مني ودافئا. كنت أعلم أنه يمكن أن يكون دافئا بقربي. انظر، لقد كان هنا، على صدري، انظر، الأزرار مفتوحة، جعلته آمنا ودافئا».

قال الآخر: «حسنا، حسنا.. هدئي من روعك». قال لزميله: «ما زال هناك نزيف. يجب أن نحاول إيقاف ذلك». قال الرجل: «قد لا توقفه. سنأخذها إلى سليغو بسرعة».

وحملوني في الخلف. لكن هل كنا نتخلى عن طفلي؟ لم أكن أعرف. حككت الباب عندما أغلق.

قلت: «انظروا في كل مكان. كان هناك طفل. كان هناك».

أوه، ثم عندما بدؤوا تشغيل المحرك، كان الأمر أشبه بالسقوط من طوابق، شعرت بالإغماء.

الآن بدأت أواجه صعوبات. الآن يبدو أن الطرق تأخذ مسارين عبر الغابة، والغابة تكسوها الثلوج ولا يوجد أي شيء سوى البياض.

شخص ما أخذ طفلي. نقلتني سيارة الإسعاف إلى المستشفى. عرفت أنني كنت أنزف لبضعة أيامٍ في داخلي، ولم يتوقعوا مني أن أنجو. أتذكر هذه الأشياء. أتذكر أنهم أجروا لي عملية جراحية لأنني كنت أعلم أن النزيف قد توقف وأنني نجوت. أتذكر مجيء الأب غانت الذي أخبرني بأنهم سيعتنون بي، وأنه يعرف أين يمكنه أن يضعني من أجل سلامتي، وأن المكان سيعجبني، وأنه لا داعي للقلق. سألته مرارا وتكرارا عن طفلي وفي كل مرة كان ينطق بكلمة «الناصرة»، لم أكن أعرف ما يقصده. كنت ضعيفة جدا وأعتقد أنني يجب أن أفعل ما يفعله السجين مع السجان، بحثت عن الأب غانت لمساعدتي. ربما طلبت منه مساعدتي. بالتأكيد بكيت كثيرا ولدي أيضا ذاكرة أنه كان يمسك بي وأنا أبكي. هل كان هناك أي شخص آخر؟ لا أستطيع التذكر. سرعان ما رأيت برجَي المصح يلوحان فوقي وتم تسليمي إلى الجحيم.

صرخت أنني أريد أن أرى أمي، لكنهم قالوا: «لا يمكنك رؤيتها، لا أحد يستطيع رؤيتها، إنها أبعد من أن تريها».

الآن تتعثر الذاكرة. نعم. إنها ترتجف، مثل محرك يحاول أن يبدأ، لكنه يفشل. فجأة، فجأة، فجأة. أوه هل هذا توم العجوز والسيدة ماكنلتي في الظلام هناك، في غرفة مظلمة، ربما، وأنا هناك أيضا، وهل يقيسونني بأشرطة الكتان الخاصة بهم، من أجل ثوب الملجأ، دون قول أي شيء، باستثناء القياسات، الصدر، الخصر، الوركين؟ كما لو أنهم قاسوا جميع السجناء الآخرين عند دخولهم، من أجل ثوب، وجميع النزلاء أثناء خروجهم، من أجل كفن؟

الآن تتوقف الذاكرة. إنها غائبة غائبة تماما. لا أتذكر حتى المعاناة والبؤس. الذاكرة غائبة. أتذكر أن إينياس جاء بزيه العسكري في إحدى الليالي، وجذب أنظار الطاقم لرؤيتي. كان يرتدي زي رائد في

ذلك اليوم وكنت أعلم أنه كان مجرد جندي من الدرجة الثانية، لكنه اعترف لي أنه ذهب واستعار زي شقيقه جاك وبدا فيه جيدا للغاية، مع الكتّافات. أخبرني بأن أرتدي ملابسي بسرعة، وأن طفلي كان في الخارج وأنه سيحررني. وسوف نذهب سويا إلى أرض أخرى. لم يكن لدي أي ملابس أرتديها باستثناء الخِرَق التي كنت أملكها، أعلم أنني كنت قذرة ويملأ شعري القمل، وكان هناك دماء جافة في كل مكان، ومن خلال الممر المظلم تسللنا، أنا وإينياس، فتح الباب الكبير للملجأ محدثا صريرا، وخرجنا من تحت الأبراج القديمة وعبر الحصى، ولم أكن أهتم بالحجارة الحادة على الإطلاق، وقام بأخذ الطفل من عربة الأطفال العالية حيث كان ينتظرنا، وهو طفل جميل، وأخذ الصرة بين ذراعيه، وقادني عبر العشب بقدمي النازفة، واضطررنا لعبور نهر صغير في أسفل المنحدر.

لقد عبر وسار إلى مرج أخضر جميل به عشب مرتفع. كان القمر يعكس ضوءه على مياه النهر، كانت البومة صديقتي القديمة تنادي، وبينما وضعت قدمي في النهر ذاب ثوبي ونظفني الماء. خرجت من الجانب الآخر مندفعة ونظر إلي إينياس، وأنا أعلم في قلبي أنني كنت جميلة مرة أخرى، وسلمني طفلي وشعرت بأن الحليب يدخل في صدري.

ووقفنا أنا وإينياس وطفلنا في المرج تحت ضوء القمر وكان هناك صف من الأشجار الخضراء العملاقة التي تحركها رياح الصيف الدافئة. وخلع إينياس زيه العسكري عديم الفائدة، كان ذلك دافئا، ووقفنا هناك كما كان الحال دائما، وكنا أول وآخر شخص على وجه الأرض.

ذاكرة شديدة الوضوح، ورائعة للغاية، وتتخطى حدود الاحتمال. أنا أعلم هذا. ذهني في غاية الشفافية والوضوح مثل الزجاج.

إذا كنت تقرأ هذا، فلا بد أن الفأر ودودة الخشب والخنفساء قد اجتنبت هذه المذكرات. ماذا يمكنني أن أخبرك أكثر؟ لقد عشت ذات مرة بين البشر، ووجدتهم بشكل عام قساة القلوب، ومع ذلك يمكنني أن أذكر أسماء ثلاثة أو أربعة. أعتقد أننا نقيس أهمية أيامنا من خلال هؤلاء القلائل الذين نلمحهم بيننا، ومع ذلك لسنا مثلهم. إذا كانت معاناتنا كبيرة بسبب ذلك، فإن هبة الحياة في نهاية المطاف هي شيء هائل. شيء أكبر من جبال سليغو القديمة، شيء صعب ولكنه مشرق بشكل غريب، يجعل المطرقات والريش متساوية في سقوطها. ومثل الدافع الذي يدفع الخادمة العجوز لبدء حديقة، بوردة هزيلة ونرجس متعرج، فإنه يعطي إشارة إلى الجنة القادمة.

كل ما تبقى مني الآن هو شائعة عن الجمال.

الفصل العشرون

مفكرة دكتور غرين

حسنا، لقد قمت برحلتي أخيرا إلى سليغو، بعد أن وجدت فراغا في كل هذه الاستعدادات لمغادرة المستشفى. إنها رحلة قصيرة حقا، ومع ذلك نادرا ما قمت بها على مر السنين. يوم ربيعي جميل. ومع ذلك، حتى في مثل هذا اليوم، بدا مستشفى سليغو العقلي كئيبا للغاية، مع برجيه التوءمين المحبِطين. إنه مبنى شاسع. في اللغة الشائعة، يُطلق عليه فندق ليترم، كما أوضحت لي روزان، حيث يُقال إن نصف سكان ليترم موجودون فيه. لكن هذا بلا شك مجرد تحيز إقليمي.

بالنظر إلى أنني كنت في يوم من الأيام ودودا جدا مع بيرسي كوين، فمن الغريب حقا أننا لم نبقَ على اتصال، رغم وجود أميال قليلة تفصلنا. بالرغم من ذلك، يبدو أن بعض الصداقات، حتى تلك القوية والمثيرة للاهتمام، قصيرة الأمد ولا يمكن إطالة أمدها. ومع ذلك، كان بيرسي، بشعره المنحسر وسمنته الجديدة التي لم أتذكرها من قبل، كان رسميا للغاية عندما وجدت مكتبه الذي يشغل أحد الأبراج. لا أعرف الكثير عن سمعته، أو مدى انفتاحه، أو إلى أي درجة يدع الأمور تأخذ مجراها، لأنني أخشى أنني غالبا ما كنت أشعر بالذنب في قرارة نفسي، كما أظن. لا

يعني ذلك أنني سأعترف بهذا في أي مكان إلا هنا، لكنني متأكد من أن القديس بطرس يدون ملحوظات ضدي.

قال: «كنت آسفا جدا لسماع خبر موت زوجتك». «كنت أنوي القدوم إلى تقديم العزاء بالكنيسة، لكنني لم أتمكن من الحضور في ذلك اليوم».

قلت: «أوه، لا بأس، لا تقلق». «شكرا لك».

ثم لم أعرف ماذا أقول. لقد سارت الأمور بشكل جيد للغاية.

«لا أعتقد أنني أعرف زوجتك، أليس كذلك؟».

«لا، لا، أنا متأكد من عدم معرفتك إياها. كان ذلك بعد الفترة التي كنت معنا».

قال: «حسنا، إذن أنت تبحث..؟».

«حسنا، لقد كنت أحاول تقييم المريضة التي كتبت لك عنها، روزان كلير لأسباب مختلفة، ولأنها غير مستجيبة للغاية، فقد كان علي أن أحاول أن أكون مخادعا بعض الشيء، وأن أستخدم طرقا ملتوية للحصول على المعلومات، إن جاز التعبير».

«لقد كنت أنقب عن بعض المعلومات من أجلك».

قال: «وجدت بعض الأشياء. في الواقع، بدأ هذا يثير اهتمامي. أفترض أن كل شخص لديه ألغاز في حياته. لحظة، هل تريد أن أتصل بماغي وأجعلها تجلب لنا الشاي؟».

قلت: «لا، لا بأس. ليس لي أنا على أي حال. ربما لك؟».

«لا، لا» قالها بخفة «أول شيء قد يثير اهتمامك. كانت هناك سجلات متبقية لدى الشرطة الملكية الأيرلندية. كانت في قاعة المدينة، هل تصدق. الاسم الذي أعطيته لي هو جوزيف كلير، أليس كذلك؟ ونعم كان هناك سجل بهذا الاسم، في السنين ما بين 1910 و1930 كما أعتقد».

شعرت بخيبة أمل، يجب أن أعترف. أعتقد أنني كنت آمل أن يكون إنكار روزان قد أثبت أنه كان صحيحا. ولكن هذا ما كان عليه.

قال بيرسي: «أعتقد أنه كان نفس الرجل».

«إنه ليس اسما شائعا جدا».

«لا. وبعد ذلك كنت أنظر مرة أخرى إلى ما كان لدينا إلى جانب الرواية المثيرة جدا عن ذلك الأب غانت، والتي أعدت قراءتها. كنت قلقا من أنها قتلت طفلها، أليس كذلك؟».

«حسنا، لست قلقا على هذا النحو. إنني أحاول إثبات حقيقة الأمر، لأنها تنفي ذلك».

«أوه؟ ذلك مثير للاهتمام. وماذا تقول عنها؟».

سألتها ما حل بالطفل، إذ ذكره الأب غانت، ولا شك أن الطفل كان السبب الأهم الذي أدخلها إلى هنا، فقالت إن الطفل كان في الناصرة، ولم يكن لذلك معنى.

«نعم، حسنا، أعتقد أنني أعرف ما كانت تحاول قوله. دار الأيتام هنا في سليغو كان يسمى بيت الناصرة».

لم يعد فيه أيتام، إنه في الغالب منزل لكبار السن الآن، لكنني أحاول إحالة الأشخاص إلى هناك إذا استطعت، بدلا من.. كما تعلم.

«أوه، فهمت، حسنا، هذا لا بأس به».

«نعم، إنه كذلك. ويجب أن أقول، كان من غير العدل للغاية، وحتى غير القانوني، للأب غانت، أن يقترح شيئا فظيعا للغاية إذا كان يعلم أنه غير صحيح. أنا أبحث في ذهني عن تفسير لكلماته. لا يسعني إلا أن أستنتج أنه قصد قتله روحيا. في تلك الأيام بالطبع كان يُعتقد أن الطفل غير الشرعي يحمل خطيئة أمه. ربما كان هذا

ما قصده رجل الدين المغامر. دعونا نكن كرماء في النظر إلى الماضي. هذا، إذا اتضح أنها لم تقتل الطفل بالطبع». «هل تعتقد أنه يمكنني الذهاب إلى منزل الناصرة لأسألهم عما إذا كان لديهم أي سجلات؟».

«حسنا، أعتقد أنك تستطيع ذلك. لقد اعتادوا أن يكونوا منغلقين للغاية بالطبع، بشأن هذه الأمور، إلا إذا كنت تعرف كيفية فتحها. أنا متأكد من أن غريزتهم لا تزال تحتفظ بالسرية، لكن مثل العديد من هذه المؤسسات، تعرضوا للهجوم في الآونة الأخيرة باتهامات من نوع آخر. هناك العديد من دور الناصرة، وقد اتُّهم البعض منها في الماضي بقسوة مروعة. لذلك قد تجدهم أكثر فائدة مما تتوقعه. وقد اعتادوا على التعامل معي. أجدهم دائما متعاونين جدا. الراهبات بالطبع. كن في الأصل يعيشن كجماعة متسولة. مفهوم نبيل حقا». ثم لم يقل شيئا لبرهة. لقد كان «يهدس» كما اعتادت بِت القول. قال: «كان هناك شيء آخر». «من أجل الانفتاح من جانبي أعتقد أنني أستطيع إخبارك. لسوء الحظ، كان جزءا من سجلاتنا السرية. الاستفسارات الداخلية، كما تعلم، هذا النوع من الأشياء». «أوه، نعم؟» قلت بحذر شديد. «نعم. فيما يتعلق بمريضك. كان هناك رجل هنا يدعى جون كين، منظم، مضحك بعض الشيء في رأسه على ما يبدو، إذا ما استخدمت مصطلحات الشخص العادي للحظة، الذي قدم شكوى ضد ممرض آخر. الآن، كان هذا بالطبع منذ زمن بعيد، في أواخر الأربعينيات حتى، لم أتعرف على اسم الرجل الذي كان يحتفظ بالملحوظات، كان اسمه ريتشاردسون. اتهم جون كين هذا الرجل الآخر برادي بتهديده والتحرش بمريضتك لفترة طويلة. وهي توصف بأنها شخصية (ذات جمال استثنائي للغاية)، إذا كنت لا تمانع. كما تعلم، ويليام، يمكنني القول حتى من اندفاع الكتابة، إن كاتب الملحوظات كان مترددا في

كتابة أي من هذا. لم يتغير الكثير، أسمعك تقول». «لكنني لم أقل شيئا». أومأت برأسي لتشجيعه: «على أي حال، أعتقد أنه تقرر في هذه المرحلة نقل مريضتك إلى روسكومن، وترك الغبار يهدأ فوق الأمر». «ماذا حدث للمتحرش المزعوم؟» حسنا، كان ذلك مأساويا إلى حد ما، لأنه بقي هنا حتى بعد التقاعد، كان بإمكاني تتبع وجوده بشكل واضح حتى نهاية السبعينيات. لكن، كما تعلم «أنا أعلم. كل شيء صعب للغاية. «نعم» قال بيرسي «القارب دائما في وسط عاصفة ويحاول المرء أن لا يهزه أكثر». قلت «نعم». «ليس من المستغرب أيضا أن يختفي جون كين مع روزان كلير من السجلات، لذلك لا بد أنهم تركوه يذهب. لا شك أن ريتشاردسون اختار السلام من نوع ما». جلس كلانا هناك بعد ذلك، نتأمل هذا، ربما كلانا يتساءل عما إذا كان هناك شيء قد تغير بالفعل. ماتت والدتها هنا. هل كنت تعلم هذا؟ 1941. «لا»، «أوه، نعم. مختلة بشدة»، «هذا مثير جدا للاهتمام. ليس لدي أي فكرة». «من المضحك أن مستشفياتنا قريبة جدا ولا نرى بعضنا أبدا». قال بعد ذلك: «كنت أفكر بذلك أثناء قيادتي للسيارة». «حسنا، هذه هي الحياة». «هذه هي الحياة»، قلت.

قال: «أنا سعيد للغاية لأنك أتيت اليوم». «يجب أن نحاول أن نجعلها عادة». «شكرا لك على النظر في هذا من أجلي. أنا ممتن حقا يا بيرسي». «حسنا»، قال: «انظر، سأتصل هاتفيا بمنزل الناصرة وأقول لهم أن يتوقعوا قدومك ومن أنت وما إلى ذلك. حسنا؟»، «شكرا لك، بيرسي». تصافحنا بحرارة، لكن ليس بحرارة شديدة، على ما أعتقد. كان ثمة تردد لدى كل منا. هذه هي الحياة، حقا.

كان الجزء الذي تم توجيهي إليه من «بيت الناصرة» جديدا، لكن يبدو أنه اكتسب بعض الكآبة المؤسسية، إن لم تكن قاتمة مثل

الملجأ القديم. عندما كنت شابا جدا، اعتقدت أن أماكن المرضى والمجانين يجب أن تكون مشرقة جدا وجذابة، مع إعطاء نوع من الاحتفالية للتخفيف من البؤس البشري. لكن ربما تكون هذه الأماكن مثل الحيوانات ولا يمكنها تغيير بقعها وخطوطها أكثر من الفهود والنمور. كان أمين السجلات راهبة، مثلي في منتصف العمر المتقدم إن لم يكن الشيخوخة، ترتدي ملابسها العصرية المريحة. كنت أتوقع أن تكون مرتدية خمارا أو ثوبا. قالت إن بيرسي الطيب قد اتصل بها وقدم لها تفاصيل عن الأسماء والتواريخ، وإن لديها بعض المعلومات لي. أطلقت عليها اسم «الأخبار». وقالت: «لكن عليك أن تذهب إلى إنجلترا إذا كنت تريد حقا متابعة ذلك». قلت: «إنجلترا؟». قالت: «نعم» بلهجتها الريفية التي لا يمكن تصنيفها، والتي صنفتها على الرغم من ذلك على أنها ربما لهجة موناغان، أو حتى في الشمال. «صحيح أنه يوجد مرجع هنا، ولكن جميع المستندات المتعلقة بهذه الأسماء موجودة في منزلنا في بيكسل أون سي».

«وماذا تفعل هناك أيتها الأخت؟»، «حسنا، لا أعرف، ولكن كما تعلم، هذه أمور قديمة، وقد تجد المزيد في إنجلترا». «لكن أمازال الطفل على قيد الحياة؟ هل أتى طفل إلى هنا؟»، «هناك إشارة مقابل الاسم، وكانت هي الحالة الخاصة بإحدى أخواتنا في بيكسيل، الأخت ديكلان، التي كانت من هنا بالطبع. ماتت الآن رحمها الله. بالطبع»، «كانت من أسرة ماكنلتي. هل تعلم أن السيدة ماكنلتي العجوز كانت معنا هنا في سن الشيخوخة؟ نعم. كانت في التسعين عندما ماتت. لدي سجلاتها أمامي، رحمها الله. رحم الله كليهما». «هل يمكنك الاتصال بهم هاتفيا؟»، «لا، لا، هذه الأمور لا تناسب الهاتف». «كانت ابنة السيدة ماكنلتي راهبة

في إنجلترا؟ كانت صديقة عظيمة للرهبنة. كان لديها القليل قبل موتها وتركته لنا. كانت سيدة عظيمة وأنا أتذكرها جيدا. امرأة صغيرة جدا مع ألطف وجه رأيته على الإطلاق، وكانت تحاول دائما فعل الشيء الجيد تجاه الجميع». «حسنا، أنا متأكد»، قلت: «نعم بالتأكيد. أرادت أن ترتدي الحجاب بنفسها لكنها لم تستطع فعل ذلك عندما كان زوجها على قيد الحياة، ثم لم يعش حتى بلغ السادسة والتسعين، ثم بالطبع كان هناك الأبناء. ربما لم يعجبهم ذلك. هل تمانع في أن أسألك عما إذا كنت كاثوليكيا يا د.غرين. أعتقد من خلال لهجتك أنك إنجليزي». «أنا كاثوليكي، نعم» قلت بسهولة، دون إحراج. قالت الراهبة الصغيرة: «إذن ستعرف كم نحن غريبون».

عدت إلى هنا بسيارتي في حالة ذهنية غريبة. فكرت في مدى فضولنا كيف يترك الناس بعض الآثار أثناء ذهابهم، والتي يمكن النظر إليها والحيرة بشأنها، ولكن شككت ما إذا كان يتم فهمها بشكل صحيح، يبدو أن روزان قد عانت بالفعل، كما كنت أخشى. كم هو مروع أن تفقد طفلها، ومع ذلك، فقد حدث ذلك، ثم أخضعوها لشخص رديء بائس نظر إليها على أنها مجرد فرصة لإسعاده. يمكن أن أشك أيضا وقد انفصلت عن طفلها، أو فقدته، أو حتى قتلته إذا كان الأب غانت دقيقا بعد كل شيء، بأنها قد فقدت عقلها.

ربما تسببت مثل هذه الصدمات النفسية في حدوث ذهان جذري. كان من الممكن أن تكون هدفا لأي عنصر مزعج بين الموظفين، مع «جمالها الاستثنائي». كان الله في عونها. فكرت في السيدة العجوز الذابلة في الغرفة هنا في روسكومن. رغم أنني رجل محترف، إلا أنني أعترف بأنني أشعر بالأسف الشديد نحوها. وبأثر

رجعي، أنني مذنب. نعم. لأنني من جهة أميل إلى فعل نفس الشيء مثل ريتشاردسون.

من ناحية أخرى، كنت أفكر، وأنا أقود سيارتي، أنني من غير المرجح أن أجد الوقت للذهاب إلى إنجلترا. وكنت أتساءل: ما الذي تفعله بحق الله على أي حال يا ويليام؟ أنت تعلم أنك لن توصي بإعادتها إلى المجتمع. سيتعين نقلها إلى مكان ما (ملحوظة: ليس منزل الناصرة في سليغو، وليس مستشفى سليغو للطب النفسي، إذا ما أخذت كل شيء في الاعتبار) لأنها بالتأكيد مسنة جدا الآن على أي شيء آخر. فلماذا كنت أتابع الأمر؟ حسنا، الحقيقة هي أنه كان مصدر ارتياح كبير. أيضا، كان هناك شيء حوله وجدته لا يقاوم تقريبا. أعتقد أنني يجب أن أصنف الدافع كله كشكل من أشكال الحزن. الحزن على زوجتي بِت، وعلى طبيعة الحياة بشكل عام. على مصير البشر عموما. لكن، كنت أفكر، بأن إنجلترا هي خطوة بعيدة جدا، على الرغم من أنني يجب أن أقول إنني أرغب في اكتشاف حقيقة طفل روزان، أو عدم وجود طفل، بعد أن وصلت هذا الحد. لكن عبء العمل في الوقت الحالي كبير جدا (أحاول كتابة نسخة من أفكاري النشطة في السيارة، وهذا ليس بالأمر السهل أبدا)، وربما، نظرا لأن الأجزاء الأكثر أهمية في الحياة تبدو على أية حال أن لها خصائص الكلاب النائمة، التي علي أن أتركها مستلقية. إنه تاريخ قديم وماذا سيفيد نبشه الآن؟ ثم صدمتني الفكرة الحقيقية. لقد كنت أنظر إلى هذا الأمر من جميع الزوايا الخاطئة. لأنه إذا كان هناك سجل لهذا الطفل، أفلن يكون من دواعي راحة روزان معرفة ذلك، حتى لو كان الشخص لا يمكن التواصل معه لمعرفة «قبل أن تموت» أنها وضعت شخصا بأمان في العالم بعد كل شيء؟ أم أن هذا سيكون مجرد مزيد من الفوضى والصدمة العقلية؟ هل تريد أن تكون على اتصال بهذا

الشخص، وهل يريد هذا الشخص.. أوه، إنه صندوق باندورا المشهور. حسنا، حسنا، ليس لدي وقت على أي حال، كنت أفكر. لكنني سأنحي هذا المسعى على مضض.

ثم أوقفت سيارتي كالمعتاد ودخلت المستشفى. لقد أخذت وصفا لليوم من الممرضة ومن بين أمور أخرى أخبرتني بأن تنفس روزان كلير قد ساء، وأنهم كانوا يخشون نقلها إلى الجناح الطبي، وكانت متوازنة بدقة بين الحياة والموت، ولكن لقد تمكنوا من وضعها تحت إشراف الدكتور وين، وكانت ترتدي قناع أوكسجين. تحتاج الرئتان إلى العمل بنسبة 98 في المئة من أجل تبادل كافٍ للغازات بشكل مناسب لتهوية الدم، ولديها حوالي 74 في المئة فقط، هذا هو الاحتقان. على الرغم من أنها في نهاية المطاف «مجرد مريضة أخرى» إلا أنني يجب أن أقول إن هذا كان مقلقا للغاية ومثيرا للقلق. أسرعت إلى الجناح القريب كما لو أنها قد تكون قد ماتت بالفعل وشعرت بارتياح شديد بشكل غير مبرر لأني وجدتها على قيد الحياة، ولو أنها كانت فاقدة للوعي وتصدر صوتا مزعجا في أثناء تنفسها. بعد فترة من الجلوس هناك بدأت أشعر بالكسل، لأنه سيكون هناك أوراق في مكتبي وعلي الاهتمام بها. فدخلت هناك وهاجمت الكومة. في الجزء السفلي من النماذج والرسائل كانت هناك حزمة، حزمة من الأوراق في مظروف كبير مستعمل، في الواقع مظروف فتحته قبل أيام قليلة وألقيته في سلة المهملات الخاصة بي. قام شخص ما بالتقاطه مرة أخرى ووضعه في هذه الصفحات. كانت مكتوبة بخط أزرق، بخط صغير أنيق للغاية تطلب مني ارتداء نظارتي للقراءة، وهو أمر أحاول بالطبع أن لا أفعله، بدافع الغرور. لم يستغرق الأمر وقتا طويلا حتى أدركت أنه كان سردا لحياة روزان كتبته بنفسها. كنت مندهشا تماما. شعرت على الفور بالسعادة، ولكن بشكل غريب

لأنني لم أستغل فرصتي في ذلك اليوم عندما أخبرتني أنها أنجبت طفلا. لأن هذا المظروف يحتوي كل شيء على أي حال، دون الشعور بأنني أجبرتها على أن تفشي سرها بنفسها، باستخدام كل الحيل والحيل في تدريبي. كنت أعلم أنه لن يكون لدي الوقت لقراءتها بشكل صحيح حتى أكون في منزلي تلك الليلة (بالأمس)، لكنني تمكنت بالفعل من رؤية أنها تقدم المعلومات بحرية، في مثل هذا التناقض الشديد مع إجاباتها المنطوقة لي. ولكن أيضا، من أين أتت؟ ومن الذي وضعه على طاولتي، بالتأكيد ليست نفسها بالتأكيد؟ كان من المحتم أن أشك في جون كين، لأنه كان الشخص الأكثر وجودا في غرفتها. أو إحدى الممرضات. بالطبع ومع كل الشقاق اليوم في غرفتها، ربما كان أي شخص. اتصلت بغرفة الممرضات وسألت إذا كان أي شخص يعرف أي شيء عنها. قال دوران، وهو رجل طيب ولطيف إلى حد معقول، إنه سيسأل من حوله. أين كان جون كين؟ أنا سألت. قال دوران إن كين كان في منزله الصغير في ساحة الإسطبل القديمة خلف المؤسسة (ومن المقرر أيضا أن يتم هدمه قريبا). قال إن جون كين كان يشعر بتوعك، وبعد يوم من العمل طلب تركه للاستلقاء. فسمح الدكتور وين له على الفور. جون كين بالطبع ليس رجلا بصحة جيدة.

قرأت وصف روزان للأشياء مثل باحث في حياتها، أصنع توافقا ذهنيا للحقائق والأحداث. كان الشعور الأول الذي شعرت به لقراءته امتيازا. كم هو غريب أن أفكر بها وهي تكتب ذلك سرا، مثل راهب في كتاب نصي، كنت أحاول طوال الوقت تقييمها، ولم أصل لشيء تقريبا. لقد غمرني الإحساس بأنها ربما كانت تخاطبني. إنه يختلف عن تاريخ الأب غانت من نواح كثيرة، ليس أقلها القصة الطويلة لوالدها وخبراته.

وبالنسبة إلى امرأة لا تعرف أحدا تقريبا وقد أمضت آخر ستين عاما من حياتها في مكان مثل المستشفى، فإنها تبدو لي أحيانا محتفية بالحياة والناس بصورة مدهشة. تبقى العديد من الألغاز. لكنني حاولت تنسيق القليل الذي أعرفه ووقعت على أسماء أعرفها بامتنان. يبدو أن جون كين الذي ظهر في سجلات بيرسي كوين كان ابنا لجون لافيل. علاوة على ذلك، يبدو أنه أصيب إلى حد ما بأضرار في الدماغ. هناك شخص واحد أعرفه يمكنني أن أسأله عن هذا، لأن شكوكي هو أن جون كين الذي لدينا هو نفس الرجل. هناك قصة غريبة هنا عن ولاء وحماية. طلب منه والده رعاية روزان، ويبدو أنه بذل قصارى جهده للقيام بذلك. لم يتم الرد على من حمل طفل روزان رغم ذلك، وتبقى الحقيقة أن الأدلة ضدها بشأن عمل والدها. إذا كان هذا خاطئا، فقد تكون الأشياء الأخرى التي تكتبها أيضا «خاطئة». لا يمكن أن يؤخذ ذلك في ظاهره، ولكن ربما ليس أكثر من الأب غانت، الذي من الواضح أنه كان عاقلا لدرجة أنه يجعل العقل غير مرغوب فيه تقريبا. أعتقد أن بإمكاني التخمين أنها اتُّهمت زورا في مسألة جون لافيل، إلا إذا كنت أقرؤها بشكل خاطئ، على الرغم من أنني أدرك أنه في الأعراف السائدة في ذلك الوقت كدت أقول إنه قد رأى الأمر بهذه الطريقة، مجرد الشك كان جريمة كافية.

الأخلاق لها حروبها الأهلية الخاصة، مع ضحاياها في زمانهم ومكانهم. ولكن بمجرد أن حملت كان محكوما عليها بالفشل تماما. امرأة متزوجة لم تتزوج قط. لم يكن من الممكن أن تفوز بهذا. أكتب كل هذا، ولدي على الفور بعض المخاوف المزعجة. استخدام كلمة «خطأ» على سبيل المثال. ما الخطأ في وصفها إذا صدقته بإخلاص؟ أليس معظم التاريخ مكتوبا بنوع من الإخلاص الضال؟ أظن ذلك. تروي في روايتها وصفا صادقا جدا وحتى مؤثرا عن

كيفية سعي والدها لتوضيح أن كل الأشياء من المطارق إلى الريش تتساقط على قدم المساواة.

يبدو أنها كانت في الثانية عشرة من عمرها عندما حدث ذلك (الآن أجد نفسي مجبرا على النظر إلى مخطوطتها مرة أخرى، لأنني ربما أنا أعيد كتابتها). نعم، حوالي الثانية عشرة. ثم الأحداث الرهيبة في المقبرة، ثم اصطياد الفئران، وفي النهاية، عندما بلغت الخامسة عشرة (اللعنة، يجب التحقق مرة أخرى)، وقعت وفاة والدها. لكن الأب غانت رتب لقتله من قبل المتمردين، المحاولة الأولى في البرج الدائري الذي تتذكره روزان باعتزاز، فمه محشو بالريش وضربه بمطارق، والتي من حيث الإجهاد اللاحق للصدمة، تبدو وكأن هذا ما حدث، ويشير إلى أن روزان من أجل البقاء قد قامت بتعقيمه تماما، ونقلت الحدث إلى وقت البراءة النسبية. لكن هذا في تجربتي يبدو تحولا هائلا وغير عادي، مع مراعاة كل الأشياء. ثم هناك حقيقة أن الرجل الذي اقترحه الأب غانت على روزان للزواج، جو برادي، وريث وظيفة والدها في المقبرة، تم تقديمه في حساب روزان على أنه حاول اغتصابها، وهو المقطع الذي يبدو لي «غريبا جدا».

وليس ذلك فحسب، بل ذكر الأب غانت في عرضه الاسم الموجود على شاهد القبر حيث دُفنت البنادق بنفس الاسم، رغم أنه لا بد أنه كان يعرف. ثم بالطبع، أنا أفكر، مع أن الأب غانت، ربما كان صادقا في رغبته الكبيرة في أن تكون روزان محفوظة، فقد كان أيضا عرضة لخطأ في الذاكرة، وربما وجد الاسم يطفو في رأسه، وأطلق عليه خطأ الاسم الذي على القبر. الشيء الوحيد القاتل في قراءة التاريخ المرتجل هو الرغبة الخاطئة في الدقة. لا يوجد شيء من هذا القبيل.

لـذا، وكأنني لإثبات ذلـك، فقـد عـدت للتـو إلى روايـة الأب غانـت الفعليـة، والتـي لخصتها هنـا بـدلا مـن نقلهـا، ووجـدت لشـدة دهشـتي المطلقـة وحتـى العـار أنـه في روايتـه للأحـداث في الـبرج، لم يقـل في الواقـع إن فـم والـد روزان كان محشـوا بالريـش، بـل فقـط إنـه تعـرض للـضرب بالمطـارق. لسـبب مـا، في الفجـوة بـين قـراءة روايتـه والتلخيـص، يجـب أن يكـون عقـلي قـد قـدم هـذه التفاصيـل، وسرقهـا مـن روزان حسـب اعتقـادي، إلا أننـي في هـذه المرحلـة بالطبـع لم أكـن قـد قـرأت روايتهـا.

في هـذا المنعطـف، وجـدت نفسـي في أكـثر أدغـال لينـغ وحشـية وكثافـة. إنهـا فكـرة مثيرة للاشـمئزاز بالنسـبة لي؛ أننـي ربمـا كنـت قـد حدسـت هـذه التفاصيـل مـن الأثـير، وقمـت بتقديمهـا دون وعـي، متوقعـا قصـة لم أقرأهـا بعـد. هـذا يعنـي ضمنـا كل أنـواع نظريـة السـتينيات الرهيبـة حـول الطبيعـة الدائريـة والمتخلفـة للوقـت، وأنـا لا أؤيـد ذلـك. لدينـا مشـكلات كافيـة مـع السـرد الخطـي والذاكـرة الحقيقيـة. ومـع ذلـك، يجـب أن أسـتنتج أنـه إلى حـد كبـير، كان كل مـن روزان والأب غانـت صادقـين بقـدر الإمـكان، نظـرا لتقلبـات وحيـل العقـل البشري. «خطايـا» روزان كمـؤرخ ذاتي هـي «خطايـا الحـذف». أظهـر لهـا والدهـا طبيعـة الجاذبيـة في الـبرج، وبعـد بضـع سـنوات جـرت محاولـة لقتـل والدهـا في الـبرج، وشـهدت كلا الحدثـين، لكنهـا لم تسـجل الثانيـة. لـذا فـإن ميـلي الأول إلى تحديـد ذاكرتهـا عـلى أنهـا ذاكـرة مؤلمـة، مـع نقـل التفاصيـل وتلفهـا، وتغـير العصـور، كان في الواقـع بسـيطا للغايـة. ثـم كان هنـاك بالطبـع دسي الغريـب، أوه عزيـزي، يـا عزيـزي. بالطبـع، بالطبـع، مـن الممكـن أنـه منـذ سـنوات وسـنوات أخبرتنـي عـن المطـارق والريـش كحكايـة، وببسـاطة نسـيت كل شيء عنهـا. وهـذه القـراءة عـن الـبرج في شـهادة الأب غانـت جلبتهـا إلى ذهنـي.

وبالفعل، حتى عندما أفترض هذا، حتى عندما «أخترعه»، يبدو أن لدي ذكرى غامضة عنه. كارثي! لكن بغض النظر عن ذلك، هناك شيء جيد في هذا الاستنتاج. قد أقول أمام الله (من بين كل الناس، أسمع نفسي أقول): إنني أعتقد أنهم لم يكتبوا الكثير من التواريخ الخاطئة، أو حتى التواريخ المتنافسة، ولكنْ كلاهما بطريقتهما البشرية صادقان تماما، ويمكن استخراج حقائق مفيدة من كليهما تتجاوز الحقيقة الفعلية لـ «الحقائق». بدأت أعتقد أنه لا توجد حقيقة واقعية، على الرغم من أنني أستطيع سماع زوجتي بت تقول في أذني: «حقا، ويليام».

لقد قررت بأي حال من الأحوال بسبب قوة قراءة روايتها للقيام بالرحلة إلى إنجلترا. يبدو أنها خاطبتني أنا بقصتها، أو في بعض الأحيان على الأقل لي، ربما كصديقها، وأشعر أنه ليس واجبي فحسب، بل رغبتي الكبيرة في متابعة هذا حتى النهاية، ومعرفة المحطة الأخيرة. لا أستطيع أن أتخيل أنني سأحقق الكثير من خلال هذا، لأن الدكتور وين لا يتوقع منها أن تستعيد وعيها، «أخبار حزينة للغاية» كما قال، وسألني: هل لها أي عائلة أحتاج إلى الاتصال بها؟ بالطبع استطعت أن أقول: لا. لم أكن أعتقد ذلك. لا يوجد روح على قيد الحياة تحت هذا العنوان، إلا هذا الطفل الغامض. وهذا سبب إضافي للذهاب إلى إنجلترا، على الأرجح أن هناك شخصا ما يجب إخطاره في حالة وفاة هذه المرأة، التي ربما يعتبرها البعض لا وجود لها، ولكنها بالنسبة لي اكتسبت أبعاد صديق، وهو نوع من تبرير عملي هنا، كما كان، واختياري لهذه المهنة، كما هي. يجب أن لا أنسى أبدا أنه في لحظة من أعمق لحظات حياتي اجتازت الغرفة ووضعت يدها على كتفي، ربما كانت لفتة بسيطة تماما، لكنها أكثر رحمة وإفادة لي من هدية مملكة.

بمثل هذه البادرة سعت إلى علاجي، على افتراض أنها المعالج. بما أنني لا أبدو قادرا على العلاج كثيرا، فربما يمكنني ببساطة أن أكون شاهدا مسؤولا على معجزة الروح العادية. أنا ممتن للغاية لأنني لم أستخدم رواية الأب غانت لاستجوابها، بعدوانية أو بلطف، وأنني اتبعت حدسي. أرى الآن أنه كان يمكن أن يكون اعتداء على ذاكرتها. وبالمثل لا ينبغي استخدام روايتها الخاصة كأداة لمزيد من التحقيق. فكرتي الرئيسية هي: دعها تعش.

سرعان ما كنت على استعداد للذهاب، ولكن قبل ذلك، قررت أن أكتب ملحوظة إلى جون كين، في حال كان للكلمات المكتوبة فرصة أفضل لاختراقه.

عزيزي جون (كتبت)، لقد لاحظت بعض الأعمال اللطيفة التي قمت بها تجاه مريضتنا روزان كلير، السيدة ماكنلتي سابقا. أعتقد أنني أعرف من كان والدك، يا جون، أعتقد أنه كان الوطني جون لافيل! وأود بشدة أن أطرح عليك بعض الأسئلة عندما أعود من إنجلترا، حيث آمل أن أكتشف المزيد عن طفل روزان كلير. ربما يمكننا مقارنة الملحوظات! مع خالص التقدير، الخ.

كنت آمل بأن يكون هذا منطقيا بالنسبة له. أدخلت كلمة «باتريوت» وطنيا لأجرد الرسالة من أية إشارة تهديد. ربما كنت مخطئا تماما وكان ينظر إلى الأمر على أنه عمل مجنون. لم يكن الأمر منطقيا بالنسبة لي، لكنني ذهبت على أي حال.

أرخص رحلة طيران كانت من دبلن إلى جاتويك، لذلك وجدت نفسي أقود السيارة لمدة خمس ساعات باتجاه الشرق. وأعتقد أنه سيكون مفاجأة لروزان أن هناك الآن مطارا في سليغو، والذي رأيته على موقع في الشبكة العنكبوتية، في ستراندهيل. لكن الطائرات الصغيرة تطير فقط إلى مانشستر. أخذت معي جواز سفري، بطبيعة

الحال، وأي مستندات لدي تتعلق بروزان والتواريخ المختلفة، ومذكرة من الراهبة في سليغو. كنت أدرك جيدا كيف يمكن أن تكون هذه المؤسسات القديمة مشهورة أو سيئة السمعة، ليس أكثر من أنفسنا، مزيجا من انشغال الذهن، والقوة المفقودة، وربما حتى القلق. إن الحقيقة قد لا تكون دائما مرغوبة، وإن شيئا واحدا يؤدي إلى شيء آخر، وإن الحقائق لا تؤدي فقط إلى الحل، ولكن إلى الوراء، إلى الظل، وأحيانا إلى الجحيم الصغير المتنوع الذي يصنعه بعضنا لبعض. لذلك على الرغم من الراهبة اللطيفة، التي لم تعرض على أي حال الاتصال ببكسهيل، أو التدخل بطريقة أخرى، وعلى الرغم من تأييد بيرسي، كنت أتوقع تماما أن أكون محجوبا أو محبطا.

بالطبع، أخذت معي أيضا نسخة روزان من ريليجيو ميديسي، من باب الاحتياط. الآن يجب أن أعترف بأنني خاطرت بأن ينقلب والدي في قبره، وعلى متن الطائرة فتحت الكتاب، وأخرجت الرسالة بجرأة، وفتحتها، لعلها تكون مفيدة. لا أعرف لماذا اعتقدت أنها قد تكون مفيدة. ربما كان هناك دافع خسيس، مجرد فضول وحب استطلاع.

لقد فوجئت جدا عندما وجدت أنها رسالة من جاك ماكنلتي. نظرت إلى التاريخ الذي تم إرسالها فيه مرة أخرى، وأدركت أنه لا بد أنه كان رجلا عجوزا عندما كتبها. من المؤكد أن تجول خط اليد العنكبوتي يشير إلى أنه كان عجوزا. تم إعطاء العنوان باسم مستشفى الملك جيمس، سوانزي. لدي الرسالة هنا أمامي، لذا يمكنني أيضا إدخالها هنا، للحصول على نسخة.

عزيزتي روزان، أنا مستلق هنا في مستشفى في سوانزي وللأسف أنا مصاب بسرطان القولون. أكتب إليك لأنني قمت باستفسارات

عنك وتم إخباري بشكل موثوق وآمل أنك ما تزالين على قيد الحياة. لقد تلقيت أوامر الزحف الخاصة بي وأفترض أنها إرادة الله، ولكن ليس من المحتمل أن أكون بين الأحياء لفترة أطول. يجب أن أقول إنني اهتممت بالحياة واستمتعت بالزيارة كما يقولون، ولكن عندما يتم الاتصال برقمك، يجب أن تذهب. لا أعرف ما إذا كنت على علم بأنني تطوعت كجندي في الحرب، فقد خدمت في الهند بالقرب من ممر خيبر مع وحدة البنادق الملكية، وأنا فخور بأن أقول، على الرغم من أنني لم أر أي ألمان أو يابانيين أو ما شابه، مع ذلك، لو كان البعوض في الجانب الألماني لكنا خسرنا الحرب. أكتب إليك لأنه عندما يتم إخبار شخص ما بالذهاب للحرب، فإن أشياء كثيرة تمر في ذهنه. على سبيل المثال، حقيقة وفاة زوجتي مي بعد معاناتها من الكحول عن عمر يناهز ثلاثة وخمسين عاما. على الرغم من أنها قادتني لرقصة مرح في وقت مبكر، إلا أنني لم أندم أبدا للحظة على زواجي بها، لأنني كنت أعشقها. ومع ذلك، أعتقد أنها كانت امرأة متعجرفة، جرحت مشاعر البعض، وخصوصا أنت.

هذا هو السبب في أنني أكتب. إن ما حدث طوال تلك السنوات الماضية يؤلمني بشدة، وأردت أن أكتب وأخبرك بذلك. ليست هناك حاجة، في الواقع لا أعتقد أن هناك احتمالا بأن تغفري لي، لكنني أكتب إليك لأخبرك بأنني آسف بشدة، ولا أكاد أعرف كيف أفسره كحدث في جميع حياتنا. أفترض أن كل شيء مضى منذ وقت طويل، ولكن ليس منذ وقت طويل لدرجة أنه لا يبدو مثل الأمس، وغالبا ما يكون في أفكاري وفي أحلامي. أردت أن أخبرك أن توم تزوج مرة أخرى وأنجب أطفالا، لكن ربما لا ترغبين في سماع هذا. توفي توم قبل حوالي عشر سنوات بسبب شكوى

في المعـدة، وتـوفي في مستشـفى روسـكومن العـام، وتوفيـت زوجتـه الثانيـة في ذلـك الوقـت. لم نتحـدث عنـك أبـدا عـلى الرغـم مـن أننـا رأينـا بعضنـا كثيرا، ومـع ذلـك شـعرت أنـك كنـت هنـاك دائمـا بشـكل غـير معلـن بيننـا عندمـا كنـا نلتقـي. الحقيقـة هـي أن شـيئا مـا في حياتـه هـو الـذي غيره إلى الأبـد، لقـد كان دومـا مجـرد رجـل مختلـف بعـد ذلـك، ولم يعـد تـوم القديـم السـهل الـذي عرفنـاه. ربمـا ستقولين: أمـر طبيعـي، لا أعـرف. ربمـا تكونـين عـلى حـق. أريـد أن أقـول بضـع كلـمات الآن عـن والـدتي، التـي ربمـا تعلـم أنهـا كانـت الآلـة الرئيسـية في كل وقـت الصعوبـة هـذا. أريـد أن أخـبرك بأشـياء عنهـا لا يمكننـي إلا أن أخـبرك بهـا كرجـل يحتضر، وربمـا ليـس وجهـا لوجـه، بـل خلـف غـلاف رسـالة. لأنـه مـن الصحيـح أيضـا أنهـا عاملتـك -كنـت سـأكتب حالتـك ولكنـك تعرفـين مـا أعنيـه- بصلابـة غـير معهـودة.

منـذ حـوالي عشريـن عامـا عندمـا كانـت تحتضر، أخبرتنـي بقصـة ولادتهـا. تـم التهامـس في سـليغو أحيانـا بأنهـا طفلـة غـير شرعيـة، رغـم أنـك ربمـا لم تسـمعي هـذا الهمـس. كـما يحـدث، تـم تبنيهـا، وتوفيـت والدتهـا الحقيقيـة في سـن صغـيرة، ولكـون عائلتهـا ثريـة، ولم توافـق عـلى الـزواج في المقـام الأول، فإنهـم يحاولـون التخـلي عنهـا. كانـت والدتهـا امـرأة المشـيخية تدعـى ليـزي فـين. وكان والدهـا الحقيقـي ضابطـا في الجيـش، ويبـدو أنهـا أعطيـت لمراسـله، وهـو كاثوليـكي بالطبـع، كي يربيهـا عـلى أنهـا ابنتـه. إنهـا قصـة غامضـة، لكننـي رأيـت بـأم عينـي شـهادة زواج والديهـا في كنيسـة المسـيح بعـد سـنوات مـن وفاتهـا. لا أسـتطيع أن أقـول مـا مـدى ارتياحهـا لمعرفـة أنهـما تزوجـا. ربمـا تكـون هـذه أمـورا صغـيرة في الآخـرة. قبـل أن يمـوت تـوم، كان لديـه أيضـا فرصـة ليخـبرني بـسره، والـذي مـن بعـض النواحـي أكـثر صلـة بـك، وقـد يجعلـك تتسـاءلين لمـاذا لم تُظهـر أمـه المزيـد مـن

التعاطف معك. لأنه اعترف لي بأنني وهو فقط لنا أم واحدة، وأن والده ليس توم العجوز، على الرغم من أنه لم يكن يعرف من هو والده، وأنه حاول معرفة من يكون على الأقل من والدتي.

لم تشارك والدتي هذا مطلقا مع أي شخص وحملت اسم الرجل إلى قبرها. يجب أن نتذكر أن والدتي كانت تبلغ من العمر ستة عشر عاما فقط عندما ولدت، ولم تكن أكبر كثيرا عندما جاء الأخ توم (أو يجب أن أقول أخ غير شقيق). لماذا أقول لكِ كل هذا؟ لأنه بالطبع قد يفسر إن لم يكن يفصح عن رغبتها الهائلة في أن لا يتحمل توم حياة مشوشة مثل حياتها، وأن يكون عبدا لأفكارها الخاصة عن الاستقامة، حيث يمكن ذلك فقط لمن يعتقد أنهم سقطوا.

إينياس؟ في الستينيات تتبعته عبر وزارة الحربية البريطانية إلى فندق في جزيرة الكلاب في لندن. ذهبت إلى هناك ذات مساء، وقيل لي إنه خرج، وعلي أن أعود في اليوم التالي. في صباح اليوم التالي عندما اقتربت من الفندق الرخيص، وجدته خرابا مشتعلا. ربما انزعج من الأخبار التي تفيد بوجود شخص من سليغو لرؤيته، معتقدا أنه كان من أعدائه القدامى وكان من المقرر اغتياله، حتى بعد كل تلك السنوات، ربما يكون قد أحرق الفندق بنفسه، لتغطية آثاره. أو ربما كان بعض الرجال يراقبونني بينما كنت أبحث عنه، فقتلوا الرجل المسكين في الداخل. ومهما حدث لم أستطع التقاط أثره مرة أخرى. اختفى تماما. أفترض أنه مات.

هذه رسالتي وربما لا تفيدك. كل هذا يثقل كثيرا على ضميري. روزان، الحقيقة هي أن توم أحبك أنتِ لكنه فشل في حبه. أخشى أننا كنا جميعا متورطين في حبك قليلا. اغفري لنا إذا استطعت. وداعا. بكل احترام وإخلاص، جاك.

بأي حال من الأحوال هذه رسالة غريبة وغير متوقعة. كانت هناك أشياء فيها لم أفهمها تماما، وفجأة بالطبع تمنيت ودعوت ربي أن الرطوبة ربما قد أغلقت الرسالة مرة أخرى، وأنها ربما فتحتها ذات مرة. بالتأكيد، لقد احتفظت بها، إلا إذا كانت قد وضعتها في الكتاب دون فتحها ونسيتها. ربما كانت الرسالة الوحيدة التي تلقتها على الإطلاق. كنت بالتأكيد متوترا للغاية عندما هبطت الطائرة في غاتويك. تقع بكسهيل على بعد حوالي 50 ميلا فقط من غاتويك في ذلك الجزء من إنجلترا، لذا فإن المكان إنجليزي للغاية ربما يكون غير قابل للوصف، لا يمكن تسميته. تفوح منه رائحة الحلوى القطنية والمعارك القديمة. برايتون، هيستينغز. ومن المفارقات أن الساحل مكانٌ لملايين من ذكريات الطفولة الترفيهية، على الرغم من أنني لا أعتقد أن الأيتام الذين كانوا هناك منذ زمن بعيد سوف يتفقون على هذا. بالبحث عن الرحلات الجوية على الإنترنت باتجاه بكسهيل، وجدت موقعا للنقاش ساهم فيه الناجون من تلك الأيام. يندلع الألم الشديد من الكلمات. غرقت فتاتان هناك في البحر في الخمسينيات من القرن الماضي، بينما كانت الفتيات الأخريات يحاولن تكوين سلسلة بشرية لإنقاذهما، وكانت الراهبات يصلين بغرابة على الشاطئ. إنه مثل لوحة سُرقت من متحف. أعترف أنني تساءلت عن ابنة السيدة ماكنلتي، وأعترف أيضا أنني لسبب ما كنت أتمنى أن لا تكون هي من بين الراهبات المصليات. إذا كان طفل روزان قد انتهى به الأمر هناك في الأربعينيات.. كانت هذه أفكاري المشوشة عندما ركبت القطار من فيكتوريا.

يبدو أن قدري هو أن أسجل الكآبة المروعة للمؤسسات هذه. إنه شيء ثابت لا يتزعزع. بيت الناصرة بكسهيل لم يكن استثناء.

تبـدو قصصهـم وكأنهـا قـد نقشـت في أسـاس المبنـى مثـل تلـك الأصـداف الأثريـة، واحمـرار الـطوب. أظـن أنـه لا يمكنـك إزالتهـا أبـدا. صمـت المـكان نفسـه يوحـي بصمـت آخـر. قرعـت الجـرس عنـد البـاب الأمامـي وأنـا أشـعر فجـأة بأننـي صغـير جـدا وغريـب، كـما لـو كنـت أنـا يتيـما أتيـت إلى هنـاك. سرعـان مـا تـم فتـح البـاب، صرحـت بعمـلي للمـرأة، وهـي شـخص عـادي، قادتنـي خـلال الردهـة الطويلـة، مـع الأرضيـة اللامعـة الداكنـة المطاطيـة، وقطـع أثـاث الماهوجنـي الصلبـة، أحدهـا مزيـن بتمثـال إيطـالي للقديـس جوزيـف. أعلـم أنـه كان القديـس يوسـف لأن اسـمه كان عـلى القاعـدة. توقفـت المـرأة عنـد البـاب وابتسـمتْ وابتسـمتُ أنـا ودخلـت الغرفـة.

كانـت غرفـة طعـام صغـيرة، عـلى الأقـل كانـت الطاولـة تحتـوي عـلى أطبـاق مـن السـندويشـات والكعـك، ومـكان لشـخص واحـد، مـع فنجـان شـاي جاهـز. لم أكـد أعـرف مـاذا أفعـل، لذلـك جلسـت، متسـائلا عـما إذا كنـت في المـكان الصحيـح أو الشـخص المناسـب في المـكان المناسـب. ولكـن سرعـان مـا دلفـت راهبـة طويلـة مبتسـمة، مـلأت فنجـاني مـن إنـاء خـزفي. لقـد لاحظـت صـورة لواجهـة بكسـهيل البحريـة عليـه.

قلـت: «شـكرا أيتهـا الأخـت»، لأننـي لم أكـن أعـرف مـا أقولـه غـير ذلـك.

قالت: «أنا متأكدة أنك جائع للغاية بعد رحلتك».

قلت: «حسنا، أنا كذلك، شكرا لك».

«الأخت ميريام ستراك بعد ذلك».

لذلـك أكلـت في ذهـول وعندمـا انتهيـت بـدا أن الراهبـة لديهـا حاسـة سادسـة لهـذا الأمـر، لأنـه لم يكـن بإمـكان أي شـخص ينتهـي مـن أكل مـا هـو موجـود عـلى المائـدة، وتـم إرشـادي إلى عمـق الديـر وإدخـالي في النهايـة في غرفـة أصغـر.

كانت غرفة لخزائن الملفات. شعرت على الفور بالسكون والماضي. كنت أظن أن هناك بعض الأشياء في هذه الخزانات سيحتاج الناس إلى محامين للوصول إليها، حتى في هذا الوقت. وترأس هذا الأمر راهبة متأنقة ذات وجهٍ ممتلئ.

قلت: «السيدة مريام؟».

قالت «نعم، أنت الدكتور غرين».

قلت: «نعم».

«وأعتقد أنك قد أتيت لمراجعة سجلات معينة؟».

«نعم، لدي بعض المستندات أيضا، والتي قد تساعدنا في التعرف..».

«تلقيت مكالمة من سليغو وتمكّنت من البدء قبل مجيئك».

«أوه، فهمت الآن فعلا لقد اتصلت، أعتقد أنها قالت..».

«هذا الملف له مرجع مزدوج»، قالت، وهي تفتح مجلدا نحيفا.

«الطفل الذي تبحث عنه لم يمكث معنا طويلا».

كدت أقول: الحمد لله، لكنني تمكنت من الاحتفاظ بالكلمات في رأسي فقط.

«على الرغم من أن الملف يخص الماضي البعيد جدا، إلا أنني فهمت أن الأم لا تزال على قيد الحياة، وبالطبع الطفل نفسه..».

«إذن كان هناك طفل، هناك طفل إذن؟».

«أوه نعم، بكل تأكيد». قالت وابتسامة عريضة تظهر على محياها.

على الرغم من أنني لا أستطيع معرفة اللكنات الأيرلندية المحلية، فإني مازلت أمتلك فرصة لمحاولة تخمين ذلك، وكنت أفكر أنها ربما من كيري، أو بالتأكيد من الغرب. لقد كان استخدامها الرسمي قليلا للكلمات التي أعتقد أنها قد اكتسبتها من معرفتها

الطويلة بهذه التسجيلات. يجب أن أقول إنها كانت شخصا جذابا ومؤدبا للغاية وبدت ذكية.

قالت: «أنت معي حتى الآن؟».

«أوه، نعم».

قالت: «هناك شهادة ميلاد، هناك أيضا اسم الأشخاص الذين تبنوا الطفل. لكن هذا الطرف الأخير لم يكن ليطلع على الوثيقة السابقة، أو لفترة وجيزة فقط. يكفي أن يعرفوا أن الطفل كان أيرلنديا وصحيا وكاثوليكيا».

قلت بصورة غبية على ما أظن: «هذا يبدو منطقيا». عندما سمعت الكلمات تخرج من فمي. كنت في الواقع خائفا قليلا من هذه المرأة، كان هناك شيء مرعب يخصها.

«الشيء الذي أعطى المجتمع رغبة معينة في العثور على منزل جيد للطفل كان بالطبع علاقته مع الأخت ديكلان. عندما كنت في شبابي أتذكرها جيدا. لقد كانت شخصا جميلا من غرب أيرلندا، وهي ميزة كبيرة لوالدتها ولنا. كانت في الواقع في يومها أفضل راهبة متواضعة في بكسهيل».

كان ذلك إنجازا عظيما جدا. وقد أحبها الأيتام بشكل عام.

كان هناك تركيز لطيف في صوتها، لكنه واضح.

قالت الأخت مريام: «قد ترغب في الخروج لاحقا ورؤية قبرها الصغير؟».

«أوه، سأكون سعيدا..».

«نعم. نحن ندرك هنا في بكسهيل أن الأمور كانت مختلفة جدا في الأربعينيات، وأنا شخصيا أعتقد أنه من المستحيل السفر عبر الزمن بشكل كافٍ لتقدير تلك الاختلافات. حتى الدكتور هو نفسه قد يجد صعوبة في ذلك». ابتسمت مرة أخرى.

قلت: «هناك حقيقة عظيمة في ذلك» على الفور بدوت مغرورا حتى لنفسي «في ميدان الصحة النفسية. لا سمح الله. لكن في نفس الوقت، يجب على المرء..».

«أن يفعل ما يستطيع؟».

«نعم».

«للتعويض والتراجع عن الأذى؟».

لقد فوجئتُ جدا بسماعها تقول ذلك.

قلت: «نعم»، متأثرا بصدقها غير المتوقع.

قالت: «أنا موافقة»، ومثل لاعبة البوكر الهادئة، وضعت أمامي وثيقتين على المنضدة. «هذه هي شهادة الميلاد. هذه هي ورقة التبني».

انحنيت إلى الأمام، وأخذت نظارتي للقراءة، ونظرت إلى الصفحات. أعتقد للحظة أن قلبي توقف وتجمد الدم في جسدي. فقط للحظة، توقفت آلاف الأنهار وتيارات الدم عن التدفق. مع إحساس بقوة هائلة مرة أخرى.

كان اسم الطفل ويليام كلير، المولود من النادلة روزان كلير. واسم الأب إينياس ماكنلتي، جندي. تم تسليم الطفل إلى السيد والسيدة غرين من بادستو، كورنوال في عام 1945.

جلست هناك أمام الأخت مريام في حالة ذهول.

«حسنا؟» قالت بلطف «إذن، أنت لا تعرف؟».

«لا، لا، بالطبع لا، أنا هنا رسميا لمساعدة وتقديم يد العون لسيدة عجوز في رعايتي».

«ظننا أنك قد تعرف. لم نكن نعرف ما إذا كنت تعرف ذلك».

«لم أكن أعرف. هناك أشياء أخرى هنا، في دفتر الملحوظات

حـول المحادثـات بـين الأخـت ديـكلان وجـون كـين في السـبعينيات؟ هـل تعـرف أي شيء عـن ذلـك؟».

«لا».

«كان كـين حريصـا عـلى العثـور عليـك وكانـت الأخـت ديـكلان قـادرة عـلى إلزامـه. هـل وجـدك مـن قبـل؟».

«لا أعرف. لا، نعم».

«أنـت مرتبـك للغايـة وهـذا أمـر مفهـوم بالطبـع. إنـه مثـل تسـونامي، أليـس كذلـك؟ شيء يجتاحـك. حمـل النـاس والأشـياء»..

«أختي، عفوا، أعتقد أنني سأستفرغ. ذلك الكعك..».

«أوه، نعم، بالطبع» قالت «فقط اذهب من هناك».

عندمـا كنـت قـادرا بشـكل كافٍ، كانـت هنـاك تجربـة غريبـة وهـي النظـر إلى قـبر خالتـي. ثـم غـادرت ذلـك المـكان وعـدت إلى لنـدن.

تمنيـت، وتمنيـت وتقـت لـو أن بـت مازالـت عـلى قيـد الحيـاة حتـى أتمكـن مـن إخبارهـا، كان هـذا أول مـا فكـرت بـه.

لكن كل فكرة لاحقة راودتني، هززت رأسي بخصوصها.

لا بـد أن الـركاب الآخريـن اعتقـدوا أننـي مصـاب بمرض باركنسـون. لا، لا، كان مـن المسـتحيل. لم يكـن هنـاك بـاب في رأسي حيـث يمكـن أن تدخـل المعلومـات مـن خلاله.

تلـك السـيدة العجـوز، التـي كنـت بالـكاد عـلى علـم بهـا طيلـة سـنوات، والتـي اسـتولت عـلى مخيلتـي في تلـك الأوقـات الأخـيرة، تلـك السـيدة العجـوز معهـا غرابتهـا وتاريخهـا وأفعالهـا المتنـازع عليهـا ونعـم صداقتهـا كانـت أمـي.

رجعـت بسرعـة إلى المنـزل كـما قـد يقـول المـرء. لم تجلـب لي سـاعات الرحلـة الكثير مـن الوضـوح. ومـع ذلـك، كان هـدفي الوصـول إليهـا بعجالـة، خائفـا فجـأة مـن موتهـا قبـل أن أصـل إلى هنـاك. لم

أستطع أن أشرح لأي شخص هذا الشعور. شعور نقي، لا شيء آخر. الشعور بلا تفكير. فقط للوصول إلى هناك، والاستمرار في الذهاب والوصول إلى هناك. هرعت عبر أيرلندا، وكنت أقود بغباء مؤكد. لقد أوقفت سيارتي في موقف السيارات للمستشفى الذي أعمل فيه، ومن دون تحية معتبرة للموظفين في المستشفى، خطوت بخطواط كبيرة إلى الجناح حيث كنت آمل وأتمنى أن تكون لا تزال هناك. كانت الستارة مسدلة حول سريرها، رغم عدم وجود أي شخص آخر في الغرفة. ظننت، نعم، بالطبع هذه هي، استنتاجي، إنها ميتة. نظرت حول الستارة فقط لأرى وجهها مستيقظا وحيا تماما، تستدير الآن بضع درجات، لتنظر إليّ.

قالت: «دكتور غرين، أين كنت؟ لقد عدتُ من الموت، على ما يبدو».

حاولت أن أخبرها في نفس اللحظة. لكن لم يكن لدي الكلمات. اعتقدت أنه سيتعين علي انتظار الكلمات. بدت وكأنها تشعر بشيء ما، بينما كنت أتأرجح في الفجوة بالستارة. يعرف الناس غريزيا أكثر مما يعرفونه في عقلهم الواعي (ربما من الناحية الطبية فكرة مشكوك فيها ولكن هذا هو رأي).

قالت: «إذن يا دكتور هل قمت بتقييمي؟».

«ماذا؟».

«هل أجريت تقييمك؟».

«أوه، نعم. أعتقد ذلك».

«وما الحكم؟».

«أنتِ غير ملومة»..

«غير ملومة؟ لا أعتقد أن ذلك يُمنح لأي كائن بشري».

«غير ملومة. كان حبسك بالملجأ خطأ. أعتذر. أعتذر نيابة عن

زملاء المهنة. أعتذر نيابة عن نفسي، شخص لم يتفقد بنفسه، وينظر في كل شيء في وقت سابق. إن الأمر استغرق هدم المستشفى للقيام بذلك. وأنا أعلم أن اعتذاري عديم الفائدة ومثير للاشمئزاز بالنسبة لك».

ضحكت على الرغم من وهنها.

قالت: «لكن هذا ليس صحيحا. أظهروا لي كتيب المستشفى الجديد. أعتقد أنك ستسمح لي بالبقاء هناك لفترة من الوقت؟».

«هذا قرارك تماما. أنت امرأة حرة».

«لم أكن دائما امرأة حرة. أشكرك على حريتي».

قلت فجأة بشكلٍ غريب للغاية ورسمي: «إنه لشرف لي أن أنطقها». لكنها قبلت ذلك بصلابة.

قالت: «هل يمكنك أن تقترب إلى السرير؟».

فعلت كذلك. لم أكن أعرف ما نيتها. لكنها فقط رفعت يدي وصافحتها.

قالت: «أتساءل هل تسمح لي أن أغفر لك؟».

قلت: «يا إلهي، نعم».

ساد صمت قصير وقتها، ما يكفي من الصمت لبث عشرات من الأفكار لتعصف في ذهني.

قالت: «حسنا، أغفر لك».

في صباح اليوم التالي ذهبت إلى الإسطبل القديم. أردت أن أسأل جون كين بينما لا يزال بإمكاني طرح بعض الأسئلة، مع وجود سبب إضافي للقيام بذلك. كنت أعلم أنه من غير المحتمل أن يكون قادرا أو مستعدا للإجابة على أسئلتي. طننت على الأقل أن أقدم له جزيل الشكر، على كل أعماله الغريبة. لم يكن هناك أي علامة على الإطلاق لوجوده. كان مسكنه عبارة عن غرفة مفردة بها طاولة الغراموفون العتيقة، من النوع الذي يتعين عليك فتح الباب الأيمن منه لخروج

الصوت، لأن الباب كان يخفي مضخم صوت بسيطا مصنوعا من الخشب.

كانت هناك مجموعة من 78 سجلا في الكوة التي قدمتها الشركات المصنعة (شبيردز، بريستول). احتوت على تسجيلات بيني جودمان، وبوبر مايلي، وجيلي رول مورتون، وفليتشر هندرسون، وبيلي مايرل. وبخلاف ذلك، كانت الغرفة فارغة، باستثناء سرير حديدي أنيق صغير، بغطاء مخيط بشكل فظ بالورد. فكرت على الفور في عمل السيدة ماكنلتي كما وصفته روزان. ليس لدي أدنى شك في أنه للحصول على ما يريده، أو ما كان يعتقد أنه أفضل طريقة لخدمة روزان، استخدم كل الضغط الذي يمكن أن يخمد أسرار عائلة ماكنلتي. الزوجة الأولى التي لم تكن قانونيا موجودة، والتي ربما لم يتم إخبار عائلة ماكنلتي الثانية عنها أبدا. الزوجة المجنونة التي لم تكن الزوجة، لكنها مع ذلك كانت لحما ودما. أنا متأكد من أن السيدة ماكنلتي وابنتها الطيبة قد فعلتا ما بوسعهما كبشر لإسعاد جون كين، حتى إلى حد إعطائي اسمي الجديد، وقصتي حتى تلك اللحظة. لا أعرف ما الذي كان ينوي القيام به بعد أن وجدني، ولا يمكنني إلا أن أفترض أنه بعد أن علم أنني قد تدربت بأعجوبة كطبيب نفسي، قام بتكييف نفسه مع هذا، ووضع خطة أفضل من الأولى، والتي بعد كل شيء، لو كان لم شمل بسيط في ذهنه، فربما أدى ذلك إلى رفضي لرؤية روزان، ولو رأيتها لرفضتها.

فلماذا لا أرفضها في حين إن الجميع قد رفضها؟

حسنا، أعتقد كل هذه الأشياء ليست من التاريخ. لكني بدأت أتساءل بقوة ما طبيعة التاريخ؟ هل هي الذاكرة فقط في الجمل اللائقة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما مدى موثوقيتها؟ أود أن أقترح، ليس كثيرا. ولذلك فإن معظم الحقيقة والحقيقة التي تقدمها هذه الوسائل النحوية غدارة وغير موثوقة. ومع ذلك، أدرك أننا نعيش حياتنا،

وحتى نحافظ على سلامة عقلنا، من خلال أضواء هذه الخيانة وعدم الموثوقية، تماما كما نبني حبنا للوطن على هذه العوالم الورقية من سوء الفهم والكذب. ربما تكون هذه هي طبيعتنا، وربما فكرة أننا لا نحاسب على أخطائنا تكون جزءا من مجدنا كمخلوق، إنه يمكننا أن نبني أفضل المباني وأكثرها ديمومة على أسس هشة تماما.

يجب أن أحيي ذكرى علبة سيجار كوبي بجانب سرير جون كين، والذي اكتشفت لدى فتحه أنه نصف فارغ. أو نصف ممتلئ. خلاف ذلك، لا شيء، باستثناء هذه الملحوظة الصغيرة الغريبة والمهمة الموجودة أعلى الغراموفون:

عزيزي الدكتور غرين

أنا لست ملاكا ولكني أخرجت الطفل من تلك الجزيرة. أركض إلى الطبيب به. أود أن أتحدث إليكم لكنني ملزم بالذهاب. سوف تسأل لماذا فعلت كل شيء من أجل روزان؟ والإجابة لأنني أحببت والدي. قُتل والدي على يد بيربوين. لقد جعلت دكتور سنغ يكتب لك خطابا وكانت معجزة حين فعلها وأنت قد أتيت. أنا مسرور بمجيئك. ذات يوم كنت سأخبرك بالحقيقة والآن أتى هذا اليوم. أنت تعرف الحقيقة أنا متأكد، ومن فضلك الآن لا تتخلص من والدتك. لا أحد منا بلا أخطاء، انظر إلي ولكن هذه ليست الفكرة. الآن أقول وداعا، دكتور، سامحني، والله أيضا يغفر لي.

مخلصا لك، شونين كيين لافيل (جون كين)

ملحوظة: هاجم دوران تلك المرأة التي كانت من لترن والتي عادت إلى المنزل بأمان.

لم تكن الممرضات ولا الأطباء يعرفون أين هو. لم يكن الأمر كما لو أنه حزم حقيبته، أو تسلل إلى الغابة خلفنا ليموت. ببساطة لم يكن

هناك أثر له. بالطبع تم إبلاغ الشرطة وأنا متأكد من أن أفراد الشرطة الأيرلندية يراقبونه، ويرونه في كل مكان وفي لا مكان. ماكس دوران، مساعد الممرض الذي أشار إليه جون كين، زميل شاب ووسيم إلى حد ما ولديه صديقة، اعترف لي بشكل خاص عن امرأة ليتريم، ومن الواضح أن هذا يجعله يشعر بالخجل، وأكثر من ذلك، القلق. اعترف لكنه تراجع وسحب اعترافه بعد ذلك. عندما يكون المحامون جاهزين، سيُحاكم، وقد يستغرق الأمر بعض الوقت. مع تشتت المستشفى وطاقمه، لا أستطيع أن أقول إن المعنويات تضررت. ربما تم الحصول على شيء صغير. أود أن أعتقد أنها بداية الأمان لمرضانا، ولكن هيهات، أنا لست أحمق.

الفصل الحادي والعشرون

ها هو الخريف الآن وهي في مكان مناسب. مُصمم لهذا الغرض، وحديث حقا، في الحقيقة، ملجأ يستحق هذا الاسم العريق والمرغوب فيه. لا شك أنها مع تقدم سنين عمرها كانت مسألة وقت فقط، ولكن بعد ذلك، ما الأمر الذي ليس كذلك؟ مات الكثير من الرجال الصالحين قبل وقت طويل وهم أصغر عمرا مني. تمضي أيام وهي صامتة، وصعبة المراس، ولا ترغب في الأكل، وتسألني بفظاظة: لماذا أتيت؟ أحيانا تخبرني بأنها لا تريدني أن آتي. مثل جون كين، كنت أحاول اختيار اللحظة المناسبة. فأرى بوضوح تلك الصعوبة التي كان يعاني منها.

في أحد الأيام بينما كنت ذاهبا، وقفت واتجهت نحوي على بعد بوصات قليلة مثل قطعة من الورق النفيس، عانقتني وشكرتني. حتى عظامها بدت ضئيلة. لقد تأثرتُ لدرجة أنني كنت على وشك أن أخبرها بذلك. لكن لم أفعل.

أعتقد أنني أخشى، على الرغم من أنها قد تكون راضية عني كطبيب وصديق، إلا أنها قد تشعر بخيبة أمل مني كابن، حيث إنها ليست مكافأة ذات جدوى لكل ما تعانيه؛ رجل إنجليزي أيرلندي سخيف، رصين، مسن، مرتبك. علاوة على ذلك، أشعر بالخوف من صدمتها بطريقة خاطئة، طبيا ونفسيا. قد أستشير الدكتور وين عن هذا الموضوع، ولكن قد تكون صدمة تتخطى مجال الطب، ربما

يتجاوز ما يعرفه، وما أعرفه أنا أيضا. قد يتم كسر شيء خفي ووديع وهش، يكون أبعد بكثير مما نقترفه من أخطاء. إنه جوهر قدرتها على التحمل. لكنني أعتقد أنها ستستمر تتحمل وتبقى تتحمل. الشيء المهم هو أنها الآن بمأمن ويتم الاعتناء بها. وهي حرة.

بعد شهر من عودتي من إنجلترا، هُدم الملجأ. لقد قرروا القيام بذلك عن طريق التفجير المتحكم فيه آليا، بحيث تنهار المنافذ الأربعة الأولى عندما تتساقط أرضية الطابق. في ذلك الصباح كان الأمر أشبه بالخروج لرؤية الملجأ تمحوه الحياة بواسطة أسلاك وديناميت وحسابات دقيقة. وقفنا جميعا على تل صغير، على بعد حوالي ربع ميل من المبنى. في الساعة المحددة، ضغط المهندس على صندوق التفجير، وبعد ثانية لا نهاية لها سمعنا ضوضاء هائلة ورأينا الجزء السفلي من المبنى القديم يتهاوى في قمة اللهب من الملاط والحجر العتيق. انهار الصرح الضخم على الفور إلى الأرض، ولم يتبق سوى ذكرى معلقة لمواقعه القديمة مقابل الأفق. وخلفه كان رجل عظيم من اللهب على طول الملجأ، مع أجنحة منتشرة من الشرق إلى الغرب. من الواضح أنه كان جون كين. نظرت حولي إلى رفاقي وسألتهم عما إذا كانوا رأوا ما رأيته. نظروا في وجهي كما لو كنت مجنونا، وبما أنني قد فقدت ملجئي والآن لست سوى المراقب لذلك الفقدان الهائل، فمن المحتمل أن طيفا قد احتواني، أعتقد ذلك.

كان الحزن بالطبع هو الذي رأى الطيف. أنا أعلم ذلك الآن. كنت أفكر في أنني تجاوزت الحزن على بِت تماما، لكنها كانت في ذاكرة مستقرة، لكن الأمر كان لا يزال في البداية فقط. يقولون إن الحزن يمتد إلى حوالي عامين، إنه مجرد كلام تافه في كتيبات الحزانى. لكننا في حداد على أمهاتنا حتى قبل أن نولد. سوف أخبرها. بمجرد أن أجد الكلمات. بمجرد أن نصل إلى ذلك الجزء من القصة.

اليوم عدت بسيارتي إلى سليغو. مررت في الجزء العلوي من المدينة بمقبرة البلدية، وتساءلت ما الذي فعله الزمن بالمعبد الإسمنتي وفدادين من القبور. لقد وصلت إلى بيرسي أخيرا، وشكرته على مساعدتي. لا أعرف ما إذا كان متفاجئا. عندما أخبرته بما حدث، نظر إليّ من دون نقاش مندهشا لبضع لحظات. ثم قام من خلف مكتبه. كنت أقف بجانب الباب، غير متأكد من أنني سأدخل بشكل كامل، أو أن أبقى في الخارج، حتى لا أزعجه.

قال: «يا عزيزي أيها الرجل».

لا أدري، ظننت أنه سيعانقني. ابتسمت كصبي، هذا ما شعرت به، وأطلقت ضحكة من السعادة. عندها فقط صدمتني الحقيقة. وهو أنني سعيد بالإبلاغ عن ذلك في الصميم، عن كل شيء، طبيعة تاريخها وتاريخي، كانت هناك عاطفة ساذجة للغاية.

أردت أن أخبره بأنني اعتقدت أن الأمر لم يكن يتعلق كثيرا بمدى حقيقة ما كتبت عن نفسها، أو أخبرت الحقيقة، أو صدقت ما كتبته وقالت إنه صحيح، أو حتى ما إذا كانت أشياء حقيقية في حد ذاتها. الشيء المهم بالنسبة لي أن الشخص الذي كتب وتحدث كان مثيرا للإعجاب وهو على قيد الحياة ولا ينقصه شيء. أردت أن أقول له، أن أعترف بطريقة ما، إنني من وجهة نظر نفسية، قد فشلت تماما في «مساعدتها» لفتح الأغطية المقفلة للماضي. ولكن في النهاية، لم تكن نيتي بالأساس هي مساعدتها، بل تقييمها. طوال الوقت الذي كنت أساعدها فيه، طوال تلك السنوات التي كانت فيها هنا، تركتها بمفردها إلى حد ما. أردت أن أقول له: لقد ساعدت نفسها بنفسها، لقد تحدثت إلي، وهي تستمع إلى نفسها. كان انتصارا. وفيما يتعلق بأمر والدها، في النهاية فضلت كذب روزان عن والدها على الحقيقة التي رواها الأب غانت عنه، لأن رواية روزان كانت تشع بالصحة. علاوة على

ذلك، اعتقدت أنه إذا لم يستدعني طيف أموردات سينغ الرائع، فربما لم أكن لأمارس الطب النفسي أبدا، ولم أصدق أنني كنت طبيبا نفسيا بارعا، ناهيك عن كوني رجلا طيبا. ثقفتني روزان في كيفية لغز الصمت البشري، وفعالية الانسحاب من مهمة الاستجواب. لكنني لم أتمكن من قول هذه الأشياء.

ثم أدلى بتعليق قد يعتبر مسيئا، لكن في الواقع أعتقد أنه يمثل فطنة من جانبه، والذي كان فخورا به للغاية، والذي كنت ممتنا جدا له، في ظل هذه الظروف.

قال: «سوف تتقاعد قريبا، ولكن مع ذلك ومن عدة نواحٍ لقد بدأت للتو».

ثم شكرت بيرسي مرة أخرى وعدت إلى السيارة وتوجهت إلى ستراندهيل. كنت أعرف إلى حدٍّ ما الطريق من رواية روزان، وذهبت إلى هناك كما لو أنني كنت في ذلك المكان من قبل. عندما وصلت إلى كنيسة حيث كان من المفترض أن تكون في مكانها، خرجت من السيارة ونظرت حولي. كان هناك نوكناريا كما وصفتها روزان في كثير من الأحيان، حيث ترعرعت وكما لو كانت تطير نحو الماضي، الماضي البعيد وغير المعروف. يوجد في الأسفل خليج سليغو، مع روزيس إلى اليمين، وبن بولبين حيث قُتل ويلي لافيل، ورأيت الأعمدة التي لا تزال على الشريط المؤدي إلى جزيرة كوني. كان مجرد مكان صغير مكدس، عدد قليل من الحقول والمنازل. لا أستطيع بالتحديد أن أعترف بذلك في ذهني، هذا هو المكان الذي ولدت فيه. في مكان ما هناك على حافة الأشياء، وبشكل معقول بما فيه الكفاية، حيث كانت روزان تعيش دائما على أطراف عالمنا المعروف، وكذلك جون كين. لقد ولدت على أطراف الأشياء، وحتى الآن، بصفتي وصيا للمصابين بأمراض عقلية، فقد نصبت خيمتي بالفطرة في مكان مماثل. ما وراء الجزيرة، على بعد

مسافة بعيدة، كنت ترى الشكل الوفي للرجل المعدني، يشير هناك إلى الأبد.

على يساري كانت القرية الصغيرة، أود القول إنها لم تتغير كثيرا، ولكن هناك بالطبع العديد من المنازل في ستراندهيل أكثر مما كان في أيام روزان. ومع ذلك، تمكنت من رؤية ما تحت واجهة فندق قديم بالقرب من الشاطئ، والتل الكبير من الرمال الذي أعطى هذا المكان اسمه البسيط، وحتى إنني تخيلت واجهة ما بدا وكأنه قاعة رقص متواضعة.

يبدو أنه كان يوما قد اختير بعناية لأنني بينما كنت أقود سيارتي إلى شاطئ البحر، لاحظت المدفع والمياه الآمنة، ورأيت رجالا مشغولين في قاعة الرقص. يبدو أنهم كانوا يستعدون لهدمها. كانت هناك لافتة للمهندس تقول بأنه سيتم بناء شقق في الوقت المحدد. بدت القاعة نفسها صغيرة بشكل يبعث على السخرية، وخلفها سنام من الحديد المموج، والجهة الأمامية نفسها كانت في الواقع سكنا على شاطئ البحر. لقد اختفى العلم الذي كان يحمل اسمها ذات مرة، ولكن في السنوات التالية، كان لدى شخص ما خمسة أحرف حديدية وضعها في المقدمة، والآن يعلوها اللون الرمادي والصدأ: ب-ل-ا-ز-ا. كان من غير المعتاد بالنسبة لي أن أفكر في كل التاريخ المتلاشي لهذا المكان. أن أفكر في إينياس ماكنلتي وهو يسير هنا مرتديا زيه المحترق، وبرحيل توم مع أدواته، والسيارات القادمة من سليغو على طول الشريط اللامع، وإيقاعات الموسيقى التي تتسرب إلى الهواء الصيفي الأيرلندي الذي لا يستحق الوثوق به، وربما ينحرف حتى يصل آذان الملكة مايف القديمة. بالتأكيد آذان تستمع إلى روزان في منفاها المدفون.

كان من الصعب تحديد مكان كوخها. وجدت نفسي قد مررت بالفعل بالمكان الذي كان يجب أن يكون فيه الكوخ، لأنني تمكنت من

العثور على الجدار القريب من المنزل الكبير المقابل له، والبوابة التي عندها أهانتها زوجة جاك. في البداية اعتقدت أن كل شيء كان مجرد شجيرات وخراب، لكن المدخنة الحجرية القديمة كانت لا تزال سليمة إلى حدٍّ ما، رغم أنها مغطاة بالأشنيات والأعشاب المتسلقة. والغرف التي عاشت فيها روزان تنفذ فيها الحكم بالموت وهي على قيد الحياة لم تعد موجودة الآن.

مشيت في الفجوة المدمرة للبوابة الصغيرة ووقفت على العشب البائس. ليس ثمة ما أراه ولكن في خيالي كنت أرى كل شيء، لأنه زودني بالصورة السينمائية القديمة لهذا المكان. لا شيء سوى شجيرة الورد المهملة بين نباتات العليق، مع بعض الزهور الحية. ورغم قراءتي لكتب بِت، وجدت نفسي مازلت لا أعرف اسم تلك الزهور. لكن ألم تذكر روزان شيئا عن ذلك؟ شيئا ما.. قسما لم أستطع تذكر ما كتبته. لكنني تقدمت للأمام عبر الأشواك والأعشاب، معتقدا أنني قد أقطف بضع أزهار منها وآخذها معي إلى روسكومن كتذكار. كانت جميع الأزهار متجانسة، وردة أنيقة متعرجة، باستثناء فرع واحد، كانت وروده مختلفة ومشرقة ومنفتحة. كان بإمكاني أن أشعر بالعوسج يمزق ساقي، ويسحب سترتي مثل المتسولين، لكنني فجأة عرفت ما كنت أفعله. لقد قشرت بعناية غصنا كما هو موصى به في الكتب والموجودة في الفصول عن التكاثر، ووضعته في جيبي، وشعرت بالذنب قليلا، كما لو كنت أسرق شيئا ليس لي.

المترجم في سطور

د. طيبة محمد صادق

- من مواليد الكويت.
- حصلت على الليسانس في الأدب الإنجليزي من جامعة الكويت العام 1981.
- نالت شهادة الماجستير في المناهج وتعلم اللغة الإنجليزية بواسطة الكمبيوتر من جامعة سان فرانسيسكو في الولايات المتحدة العام 1984.
- حصلت على شهادة الدكتوراه في تعلم اللغة بواسطة الكمبيوتر من Kigs College جامعة لندن العام 2020.
- عملت في وزارة التربية والتعليم لعدة سنوات، كما عملت في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب، وتشغل حالياً منصب أستاذ مساعد في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بكلية التربية الأساسية.
- شاركت في كثير من اللجان العلمية وحضرت العديد من المؤتمرات المحلية والدولية.
- لها عدد من البحوث في مجال استخدامات الكمبيوتر والمهارات اللغوية.
- عضو في منظمة TESOL لتدريس اللغة الإنجليزية للمتحدثين باللغات الأخرى، ومقرها الولايات المتحدة الأمريكية.
- عضو في منظمة تعلم اللغة بواسطة التكنولوجيا الحديثة JALTCALL، ومقرها اليابان.
- لها اهتمامات خاصة في «محو الأمية الثقافية» وتقوم بتدريس المقرر في قسم اللغة الإنجليزية في كلية التربية الأساسية، وقد خصصت لها مدونة عامة مفتوحة للحوار في تقارب الثقافات (http;//culture433.blogspot.com).
- تقوم حالياً بمشروع ربط أدب الطفل بالتكنولوجيا الحديثة.

د. محمد عبدالغني غنوم

-مواليد سورية 1958.

- من أصل فلسطيني.

- حصل على الإجازة في اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعة دمشق سنة 1980.

- حصل على الماجستير في الأدب الإنجليزي سنة 1985 من جامعة نيويورك.

- حصل على ماجستير في فلسفة الأدب الإنجليزي والنقد سنة 1989 من جامعة كولومبيا/ نيويورك.

- حصل على الدكتوراه في النقد الأدبي - الإنجليزي المعاصر سنة 1991 من جامعة كولومبيا.

- قام بترجمة ومراجعة كتب عديدة وبحوث وقصص قصيرة.

- من الكتب: كتاب في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار للناقدة الهندية آنيا لومبا، ومسرحيتان من الأدب الأيرلندي هما صناعة تاريخ وترجمات للكاتب المسرحي الأيرلندي بربان فريل نشرتا في سلسلة إبداعات عالمية عدد 553.

- قام بتدريس الأدب الإنجليزي في جامعة ماكيوان في كندا ما بين 1993 - 1996.

- أستاذ مشارك في كلية اللغات والترجمة في جامعة الإمام في الرياض منذ العام 1996.

صدر من هذه السلسلة

314	حياة إنسان	تأليف : ليونيد أندرييف
315	دون كيشوت	تأليف : ميخائيل بولجاكوف
316	واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق	تأليف : كنيث ياسودا
317	ملحمة علي الكاشاني	تأليف : خلدون طائر
318	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار - الجرة المكسورة	تأليف : جونتر جراس
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : هاينرش فون كلايست
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : أندريه شديد
335	زهرة الصيف	تأليف : فلاديمير هلباتش
336	طام - طام زنجي	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
337	اليبروح	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
338	منزل النور	تأليف : نيكولو ماكيافللي
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : جوهر مراد
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف : تشنوا أشيبي
341	غرام ميتيا	تأليف: أرتور شنيتسلر
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: إيفان بونين
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: فيمي أوسوفيسان
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: تنغ - هسنغ يي
345	رسائل عيد الميلاد	تأليف: إيريش كستنر - تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك	تأليف: سليمان جيغو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر
348	حكايات وخرافات أفريقية (2) الأدغال والسهول العشبية تحكي	تأليف: سليمان جيغو ديوب

ما صدر من هذه السلسلة

349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: 1 - محنة الأخ جيرو 2 - تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «آنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن يتبعها فن الهايكو	تأليف: هنري برونل
354	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ - 2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام ساروريان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّـــورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندجي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروچيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبن دايفيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: 1 - سهرة في المقهى 2 - موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان
369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجى شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد

ما صدر من هذه السلسلة

372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فُروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي
385	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)	تأليف: إرنست همنغواي
386	النمر الأبيض (رواية)	تأليف: آرافيند آديغا
387	موطن الألم (رواية)	تأليف: دوبرافكا أوجاريسك
388	فيلا أماليا (رواية)	تأليف: باسكال كينيارد
389	الإحساس بالنهاية (رواية)	تأليف: جوليان بارنز
390	ياسمينة (وقصص أخرى)	تأليف: إيزابيل إبرهاردت
391	المغامرة الغامضة (رواية)	تأليف: شيخ حامد كَان
392	الرجال الذين يحادثونني (رواية)	تأليف: أناندا ديفي
393	أنطولوجيا القصّة الإيرانية الحديثة	تأليف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين
394	حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال	تأليف: أمادو همباطي با
395	خرائط (رواية)	تأليف: نور الدين فرح
396	إله الصدفة (رواية)	تأليف: كريستن توروب
397	أزهار عباد الشمس العمياء (رواية)	تأليف: ألبرتو مينديس
398	الأبدية بعيدة جدا (وقصص أخرى)	تأليف: تيه نينغ
399	اذهب حيث يقودك قلبك (رواية)	تأليف: سوزانا تامارو
400	الحضارة أمي (رواية)	تأليف: إدريس الشرايبي
401	فنان الاختفاء (ثلاث روايات قصيرة)	تأليف: أنيتا ديساي
402	عيناها (رواية)	تأليف: بزرگ علوي
403	السباحة إلى المنزل (رواية)	تأليف: ديبورا ليڤي
404	الرِّقَّة (رواية)	تأليف: دافيد فونكينوس

ما صدر من هذه السلسلة

405	على قيد الحياة (رواية)	تأليف: يو هوا
406	الأب (رواية)	تأليف: يورج أكلين
407	إنّي أتعافَى (رواية)	تأليف: دافيد فوينكِينوس
408	الوردة الزرقاء (رواية)	تأليف: بينلوبي فيتزجرالد
409	إبداعات نسائية (مجموعة قصصية)	تأليف: مجموعة من الكاتبات التركيات
410	الإيـــاب (ديوان شعر)	تأليف: هاينْرِيش هاينِهْ
411	سبع حكايا تعود من بعيد	تأليف: جان كريستوف روفان
412	المخادع الحقيقي (رواية)	تأليف: توف جانسون
413	اليوم السابع (رواية صينية طويلة)	تأليف: يـــو هـــوا
414	الرجلُ الذي كان يَنظُر إلى الليل (رواية)	تأليف: جِلبير سِينُويه
415	رَاوِي مَرّاكش (رواية)	تأليف: جويديب روي ـــــ باتاجاريا
416	فَتَاةٌ في حَالَة حَرْب (رواية)	تأليف: سارة نوفيتش
417	آكلو اللوتس الجزء الأول (رواية)	تأليف: تاتيانا سولي
418	آكلو اللوتس الجزء الثاني (رواية)	تأليف: تاتيانا سولي
419	بستنة في المنطقة الاستوائية (ديوان شعر)	تأليف: أوليف سنيور
420	مختارات من القصة القصيرة الهندية الحديثة	تأليف: مجموعة من كتّاب شبه القارة الهندية
421	جمعية غيرنزي للأدب وفطيرة قشر البطاطا (رواية)	تأليف: ماري آن شيفر وآني باروز
422	كي يواجهوا الشمس المشرقة (رواية)	تأليف: جون ماكغرين
423	صوت مُنْفَرِد (رواية)	تأليف: سوزانا تامارو
424	●السيدة أَرنول - ●الجبل (روايتان)	تأليف: جان نويل بانكرازي
425	الأشياء تنادينا (قصص)	تأليف: خوان خوسيه ميّاس
426	ميخائيل زوشينكو (قصص مختارة)	تأليف: ميخائيل زوشينكو
427	مون تايجر (رواية)	تأليف: بينيلوبي لايفلي
428	غطاء دروبادي (رواية)	تأليف: آناندا ديڤي
429	موسم الظل (رواية)	تأليف: لينورا ميانو
430	قَبْلَ أَنْ نَزُورَ الإلهة (رواية)	تأليف: شيترا بانرجي ديڤاكاروني
431	الغزو (مجموعة قصصية)	تأليف: ريكاردو بيجليا
432	السكينة (رواية)	تأليف: أتيلا بارتيش
433	سيدة أورتوبي.. وقصص أخرى..	تأليف: بيّو باروخا
434	المسافرون الإنجليز الجزء الأول (رواية)	تأليف: ماثيو نيل
435	المسافرون الإنجليز الجزء الثاني (رواية)	تأليف: ماثيو نيل
436	قبل شروق الشمس	تأليف: ميخائيل زوشينكو

إبداعات عالمية

السر المكنون

«لا شيء هناك سوى المطر»، يغني غوين فارار، ويتخطف المفاتيح من يد بيلي مايرل، لا بد أنها ولدت في سليغو، غنت بنبرة حزينة: «أظن أننا قد ولدنا ومعطف المطر يلفنا».

الأمطار الغزيرة تتساقط على سليغو دوما، تتساقط على الشوارع والأزقة، تبعث الرعشة في المنازل، وتجعل الناس تحتشد مثل جمهور المتفرجين على مباراة كرة القدم، تنهمر الأمطار بشكلٍ خيالي وبكمياتٍ مهولة قد تكون بمقدار محتوى مئات الأنهار. ونهر غرافوج نفسه يتضخم حجمه، والبجعات الجميلات تنجرف على حين غفلة مع المياه أسفل الجسر وتظهر هناك في الجانب الآخر من النهر، مثل محاولات انتحار لم تنجح، تملأ الحيرة عيونها السوداء من جراء الصدمة، وجمالها الأخاذ يظل مسالما. كيف لهذه البجعات أن تكون متوحشة وهي في هذا الجمال المعروف. والأمطار تتساقط أيضا على الأرصفة خارج مقهى القاهرة، حيث سحبت معها السخانات والآلات، حدقت عبر النوافذ الضبابية بعيون محترقة.

يبدو الأمر هكذا. إذن من أنا؟ شخصٌ غريب، ومازال غريبا، يخبئني في نفسي، في عظامي وفي دمي. يختبئ في تجاعيد الجلد الذي يكسوني. أنا هي الفتاة التي كانت يوما ما.

بالأمس، بدأت أكتب عن مقهى القاهرة، ولكن داهمتني تلك المشاعر الرهيبة. كأن عظامي تتحول إلى مياه، مياهٍ باردة. كان يسميه الدكتور غرين شيئا وهو يتفقدنا. كان تأثير كلماته مثل لوحٍ يهوي على قمة زهرة جافة. رقدت في سريري طوال اليوم، أشعر أني عجوزٌ في الغابرين، متهالكة، مذعورة.

ISBN: 978-99906-0-677-5

رابط بيع الإصدارات على الموقع الإلكتروني
https://www.nccal.gov.kw/publications